

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

تصوير

احمد ياسين

@Ahmedyassin90

الحرب في عصر المخاطر

كريستوفر كوكر



الحرب في عصر المخاطر

Authorized translation from the English language edition: Christopher Coker, *War in an age of risk*
First published in 2009 by Polity Press.

This edition is published by arrangement
with Polity Press Ltd., Cambridge, UK.

محتوى الكتاب لا يعبر بالضرورة عن وجهة نظر المركز

الطبعة الأولى 2011

النسخة العادية ISBN 978-9948-14-457-1
النسخة الفاخرة ISBN 978-9948-14-458-8
النسخة الإلكترونية ISBN 978-9948-14-459-5

توجه جميع المراسلات إلى العنوان الآتي:
مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

ص. ب: 4567
أبوظبي ـ دولة الإمارات العربية المتحدة

هاتف: 4044541-9712+
فاكس: 4044542-9712+

E-mail: pubdis@ecssr.ae
Website: http://www.ecssr.ae



مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

دراسات مترجمة 47

الحرب في عصر المخاطر

تأليف: كريستوفر كوكر

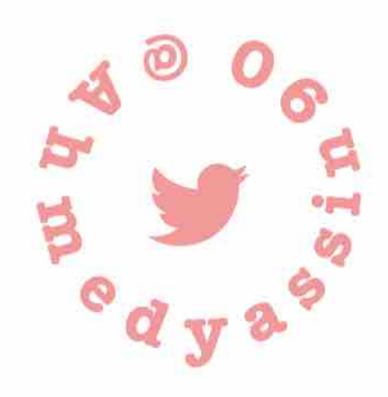
ترجمة: كرم أحمد عبد اللاه
تحرير: جلال الدين عز الدين
تدقيق لغوي: محمود عمر خيتي
تنفيذ فني: جهاد شريف نعيرات

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

أنشئ مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية في 14 آذار/ مارس 1994، بهدف إعداد البحوث والدراسات الأكاديمية للقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتعلقة بدولة الإمارات العربية المتحدة ومنطقة الخليج والعالم العربي. ويسعى المركز لتوفير الوسط الملائم لتبادل الآراء العلمية حول هذه الموضوعات؛ من خلال قيامه بنشر الكتب والبحوث وعقد المؤتمرات والندوات. كما يأمل مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية أن يسهم بشكل فعّال في دفع العملية التنموية في دولة الإمارات العربية المتحدة.

يعمل المركز في إطار ثلاثة مجالات هي مجال البحوث والدراسات، ومجال إعداد الكوادر البحثية وتدريبها، ومجال خدمة المجتمع؛ وذلك من أجل تحقيق أهدافه المتمثلة في تشجيع البحث العلمي النابع من تطلعات المجتمع واحتياجاته، وتنظيم الملتقيات الفكرية، ومتابعة التطورات العلمية ودراسة انعكاساتها، وإعداد الدراسات المستقبلية، وتبني البرامج التي تدعم تطوير الكوادر البحثية المواطنة، والاهتمام بجمع البيانات والمعلومات وتوثيقها وتخزينها وتحليلها بالطرق العلمية الحديثة، والتعاون مع أجهزة الدولة ومؤسساتها المختلفة في مجالات الدراسات والبحوث العلمية.

المحتويات


@Ahmedyassin90

مقدمة

قال توني بلير في بداية رئاسته للوزراء: «إن جيلي هو أول جيل يستطيع تأمل إمكانية أننا قد نعيش حياتنا كلها من دون خوض حرب أو إرسال أبنائنا إلى الحرب» (*Economist*, 12 May 2007). تحدَّث بلير بثقة رجل يعرف قليلاً عن التاريخ. على رغم أن التأكيدات القائلة بأننا نشهد نهاية عصر الحروب شائعة هذه الأيام، فإنه يمكن دحضها باعتبارها صدى أجوف لثقة كانطية* غير مناسبة للمستقبل. ذلك أن كثيراً من تلك التأكيدات تبدو، عندما يتم التدقيق فيها، مجرد دليل على الحاجة المتكررة لإيجاد شيء مختلف لقوله.

خاض بلير خمس حروب، وفي النهاية أُرغم على ترك منصبه بسبب حرب العراق. وهكذا أدرك بعد ذلك أننا لا نعيش في الحاضر فقط، فخلال حياتنا نعيد بصورة مستمرة إحياء الماضي أو إعادة التفاوض بشأنه. لقد أخفق في استيعاب قدرة الماضي على تلويث الحاضر. وتكمن مشكلته في أن لديه إحساساً بالقدَر، وليس بالتاريخ بكل تكراراته الدورية. فخلال مسيرة بلير التي استمرت عشر سنوات في السلطة، أثار التاريخ: التطهير العرقي في البلقان، والعداوات القبلية القديمة في أفغانستان، والكراهية الدينية المزمنة بين السنة والشيعة في العراق.

إضافة إلى ذلك، كانت الحروب التي خاضها بلير تعبيراً أصيلاً عن عصرنا. وكما يقول كلاوزفيتس Clausewitz، يتعين الحكم على كل عصر في ضوء خصائصه الفريدة، وملامحه المميزة، واهتماماته، بل حتى كوابيسه. في حالة الغرب، ليس صعباً اكتشاف فكرة

---

* نسبة إلى الفيلسوف البروسي إيمانويل كانط Immanuel Kant (1724 – 1804). (المترجم)

"روح العصر" 'zeitgeist' الهيغلية* التي تعني أن هناك روحاً مشتركة للعصور يمكن أن نشاهدها في كل شيء نفعله. تُترجَم كلمة 'geist' بشكل فضفاض على أنها "روح"، مع أنها قد تشير إلى العقل، وكذلك المناخ الفكري والثقافي لوجودنا. لقد اعتُقد في القرن التاسع عشر أن لكل عصر "روحاً"، وكانت هذه فكرة شاعرية، ولهذا السبب لاقت قبولاً. وهي لاتزال مقبولة لأنها تتيح لنا إطلاق تعميمات واسعة حول المراحل التاريخية، ومن ثم تحميلها بـ"المعنى". وقد يكون بعض من هذه التعميمات صحيحاً، ويكمن التحدي في التفريق بين ما أسماه الفيلسوف ألفريد نورث وايتهيد Alfred North Whitehead «المناخات العامة للرأي» التي قد تستمر مدة طويلة من الزمن، وبين «الموجات الأقصر من الفكر التي تطفو على سطح الأشياء» (Lewis 1993: 229).

سأدعو القارئ في هذه الدراسة إلى النظر في المناخ العام من خلال أعين المتخصصين في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا والاقتصاد وغيرهم ممن يعالجون موضوع المخاطر؛ الموضوع المهيمن على العصر. عندما بحثت عن كلمة "مخاطر" 'risk' عبر محرك البحث غوغل في أيلول/ سبتمبر 2007، وجدت 347 مليون نتيجة. وعلى رغم أن النظرة السريعة في منشور المخاطر تعد تفتيتاً لكتلة الحياة إلى آلاف الأشكال، فإن النغمات المفتتة لهذه الدراسة تهدف إلى التماسك والتناغم في شكل أطروحة بحثية. وقد اخترت مجموعة منتقاة من المؤلفين الذين سأقتبس منهم من أجل توضيح فرضيتي الرئيسية، وهي أن الحرب قد أصبحت إدارة مخاطر في كل شيء باستثناء الاسم، وأن عصر المخاطر ذاته لا يشكل "موجة فكر أقصر" بل حقبة بأكملها.

لقد استقيتُ من أولريش بك Ulrich Beck فكرة المخاطر باعتبارها واقعاً مسيطراً في عصرنا، وصغتها بشكل محدد من حيث اعتبار الحرب إدارة مخاطر. واستعرتُ من عالم اجتماع آخر، هو فرانك فيوردي Frank Furedi، مفهوم أننا نعيش في ثقافة الخوف التي أرّخَت للحرب على الإرهاب بشكل مبكر. ومن سيغمونت باومان Zygmunt Bauman

* نسبة إلى الفيلسوف الألماني جورج فيلهلم فريدريش هيغل Georg Wilhelm Friedrich Hegel (1770 – 1831). (المترجم)

استلهمت فكرة أن عالمنا قد تم تـسييله، وأصـبح أكثـر هـشاشة. وفي كـل حالـة، سـعيت لتأسيس الطريقة التـي يفكـر بهـا الغـرب في شـأن الحـرب عـلى مـا يـسميه كلاوزفيـتس «القواعد» 'grammar' الثقافية.

يرى كلاوزفيتس أن كل عصر يخوض الحروب بأساليبه الخاصة، وهذا ما يفسر لنـا أن لكل زمن من أزمنة الحرب سـماته المميـزة لـه. وهـذا هـو مـا يرمـي إليـه بكلمـة «قواعـد» 'grammar'، مع أنها ليست الكلمة التي تخطر بسهولة عـلى الـذهن عنـدما ننظـر لأنفـسنا. فعندما تتحدث لغتك تكون القواعد عادةً هي آخـر شيء تتعلمـه، أمـا عنـدما تـدرس لغـة أجنبية، فعادة ما تكـون هـي أول شيء. ذلـك أن دور قواعـد اللغـة هـو جعـل المـرء واعيـاً بالطرائق التي تربط بها اللغة ما بين المعنى والوظيفة. والقواعد صعبة لمن يعرفون بالفعل لغـة ما، لأن المعنى والوظيفة ينصهران معاً ويبدوان غير مرئيين. ولهذا السبب عادة لا نعـرف إلا قليلاً عن أنفسنا، وهذا ما جعلني أختار استخدام أعمال علماء الاجتماع في هـذه الدراسـة؛ في مسعى لإلقاء الضوء على الأسباب التي تجعلنا نخوض الحرب بالطريقة التي نقوم بها الآن.

وظيفة المقدمة استهلالية من خلال تعريفها، والمساحة تسمح لي بعرض نقطة أخرى لأجل التوضيح. على رغم أن كلمة "قواعد" مهمة جداً، فهناك كلمة أخرى بالأهمية ذاتها لم يستخدمها كلاوزفيتس، وهي كلمة "لغة". ذلك أن استخدامها يوافـق المـزاج العـام في التاريخ الفكري. نتحدث اليوم عـن "اللغـات" التـي تتحـدثها مجتمعـات مختلفـة، وعـن "المفردات" التي تشكل فهم كل حقبة مـن تـاريخ العـالم، وكيفيـة عملهـا. وفي هـذا أكـد فيتجنشتاين Wittgenstein: «حدود لغتـي هـي حـدود عـالمي». ويمكننـا الحـديث عـن "ذهنيات" العصور المختلفة، شريطة أن ندرك أن المعنى ليس نفسياً.

يتحـدى لويـد G. E. Lloyd في كتابـه **فـك طلاسـم الـذهنيات** *Demystifying Mentalities* كل النظريات التـي تـرى أن الثقافـات المختلفـة لهـا أسـاليب مميـزة لتعقـل الأمور، مثل اعتقاد فيفيان ليفي – برول Vivian Levy-Bruhl في "الذهنية البدائيـة"، أو فكـرة جـيمس فريـزر James Frazer عـن الـذهنيات: المـشعوذة، والدينيـة، والعلميـة،

باعتبارها مراحل تاريخية يجب على الحضارات العليا الثلاث أن تمر بها لكي تحقق إمكاناتها الكاملة. وفي مناقشة لويد للفوارق البارزة بين الثقافـات، وحتـى بـين الحقـب التاريخيـة، ينصبُّ جُل اهتمامه على اكتشاف الأسئلة التي كان الناس يسعون للإجابـة عنهـا، وتحديـد المشكلات المختلفة التي كانوا يحاولون حلها. ويرى لويد أن العصور التاريخيـة تختلـف في أساليب التساؤل، فالأسئلة التي نسألها تحدد عصرنا (Lloyd 1990). وعليه، فلكل عصر "لغته" الخاصة، وذهنيته الخاصة، وذلك ما يعطي الحرب "قواعدها" المميزة لها.

بطبيعة الحال، يسأل كل مجتمع: «إلى أي حد يُعد الأمان كافيـاً؟». إننـا نحـن البـشر مبرمَجون على تجنب المخاطر، ولاسيما تلك التي تـشكل "خطـراً واضـحاً ومحيقـاً"، لكننـا مبرمَجون أيضاً على تقبلها. وعلى حين يفسر لنا علم الأحياء الأمر الأول، فإن الثقافة تفـسر لنا الأمر الثاني. وما يجعل عصرنا فريداً هو أن تفادي المخاطر أصبح الآن راسخاً في الوعي الجماعي حتى إننا نميل لاستبعاد تقبل المخاطر واعتباره أمراً شـاذاً أو مَرَضـياً (Douglas 1992:41). وما يجعل عصرنا مختلفاً، مرة أخرى، هو أنه لـيس ثمـة علاقـة ضروريـة بـين مفاهيمنا عن المخـاطر والمخـاطر "الحقيقيـة" أو المخـاطر "الموضـوعية" القائمـة. ونظـراً للأسئلة التي نثيرها، فإن خوض الحرب قد أصبح أكثر تحدياً للحكومـات أو المجتمعـات التي لاتزال راغبة في البقاء في مجال الحرب.

أشار دونالد رامسفيلد، وزيـر الـدفاع الأمريكـي الـسابق، إلى أن «التحـدي الـذي يواجهنا في هذا القرن الجديد تحدٍّ صعب، إنه يتمثل في الدفاع عن أمتنا ضد المجهول، غـير المؤكد وغير المنظور وغير المتوقع». لقد أصبحت هذه اللغة علامة بارزة في عصر المخاطر. يضيف رامسفيلد: «يتعين علينا التخلي عن طرائق التفكير والتخطيط المريحة [يجب علينـا] أن نُقْدم على المخاطر ونجـرب أشـياء جديـدة» (Devji 2007:157). إن الحـرب تتطـور بشكل يواكب هذا التحدي، وتتم إعادة معايرة الإقدام على المخاطر على أدق نحـو ممكـن. "قواعد" الحرب اليوم تختلف عن تلك التي عهدناها خـلال الحـرب البـاردة. أمـا لمـاذا؟ وكيف؟ فهذا هو موضوع كتابنا هذا.

بداية، أنا لست أول رائد للكتابة في هذا الحقل المعرفي. ومع ذلك فعلماء الاجتماع، باستثناء قليل منهم، ليسوا مهتمين بالحرب. وعلى رغم أن مجتمع الأمن يهتم بعلم الاجتماع العسكري فإنه لا يتعمق فيه. ومع ذلك، فقد كتب ثلاثة من طلابي السابقين ثلاثة كتب ممتازة عن الحرب، تجسد المنح الدراسية لكتّاب مثل: أنتوني جيدنز Anthony Giddens، وأولريش بك، وذلك على النحو الآتي: يي كوانغ هِنغ Yee Kwang Heng، **الحرب بوصفها إدارة مخاطر** *War as Risk Management* (2006)، وميكل راسموسن Mikkel Rasmussen، **مجتمع المخاطر في الحرب** *The Risk Society at War* (2007)، ومايكل وليامز Michael Williams، **الناتو والمخاطر وإدارة الأمن من كوسوفو إلى قندهار** *NATO, Risk and Security Management from Kosovo to Kandahar* (2008). ومن ثم فإن هذا الكتاب يدين بكثير من الفضل لعمل هؤلاء، لكنه لا يسعى لتكرار ما كتبوه، فهو يقدم رؤية مختلفة بالنظر إلى عصر المخاطر ذاته بوصفه استجابة للتعقيد المتنامي للحياة.

في الفصل الأول سأشرح ثلاث دراسات حالة لمجتمع المخاطر في الحرب، وفي الثاني سأحاول إبراز عصر المخاطر بتسليط الضوء على الحقبة التي سبقته، عندما بدا أن الحرب هي أحد شروط الحياة الحديثة. فكل عصر يفسح المجال للآخر ببطء، ودائماً يحدد المؤرخون اتجاهات تؤشر إلى العصور المقبلة. وسوف أتتبع [مؤشرات ظهور] عصر المخاطر، بالرجوع إلى المخاوف الشديدة التي شهدها القرن العشرون من مخاطر الذهاب إلى الحرب التي بدأت في تحويل القرن بطرائق غير متوقعة، قبل أن يبدأ الأكاديميون الكتابة حول مجتمع المخاطر بوقت طويل. إن الأمور غير المتوقعة في التاريخ دائماً في الانتظار. وكما قال الروائي فيليب روث Philip Roth، إن السبب الرئيسي لدراستنا للتاريخ هو اكتشاف كيف يصبح غير المتوقَّع حتمياً.

في الفصل الثالث، سأُفصِّل الملامح الرئيسية لعصر المخاطر التي شجعتنا على إعادة صياغة مفهوم الأمن بطرائق جديدة تماماً، ورؤية الحرب تمريناً على إدارة المخاطر. وفي الفصل الرابع، سأشرح كيف أننا عندما نذهب إلى الحرب، أو نستخدم القوة العسكرية

لمقاصد سياسية خاصة، نكون على وعي تام بأن لكل شيء آثاراً جانبية، وعلى دراية بأن عواقب أفعالنا يمكن أن ترتد علينا، ومدركين أننا بأفعالنا ربما نشكل أكبر تهديد لأنفسنا. إن عصرنا هو عصر إدارة العواقب، وهذا ينطبق بشكل خاص في حالة الحرب.

في الفصل الخامس سأتناول الخيال الجيوسياسي (الجيوبوليتيك)* الجديد الذي يتبنى المخاطر مبدأً حاسماً في التعامل مع ثلاثة تحديات رئيسية: الإرهاب، وصعود الصين، والجوانب السلبية للعولمة. إن استراتيجيات إدارة المخاطر تختلف من حالة إلى أخرى. وعصرنا ليس عصراً طموحاً، بل هو على العكس من ذلك تماماً، فنحن لم نعد في مجال بناء الدولة، بل قلصنا طموحنا الاستراتيجي، وباتت تدخلاتنا العسكرية مدفوعة إلى حد كبير بالنواحي التكتيكية، كما سأوضح ذلك بالإشارة إلى اللغة التي نوظفها الآن عندما نتعامل مع مثل هذه المشكلات المستعصية، مثل أفغانستان؛ إذ نميل إلى النظر إلى الدول بمنظور ضيق على أنها حكومات، وليست "أنظمة تكيّفية مُعقدة"، ونرى المشكلات التي نحاول أن نعالجها مشكلات "مستعصية" وليست "قابلة للحل".

أما الفصل الأخير فيوضح أن عصر المخاطر ذاته ما هو إلا أحدث مرحلة من الحداثة، وأن التاريخ سوف يمضي قدماً عاجلاً أو آجلاً. وفي قلب المفارقة التي تشكل عصر المخاطر تكمن حقيقة أن المجتمعات الأخرى مستعدة لتقبل مخاطر كبيرة جداً. إن ميلهم إلى الإقدام على المخاطر هو الذي قد يرغمنا على مواجهة ميلنا إلى تفادي المخاطر، والتغلب على هذا الميل.

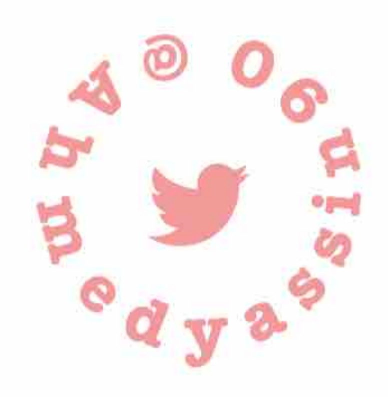
ينزع بعض نقاد مجتمع المخاطر إلى رؤية "القبول الشائع للمخاطر" على أنه أمر خانق (Aradau et al. 2008:151). وأنا أرى هذا كلاماً أجوف. هناك قطعة رائعة في رواية جيمس بلين James Blinn **آردفارك مستعد للحرب** *Aardvark is Ready for*

* نسبة إلى علم الجيوبوليتيكا Geoplitics الذي يعنى بدراسة تأثير العوامل الجغرافية في السياسة، وبخاصة السياسة الدولية، وقد ارتبط بالتنافس الاستعماري ومحاولة كل قوة استعمارية مد سيطرتها أو بسط نفوذها خارج حدودها على ما تعده "مجالاً حيوياً" لها، أو لغيرها لحرمانها من استخدامه ضدها. (المحرر)

War خطرت ببالي عندما أوشكت على الانتهاء من هذا الكتاب: «ما الذي أخاف منـه؟»، هكذا يتساءل أحد شخوص الرواية (1990-1991) التي تمثل بالنسبة لحرب الخليج ما مثلته رواية **كاتش 22** *Catch 22* لجوزيف هلر Joseph Heller بالنسبة للحرب العالمية الثانية، ويجيب:

> أنا خائف من كل شي. أتظن أن الحرب تخيفني؟ نعم، وكذلك الشتاء النووي، وتداعيات تشيرنوبل، ومرض ليجيونير، والنحل القاتل... والمواد النووية الخام، واستخراج الفحم، وتلاشي الغابات، والإيدز... وتزايد معدلات الفائدة وتناقصها، ونمو سكان العالم الثالث... والتسمم من الطعام الفاسد، وبكتريا إي.كولاي، والفيروسات الأمازونية المجهولة، والطبقة النفطية التي تطفو على قهوتي. أخاف من جهلي، ومن الأشياء التي لا يمكنني رؤيتها. لكن أكثر شيء يخيفني هو الخوف. إنني أشكو الخوف من الخوف. (Blinn 1997:127)

إن بطل رواية بلين هو نتاج عصر المخاطر. ولذا، يمكنني القول مستعيراً مصطلحات شبه هيغلية: إن التهديد الخارجي الرئيسي الذي يكافحه مجتمع المخاطر هو جوهره اللازم له.


@Ahmedyassin90

الفصل الأول

مجتمع المخاطر في الحرب

لعل أصعب لحظة تواجه مؤلفاً يراقب حقبة زمنية ويحاول تحديد ما يميزها تكون في البداية، ذلك أن التنوع غير المحدود للحياة يتحرك في تدفق متواصل، وكل شي يريد المرء توضيحه يجب أن يشير إلى أشياء حدثت قبله. فكيف يمكن للمرء أن يبدأ؟ كيف يمكن أن تُقحِم سيارة في موكب السير الذي لا يتوقف؟ لعل إحدى السبل لذلك هي اختيار قاعدة مناسبة والنظر منها إلى الطريق، وفي حالة هذه الدراسة، استُخدِمت القوة العسكرية منذ عام 1990.

للقيام بهذا سأتحرك جغرافياً حول "قوس التطرف" التي وصفتها دورية **كوادرينيال ديفينس ريفيو** *Quadrennial Defense Review* في عددها الصادر عام 2001، بأنها المنطقة التي تمتد من الشرق الأوسط إلى شمال شرق آسيا. وفي هذا قال الجنرال المتقاعد أنتوني زيني: إن هذه المنطقة أرض خصبة لعدم الاستقرار، وللجماعات المتمردة، ولأمراء الحرب؛ إنها «بيئة خصبة مواتية للتطرف والشبكات الإرهابية» (Osinga 2007:52). كان زيني قائداً إقليمياً في التسعينيات، وكان يتعين عليه أن يكون مُلماً بما يتحدث عنه، لأن مؤشرات الحرب على الإرهاب قد ظهرت قبل ذلك بكثير في حرب الخليج الأولى (1990-1991). وقد ألقى المستشارون المقربون من الرئيس بوش باللوم على الطبيعة غير الحاسمة للصراع باعتبارها السبب فيما حدث في الحادي عشر من سبتمبر 2001 في نيويورك، فقد كان الهجوم على مركز التجارة العالمي هو الذي عجّل بغزو العراق عام 2003، ثم الحرب التي لاتزال تدور رحاها حتى الآن ضد حركة طالبان في أفغانستان.

فيما هو آت سألخص منظوراً طويلاً في إطار زمني قصير، بغية البحث في كل حدث بدوره. ولعل ما يظهره كل حدث هو وجود وعي مختلف؛ إدراك بأن الحرب قد تغيرت بطريقة تضفي على العصر أسلوبه المميز.

دراسة الحالة رقم (1): حرب الخليج ومساوئها

في عام 2003 قام الصحفي والكاتب أورورك P. J. O'Rourke بزيارة جزيرة أيو جيما بصحبة مجموعة رفيعة المستوى من ضباط قوات مشاة البحرية (المارينز). وعقب هذه الزيارة كتب مقالة بعنوان «أيو جيما ونهاية الحرب الحديثة» "Iwo Jima and the End of Modern War". في هذه الجزيرة التي وصفها المؤرخ وليام مانشستر William Manchester في مذكراته عن حرب المحيط الهادي بأنها «كتلة قبيحة ونتنة من الحمم الباردة الجاثمة على محيط مكفهر»، فيها فقد الأمريكيون ستة آلاف جندي في حرب استمرت ستة وثلاثين يوماً، قُتل منهم ألفان وأربعمئة جندي في أول يوم فقط. ومن بين 353 ميدالية منحها الكونغرس لتكريم الأبطال خلال الحرب العالمية الثانية، مُنحت 27 ميدالية للبطولة في جزيرة أيو جيما، منها 13 ميدالية عقب الوفاة. وبعد رفع العلم على جبل سوريباتشي، قال جيمس فورستال، وزير البحرية الذي كان حاضراً حينها: «هذا يؤكد أهمية وجود المارينز لنحو 500 عام مقبلة» (O'Rourke 2005:189). وقد تم عقب ذلك تجسيد صورة العلم المرفرف في لوحة برونزية في النصب التذكاري لقوات المارينز في واشنطن العاصمة.

بالنسبة إلى أورورك وشباب المارينز الذين رافقوه في رحلته القصيرة لأرض المعركة، بدت المعركة، على رغم أنها كانت بطولية، وكأنها حدثت من 500 عام. ذلك أن ما طُلب من القوات الأمريكية في أيو جيما لم يبق مطلوباً منهم اليوم. فهم لا يواجهون مجموعات عسكرية بالآلاف في هجمات مستميتة. فاليوم لا يُزَج بستة وتسعين ألف جندي في بقعة صغيرة على الخريطة. وباتت العسكرية الأمريكية تعتمد بقدر أكبر على المعدات ونظُم الاتصالات، وبقدر أقل على الأفراد. ذكّرت أيو جيما أورورك بالمذبحة الصادمة للحرب

في العصر الحديث. وقد عدّ المعركة مهمة بسبب «قبحها، وعدم جدواها، وبُعدها عن جميع الأشياء ذات الصلة بحقبة ما بعد الحداثـة» (O'Rourke 2004:187). وحينـما اسـتعدّت الولايات المتحدة لغزو العراق، بدت أيو جيما في ذلك الصيف بعيدة كل البعـد عـما آلـت إليه الحرب المعاصرة، أو ما ستؤول إليه.

الأمر ذاته ينطبق بقدر أكبر على حرب الخليج التي تُعد عند التأمـل فيهـا أول صراع لعصر المخاطر. ذلك أن غـزو الكويـت الـذي تـسبب في نـشوبها كـان متوقعـاً؛ حتـى إن العسكرية الأمريكية كانت قد تدربت عليه في العام الذي سبق. إن عـصر المخـاطر يعطـي أولوية للتنبؤ بالأحداث، وقد أصبح إعداد السيناريوهات قاعدة معروفة، على رغم أنـه لم يُتقَن إلا في السنوات الأخيرة للحرب الباردة. العصر الحـالي يخـشى الأمـر غـير المتوقـع، والسيناريو هو أداة لتنظيم إدراك الإنسان عن البيئات المستقبلية البديلة التـي ربـما تـساهم فيها قرارات اليوم. وتنطوي السيناريوهات على مجموعة من القصص التي تبنى على خطط معدة بعناية. وبطريقة أكثر بساطة، فإن السيناريوهات هي طريقـة للتمـرن عـلى المـستقبل (Strathern 2007:243).

المشكلة في هذه الطريقة ليست في أنها تخفق في التنبؤ بالأحداث (فالولايات المتحـدة قد تنبأت بغزو الكويت، كما أنها تنبأت فـيما بعـد بهجـمات الحـادي عـشر مـن سـبتمبر)؛ المشكلة بشرية، وهي الإخفاق في اتخاذ إجراءات وتـدابير بنـاء عليهـا. إن المنطـق القـاسي للمخاطر هو أن دفع تكلفة التعامل مع ما يعقب الكارثة (إذا تـم تحديـدها) أرخـص مـن الاسـتعداد للحـدث ذاتـه في مـسارح مختلفـة، وهنـاك فـرق كبـير بـين توقـع حـدث مـا والاستعداد له. لقد كان بإمكان الولايات المتحدة أن تردع صدّاماً عن غزو الكويت، لكن الردع كان باهظاً، وما حدث هو أن الولايات المتحدة أُخِذت بهجوم صدام على الكويت.

إن تكلفة حرب الخليج (1990-1991) التي أعقبت ذلك لم تكن رخيصة، على رغم أنها الحرب الأولى التي أصدرت فيهـا الولايـات المتحـدة فـاتورة: فقـد سـاهمت المملكـة

العربية السعودية واليابان وألمانيا في تكلفة الحملة. وعندما وقعت الحرب أدهشت العـالم. فعلى حين استغرقت الحرب الجوية ستة أسابيع لم تستغرق الحرب البرية إلا مئة ساعة فقط. وقد وُصفت في ذلك الوقت بأنها أول حرب بهذه الدقة العالية في التـاريخ، بـسبب الدقـة غير المسبوقة في القصف، واستخدامها عنصر المفاجأة الاستراتيجية الـذي جعلهـا مختلفـة بشكل واضح عن كل شيء نعرفه عن المعارك الحديثة مثل أيو جيما. استخدمت لأول مـرة طائرات F117A (القاذفة الهجومية الـشبح) التـي وصـفت بـنجم المعـارك الجويـة لـشن هجمات مكثفة على المواقع المحصنة، مثل مواقع القيادة والسيطرة، ونظم الـرادار الخاصـة بالدفاع الجوي، ومنشآت الإنتاج العسكري، وبلغ عدد الطلعات الجوية نحو 1300 طلعة، وأسقط نحو 2000 قنبلة. ومن بين هذه القنابل سقط أكثر من الثلثين في نطاق عشر أقـدام من نقطة الهدف. وفي ضوء القوة التدميرية للقنابل التي يـصل وزنهـا إلى 2000 رطـل مـن المرجح أن تكون 80٪ من هذه القنابل قد أصابت أهدافها المحـددة. وهـذا المـستوى مـن الدقة الذي لم نشهده من قبل جعل الحرب أكثر قتلاً لكنها أقل دماراً أيضاً. وعلى رغـم أن التدمير من الجو أصبح الآن يتمتع بدقة عالية، فإنـه مـدمر تمامـاً في هـذا المجـال المحـدد. وكانت طائرات الساعة، مـن طـراز F117A، تتمتـع بقـدرة رائعـة عـلى تفـادي المخـاطر للطيارين الذين يقودونها، فخلال "عاصفة الـصحراء" لم يُفقَـد أي مـنهم بـسبب النـيران المعادية (Nye/Smith 1992: 252-3).

لكن على رغم كل هذا الـزخم في "عاصـفة الـصحراء"، والإيفـاء بـشروط الأمـم المتحدة التي أُطلقت بموجبها، فقد جاءت نتيجتهـا غـير حاسـمة. فـصدّام نفـسه ظـل في السلطة اثنتي عشرة سنة تالية. وفي مؤتمر صحفي عقد بعد يومين من إعلان وقف إطـلاق النار، أعرب الرئيس جورج بوش عن أنه لم يستطع مـشاركة الـشعب الأمريكـي مـشاعر النشوة ذاتها. فما بقي صدّام في السلطة فلـن يـستطع بـوش أن يُقـدم للأمـريكيين النهايـة الحاسمة التي حصل عليها جيله هو بعد استسلام اليابان (تمتع بوش نفـسه بـسجل مهنـي متميز بصفته طياراً في الحرب في المحيط الهادي، حيث نفذ 58 مهمة جوية قتالية، وحـصل

على ميدالية التميز في الخدمة الجوية). في هذا الإطار، قال الرئيس بوش لأحد الـصحفيين: «لقد أشرت إلى الحرب العالمية الثانية. كانت هناك نهاية محددة لهذا الصراع. والآن لايـزال لدينا صدّام حسين في العراق؛ الرجل الـذي عـاث فـساداً في الـدول المجـاورة» (Bully 2007:79).

إن بقاء صدّام في الحكم ألزم دول التحالف بفرض حصار طويل، كانت تعـرف أنـه سيأتي يوم لكسره، فالانتصار في الحروب يميل إلى الاستمرار فحـسب مـا ظـل التحـالف الذي يغذيه متماسكاً. خذ على سبيل المثال انهيار التحالف ضد روسيا الذي فرض شروطاً عليها عام 1856، فعندما خرجت فرنسا من المعادلة عقب هزيمتها في الحـرب الفرنـسية-البروسية (1870-1871)، استطاعت روسيا أن تخـرق شروط معاهـدة بـاريس وتـستعيد حالة الوضع الراهن الذي كان سائداً من قبل. وبشكل مشابه، سرعان ما تفكك التحالف الذي هزم صدام حسين، تاركـاً بريطانيـا والولايـات المتحـدة وحـدهما بعـد عـام 1995، لتواجهاه من خلال التهديد العلني بعمل عسكري، واستخدام القوة من حين إلى آخر.

لقد كانت هناك حاجة إلى مواصلة الأعمال العسكرية عـلى مـدار الـسنوات الاثنتـي عشرة التالية، لأن مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحـدة كـانوا يعـانون لإنهـاء برنـامج صدّام النووي حتى طُردوا عام 1998. ودفع هذا بدوره للقيام بعملية "ثعلب الـصحراء" (1998)، وهي قصف بغداد على نحو متواصل طوال ثلاثة أيام بصواريخ كـروز، مـا أدى إلى تدمير ما تبقى من البرنامج، على رغم أنه لم تتم معرفة ذلك إلا بعد سنوات لاحقة. وقد استمرت الحرب على الأرض بشكل مخفف في الشمال في المناطق الكردية؛ حيث حـصدت الحرب الأهلية نحو 3000 شخص.

كان استخدام القوة الجوية هو الخيار المحبذ لـدى الغـرب في المرحلـة التـي أعقبـت تحرير الكويت. وعقب انتهاء الهجمات أبقى التحالف فرض الحظر الجوي على منطقتين في العراق، إحداهما شمال دائرة العرض 36 في الشمال، والأخرى أدنى دائـرة العـرض 33 في

الجنوب. وقد تم فرض الحظر الجوي في المنطقتين لضمان حماية الأكراد وعرب الأهوار بعد إخفاق الانتفاضات التي قاموا بها لإسقاط نظام صدام حسين. تم فرض مناطق الحظر الجوي تلك من قبل مجلس الأمن في 5 نيسان/ إبريل؛ إذ ارتأى أن القمع العراقي لهذه الأقليات «يشكل تهديداً للأمن الدولي».

وبمرور الوقت أصبحت الطلعات الجوية (نحو 200 ألف طلعة جوية إجمالاً) أداة أقل فاعلية في حماية هؤلاء الذين يتعرضون للمخاطر على الأرض، لكنها ظلت وسيلة لتقييد حرية القائد العراقي بإبقاء النظام تحت المراقبة المتواصلة. وقد أُطلق على المهمة اسم مناسب وهو "عملية المراقبة الشمالية". وعندما أمر الرئيس جورج بوش الابن بأول طلعة جوية خلال مدة ولايته في شباط/ فبراير 2001، وصف الطلعة بأنها إجراء نمطي (*Washington Post*, 27 February 2001).

في مؤتمر صحفي آخر عُقد عام 1991، بعد أيام قلائل من الوقف الرسمي للغارات، أعلن بوش بشكل عابر أن العقوبات التي فُرضت في المدة التي سبقت "عاصفة الصحراء" سوف تستمر حتى إزاحة النظام من السلطة. ومع ذلك، فقد تم تخفيف العقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة بشكل تدريجي لأسباب إنسانية (النفط مقابل الغذاء/ الدواء). كما أفسدها الفساد الضخم داخل الأمم المتحدة ذاتها. لقد ظلت تلحق ضرراً جسيماً بالمواطنين العراقيين العاديين، وتدمر الطبقة الوسطى، وتقلص اقتصاد الدولة إلى حالة شبه اقتصاد أسود. وفي غضون سنوات قليلة تحولت البصرة من مدينة ثرية إلى أحياء فقيرة. وبحلول وقت غزو العراق عام 2003، كان العراق أكثر فقراً وأهله أكثر يأساً وعزلة، ونظامه أكثر تخندقاً. وقد كانت العزلة عن الغرب فيروساً قتل ببطء الدولة قبل أن توشك قوات التحالف، من دون قصد بطبيعة الحال، أن تأتي على ما تبقى منها.

وقد سجلت حالة الإحباط تلك بعض أفلام هوليود خلال عقد التسعينيات. من تلك المشاهد على سبيل المثال، مشهد في فيلم **طائرة الرئاسة** *Air Force One* (1997)،

للمخرج ولفجانج بيترسن، الذي يصور طائرة الرئيس جيمس مارشال، الذي قام بدوره الممثل هاريسن فورد، وهي تتعرض للاختطاف على أيدي إرهابيين كازاخستانيين في حين أنه يتلقى إفادة بشأن اشتباه في حشد قوات عراقية. وفي فيلم آخر هو **يوم الاستقلال** *Independence Day* (1996)، يتم تعريف القائد الأعلى للقوات المسلحة، توماس وايتمور، الذي يؤدي دوره الممثل بيل بولمان، مراراً بأنه خدم بصفة طيار مقاتل في حرب الخليج. وقد وصلت الإشارات المتكررة للعراق في الفيلم إلى ذروتها في إيماءة بالموافقة تبادلها طيارون عراقيون وإسرائيليون، بينما كانوا يتأهبون لمغادرة قاعدة جوية صحراوية لشن هجوم نهائي ضد قوات أجنبية غازية.

إن التزام الولايات المتحدة «بمعاقبة الغزاة» قد حيّد عدوان واحدة من أكثر دول العالم خطراً. ومثلت عبارة «على الأقل لدى الولايات المتحدة رئيس ينجز المهمة» أحد الشعارات الأصلية للفيلم. وعلى رغم أن الأستوديوهات قد رفضته فيما بعد، فإنه التقط شعوراً منتشراً بالإحباط من أن "عاصفة الصحراء" كانت حرباً لم تُعلن، ولم تُخض حتى نهايتها، ولم يُنتصر فيها في الواقع. فالمهمة قد تركت من دون أن تكتمل (Handy 1997).

لتوضيح الأسباب الرئيسية التي جعلت حرب الخليج أول صراع في عصر المخاطر، سأنطلق (متحملاً بعض المخاطر الشخصية) من كتاب عالم الاجتماع جان بودريّار Jean Baudrillard، أحد الرموز الرائدة في عصر ما بعد الحداثة، وواضع نظرية الواقعية المفرطة hyperreal. إن كتاب **حرب الخليج لم تحدث** *La Guerre du Golfe n'a pas en lieu* هو محاكاة ساخرة لمسرحية جيرودو Giraudoux بعنوان **حرب طروادة لم تكن لتحدث** *La Guerre de Troie n'aura pas lieu*، وهو يتألف من ثلاثة مقالات، المقال الأول بعنوان «حرب الخليج لن تحدث» "The Gulf War will not take place" (نشرت النسخة الأصلية منه في صحيفة **ليبراسيون** *Libération* الفرنسية، ثم ترجم ونشر في صحيفة **الجارديان** *Guardian*)، والثاني «حرب الخليج لا تحدث فعلياً» "The Gulf War is not really taking place" (نُشر في صحيفة **ليبراسيون**) و«حرب الخليج لم تحدث» "The Gulf war did not take place" (كُتب للنشر في الكتاب فقط).

المشكلة في هذا العمل هو أنه عادة ما يكون غامضاً بشكل يثير الضيق. لقد أراد بودريّار أن يستفز قرّاءه، كدأب المفكرين الفرنسيين منذ منتصف القرن التاسع عشر؛ حيث كان كثير منهم مولعين بإبهار القراء. لقد كان بودريّار متصنعاً، ويشبه رفاقه مثل لاكان Lacan، وفوكو Foucault، وجوليا كريستيفا Julia Kristeva، وهو يبدو غامضاً مثلهم. لكن على رغم غموضه هذا فإنه يُعد ناقداً مستنيراً لعصرنا، ولاسيما فيما يتعلق بالطبيعة البنيوية للواقع. ربما يكون قد افتخر كثيراً بالطبيعة الهدامة لنقده، إلا أنه يتعين علينا أن نأخذ رغبته في الهدم بجدية. فالكتّاب هم في الأغلب أفضل المعلقين على عصورنا. ويبدو أن حرب الخليج قد أثارت حس الهدم لديه بما أنها بدت «هادمة لمعظم قواعد الحرب التي عدّها الغرب مسلّمات». وما أدهشه هو ما ينبغي أن يدهش كل عالم اجتماع من عصرنا واهتمامه المهووس بتجنب المخاطر: تجنب المخاطر هو بناء ثقافي بحاجة لتوضيح. تجنب المخاطر ينطوي على مخاطر أيضاً.

لا شك في أن أسلوبه الموجز وفنيته في كتابة مقالاته قد ضايقا كثيراً من رفاقه من علماء الاجتماع. فهو لم ينخرط قط في بحث ميداني، ولم يقدم سوى بيانات قليلة تدعم افتراضاته. وتشكل المقالات الثلاثة التي كتبها عن "عاصفة الصحراء" سلسلة من الزخارف المختصرة التي يربطها معاً تعليق مستطرد عن الواقعية المفرطة، ويتم توضيحها بلمسة عابرة من الفكاهة غير المتناغمة. وقد رفضها بعضهم عادّين إياها مجموعة من المتفرقات من دون موضوع رئيسي، ووصفها آخرون بأنها سلسلة من الغرور والخيلاء. لكن بودريّار كان مفكراً اجتماعياً جاداً. حقاً، لا يمكن فهم فلسفته وشهرته من دون الأزمات المستمرة التي تجعل عصرنا ينكبّ بصورة مكثفة على انتقاد الذات. وكما كتب في زمن الاستعداد للحرب: «ما الشيء المُعرّض للخطر... إنها الحرب ذاتها؛ مكانتها، ومعناها، ومستقبلها» (Baudrillard 1995:32).

إن النقد كله مشتق من الفرق فيما بين الظاهر والواقع. وهذا هو اكتشاف بشري محض. فالكائنات الأخرى تعيش في عالم الأمور الظاهرة، فهي تستغل الأشياء كما تبدو، ونادراً ما تقلق بشأن إن كانت الأشياء تظهر بالكيفية التي هي عليها بالفعل. لقد ابتكرنا

الثقافة، كما كتب دانيل دينيت Daniel Dennett، لكي نرتقي بأنفسنا إلى منطقة جديدة (Daniel Dennet 2003:165). وعلى مر الزمن، أُرغمنا على أن نزيد من نقدنا لأن الفجوة بين الظاهر والواقع اتسعت، ولأننا أدركنا أنه لا يمكننا أبداً أن نستوعب مرة واحدة التعقيد المتنامي للعالم. وفي عصر المخاطر، نحن مضطرون حتى إلى مزيد من النقد لظروفنا لأن تكلفة إساءة فهمها قد ارتفعت بشكل كبير.

ومع ذلك، فلكي يكون المجتمع مجتمع مخاطر، لا يقتصر الأمر على أن نسأل أنفسنا مزيداً من الأسئلة، أو نزعج أنفسنا بقدر أكبر بالشك، بل يتعين على مجتمع المخاطر أن يقبل التناقض شرطاً لوجوده. فانعدام الأمن، وليس الأمن، هو القاعدة الآن، ولكن على مستويات ربما نجدها مقبولة. وعلى رغم أنه لا يمكن تأمين المستقبل، فإنه يمكن جعله أكثر "أمناً". لايزال بإمكان الحرب إنتاج مزيد من النتائج المفضلة (إذا كنا محظوظين)، لكنها دائماً ما تكون سيفاً ذا حدين. وقد تتطابق نتائج أفعال هؤلاء الذين يريدون تعريض رخاء المجتمع الدولي للخطر وأولئك الذين يناط بهم حمايته (وإن كان السبب فيما يتعلق بالأخيرين هو الإخفاق في توقع العواقب غير المقصودة لأفعالهم). يقال إن كولن باول، رئيس هيئة الأركان الأمريكية المشتركة، في وقت عملية "عاصفة الصحراء"، قد وضع على مكتبه اقتباساً من ثوسيديدس:* «ضبط النفس هو أفضل أشكال القوة». في الواقع، لم يقل ثوسيديدس ذلك مطلقاً، ولكن القول المأثور يتمتع بصدى أكبر في عصرنا مقارنة بعصره؛ ذلك أنه لم يعد ممكناً أن نعزو المخاطر لأسباب خارجية، فنحن الآن نضفي عليها صفة شخصية بشكل لم يحدث من قبل. وهذا ما يجعل مجتمعاتنا منتقدة لذاتها بالطريقة التي وصلنا إليها.

إن النقد وانتقاد الذات يختلفان تماماً؛ فالثاني ينطوي على نوع من مواجهة الذات. والأمر ليس مسألة خوف من عواقب الحرب وحسب، بل هو الخوف من عواقب أفعالنا. لقد أصبحنا على وعي شديد بأننا قد نشكل أكبر خطر على أنفسنا.

---

* ثوسيديدس Thucydides (460 ق.م — 395 ق.م): مؤرخ إغريقي بارز، يعد أول من اهتم بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية للحروب. (المحرر)

على رغم أننا نقدنا الحروب في الماضي، من حيث عواقبها، وحتى من حيث تكلفة نجاحها (الانتصارات التي تقابلها خسائر هائلة أمر شائع جداً)، فعندما نذهب إلى الحرب اليوم ننخرط في عملية مواجهة مع الذات لم تحدث من قبل. «في وجود المخاطر تسود لوازم تجنبها» (Beck 1992:9). وبمجرد أن يصبح شيء ما "مشكلة في ذاته" تبرز قضية "التقييد الذاتي" (بمعنى تقييد الخيارات المتاحة) إلى المقدمة. ونفكر في مفاهيم تقليص الدمار، وإدارة العواقب، والسلامة، والمراقبة، والمسؤولية، حتى قبل أول طلقة. ونتحاور بشأن المسؤولية عن المخاطر التي نقابلها عند استهداف المجتمعات الأخرى، والمخاطر التي نطلب من الآخرين أن يتنبهوا عليها، حتى بعدما يتوقف القتال. وفي داخل التحالفات ننشغل بقوة بمن يتحمل المخاطر ومن يشارك فيها. وبطبيعة الحال، نسعى جميعاً بوعي وبشكل واضح لتجنب المخاطر.

يرى بودريار أنه لكي تصبح الحرب ممكنة بذاتها، اضطرت الولايات المتحدة إلى تصوير الحرب على أنها خالية من المخاطر نسبياً. وعليه، تم تشجيع الرأي العام ليراها «حرباً من دون أعراض الحرب، شكلاً من الحروب التي لا تتطلب أبداً منا أن نواجه حقيقة الحرب» (Baudrillard 1995: 43). ولتلطيف مخاوف الرأي العام، كان على إدارة بوش أن تطمئن الرأي العام إلى أن الحرب ستكون إلى حد بعيد خالية من المخاطر. وفي هذا الإطار، لم تكن "عاصفة الصحراء" «حرباً حساسة ودقيقة من الناحية التقانية» بقدر ما كانت "مفرطة في الواقعية". ذلك أنه لم يكن هناك شك إطلاقاً في النتيجة: لم يكن على الولايات المتحدة قط مواجهة احتمال الهزيمة. لم يكن هناك شيء حقيقي في الواقع؛ فالقوات الجوية العراقية فرَّت إلى إيران حيث تم احتجازها على الفور، وحتى الجيش العراقي لم يزعج نفسه بالتمسك جدياً بمدينة الكويت. وفي وقت قصير جداً برز تفوق التحالف بصورة أوضح مع قرب نهاية الحرب البرية، عندما تم قصف الجيش العراقي من الجو وهو يحاول الهروب من كارثة محققة على طول الطريق السريع في البصرة.

ولعل إحدى نقاط الترويج للحرب هي أن الحرب شكلت مخاطر قليلة جداً، فيما يتعلق بـ"الأضرار الجانبية". وفي هذا كتب بالارد G. J. Ballard في صحيفة **الجارديان**: «إن غياب المقاتلين، إضافة إلى القتلى والجرحى، عن شاشات تلفزيونات الأمة كل ليلة، قد أخمد أي ردود للشفقة أو الحنق، بل خلق انطباعاً بأن الحرب برمتها ما هي إلا «سباق دمار سريع» لن يُصاب فيه أحد بأذى، وربما كان متعة للمعنيين جميعاً ولاسيما الأمريكيون» (Ballard 1997:11).

الشيء الأهم بالنسبة لبالارد ولكثير من المراقبين الآخرين أن هذه هي أول حرب يتم بثها مباشرة على شاشات التلفزة، ليس لأن الولايات المتحدة قد سحقت العدو، بل لأن النتيجة كانت «مبرمجة قبلاً». فقد كُتب سيناريو الحرب قبل أن تقع، وكانت "الثورة في الشؤون العسكرية" جزءاً من النص. وكذلك تعبيرات من قبيل: "الحماية الشاملة الأبعاد"، و"الهيمنة الكاملة"، و"الاشتباك الدقيق". كانت هذه هي التعبيرات الأيديولوجية للحديث عن الحرب في التسعينيات. وكشفت عن دون قصد عن طموح المؤسسة العسكرية لتحقيق ما وعدت به نظرية "الثورة في الشؤون العسكرية"، بتعبير جنرال أمريكي: «الفرصة لمحو كلاوزفيتس». لقد كان ادعاءً جريئاً لأن كلاوزفيتس هو الرجل الذي أنتج عمله كثيراً من المبادئ التي اتخذها العسكريون مسلّمات، بما في ذلك إصراره على أنه في أي حرب لا يمكن إلغاء الفرصة والاحتكاك، ومعهما المخاطر التي ينطوي عليها أي صراع.

وبعد ذلك ادعى جون واردن John Warden أن «الوعي التام بساحة المعركة» قد مهد الطريق لـ«وعي تنبؤي بساحة المعركة». بل إن مسؤولاً حكومياً قد ذهب إلى أبعد من ذلك؛ إذ أشار إلى أن العسكرية الأمريكية يمكنها، في التخطيط للمستقبل، التخلي عن المنهج الاستقرائي التقليدي (أي التعلم من التاريخ والخبرة)، وتتبنى منهجاً استنتاجياً؛ إذ يمكنها الآن افتراض الشكل الذي سيكون عليه المستقبل من دون الرجوع إلى الماضي. (Buley 2007:87)

إن الكلمات التي نستخدمها تكشف عن كثير، وقد فعلت ذلك المصطلحات المصاحبة لنظرية "الثورة في الشؤون العسكرية" مثل: "التحول" و"الدقة" و"الرقمنة". إن جميع هذه المصطلحات قد قللت من قيمة المقاتل المحنك، وعززت من أهمية السيطرة، في زمن تفاخرت فيه العسكرية الأمريكية بما تتمتع به من "هيمنة شاملة". لقد سعى البنتاغون للوصول إلى ما يصفه أحد الشخوص في رواية **كوزموبوليس** *Cosmopolis* للكاتب دون دوليلو Don DeLillo، بأنه «صفرية العالم، الضرورة الرقمية التي تَعِد بنظام على مستوى أعمق» في الفوضى العامة للحياة، من خلال القدرة الاستثنائية للحاسوب على حساب المستقبل. «إن قوة الحاسوب تزيل الشك. فالشك جميعه يتأتى من الخبرة الماضية. لكن الماضي يختفي. لقد تعودنا معرفة الماضي لا المستقبل. وهذا الأمر بدأ يتغير أيضاً» (Updike 2007:487).

في السنوات الأخيرة فقط اكتشفت الولايات المتحدة أن "الثورة في الشؤون العسكرية" ما هي إلا أحدث بند في قائمة رغبات طويلة من الأدوية التقانية العلمية الشافية من جميع الأمراض التي تم الترويج لها على أنها فوائد من دون تكلفة، وتشمل القائمة أيضاً "الذرَّة السلمية"، وبرنامج الفضاء، واليوجينيا* الحديثة (الشبح الذي يطارد الهندسة الوراثية).

ومع ذلك كله، لم تكن "عاصفة الصحراء" حرباً من دون خسائر، فليس من حرب هي كذلك، حتى وإن كانت المحصلة النهائية للخسائر لاتزال قيد النقاش. وقد أقر بودريار نفسه بذلك بعد توقف القتال، وكتب مشيراً إلى الإحراق غير المبرر للآبار النفطية في الكويت على يد العراقيين وهم في طريقهم للانسحاب من البلد: «الحرب النظيفة تنتهي ببقعة تسرب نفطي» (Baudrillard 1995:43). لقد كان عملاً شنيعاً لوّث المنطقة، وقدّم واحدة من الصور الأيقونية للصراع. في الأيام التي تلت ذلك، بثت قنوات التلفزة العالمية

* اليوجينيا eugenics: علم تحسين السلالات، حظي بشعبية كبيرة في بداية القرن العشرين، ثم اكتسب سمعة سيئة بسبب تطبيقات النازيين له لتصفية "الفئات غير المرغوبة"، وتجاربهم على البشر التي تم تجريمها بعد الحرب العالمية الثانية. (المحرر)

صورة لغراب البحر ملطخاً بالنفط، وكأنها علامة تجارية مسجلة للحرب، ورمز لعجزنا عندما نواجه حدثاً لا يمكننا فهمه (Adair 1992:155). إن إحراق الآبار النفطية عزّز المخاوف المعاصرة بشأن الحرب، وأظهر بجلاء أن العواقب في هذه الأيام تمتد لأبعد من المجال الاجتماعي، ويمكن أن يكون لها أثر مدمر للبيئة.

وهكذا جاءت ملاحظة بودريار النهائية. كلما كنا أقل التزاماً بنتيجة حاسمة (انتصار) نظراً للمخاطر التي ينطوي عليها تحقيقها (في هذه الحالة إسقاط صدام حسين) كان علينا "اختلاق" النتيجة. والاختلاق يصبح أكثر أهمية من الفوز. ففي عصر الواقعية المفرطة يتم تعليب الحرب لشبكات التلفزة. القصة هي المهمة. وهذا ينطبق بشكل خاص على "عاصفة الصحراء" لأنها قدمت إيهاماً بالنجاح. لقد انتهت بنتيجة افتراضية. لقد أُظهرت على أنها نجاح أكثر من الواقع الحقيقي؛ صراع ترك الجيش العراقي، كما كانت عليه الحال من قبل، في وضع يتيح له غزو الكويت مرة أخرى في المستقبل، بينما غادر الأمريكيون ليقاتلوا في معارك أخرى في ساحات أخرى.

والآن، هناك بطبيعة الحال كثير من المبالغة في النقاش. إن الهدف الوحيد للحرب هو إخراج العراقيين من الكويت، لكن سرعان ما اتضح أن النجاح في ميدان المعركة لم يسفر عن نتيجة استراتيجية حاسمة، ومن ثم فهو أقل مما يمكن أن يوصف بالنجاح. إلى ذلك، خلص بودريار إلى أن حروبنا «لا تتعلق بالمواجهة بين المقاتلين بقدر ما تتعلق بتدجين القوات العنيدة والمقاوِمة على كوكب الأرض» (Baudrillard 1995:86). وفي هذه الخلاصة بالذات اقترب بودريار من الحقيقة، لأن منطق الحرب السائد كان إدارة العواقب. لقد تم خوض الحرب لإدارة عواقب السماح لصدام حسين بغزو الكويت واحتلالها ومن ثم احتكار نفط الخليج، وعندئذ اتُّخذ قرار إخراجه من الكويت من دون الإفراط في إضعافه (في ضوء أن إيران كانت لاتزال عدواً رئيسياً للغرب في المنطقة). وهكذا كان يتعين على الولايات المتحدة إدارة عواقب الحرب ذاتها: الدمار الذي لحق بالبيئة (إذا ما تم إشعال النار في آبار النفط)، والأضرار الجانبية (إذا ما وصلت الخسائر في

صفوف المدنيين إلى مستوى غير مقبول)، والأضرار المادية للبنية التحتية للعراق من حيث هو دولة. وعليه كانت الولايات المتحدة مشغولة جداً بإدارة العواقب حتى إنها أخفقت في تحقيق انتصار صريح. وبلغة عصرنا هذا، لقد حُرِمت "نهاية حاسمة".

في نقطة ما، وعد جورج بوش بأن الحرب سوف تؤذن بنظام عالمي جديد. وفي حديث له قبل اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة، وعد بالشراكة بين الأمم، بناءً على التشاور والتعاون والعمل الجماعي بموجب المبادئ وحكم القانون (Mills 2001:25). وحقيقة أن هذا النظام الجديد ولد ميتاً قد وضعت نهاية لحقبة كنا نعيش فيها منذ ذلك الوقت. ولعل أشهر هجوم مبتذل لبودريار على الحرب هو قوله: «في البداية قيل جنس آمن، والآن يُقال حرب آمنة. فحرب الخليج لم تسجل حتى درجتين أو ثلاثاً بمقياس ريختر. إنها غير واقعية، حرب من دون أعراض الحرب» (Baudrillard 1995:26). لكن تشبيه الحرب بـ"الجنس الآمن" ليس غير مبرر تماماً، على رغم شناعة الاستعارة. فنحن نمارس الحرب كما نمارس الجنس هذه الأيام باستخدام الواقي الذكري. فالجنس الآمن هو جنس لا ينتج مواليد، والنهاية غير الحاسمة للحرب أثارت تساؤلات إن كان بالإمكان استخدام القوة مجدداً لإعادة تنظيم العالم.

إن غياب الإعلان عن الحرب، حتى ولو كان ذلك بسبب رمزيته، قد أفسح الطريق للعبة. «كان يجب علينا أن نكون متيقظين نظراً لاختفاء الإعلان عن الحرب. لا يمكن أن تكون هناك حرب حقيقية من دون إعلان؛ إنه لحظة المرور من الكلمة إلى الفعل» (Baudrillard 1995:26). في التاريخ كان إعلان الحرب نادراً بطبيعة الحال. في عام 1941 قال الرئيس روزفلت للسفير البريطاني: «إن إعلان الحرب سيصبح أمراً بائداً» (Kershaw 2007:329). لم تعلن الولايات المتحدة الحرب على شمال فيتنام قط، ولم يعلن البريطانيون الحرب على الأرجنتين في حرب الفوكلاند عام 1982 قط، وفي كوريا (الصراع الذي فقد فيه الأمريكيون 33 ألف رجل) أصرت الولايات المتحدة على أنها ليست منخرطة في حرب ولكن في عمل شُرطي. وجرت العادة على أن يكون إعلان الحرب

إجراءً يشير ضمنياً إلى أن لكل حرب بداية ونهاية؛ أي أن كل صراع ينتهي عادة بمعاهدة سلام، أو اتفاق هدنة على الأقل. لكن الحرب في هذه الأيام لا تنتهي دائماً، حتى عندما يتوقف القتال. لقد أصبحت الحروب أداة لإدارة المخاطر وليس النظام. في هذا يقول أولريش بك: «مشكلات المخاطر تتسم بعدم وجود حلول واضحة، بل تتميز بتناقض أساسي يمكن أن يُفهم عادة بحساب الاحتمالات، ولكن التناقض لا يُزال. فتناقضها الأساسي هو ما يميز مشكلات المخاطر من مشكلات النظام التي تميل بتعريفها إلى الوضوح وإمكانية الحسم» (Beck 1997: 8-9).

لقد ظهر هذا في الأسابيع التي سبقت بدء القتال، عندما سأل السفير الأمريكي الأسبق لدى العراق الذي كان يعرف البلد جيداً، جنرالاً في القوات الجوية الأمريكية إن كان يريد نصيحة سياسية، فقيل له: «لا، لا، سيادة السفير، ليس للحرب إشارات سياسية» (Cockburn 2000:82). وهذا من شأنه أن يدهش أي أحد يأخذ على مأخذ الجد قاعدة كلاوزفيتس بأن الحرب هي استمرار للسياسة بوسائل أخرى. وهذا هو لب الموضوع؛ إنها السياسة وليست الحرب هي ما تغيَّر. وما فهمه الجنرال (لا ريب عن غير وعي) أن هذه الحرب ستكون حرباً مختلفة جداً عن أي حرب سابقة. إن ما تضمنته حقاً فقط، هو الاستهداف، قبل الحرب وبعد الحرب. وبخلاف الصراعات الأخرى لم تنته باستسلام صدّام رسمياً.

ما يدعو للتهكم هو أن جورج بوش الابن قد وجد نفسه وهو يسعى لتصحيح ما فعله الأب يُعيد مصير والده. فعلى رغم أن حرب الخليج الثانية ربما استطاعت حقاً إزاحة صدّام من السلطة، فإن ذلك كانت له تكلفة باهظة. سرعان ما اكتشفت الولايات المتحدة أن عراق ما بعد صدام هو وكر من الانقسامات المُعقدة، والاختلالات العرقية غير المصحَّحة، والجروح غير المندملة. وسرعان ما اكتشفت أنه من السذاجة تخيل إمكان إزالة المخاطر من الحرب. الحرب قد تعرض الجميع لخطر أكبر من ذي قبل. وبعبارة أخرى، إدارة المخاطر هي عمل محفوف بالمخاطر. وهي بالتأكيد لم تبق خالية من الخسائر. فبدلاً

من حرب نظيفة في الصحراء، سرعان ما وجدت الولايات المتحدة نفسها غارقة في عمليات في بغداد وتكريت والنجف وكركوك. أصبح القتال في المدن أمراً اعتيادياً في عصر المخاطر، مثلما شاهدنا في البصرة وبيروت وبلفاست وغروزني وجنين ومقديشو وسراييفو. إنه أشبه بأشكال القتال التي واجهها الغرب في مرحلة ما قبل الثورة الصناعية .(Hills 2007:116)

إن حرب المدن ليست فقط حرباً لا نهاية لها، بل إنها تنطوي على أضرار جانبية كبيرة أيضاً. ومدن المستقبل التي يُرجَّح نشر قوات غربية فيها سوف تشتمل على شرائح سكانية أكبر من هؤلاء الذين يعانون البطالة ونقص العمل، ومن الشباب؛ أي الفئة التي من المرجح تحديداً أن تتبع القادة الكاريزميين. وعلى رغم الوعود التي تحملها "الثورة في الشؤون العسكرية"، فإن القوات الغربية لا تتمتع بالهيمنة الكاملة، أو حتى التفوق المعلوماتي (الذي يعد عنصراً أساسياً في المهمات ذات التوجيه الدقيق).

بناءً على ما سبق، يمكن القول إن "عاصفة الصحراء" هي أول صراع في عصر جديد. وقد استمرت تبعاتها مدة طويلة. ولهؤلاء الذين عاصروها وشاهدوها على القنوات الإخبارية كل ليلة، يمكن الحديث عن الأحداث ليس "قبل حرب الخليج"، ولكن ببساطة وبصراحة أكبر "قبل الحرب"؛ ذلك أنه باتت لعصر المخاطر الآن حرب خاصة به.

دراسة الحالة رقم (2): الحادي عشر من سبتمبر 2001 وبروز دولة السلامة

كما أشار سيغمونت باومان فإنه «تُعاش الحياة غير الآمنة في صُحبة أناس غير آمنين» (Bauman 1999:23). يمكننا تتبع هجمات الحادي عشر من سبتمبر على نيويورك، وهي التي دفعتنا إلى عصر المخاطر، منذ حرب الخليج وما تبعها. فكثير من الشباب المسلمين المتطرفين الذين انضموا إلى تنظيم القاعدة في منتصف عقد التسعينيات يدَّعون أنهم شعروا بالمهانة بسبب ما حدث في الأيام الأخيرة للحرب، ولاسيما التدمير الهائل الذي لحق

بالقوات العراقية خلال انسحابها على طريق البصرة. كما أن استمرار صدّام في تحدي الغرب قد أقنع الولايات المتحدة بزيادة تمركزها في المملكة العربية السعودية، حتى تحتوي صداماً بطريقة أكثر فاعلية، وبعبارة بلير: «حبسه في قفصه». هذا التمركز في السعودية هو الذي دفع أسامة بن لادن وأتباعه إلى حمل السلاح ضد الأمريكيين عام 1998، عندما شنوا أول هجوم عسكري على السفارات الأمريكية في شرق إفريقيا.

أما الهجوم على مركز التجارة العالمي فقد غيّر كل شيء. في غضون ساعات أصبح الموقع يعرف باسم "غراوند زيرو"، وهو مصطلح استخدم من قبل لوصف مركز انفجار قنبلة هيروشيما. ومثل هيروشيما، رأى كثيرون الهجوم على أنه حدث ملهم وكاشف ومميز، حدث كسر إحساسنا باستمرارية الوقت، وشكّل نقطة مرجعية أعدنا حولها كتابة وقائعنا التاريخية والسياسية. وفي خطاب لتوني بلير، رئيس وزراء بريطانيا وقتئذ، أمام مؤتمر لحزب العمال بعد الهجوم بأسابيع قليلة تحدث بوضوح وبلاغة عن هذه اللحظة التي تتسم بعدم اليقين والسيولة قائلاً: «لقد اهتز المِشكال، وباتت قِطَعه في حالة حركة، وسوف تستقر مرة أخرى قريباً. لكن قبل أن تستقر لنعدْ ترتيب هذا العالم من حولنا» (Blair 2001). كان غزو العراق جزءاً من إعادة ترتيب العالم.

مع ذلك، هل شكلت هجمات الحادي عشر من سبتمبر نقطة تحول؟ عادة لا تتم ملاحظة نقاط التحول والنقاط التاريخية الفاصلة إلا من المؤرخين. خذ على سبيل المثال، الهبوط على سطح القمر عام 1969 الذي عُد في ذلك الوقت "الفصل التالي في التطور"؛ حيث كتب آرثر كلارك Arthur C. Clark، عميد رواد الفضاء: إن «هبوط أبوللو ربما يكون الإنجاز الوحيد الذي يتذكره العالم ألف عام» (Cornfield 2007:27)؛ غير أنه لم يكن هناك هبوط قمري ثانٍ منذ عام 1972، وذلك لأن جيلنا قد انكفأ إلى الداخل، ولم يفجر السفر في الفضاء خيالنا.

بدلاً من استدعاء "نقاط تحول"، ربما نختار متغيراً أضعف، وهو مفهوم بات شائعاً بفضل الفيلسوف ريتشارد رورتي Richard Rorty. إذا كان المؤرخون حقاً في موقع يتيح

لهم تحديد نقاط التحول، فربما يستطيع المراقبون المعاصرون على الأقل تحديد "تحـولات". وقد حدد رورتي نفسه "تحولاً لغوياً" عام 1967. ومنذ ذلك الوقت ادعـى آخـرون تحديـد "تحول بيوغرافي" و"تحول جمالي" و"تحول براغماتي" و"تحول أخلاقـي"، وبطبيعـة الحـال "تحول عالمي". ما تؤكده كل هذه الادعاءات هو أن نقلة في الاتجاهات الفكريـة والثقافيـة قد حدثت، وذلك حقيقي، لكن يصعب تحديده من حيث الاتجاه والتوقيت؛ ذلك أن هذه التحـولات لا تتبـع كلهـا، عـلى سـبيل المثـال، مـسارات تاريخيـة واضـحة (Cornfield 2007:106). ومن ثم، إذا ما أتيح لي تطبيق هذه الطريقة فسأزعم أننا شهدنا "تحولاً أمنياً" منذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر التي قادت إلى تغير كبير في الطريقة التي ننظر بهـا إلى مفهوم الأمن. لقد أصبحنا قلقين بشكل متزايد، وفي الوقت ذاته أقل طموحاً مـن الناحيـة الاستراتيجية.

وبوش [الابن] هو أول رئيس أمريكي يأخذ الشعب الأمريكي إلى الحرب مـن دون أن يعدهم بنظام عالمي جديد. يسمى ذلك "الواقعيـة الأمريكيـة الجديـدة". وقـد عرّفـت كوندوليزا رايس هذا المصطلح في تموز/ يوليو 2007 بأنه يعني سياسة خارجية تتعامل مـع العالم كما هو، وليس كما نحب؛ «نسعى جاهدين لنجعل العالم أكثر أمناً. لـيس كـاملاً، بـل أفضل» (*Washington Post,* 26 July 2007). والأمريكيون بشكل خاص يعدّون العالم منذ الحادي عشر من سبتمبر أقل أمناً بكثير من ذي قبل. وفي هـذا الإطـار أحـدث تنظـيم القاعدة تحولاً في الطريقة التي ننظر بها إلى العالم. لقد تُركنا في حالة ترقب دائمة (Mythen 2004:138). وفي هذا كتب واين داير Wayne Dyer: «عندما تُغيِّر الطريقة التي تنظر بهـا إلى الأشياء، تتغير الأشياء التي تنظـر إليهـا» (Ford 2007:20). لم تـر الولايـات المتحـدة العالم بالطريقة نفسها منذئذ، ولم يعد العالم يرى الولايات المتحدة بالطريقة نفـسها كـذلك (ولهذا السبب ربما تكون علاقة الحب الكبيرة مع كل ما هو أمريكي قد انتهت).

لقد أفرزت الحرب على الإرهاب التي أعلنها جورج بوش عقـب هجـمات الحـادي عشر من سبتمبر بوقت قصير، ما أسماه علماء الاجتماع منظوراً فكرياً جديداً، ومثـل جميـع

المنظورات الفكرية، هو قائم بنفسه لأنه يوفر المعايير التي تضمن شرعيته. بداية، يبحث هذا المنظور بعمق في هشاشة العالم الحديث. فمركز التجارة العالمي الذي بُنِي عام 1973 كان أيقونة للثراء الغربي، لكن الهجوم الإرهابي أكد هشاشة الاقتصاد الدولي، فقد كاد يمحو سوق إعادة التأمين العالمية، وشلّ حركة بنك نيويورك؛ أحد المصرفَين اللذين يقدمان خدمات المقاصَّة لمعاملات وول ستريت التجارية والمؤسسات الحيوية لسندات وزارة الخزانة الأمريكية (Homer-Dixon 2006:120)، وقاد إلى انهيار مأساوي في ثقة المستثمرين بالسوق التي أُضعفت من قبل بفعل انفجار فقاعة ما يعرف بالـ"دوت كوم" وفضيحة مؤسسة "إنرون". يشار إلى أن الأسواق المالية تزدهر على الاحتمالية، لكن هجمات الحادي عشر من سبتمبر أغرقتها في حالة عدم يقين تامة. وكما كشف ألان جرينسبان Alan Greenspan في مذكراته **عصر الاضطراب** *The Age of Turbulence*، فإنه حاول بموجب عمله رئيساً لمجلس الاحتياط الفيدرالي، خلال الأشهر القليلة التالية، وقف انزلاق الاقتصاد الأمريكي في دائرة الركود (Greenspan 2007:9-10).

لقد كانت هجمات الحادي عشر من سبتمبر إنذاراً قوياً في مناحٍ أخرى أيضاً. ومع مرور الوقت، أصبحت شبكاتنا الحضرية أكثر تعقيداً. وإذا ما استهدف الإرهابيون المراكز أو النقاط الحساسة في نظام الطاقة، على سبيل المثال، يمكن أن يكون لذلك أثر مدمر. فالمهارة تكمن في تخريب جزء حساس وليس زائداً على الحاجة في النظام. وعلى رغم أن هجوم القاعدة قد أزهق أرواح 3000 شخص في نيويورك، فإن المحصلة النهائية للقتلى ربما كانت أعلى بكثير لو حالف الإرهابيين حظ أوفر. وجدير بالذكر أن نيويورك تعتمد على شبكة مترو الأنفاق، وعلى 753 مضخة مياه لتحمي المدينة من الفيضان. على سبيل المثال، يتدفق تحت محطة شارع فان سيتْشْلن في بروكلي 650 غالوناً من المياه الجوفية الطبيعية في كل دقيقة، وتعتمد تلك المضخات على الكهرباء، وإذا ما انقطعت الكهرباء فستكون كارثة. وفي خلال الساعات التي أعقبت الهجوم مباشرة، تم إرسال قطار مضخة طوارئ يحمل مولداً كهربائياً محمولاً كبيراً يعمل بالديزل، لضخ مياه تبلغ كميتها نحو 27 ضعف حجم (إستاد شيا). ولو أن مياه نهر هودسون قد تدفقت في أنفاق القطارات التي تربط محطات مترو المدينة

بنيوجيرسي، لغمرت المياه البنية التحتية لنيويورك (Wiseman 2007:25)، وربما غمرت المياه مانهاتن قبل أن يقع إعصار كاترينا وتُغرق الفيضانات نيوأورليانز.

إن مدن القرن الواحد والعشرين أكثر هشاشة بكثير مما يفترض مواطنوها. فقد أصاب الهجوم هدفه لأنه أصاب عصباً حساساً؛ لم يكن أثره على الاقتصاد والمواصلات، بل كان أثراً عصبياً. فقد أبطأ الإرهابيون شبكات الإنترنت، وأربكوا خطوط الهاتف الخليوي لأن الناس عبر العالم سعوا للاتصال بأصدقائهم، وظل العالم مشدوداً إلى الصور التلفزيونية للمذبحة أياماً عدة بعد ذلك. وعزز الهجوم شعوراً عاماً بالقلق حيال ضعفنا في عالم متشابك يعيش على الأخبار السيئة والإنذارات المتكررة للكارثة البيئية، وكذلك كثير من المخاطر التي نواجهها بشكل يومي في حياتنا (Homer-Dixon 2006: 121). وباختصار، أصاب الهجوم هدفه الأهم، وهو الخيال.

اختار كل مجتمع في كل مكان اختياراً؛ مجموعة من المؤسسات التي تشكل حياته الثقافية. قد تتجاهل إحدى الثقافات القيمة المالية، وتعدها أخرى أمراً أساسياً في كل المجالات. وعلى حين يضع مجتمع ما التقانة ضمن أولوياته، يقوم مجتمع آخر بتهميشها. تتكون الحياة من كثير من تجارب المعيشة، وكثير جداً من الاستكشافات لإمكانيات البشر. قيل لنا إن العصر المعولم ينتج حضارة واحدة، ويقضي على كثير من الاختلافات. وسواء توصلنا إلى أن الاختلافات الحضارية حقيقية ولاتزال مهمة، أو أن العولمة ذاتها تُضخِّم التنوع الثقافي، فليس هذا هو الموضوع. وحتى في القرن الواحد والعشرين، لاتزال الاختلافات الثقافية عميقة. ومجتمع المخاطر ذاته هو نتاج الحضارة؛ حضارتنا في مرحلة خاصة في تطورها التاريخي. وما يجعل الغرب متميزاً هو النسيج الخاص لحياته الحضرية، الذي لا تُستقى منه مفاهيم المواطنة والعقد الاجتماعي والمدنية وحسب، بل حتى الأصل اللغوي لكلمة الحضارة ذاتها.

لقد كانت المدن الغربية العظيمة هي المكان الذي بحث فيه الغرب أولاً ليرى شكل مستقبله للتنبؤ بملامح التاريخ خلال مراحل صنعه. وبالرجوع إلى الثلاثينيات نجد أن

المهندس لو كوربوزييه Le Corbusier قد رأى ناطحات سحاب نيويورك «كاتدرائيات بيضاً» للعصر الحديث. وكانت نيويورك من وجهة نظره مدينة متعصبة يغلب عليها الغموض، وما جعلها تحظى بمكانة خاصة هو مرونتها. لقد كانت غير واقعية، ومن ثم أكثر واقعية من الواقع، لأنها كانت أي شيء تريدها أن تكون عليه، أو أي شيء تحلم به. وعندما زارها ألبرت كاموس Albert Camus عقب الحرب العالمية الثانية مباشرة، كان أقل انبهاراً. ناطحات سحاب المدينة ذكّرته «قبوراً بيضاً» وليس كاتدرائيات، ومع ذلك لم يتصور أنه بعد ستين عاماً سيكون برجا مركز التجارة العالمية على ما أصبحا عليه (Camus 1978:52).

في غضون أعوام قليلة من هجمات الحادي عشر من سبتمبر تعرضت مدن أوربية لهجمات؛ لندن ومدريد وغلاسغو. هل الأمر غير عقلاني تماماً إلى درجة أنه يتعين على العالم الغربي أن يخضع بسهولة لمخاوف انهيار الحياة الحضرية؟ نظراً لأن المدن الغربية ضعيفة بطريقة فريدة، فهي "المدن العالمية" الوحيدة التي توفر لمواطنيها خبرة حضرية متنوعة عرقياً. لذا تساءل عمدة نيويورك في رواية توم ولف Tom Wolfe بعنوان **نار الغرور** *Bonfire of The Vanities* (1988): «هل تعتقد أن هذه المدينة لاتزال مدينتك؟»، «إن العالم الثالث هو ما يقبع هناك». ففي ظل وجود 16 جماعة عرقية مختلفة وتسعة أصول عرقية مميزة، يمكن للوس أنجلوس وليس نيويورك، أن تدعي أنها عاصمة العالم الثالث. لكن ماذا يحدث إذا لم يبق مواطنو المدينة يثق بعضهم ببعض؟ في فيلم **حالة حصار** *State of Siege*، يُحبَس مسلمو نيويورك خلال مدة تتميز بنوبة تفجيرات وحشية. وهذه مشكلة العصر؛ فربما تضاعف الحرب على الإرهاب التوترات العرقية، وتضفي على حياة الغيتو* صبغة سياسية تفتقر إليها رواية توم ولف؛ حيث يكون التوتر عنصرياً. ولدى هوليود مهارة في استغلال مخاوفنا البدائية.

---

* الغيتو Ghetto: اسم أطلق على أحياء اليهود في أوربا، وبخاصة خلال القرن الخامس عشر، عندما أصبحت هذه الأحياء قسرية، ومنع اليهود من العيش خارجها في كثير من الدول الأوربية مثل ألمانيا وإيطاليا وبولندا وفرنسا قبل الثورة. (المحرر)

توفر هوليود فرصة لبحث روح العصر؛ فرصة لتحديد موقعنا في ما يسميه فرانك فيوردي «ثقافة الخوف» الجديدة (Furedi 2006). الخوف بطبيعة الحال هو سمة أساسية للخبرة الفردية والجماعية على السواء. إنه استجابة لغريزة البقاء. سنظل دائماً نخاف الموت والمرض وفقدان الدخل. مثل هذه المخاوف لا يتغير كثيراً من ثقافة إلى أخرى ومن عصر إلى آخر. ويصبح الخوف مهماً للمؤرخين عندما يكون ثقافياً، وعندما يُغلف بعدد من المعتقدات والممارسات التي تحيط به. ويكتسب الخوف أهمية عند علماء الاجتماع عندما يعكس الاهتمامات الحاضرة في المجتمع أو الثقافة بشكل عام، وعندما يأخذ شكلاً اجتماعياً.

اليوم، لم يبق الخوف من الحرب بين القوى العظمى يطارد معظمنا كما كان يفعل بأجدادنا في معظم القرن العشرين. كما أن المخاوف التي تهم بقية العالم لا تقض مضاجعنا، مثل شبح المجاعة. وأكثر شيء يقلقنا هو ما نتخيله. والملحوظ هو أن مخاوفنا اليومية لا تتعلق بخبرتنا الآنية بالحياة، فنحن نخاف من مخاطر لا نجابهها بشكل يومي. التوجس هو الخوف بشأن ما قد يحدث، وهذا يزدهر في مناخ نشعر فيه جميعنا بأننا في خطر مستمر. قلقنا أقل تركيزاً من مخاوفنا، وهو أقل تحديداً أيضاً، ولذا لا يسهل التغلب عليه. يُذكر أن طمأنة الأشخاص القلقين أصعب من طمأنة الخائفين.

إن ما يجعلنا أكثر خوفاً هو انهيار المجتمع المدني. لغة المخاطر ليست جديدة؛ فقد كانت جزءاً من الخبرة الحديثة من البداية، لكنها كانت لمعظم الوقت "اجتماعية". كانت المخاطر محددة، تتعلق بالأسرة والجيران والشركة أو الدولة. واليوم أصبح تقويم المخاطر أكثر فردية، يتعلق بأمن الشخص، وهو ينفصل في بعض الحالات عن المجتمع الذي لايزال الفرد جزءاً منه. وأصبح الاستمرار في الحياة اهتماماً أكثر خصوصية، ذلك أن أكثر ما نخشاه هم الآخرون. وفي هذا يقول فيوردي: «لا يتعلق الأمر كثيراً ببقاء الإنسان، بل باستمرارية إيماننا بالإنسانية التي أصبحت هي القضية» (Furedi 2006:xii). ولعل أكثر شيء يزعجه هو أثر ذلك على تاريخ تراجع إيماننا بالحالة الإنسانية. قد يبدو أننا لا نلوث البيئة فقط، بل يلوث بعضنا بعضاً. نحن نتحدث عن "علاقات سامَّة"، و"آباء سامِّين"،

وأبناء محصورين في "أسر سامَّة". لم يكن هناك مثل هذا الاهتمام بالعواطف الحاقدة التي تؤثر فينا من حيث نحن كائنات بهذا القدر من قبل (Furedi 2006:xvi).

نتيجة لذلك كان هناك نقص ملحوظ في "المساحة العامة". ونظراً لأن خصخصة الأمن تفرغ حياتنا الاجتماعية من مضمونها، فقد أصبح من الصعب حشد الموارد المعنوية مثل الفخر المدني أو مسؤولية المواطنين. وهكذا أصبحنا أكثر ميلاً إلى الانسحاب نحو الفضاءات الخاصة التي تجعلنا أكثر أمناً. خذ على سبيل المثال "المجتمعات المسوَّرة" ذات المراقبة الأمنية والبوابات الحديدية التي أصبحت تعكس إحدى السمات الرئيسية لعصر المخاطر. قد تمثل الجدران القوة، لكنها تمثل العزلة والخوف أيضاً. والمجتمعات المسورة في النهاية ما هي إلا ثاني أفضل حل من الدرجة الثانية للسلامة، ولكننا أصبحنا نقبل ثاني أفضل حل باعتباره أفضل المعروض (Ellin 1997:104).

هذا المنظر الدفاعي كله يترقب وقوع جريمة؛ جريمة ربما توقظنا على عالم أكثر تعاطفاً. والآن يتم استثمار العواطف التي خصصت من قبل لتغيير العالم، في محاولة لتأمين سلامتنا. إن لفظ "آمن" قد أعطى معنى لعدد كبير من الظواهر مثل "الملاذات الآمنة" في البوسنة في عقد التسعينيات. وأصبح الأمن الشخصي الآن مجالاً كبيراً ومهماً. ومن المفترض أن وزارة الأمن الداخلي هي من يزيد المواطنين أمناً. وأصبح التزام احتياطات السلامة مبدأً أساسياً في الحياة العامة.

ثم إن هناك "مجتمع المراقبة" الذي تخضع فيه تحركات المواطنين لرصد الكاميرات أربعاً وعشرين ساعة في اليوم. فدوائر الكاميرات التلفزيونية ما هي إلا مثال آخر على سعي الحداثة الحثيث من أجل التحكم، وهو ما يجعل ثقافتنا المدنية، على نحو متزايد، أقل تسامحاً أو استيعاباً، وعلى نحو متزايد أيضاً، أقل قدرة على الثقة (Garland 2001:195)، وذلك أن الكاميرات لم توضع لتوفر الدليل بعد وقوع جريمة والقبض على مرتكبها، بل وُضعت لمنع الجريمة، من خلال توفير إدارة مباشرة لبقيتنا. لم تفقد حكوماتنا الاهتمام

بالتحكم، وبدلاً من ذلك، طورت تقنيات جديدة لطمأنتنا بأنها لاتزال تتحكم، ومن ثم يمكن الوثوق بقدرتها على حمايتنا، حتى وإن لم تبق تثق بنا.

ربما نتساءل بطبيعة الحال: ألم يضع توازن الإرهاب النووي الذي عشناه جميعاً لسنوات كثيرة شكل حياتنا اليومية التي تشكل المجتمع المدني موضع تساؤل؟ ألم تصل الحرب الباردة إلى خلاصة منطقية لواحدة من الرؤى المفزعة التي وردت في رواية أورويل Orwell بعنوان **1984** التي لم تطلب فيها الحكومات الشمولية الثلاث شيئاً من مواطنيها سوى الطاعة. في رؤية أورويل للعالم الفاسد، توفر الدول العظمى الثلاث لمواطنيها كل شيء؛ من الرفاهة الاجتماعية إلى الإباحية التي تتم بشكل رسمي بأمر الدولة. لكن دولة واحدة فقط تُعرِّض مواطنيها للخطر بإسقاط قنابل عليهم من وقت لآخر، لتذكيرهم أنهم لايزالون في حالة حرب، لكنها تفعل ذلك سراً.

وفي مقالة في مجلة **أتلانتك** *Atlantic* عام 1947، توقع كورد ماير Cord Meyer الضابط البحري الأمريكي المتقاعد، أن القوة الوطنية المتنامية بثبات، إضافة إلى الأمن القومي المتراجع بثبات، قد يرغمان الولايات المتحدة على الحفاظ ليس على ترسانة هائلة من الأسلحة فقط، بل على توزيع السكان في المناطق الحضرية على ملاجئ تحت الأرض، حتى يمكنها مواصلة الحرب، حتى وإن تعرضت مدنها للخراب والدمار. وربما تختار الاحتياط ضد التخريب النووي بتطوير أفضل نظام استخبارات في العالم، وكذلك أضخم شرطة أمنية مخولة بصلاحيات التفتيش والاعتقال. والمفارقة أن الولايات المتحدة وهي تستعد للمواجهة النهائية ربما تصبح شبيهة بعدوها؛ الدولة السوفيتية (Iriye 1985: 49-50).

لم تقتحم الحرب الباردة وقت حدوثها حياة الناس بمثل هذه الطريقة. ولم تصبح الولايات المتحدة مجتمع المراقبة الذي باتت عليه اليوم. لقد أنتجت الحرب الباردة دولة أمنية باهتة؛ إذ فرضت مراقبة على السياسيين المتشددين، والتدقيق في أمور بعض الموظفين في الخدمات العامة. ومع ذلك لم تتحدَّ أي من هذه التدابير حرية التعبير وافتراض براءة المواطن حتى يثبت العكس، وحق اللجوء وحتى حرية الحركة عبر الدولة. ولم يتم إدخال

نظام بطاقات الهوية في بريطانيا ولا الولايات المتحدة. وكان من شأن تعليق أوامر الإحضار* في بريطانيا أن يعد أمراً غير مقبول. لكن الحرب العالمية على الإرهاب أصبحت بالفعل أكثر اقتحاماً للحياة في هذا الخصوص، لأنها تفرغ مفهوم "اليومي" من مضمونه. فبدلاً من انتظامه حول النظام بما يشمله من يومية الانتظام والسلام والنمطية، بما يجعل المدنية ممكنة، أصبح الآن ينتظم حول يومية العنف (Mbembe 2003:11).

إن الحكومات تجعلنا اليوم خائفين طوال الوقت، على رغم أن الإرهاب الذي نحيا في ظله جميعاً ليس خيالياً، بل هو واقعي جداً. ونجد أنفسنا في هذه الأيام نعيش في ما يطلق عيه أبادوراي Appadurai عصر الحرب اليومية، وليست الشاملة؛ إنه عصر بات فيه العنف احتمالاً يومياً. والإرهابيون لا ريب يتواطؤون في هذا بجعلنا نشعر بأننا خائفون باستمرار (أو متيقظون). ولعل الأدهى من الإرهاب في تجلياته المتنوعة هو أنه ينتج حالة ذهنية إرهابية، فالإرهاب هو الاسم الذي يُطلق على أي جهد لإحلال العنف محل السلام كمرساة موثوقة للحياة اليومية. هذه الذهنية «تستخدم الطوارئ على أنها رتابتها الخاصة» (Appadurai 2006:32).

خذ على سبيل المثال الألوان التي تشير إلى التهديدات في المطارات الأمريكية (نتيجة مباشرة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر). الألوان الرئيسية الثلاثة: الأحمر (ذو خطر)، والبرتقالي (عالٍ)، والأصفر (مرتفع)، كلها متشائمة، لكن ليس واضحاً لماذا يكون الثالث وهو الأصفر أقل تهديداً من الثاني وهو البرتقالي. إن السعي لربط ترميز التهديدات الإرهابية بالترميز الخاص بأحوال الطقس يضفي شرعية علمية زائفة على هذا النظام. ولعل الأكثر إزعاجاً حقيقة أن بعض المسؤولين يرون، على ما يبدو، أن الترميز قد أصبح الآن سمة دائمة للحياة الاجتماعية. وفي هذا أعرب رئيس شرطة واشنطن العاصمة عن أسفه من أننا «لن نرى اللون الأخضر مرة ثانية. فالوضع العادي قد أعيد تعريفه في

---

* أوامر الإحضار habeas corpus: هي أوامر كتابية بموجب القانون العام لإحضار طرف ما للمثول أمام القضاء، ويحق للمواطن الحصول عليها حماية لنفسه من السجن غير القانوني. (المحرر)

الحادي عشر من سبتمبر. العادي هو الأصفر» (Streans 2006:44). ولا يقتصر الأمر على ترميز المطارات الأمريكية بالألوان الثلاثة الخاصة بالتهديدات، فإذا قرر أي مسافر تجاهل حالة اللون الأحمر وسافر في اليوم ذاته فسيجد نفسه داخلاً في "مَكنة مراقبة" يتم فيها فحصه مثل الرُّقامة،* وتفتيشه بشكل صامت ومنظم عبر البوابات، وهي عملية تستدعي حقاً تمحيصاً نقدياً لكل الافتراضات والمفاهيم التي تؤطرها (Lyon 2007:124).

ولهؤلاء المقتدرين مادياً، هناك دائماً شركات الأمن الخاصة. فقبل عشر سنوات مضت كانت هناك أربع جامعات أمريكية تقدم برامج تعليمية متخصصة في إدارة الكوارث. اليوم هناك 115 برنامجاً متاحاً في هذا المجال، ونحو 100 برنامج آخر قيد الدراسة. يمكننا أن نجد على الإنترنت إنذارات على مدى أربع وعشرين ساعة تحذّر من تهديدات إرهابية، وكذلك إمدادات من مادة أيودين البوتاسيوم للاستخدام في حالة وقوع هجوم نووي. وبالرجوع إلى عقد الستينيات، أعلنت الصحف الأمريكية ملاجئ راقية تحمي من الأشعة النووية للمقتدرين مادياً. ولِمَ لا! والمستهلك الشري يُعرض عليه جميع وسائل الراحة، بما في ذلك السجاد والأرائك الرحبة، وكذلك أحدث أجهزة التلفزيون. وهكذا يتم توفير وسائل الراحة هذه للمستهلك خلال وقت السلم، وبمنزلة ملجأ خلال وقت الحرب، بما فيها الحماية من الحرب النووية، على شرط أن يكون مقتدراً. وفي هذا كتب هربرت ماركوز Herbert Marcuse في كتابه المعنون **الإنسان ذو البُعد الواحد** *One Dimensional Man* نموذجاً واضحاً على دخول الثقافة الاستهلاكية في مجال الموت الذي كان عادة خارج مجال خيار المستهلك (Marcuse 1991:37). تبدو سخرية ماركوز إلى حد ما خارج السياق في عصر تم فيه تمكين المستهلك بشكل لم يسبق له مثيل.

---

* ما يسمى الباركود Barcode أو الشفرة الخيطية أو الشفرة الشريطية، وهي خطوط عمودية بيض وسود تطبع على المنتج وتختزن فيها معلومات مشفرة يقرؤها جهاز خاص. (المدقق)

المشكلة هي أن المواطن سيبدو في خطر أكبر من ذي قبل. لكن هذا هو مجتمع المخاطر، وهذه هي ثقافة الخوف. إنها تشجعنا جميعاً على تبني نظرة تشاؤمية بشأن المستقبل، وعلى أن نحِنّ لماضٍ أكثر أمناً، من دون أن تعطينا معلومات دقيقة بشأن مدى انعدام الأمن في حاضرنا. ويرى بطل رواية دوليلو بعنوان **ماو2** *Mao2* أن الإرهاب يتغذى على قلقنا الهش، ومخاوفنا المصطنعة، واضطراباتنا العصبية. «الآن احتل صانعو القنابل وحاملو الأسلحة النارية هذه الأرض، إنهم يشنون غارات على الوعي الإنساني» (DeLillo 1992:41). يغذي الإرهاب مجتمع المخاطر باقتحام وعينا اليومي، ومع ذلك فلنحاول، فربما نفلت من قبضته.

دراسة الحالة رقم (3): أفغانستان والتحالفات المائعة

دراسة الحالة الثالثة التي أعرضها هي أفغانستان التي هاجمتها الولايات المتحدة بعد أشهر قليلة من هجمات الحادي عشر من سبتمبر، في محاولة لاجتثاث بن لادن وطرد مضيفته حركة طالبان. لقد قام حلف الناتو بنشر القوة الأمنية الدولية المعروفة اختصاراً باسم "إيساف" (ISAF)،* بغرض احتواء طالبان ما إن عادت للظهور لاعباً سياسياً. ولاتزال هذه الحرب قائمة. وفي بداية أيلول/ سبتمبر 2006، ودعماً للحكومة الأفغانية الجديدة، شن حلف الناتو "عملية مِديوسا" "Operation Medusa" لتعزيز سيطرة الحكومة المركزية على المناطق التي تسيطر عليها طالبان في الجنوب.

لقد كانت "عملية مديوسا" أول معركة برية لحلف الناتو خلال تاريخه الذي يمتد 55 عاماً. ولو خسر الحلف المعركة لربما أعلنت طالبان الانتصار ودخلت قندهار، بكل ما يحمله ذلك من تداعيات لشرعية مهمة الناتو وسلطة الحكومة في كابول. ولو لم يكونوا مُصرّين بحماقة على هزيمة الناتو بالطريقة التي قاموا بها، من خلال خوض معركة دفاعية، ولو شرعوا في إجراء "تحليل مهمة" مع تغير الموقف على الأرض، لواجهت "إيساف"

---

* قوة المساعدة الأمنية الدولية International Security Assistance Force (المحرر).

أزمة، ولتفوقت طالبان عليها، لأنه لم تكن هناك قوات احتياطية متاحة، وكان كل جندي مشاركاً في المعركة (Richards 2007:25).

على رغم أن حلف الناتو يزعم أنه "قوة لدعم الاستقرار" في أفغانستان فإنه يخفق في توفير الاستقرار الذي يعد به. لقد حاول إنفاذ حكم القانون في الجنوب، وهي أول محاولة جادة منذ الاحتلال السوفيتي للبلد، ولم ينجح في ذلك هو أيضاً. لقد أتيحت لطالبان خمس سنوات لإعادة تنظيم صفوفها وتطبيق الدروس المستفادة من المقاتلين الأجانب ذوي الخبرة في القتال في العراق الذين جلبوا خبرة القنابل التي تزرع على الطرقات والانتحاريين إلى المسرح الأفغاني. ومنذ عام 2006 كفّ الناتو عن الحديث عن الانتصار في الحرب وإنهاء التهديدات التي تشكلها حركة طالبان. وبدلاً من ذلك اقتصر هدفه على احتواء طالبان فقط، فقد اكتشف قادته أن البلد يتشكل من شبكة واسعة ومعقدة من المجموعات البشرية، والعداوات والروابط والثارات.

لايزال حلف الناتو يصر على أن العدو لا يتمتع بقبول شعبي. حقاً إن 5٪ فقط من الباشتون يدعمون طالبان. والأهم من ذلك، كما يرى ريتشاردز Richards، أنه على رغم أن 80٪ من الباشتون قد يعدون ناخبين "مترجّحين" فقد عبروا جميعهم عن رغبة قوية في نجاح المجتمع الدولي وحكومة كابول (Richards 2007:26). لكن هذه هي النقطة المهمة. لم يدرك حلف الناتو بعدُ أن الأصوات المترجّحة هي إحدى الملامح المميزة لأزماننا المائعة.

وكما يقول سيغمونت باومان: لا تحتفظ الموائع بشكل ثابت لمدة طويلة، إنها تبرز الطبيعة المتهشمة والهشة للروابط الاجتماعية في وقتنا هذا. وهو يرى أن ثمة أسباباً مقنعة لاستخدام التميع استعارة مناسبة لأزماننا؛ إذ إن ما يميز قوة المائع من أي قوة أخرى هي غياب الالتزام أو المدى الطويل. وما يجعل إطلاق صفة المائع على النوع الحالي من الحداثة، مقارنةً بالصيغ الثقيلة الأخرى للعالم الحديث، أمراً ذا مغزى ذلك التميع المستمر الذي يصعب فهمه للأشياء (Bauman 2000:2).

في العصر الحديث كان كل شيء ثقيلاً. كنا مهووسين بالكم والحجم، وبالحدود القوية التي لا تخترق. كل هذا قد تغيّر. القوى العاملة الضخمة للصناعات القديمة قُلِّصت، والشركات اتجهت نحو التخلي عن القدرات التصنيعية لصالح قطاع الخدمات المائعة. وبصعود نظم المعلومات، حلت رأسمالية "البرمجيات" محل رأسمالية "المعدات". وأصبحت المجموعات الدولية تقوم بتعهيد بعض الأعمال إلى العالم النامي. وأصبح رأس المال بلا ثقل في ظل التمييع المستمر للحياة. وبات الشغل الشاغل لرجال الأعمال اليوم هو الاستحواذ والتقليص، والإدماج والتقدم. فقطاع الأعمال يسعى دائماً للمناورة.

التعهيد outsourcing أمر قديم إلى حد كبير، وهو عبارة عن نقل جزء من الإنتاج لتقليل التكلفة. أما الاستعانة بمصادر خارج الدولة off-shoring فهي أمر حديث، وهو عبارة عن نقل بعض مهمات أصحاب الياقات البيض ووظائفهم من دول غنية إلى دول فقيرة تتمتع بقوة عاملة متعلمة جيداً. والعملية الأخيرة تؤثر في الوظائف الخاصة بالمراحل الأولية، ومراكز الاتصال، والمحاسبة، والبرمجيات، وتصميم المنتجات، والأعمال الاستشارية. وفي ظل انتقال الوظائف بدلاً من الموظفين، غدا مركز الجاذبية العالمية يتحرك من الغرب إلى الشرق. وأصبح رأس المال الآن بلا ثقل، أو لنقلْ إنه بات عابراً للدول. فنحن نقوم بإنشاء قواعد تصنيعية في الخارج، ونستثمر في اقتصادات تتميز برخص العمالة، وغياب الاتحادات العمالية، وتميز بين الرجل والمرأة (لأن المرأة لاتزال تتقاضى أجراً أقل من الرجل في معظم الدول). ودائماً ما نبحث عن عائد سريع، وليس طويل المدى، لاستثماراتنا. وهناك قول شائع في وول ستريت: «الاستثمار الطويل المدى ما هو إلا مضاربة قصيرة المدى لم تنجح».

باختصار، هناك إحساس فطري بالدوران حول رأسمالية ما بعد الحداثة؛ فالأسواق الحرة التي تنتشر الآن بسرعة لا تشجع الإدارة الحكيمة للأصول، ولا حتى تروج للاستثمارات الطويلة المدى. المشكلة هي أنه عندما تُشكَّل الأسواق كليةً على أساس السعر والعائد، وتصبح ثروة الأصول والتمويلات الائتمانية التي توفر ذلك مركزة، كما كانت الحال في القرن التاسع عشر (وهو ما نقترب منه)، عندها تميل الأسواق إلى تشجيع

السلوك غير المسؤول. قبل عام 1973 بلغت نسبة الاستثمار إلى رأس المال المضارب 9 إلى 1. ومن ذلك الوقت عُكِست هذه النسب. وعليه فقد أصبحت الأرقام هائلة، وكذلك الأدوات المشتقة والرافعة، حتى إن قيمتها الآن باتت تفوق بكثير إجمالي قيمة الاقتصاد العالمي (في عام 2003 بلغت قيمة تداول المشتقات 85 تريليون دولار، على حين كان حجم الاقتصاد العالمي 49 تريليون دولار).

وفي حياتنا الخاصة أيضاً حلت العلاقات القصيرة محل العلاقات الدائمة. ومن المتوقع بحلول عام 2035 أن يعيش ثلث البريطانيين بمفردهم (*Sunday Times*, 2 September 2007). وحتى الآن نحب بسرعة وننفصل عمن نحب بسرعة، والحال كذلك بالنسبة للزواج والطلاق. الأسرة الفيكتورية المثالية في القرن التاسع عشر التي عبّرت عن تماسك الحياة الأسرية، عكست النموذج المدني للدولة الأبوية. واليوم، ليس من نموذج أسري واحد مهيمن. لقد أصبح الطلاق شائعاً حتى إن أسر اليوم تنتظم حول علاقات بين متزوجين سابقاً، وزوجات آباء وأزواج أمهات. وفي بريطانيا أكثر من 400 حالة طلاق كل أسبوع. ووفقاً للتوقعات الحالية، سيكون المتزوجون في بريطانيا أقلية بحلول عام 2020، وقبل ذلك بكثير، سيفوق عدد أزواج الأمهات داخل الأسر، عدد الآباء لأول مرة. والآن تخيل أن الأطفال قد أصبحوا آخر وحدة أولية تربط الآباء المتزوجين، لأنه سواء أذهب الآباء أم حلوا، فسيظل الأطفال. فالطفل، كما قال أولريش بك، قد أصبح «البديل الأخير من الوحدة يمكن أن تتضمنه الاحتمالات المتلاشية للحب» (Beck 1992:118). ومن هنا جاء اهتمامنا المـَرَضي بالمخاطر التي يواجهها الأطفال، ولاسيما الولع الجنسي بالأطفال، والهوس الوطني في بريطانيا عام 2007 بمصير مادلين ماكان،* الطفلة الصغيرة الوحيدة الضعيفة.

---

* مادلين ماكان Madeleine MacCann طفلة بريطانية اختفت في 3 أيار/ مايو 2007 في أثناء نومها مع أخويها التوءمين، بينما كان والداها يتناولان العشاء في مطعم مجاور في منتجع برايا دا لوز جنوبي البرتغال، حيث كانت الأسرة تقضي عطلتها. وبعد 14 شهراً من التحقيقات وعمليات البحث، قررت السلطات القضائية البرتغالية حفظ القضية لعدم كفاية الأدلة ضد المشتبه فيهم، وهم والداها وبريطاني ثالث مقيم في البرتغال، بشأن ارتكاب جريمة. (المحرر)

وبالمثل، تقلصت تحالفاتنا العسكرية. اعتمدت التحالفات فيما مضى على الدفاعات الثابتة، والأجنحة والجبهات والمسارح. وأصبحت ترتكز الآن على المصلحة، وباتت متعددة الأغراض، وعالمية، وقصيرة المدى. وأصبح الافتقار إلى الالتزام ملمحاً لأزماننا المائعة. وبهذا الصدد عبرت **كوادرينيال ديفينس ريفيو** عام 2006 عن تفضيلها القوي لتحويل "التحالفات الثابتة" إلى "شراكات استراتيجية" أكثر تميعاً يتم فيها تقويم الشركاء على أساس المساهمات العسكرية التي يمكن أن يجلبوها للحملة (*QDR* 2006).

ولسوء الحظ، فإن "تحالف الراغبين" أو "الانحيازات التقديرية" تميل إلى تغذية الشراكات العابرة، لا الالتزامات الطويلة. وتساعد تلك الشراكات أعضاءها في تجاوز المخاوف الأمنية الآنية، لكنها لا تعد بشيء يجعلهم أكثر أمناً على المدى الطويل. وبمجرد سريان شعور بانعدام الأمن يكون هناك تردد في تحمل مزيد من الالتزامات.

مثل هذه التحالفات يُظهر أيضاً نفاد الصبر قبل استكمال المهمة والمضي قدماً. وهذا هو بالضبط الموقف الذي وجد فيه قادة حلف الناتو أنفسهم في أفغانستان عقب أن تركت الولايات المتحدة المهمة غير مكتملة، بينما لاتزال حركة طالبان وتنظيم القاعدة في الميدان. ويمكن تتبع نجاح "عملية مِديوسا" منذ مسارعة الحملة الأمريكية الأصلية إلى إسقاط حكومة طالبان في عام 2001. في هذه الحملة خصص الأمريكيون عدداً قليلاً من القوات البرية، معتمدين بقدر أكثر على القوة الجوية الساحقة؛ العِقاب عن بعد، مقارنة بالقهر المادي. لقد أسفرت الهجمات الجوية عن عدد كبير من الخسائر، وشجعت كثيراً من القادة شبه المستقلين داخل طالبان على تغيير مواقفهم. واستطاعت الولايات المتحدة إعادة تنشيط الشبكات العسكرية للجبهة المتحدة* وقيادة الباشتون المعاديتين لطالبان. وعندما سقط نظام طالبان، استطاعت هذه التحالفات المحلية أن تعضد موقفها بسرعة. وظل شمال البلاد وغربها في وضع مستقر نسبياً مذ ذلك الوقت تحت سيطرة أمراء الحرب الذين

* الجبهة المتحدة الإسلامية القومية لتحرير أفغانستان؛ شُكِّلت بعد سيطرة طالبان على كابول عام 1996 من عدد من الفصائل الأفغانية، وتعرف أيضاً إعلامياً باسم "التحالف الشمالي". (المحرر)

هيمنوا على المشهد السياسي في عقد التسعينيات. لكن الجنوب تفتت إلى قيادات مصغرة، ولايزال قادته يستخدمون أساليب الابتزاز والجريمة والمخدرات للدفع لأتباعهم وإبقاء شبكات قوتهم. وأدى تردد "إيساف" في نشر مزيد من القوات في إقليم هِلمند إلى إرغامها على الاعتماد على الجيش الأفغاني الذي لم يكن مهيئاً لملء الفراغ، فملأته طالبان.

ربما نتساءل لماذا كانت الولايات المتحدة في عجلة من أمرها للمضي قدماً؟ يمكن أن نجد الإجابة في رد الجنرال تومي فرانكس عن سؤال طرح عليه في جلسة لم يكن مصرحاً فيها بالنشر، مع ضباط يدرسون في كلية الحرب البحرية في نيوبورت بجزيرة رودي، ربيع عام 2002، بعد قليل من انتهاء أكبر معركة في الحرب الأفغانية وهي "عملية أناكوندا". سأل أحد الضباط: «ما طبيعة الحرب التي تخوضونها في أفغانستان؟»، وأجاب فرانكس: «هذا سؤال وجيه للمؤرخين»، متجنباً السؤال ذاته (Ricks 2006:127). ربما كانت هذه إجابة معقولة من رقيب، لا من جنرال كبير.

يحضر الجنرالات إلى كليات الأركان حيث يتم تعليم الجيش قاعدة كلاوزفيتس التي تقول إنه يتعين على الدول ألا تنخرط أبداً في حرب ما لم تفهم طبيعتها.

ومع ذلك، كان فرانكس يفكر في شأن الحرب المقبلة في العراق التي عقدت الإدارة العزم على خوضها. وهذه هي طبيعة الحياة المائعة. وكما يقول باومان: إن أشد مخاوفنا وأكثرها عناداً هي أن نكون في غفوة؛ أن نخفق في مواكبة الأحداث التي تتطور بسرعة، أو أن نقع في شَرَك عبارة "يُستخدَم قبل تاريخ كذا"، و"انتهاء الصلاحية". لقد كانت أفغانستان في نظر الأمريكيين مثل عبارة "يُستخدَم قبل تاريخ كذا"، بحلول أواخر صيف عام 2002. وكانت المغامرة التالية هي العراق، وربما إيران بعدهما.

ربما لم يكن هذا مهماً لو أن الولايات المتحدة وحلفاءها خصصوا مزيداً من القوات للحملة. إن عدم قيامهم بذلك أقرّ سمة أخرى للحرب في عصر المخاطر. وفي هذا يقول روبرت سميث Rupert Smith، وهو قائد سابق في قوات الأمم المتحدة بالبوسنة: إن أول أولوية للقائد هذه الأيام هي ألا يخسر قوته، لا أن يستخدم القوة بأي تكلفة من أجل

تحقيق هدفه. بطبيعة الحال ليس هناك قائد يرغب في تكبد خسارة أكثر مما هو ضروري. ولكن في القرن العشرين كان ممكناً تعويض الخسائر، فخطوط الإنتاج أتاحت ذلك: التجنيد، ومراكز التدريب، والتشكيلات، والاحتياط في حالة الجنود، وخطوط التجميع الصناعي في حالة الأسلحة التي استخدموها. معظم خطوط الإنتاج هذه قد تم إغلاقها. ولأن القوى الغربية اليوم لا يمكنها تعويض الخسائر، فقد أصبحت تتجنب المخاطر بشكل مفرط. «إننا نقاتل لكي لا نخسر القوة، لأن هذه هي طريقة حرب العصابات: إن تجنيد وتحريك وإعداد جنود ومعدات جديدة أمر مكلف. والساسة في الوطن، في ظل عدم تأكدهم من دعم الشعب لهذا المشروع، يرغبون في تقليص الخسائر، من حيث الجنود والمعدات، إلى الحد المقبول سياسياً في مثل هذه الظروف» (R. Smith 2005:303). ولسوء الحظ، فإن العدد مهم في حملات مواجهة التمرد؛ فهناك حاجة إلى العدد للهيمنة على الأرض والبيئة. ولو أن كتيبة واحدة إضافية فقط توافرت لريتشاردز* لتمكن من وقف هروب طالبان الذي تم بشكل منظم جيداً في أيلول/ سبتمبر 2006.

إن جميع ما أبرزتُه يكشف عن عدم الاستعداد للالتزام، وهي السمة المميزة لهذا العصر. يتحدث ريتشارد سينيت Richard Sennett عن «تأكُّل الشخصية» الذي تبع نهاية فكرة "المدى الطويل" في الاقتصاد الجديد، والعواقب الإنسانية "للمرونة" والتقليص، وثقافة الإدارة الجديدة. مصطلح "ليس على المدى الطويل" يشتت العمل على المدى الطويل، ويرخي روابط الثقة والالتزام، ويفصل الإرادة عن السلوك (Sennett 1998: 31)، فالسلوك المرن الذي يجلب النجاح في السوق يُضعف شخصية الناجح.

ويرى عالم اجتماع آخر أن الشبكات المؤسساتية الحديثة تتسم بسمة «قوة الروابط الضعيفة»، ويعني بذلك أن الأشكال العابرة من الارتباط أكثر فائدة للناس من الصلات الطويلة المدى، وأن الروابط الاجتماعية، مثل الولاء، لم تبق ملزمة (Sennett 1998:24).

---

* الجنرال السير ديفيد ريتشاردز David Richards القائد البريطاني لقوات الناتو في أفغانستان عام 2006 (المحرر).

إن تأكُّل الشخصية أكثر خطراً في ميدان المعركة، بطبيعة الحال، منه في غرف مجالس الإدارة أو في المصانع. وكلما طالت الحملات العسكرية، ازداد شك أعضاء التحالف في تعريضهم للخطر من دون ضرورة. تقاسُم المخاطر هو أحد مقومات [التحالف]، وتكمن المشكلة في أن بعض أعضاء التحالف يكونون مستعدين لتحمل مخاطر أكثر مما يحتمله الآخرون، ويجد بعضهم أنهم يُزجّ بهم في مواجهة المخاطر بسبب المخاطر التي يريد الآخرون تحملها.

لقد أصبح الناتو ذاته تحالف راغبين، حتى عندما تخصص الدول قوات لحملة ما، فإنها في الأغلب تحتاط بنوع من الشروط لاستخدامها. وفي أفغانستان أدى هذا إلى إضعاف المصداقية العملياتية للتحالف، إذ إن بعض الدول لا تسمح لجنودها بمغادرة مقر "إيساف". ولن تسمح دول أخرى بالاشتراك في القتال. ولم تستطع قيادة "إيساف" إخراج الجنود من مركباتهم إلى الشوارع. وحتى عندما تغامر الوحدات بالخروج من ثكناتها، أو فرق إعادة الإعمار الإقليمية، فإنها تفعل ذلك وهي تبالغ في حماية نفسها إلى درجة تبث الخوف في قلوب المواطنين المحليين، وتبدو في الوقت ذاته خائفة منهم، وهذا مزيج كارثي يقوّض مصداقية المهمة.

باختصار، تعد أفغانستان نموذجاً جيداً لتوضيح كيف تقود المخاطر لإعادة تشكيل الحياة السياسية، وتفريغ التحالفات من مضمونها. تحدد المخاطر طريقة تغير الحلف في السنوات الأخيرة، أو ربما أقول "تطور"، ولو أنها توحي بتحسن. ومهما نستخلص من تاريخ السنوات الأخيرة، فإن حلف الناتو هو أقل أهمية وقوة مما كان عليه من عشرين عاماً.

ربما، لو عدنا إلى الوراء لما كان ينبغي أن تكون أفغانستان إحدى مهمات الناتو. وهناك فقرة لافتة في أحد الأعمال العظيمة لنيتشه Neitzsche بعنوان **الإنسان، الكل أيضاً إنسان** *Human, All Too Human* يقول فيها: «إن إسقاط المعتقد لا يتبعه مباشرة إسقاط المؤسسات، بل إن المعتقدات الجديدة تعيش مدة طويلة في المساكن القديمة لأسلافها

الذين حافظوا عليها، بسبب نقص المساكن». (نقلاً عن Schmidtchen 2006:165). وبصرف النظر عن "نقص المساكن" عقب زوال "المعتقد القديم" في الشيوعية، ربما لم يكن حلف الناتو هو أفضل مؤسسة تأخذ بيد الغرب في عصر المخاطر. وربما تكون إدارة المخاطر قد شُتّتت حتى عن اهتمامها الجوهري وهو الأمن الأوربي. وقد أبرز آخرون الطرق المتعددة التي يمكن أن تشتّت بها الإدارة المؤسساتية للمخاطر المنظمات عن عملها الجوهري (Gaskell 2007:107).

ومع ذلك فإن الخطر قد أصبح المبدأ المُنظِّم لصنع قرار التحالف؛ إذ إن المهمات تحدَّد، والشروط الوطنية تُقرّ وفقاً للمخاطر. ولم يعد يُنظر إلى المخاطر فقط بوصفها شيئاً يجب أن يعالجه التحالف، كأن دولة ما قد تنهار، أو كأن دولة ما ترعى الإرهاب، بل أصبحت أيضاً أسلوباً لتنظيم أنشطته الخاصة.

والمشكلة أننا في زماننا المائع نريد من التحالف إرضاءً فورياً، وليس نتائج على المدى الطويل. نريد أن تحدِّد المهمة (التي هي دائماً متغيرة) التحالف، لا أن يحدِّد التحالف المهمة. ثقافة المخاطر تثير هوساً بالحاضر لا بالمستقبل، رغبة محمومة لتأمين اليوم لا الغد. «الحياة المائعة هي تعاقُب بدايات جديدة، ولهذا السبب بالضبط تميل النهايات السريعة غير المؤلمة... لتكون أكثر لحظاتها تحدياً» (Bauman 2005:2). ومن أسف أن النهايات نادراً ما تكون سريعة في الحرب، ونادراً ما تكون غير مؤلمة. فالحروب في الأغلب تكون غير حاسمة؛ وهي لا تنتهي دائماً عندما تتوقف الأعمال العدائية أو يتم التوقيع على هدنة.

المشكلة هي في الوقت بشكل أعم. ففي مجتمعاتنا المائعة مُيِّع الوقت أيضاً. تميل التحالفات المائعة إلى إضعاف التزام كل عضو تجاه شركائه، وزيادة تكلفة الارتباط بهم لمدة طويلة. وهناك تراجع عام في الالتزام. ومن دون الالتزام يسعى كل عضو لتقليص خسائره في الميدان لأقل حجم ممكن. وكما يخبرنا باومان فإن ما يهمنا هو الأشياء الآنية؛ «الأمور الفورية والإرضاء الآني للرغبات، وكلها تترجم إلى ذبول الاهتمام على مر الوقت» (Bauman 2000:118).

نحن مشدودون، ليس إلى المستقبل بل إلى حاضر ربما "لا ينتهي". وكما كتب أجنس هلر Agnes Heller، فيلسوف جامعة ييل: إننا «في عصر ما بعد الحداثة» نعيش في «زمن المضارع المحض» (Heller 1999:83). ووفق عبارة جين لوك نانسي Jean Luc Nancy، نجد كل شيء تاريخانياً 'historical' لكن لا شيء تاريخي 'historic'، لقد فقدنا قوتنا على أن نرى الحاضر موضوعياً بعيون مستقبل نتشوق للوصول إليه (نانسي 1993: 144). لقد أصبح الحاضر موضوعاً ومشكلة في ذاته، وهذا ما يجعل مجتمع المخاطر، على حد وصف بك، انتقادياً جداً للذات.

في الأمكنة الأخرى من العالم يؤثر الماضي في الناس. في غرب البلقان وأفغانستان يجد الغرب نفسه محاصراً ليس بتاريخه فقط، بل بتاريخ هؤلاء الشعوب أيضاً. فالغرب يجلب تاريخه معه، ومن ثم ينبغي ألا نندهش من أنه عندما تتشابك القضايا الجارية ويؤثر بعضها في بعض، يتعين على كل من التاريخين أن يمارس نفوذه.

ما يحدث عندما يجابه مجتمع المخاطر التاريخ يمكن أن نجده في إدراك خيالي قرب نهاية رواية كورت فونيغوت Kurt Vonnegut بعنوان **مهد القطة** Cat's Cradle؛ حيث نسمع فيها صوت تجمد البحر ثلجاً. لكن هذا ليس تجمد المحيط الذي يؤذن بفجر عصر جليدي جديد، إنه نتيجة وضع قطعة من "ثلج 9" [مادة من وحي الخيال العلمي] في الماء، وتحول المحيط من حالة السيولة إلى الصلابة. هناك صوت يشبه إغلاقاً هادئاً لبوابة ضخمة ضخامة السماء، بعدها يغلق باب السماء بهدوء. لقد كانت لحظة اندهاش عظيمة. (Vonnegut 1965:163).

يطلق على مثل هذه التحولات بين السيولة والصلابة "تفاعلات المرحلة" 'phase transactions'. وقد كتب فيليب بول Philip Ball عن مثل هذه التفاعلات في المجتمع، وكذلك كتّاب كُثر. وقد أسماها مالكولم غلادويل Malkolm Gladwell "نقاط التحول" 'tipping points' في الاتجاهات والمعايير والأمور الدارجة. وحتى مصطلح "تحولات المنظور" 'paradigm shifts' لتوماس كون Thomas Kuhn قد أطلق عليها تفاعلات

المرحلة. وهذا المصطلح ليس استعارة مناسبة تماماً لتحول مفاجئ في أشكال السلوك والتفكير، فتحولات المرحلة تحدث فعلياً (Ball 2004:102).

وهذا ما يرمي إليه فونيغوت. هذه هي طبيعة التجمد. إنها مفاجئة. المادة إما سائلة (ومتحركة) بمعنى أنها فوق نقطة الذوبان، وإما أنها صلبة جامدة تحت نقطة الذوبان، وليس هناك شيء وسط بينهما، والماء لا يصبح ثقيل الحركة قبل أن يتحول إلى ثلج. هناك حالة اندهاش وصدمة أيضاً في السياسة، و يحدث ذلك عندما يحاول المجتمع الدولي إدارة المخاطر التي تنتجها السياسة المحلية، ويجد نفسه عالقاً لا يستطيع الحركة.

الخلاصة

آمل أن تكون دراسات الحالة الثلاث التي قدمتُها قد أوضحت أن عصر المخاطر الذي نعيشه اليوم يهتم بـ«إدارة المخاطر في كل شيء» (Gaskell 2007:92). إن القضايا السياسية الجوهرية في كل مجتمعاتنا هي تقليص أو تبرير للمخاطر التي يُطلب منا إدارتها. لقد أضحت المخاطر هي اللغة الشائعة للحياة الحديثة. فأصبحت لغة الأعمال، والسياسة، والسياسات العامة، ومن ثم ينبغي ألا نندهش من أن تصبح لغة الحرب كذلك.

دراسات الحالة الثلاث هي أيضاً نماذج لما يُطلق عليه "استيطان المخاطر" 'risk colonization' (Gaskell 2007:93)، وهو مصطلح تمت استعارته من الدراسات التنظيمية؛ حيث يستخدم ليصف الضغوط الخارجية للتغيير التي تخترق "الشفرات الوراثية" للمنظمات وتتغلغل فيها، وتُحدث تحولاً في شكلها وممارساتها الأساسية. إن منطق استيطان المخاطر قد غيّر بشكل أساسي المفاهيم التقليدية للأمن منذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وقاد إلى مفهوم الحرب "الطويلة" أو "الحرب التي لا تنتهي"؛ سياسة غير استراتيجية، تحركها التكتيكات لإدارة المخاطر، سياسة تغرق الغرب في عملية لا نهاية لها من إدارة المخاطر. مجتمع المخاطر بالضرورة هو مجتمع معني بالسلامة؛ مجتمع في حالة دفاعية دائمة.

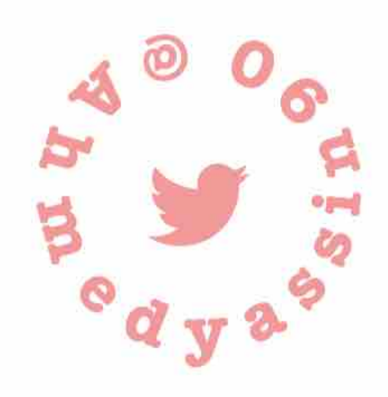
تدفع المخاطر أيضاً إلى تطور المؤسسات المصممة لمعالجة تلك المخاطر. وقد أكد واضعو النظريات في كلية شيكاغو أن الممارسات التنظيمية القوية تشكل اللوائح وفق مصالحها (Gaskell 2007:95). ذلك أن جماعات الضغط لها مصالح مباشرة في توسيع لوائح المخاطر. وبما أن إدارة المخاطر تعتمد إلى حد كبير على معرفة المخاطر "الموجودة"، يمكن أن تولد المعرفة بدورها مزيداً من المخاطر التي تتعين معالجتها، وإدارتها، وتنظيمها، والسيطرة عليها. وفي حالة الحرب، فإن هذا قد أعلى من شأن العقيدة "الاستباقية" التي تعود بجذورها إلى المبدأ الاحترازي، وهي نتاج آخر لعصر المخاطر الذي أصبح جزءاً من قانون البيئة في عام 1992. لقد أصبحت العقيدة الاستباقية سمة للحروب الحديثة، من الهجوم الياباني على بيرل هاربر عام 1941، إلى هجوم إسرائيل على جيرانها العرب عام 1967. ولكن "الاستباقية" لم تكن قط ملاذ الأقوياء.

يتم حالياً، وبشكل متزايد، تطبيق لغة وطريقة تحليل المخاطر، ليس فقط على الطريقة التي نرى بها الحرب، ولكن أيضاً على الطريقة التي ندير بها الحرب. وقد أشار بعضهم إلى هذه المفارقة بـ"ثنائية المخاطر" (Gaskell 2007:93). واقتناعاً من الحكومات بأنه من الأفضل إدارة المخاطر من خلال هيئات متنوعة، فإنها تقوم الآن بتوزيع المخاطر على الآخرين: على حكومات أخرى في حالة التعذيب (يُطلق عليه "التسليم الاستثنائي" 'extraordinary rendition')، وعلى شركات المقاولات الأمنية أو "تحالفات الفاتورة" 'coalitions of the Billing'، وحتى على مواطنيها (مثل خطة المراقبة المجتمعية التي يقوم بموجبها المواطنون طوعاً بإبلاغ وزارة الأمن الداخلي عند اشتباههم في أي شخص). وإذا كان عصر المخاطر يشكل الطريقة التي نرى بها العالم، فإنه قد بدأ أيضاً يعيد تشكيل العسكريين أنفسهم، من حيث الروح والتدريب، كما سأوضح في الفصل قبل الأخير.

آمل أن تكون دراسات الحالة الثلاث قد أوضحت مدى إعادة تعليب - أو إعادة تسويق - الحرب في عصر المخاطر. هناك إطار عام يربط هذه الرؤى في نظرية أو نموذج

واحد؛ نوع من النظرية الموحدة لكل شيء. إنه نموذج أصبح شائعاً في عقد التسعينيات بفضل عدد من الكتّاب، لعل أهمهم عالم الاجتماع البريطاني أنتوني جيدنز، وكاتبان ألمانيان هما: نيكلاس لومان Nicklas Luhmann وأولريش بك. ويسعى هذا الكتاب إلى فهم الحرب في تطورها الذي شهدته ولاتزال تمر به. إنه محاولة من قبل متخصص في العلوم السياسية، وليس عالم اجتماع، لقراءة عصرنا بالطريقة التي يقرأ بها ناقد نصاً ما.

ومع ذلك فإن عصر المخاطر لم يحلَّ علينا فجأة؛ إذ إن له تاريخاً، مثل أي شيء آخر، وأول شيء يتعين علينا فعله هو دراسة هذا التاريخ. ولعل الرحلة الحقيقية (للاستكشاف) كما يرى مارسل براوست Marcel Proust، ليست في البحث عن مناظر جديدة، ولكن في رؤية المناظر القديمة بعيون جديدة. وعليه، نحن بحاجة إلى رؤية الماضي بطريقة جديدة لكي نرى أصول عصر المخاطر.


@Ahmedyassin90

الفصل الثاني

التعقيد والحرب

«مع أن الإنسان يتطور بقوة، ويبدو أنـه يقفـز مـن تنـاقض إلى تـالٍ، فـإن الملاحظـة الدقيقة سوف تكشف عن التشابك والتداخل؛ حيث يبزغ بناء جديد من رحم بناء قـديم. وهذه هي مهمة مؤرخ الحياة، إذ يجب عليه أن يفكـر في الحيـاة محـل التـساؤل؛ في مبـدأ أن الطبيعة لا تقفز أبداً».

Nietzshe, *Human All Too Human,* The Wonderer and his Shadow' Section 198

كتب إمرسون* إلى والت وايتمان** عام 1855 قائلاً: «أحييك في بداية مهنة عظيمة، من المؤكد أنه كانت لديك "خلفية" 'foreground' طويلة في أمكنـة كثـيرة لتنطلـق بهـذه الطريقة» (Bloom 1999:737). لم تكن الخلفية التي رآها إمرسون في مهنـة وايـتمان، كـما أوضح في استخدامه الفريد للكلمـة، تعنـي الخلفيـة 'background' العلميـة والتعليميـة والاجتماعية وغيرها. يستخدم المؤرخون كلمة 'foreground' لشرح السياق الـذي علينـا أن نحدد فيه الأحـداث، سـواء أكانـت سياسـية أم اجتماعيـة أم اقتـصادية أم ثقافيـة. أمـا إمرسون فيعني خلفية زمنية من نوع آخر، يتم فيها إبـراز منطـق الأشـياء. وتعنـي صـيغة الفعل من كلمة 'foreground' تعزيز جوانب مميزة من ظاهرة ما، أو جذب الانتباه عليها، وهذا ما ينبغي أن نفعله في حالة عصر المخاطر، وفي الحالة الخاصة بالحرب تحديداً، بإدراك ووعي دقيقين للتعقيد المتنامي للعالم والمخاطر المتزايـدة المـصاحبة لخـوض الحـرب، عـلى

* ربما يكون المقصود رالف والدو إمرسون Ralph Waldo Emerson (1803 – 1882): كاتب وشاعر وفيلسوف أمريكي.

** والت ويتمان Walt Whitman (1819 – 1892): كاتب وشاعر أمريكي.

الأقل (وربما فقط) بالنسبة للقوى الكبرى. لم يظهر عصر المخاطر من فراغ، لقد مر بمرحلة حمل طويلة، ولم يكن شيئاً لم يحدث التفكير فيه أو غير متوقع. وفي هذا الشأن يقول الفيلسوف الفرنسي ألان باديو Alain Badiou: إن عصر المخاطر «لم يكن بعيداً عن الأفكار الملازمة لقرننا» (Badiou 2007:3).

وليام جيمس يلمح لنهاية الحرب

في عام 1910، عهدت الجمعية الأمريكية للتوفيق الدولي American Association for International Conciliation إلى الفيلسوف الأمريكي وليام جيمس William James كتابة مذكرة، وهي التي نعرفها اليوم بأنها مقاله حول **المعادل الأخلاقي للحرب** *The Moral Equivalent of War*. لقد كان جيمس يؤمن شخصياً بالسلم ورفض الحرب، وكان الرجل المسالم في عصره. وكانت آراؤه نتاجاً لعصر وسياق مختلفين تماماً عن عصرنا؛ إذ أقر بأنه معجب بالصفات العسكرية؛ مثل: السلوك الجسور، وازدراء النعومة، وطاعة القيادة. وأضاف قوله: إن «العاطفة التنافسية هي قدَرنا»، فنحن كائنات تنافسية بطبعها (Wilshire 1984:350). ومن الواضح أن أكثر ما أغرى جيمس فيما يتعلق بالعاطفة التنافسية أنها أدخلت لحظات قليلة من المرح على الحياة المملة والرتيبة. فقد أتاحت الحرب لبعضهم العيش مدة في مستوى مرتفع على نحو غير اعتيادي من الإثارة. وحقيقة أننا مانزال لا نجد معادلاً أخلاقياً للحرب توضح جاذبيتها المستمرة.

جيمس هو رمز مهم لأنه كان مفكراً نفعياً، وحظي مذهب النفعية باهتمام كبير في زمن ما بعد عصر الميتافيزيقا، وهو عصر مثل عصرنا أدار ظهره للقضايا الكبرى والأفكار المثلى. وقد كان الحوار الأنغلوأمريكي بشأن الحرب منذ أواخر القرن التاسع عشر أداتياً instrumental أو نفعياً utilitarian إلى حد كبير. لقد حددنا غايات (مثل أن نجعل العالم آمناً للديمقراطية)، ونتساءل كيف يمكن تحقيقها؟ بالنسبة لنا، الحرب وسيلة لغاية، وليست غاية في ذاتها كما كانت بالنسبة للفاشية، ولاتزال كذلك اليوم بالنسبة لكثير من الإرهابيين. يجدر بنا إيضاح أن جيمس اعتقد أن الحرب جزء من مأساة الحياة. وهذا لا يعني أنها جزء

ثابت من الكينونة الإنسانية. وقد دعانا لتصور عالم من دون حرب. الأمر المهم في الأحلام هو أنها تتطلب جهداً، ويجب أن يُبنى الجهد على الفارق بين العالم الذي نراه والعالم الذي نفضله. وهذه القدرة على رؤية العالم على غير ما هو عليه هي التي تميزنا من حيث نحن كائنات. ومع ذلك، فهناك مسؤولية مساوية لمواجهة الواقع. ويصر جيمس أنه ينبغي تحويل الآمال، مثل السلام، إلى واقع في الخبرة البشرية، لا أن تبقى مجرد آمال بشرية.

بعبارة أخرى، كان جيمس براغماتياً راقياً، وكانت قضيته ضد الحرب أخلاقية فقط بقدر اعتقاده العواقبَ المترتبة عليها. إذ إن الممارسة عادة ما تعد سليمة (أو صحيحة) إذا ما كان القيام بها مفيداً. والفكرة عادة ما تعد سليمة إذا ما كان اعتقادها يعود بفائدة. «الصحيح هو فقط الملائم لطريقة تفكيرنا... التزامنا بالبحث عن الحقيقة بصفتها جزءاً من الالتزام العام بفعل ما يعود بالفائدة» (Wilshire 1984:350). يجب علينا توخي الحذر في رفض أي فكرة إذا ما كانت هناك فائدة مستمرة في اعتقادها.

وعلى رغم أن بعض النقاد قد نفروا من لغة جيمس، فإنها كانت جزءاً مهماً من الرغبة الأمريكية المميزة في التعمق الفلسفي ومواكبة العصر في الوقت ذاته. وقد أصرّ أوليفر وندل هولمز Oliver Wendell Holmes (كاتب معاصر) على أن «أفضل اختبار للحقيقة هو قدرة الفكر على أن يجعل نفسه مقبولاً في منافسة السوق» (Lieven and Hulsman 2006:3). وما ميز الفكر الأمريكي كثيراً هو أن السوق كانت تُحرك صوته، بل تعبيراته. وقد وظف الكتّاب، عن قصد، مصطلحات السوق بوصفها وسيلة، أكثر من كونها رسالة، لإيصال الأفكار إلى رجل الشارع العادي الذي لايزال بمأمن من الخطر الحالّ بالاختفاء في عالم الـ"آي بود" الذي يتسم بالهويات المخفية وبالتشابه.

يخلص جيمس في قراءته الخاصة للتاريخ إلى أن الحرب الحديثة قد أصبحت غير مجدية، وأصبحت موقعة للخطر بفعل تعقيد الحياة الحديثة. فالحرب تتطلب من الأطراف المتحاربة تحمل مزيد من المخاطر. وقد أصبحت الآن «مكلفة جداً حتى إننا نشعر أن التجارة مجال أفضل للنهب» (Wilshire 1984:350). ربما جلبت "حروب القرصنة" في

الماضي ربحاً، لكن الاقتصاديين الأنغلوساكسونيين، وجدوا الآن أن الربحية في وقت السلم أكثر عائداً من القرصنة. «ليست هناك (لأي من القوى) مصلحة شرعية تبرر التدمير الهائل الذي تنطوي عليه الحرب». ويصر جيمس على أنه يجب أن تستبدل بالطموح المبالغ فيه «ادعاءات معقولة». الدولتان الوحيدتان اللتان لاتزالان مصرتين، على ما يبدو، على الغنيمة والسلب هما ألمانيا واليابان (Wilshire 1984:351)، وحتى هاتان ستجدان الحرب غير مجدية إذا حاولتا تجريبها.

هل كان جيمس ساذجاً؟ هناك أمر واحد نعرفه: المرحلة التي سبقت عام 1914 كانت أكثر عولمة من عصرنا في بعض المناحي؛ مثل: التجارة العالمية في نسبة من الناتج القومي الإجمالي، وتدفُّق رؤوس الأموال عبر الدول نسبةً من إجمالي رأس المال العالمي، ومعدل الهجرة بين الدول مقابل معدل نمو سكان العالم. ولأول مرة في التاريخ، كان هناك دليل على تلاقي أسعار السلع عبر العالم، تمثل بظهور "قانون السعر الواحد" بوصفه عنصراً اقتصادياً أساسياً للحديث عن تكامل السوق (Krugman 1998:73).

بمرور الوقت، أوجدت الثورة الصناعية "اهتماماً قوياً بالسلام"، وهذه نقطة أكدها كتّاب لاحقون، ومنهم كارل بولانيي Karl Polanyi في كتابه ذي العنوان **التحول العظيم** *The Great Transformation* الذي نشر في ذروة الحرب العالمية الثانية. كما أن السمة الدولية لكثير من الصناعات الجديدة، ولاسيما السكك الحديدية، والشحن، والأدوية، وتطور سوق السندات التي تحمل جزءاً كبيراً من معظم الديون العامة للحكومات، قد جعلت الاقتصاد الدولي أكثر تعقيداً من ذي قبل، وزادت من مخاطر الحرب بصورة كبيرة. في حالة نشوب حرب عامة في أوربا، أصر المصرفيون على أنه لا يمكن السماح للعمليات العسكرية بأن تستمر لأكثر من ستة أشهر، فاحتياطيات الذهب سوف تنفد بسرعة (كانت العملات الذهبية شائعة عام 1914)، ولن تجد الحكومات مفراً من طبع نقود، وهو ما سيعني تضخماً سريعاً جداً (Stone 2007:30).

لم يخطئ المصرفيون. فعلى رغم أنه ربما تكون جرت المبالغة في الأمر، فإن التقويم التاريخي يكشف أن الحرب قد دمرت معظم الاقتصادات، ولاسيما الاقتصاد البريطاني. لقد شهد القرن التاسع عشر تغيرات محورية في طبيعة الاقتصاد كلها، أحدثت نقطة فارقة بين عصر ما قبل الصناعة وعصر الصناعة. والمفتاح دائماً هو التعقيد؛ "تعميق" الاستثمارات، وبدء التغيرات الفنية في الأعمال التي شملت تغيرات كبيرة في "وظائف الإنتاج" (Mathias 1967:4). اشتمل النظام الدولي على انقسام متنامٍ للعمالة، دفعته وعززته العولمة (التي كانت في مراحلها المبكرة) التي عمقت وكثفت العلاقات المتداخلة والاعتماد المتبادل. بعبارة أخرى، بدأت التغيرات الكمية في العلاقات التجارية الراسخة تنتج تحولاً نوعياً في الحياة العالمية.

أخذت سمعة جيمس تتأذى، ونعرف كيف انتهت القصة. وفي الأغلب تصبح السمعة واقعاً أيضاً، فإذا اشتهرت بأنك ماكر فسيتم إدراجك تحت هذه الهوية في النهاية. ومع ذلك، كان جيمس يعبر عن معتقد شائع في ذلك الوقت، وجد أقوى تعبير له في كتاب نورمان أنجل Norman Angell تحت عنوان **الوهم الكبير** *The Great Illusion*. كانت الحرب بالأساس معاملة تجارية أثبتت فائدتها، «لقد أصبح التمويل الدولي يتسم بالاعتماد المتبادل، ويتشابك بشدة مع التجارة والصناعة... حتى إن القوتين السياسية والعسكرية لا يمكنهما في الواقع فعل شيء»، «الحقائق الصغيرة المدركة، وبشكل أساسي تلك النتائج الناجمة من الظروف الحداثية الصرف (سرعة الاتصالات التي تخلق تعقيداً كبيراً وهشاشة النظام الائتماني)، قد جعلت مشكلات السياسة الدولية مختلفة عما كانت عليه من قبل بشكل عميق وجوهري» (Howard 2007:48).

قد كان لعمل أنجل أثر هائل؛ إذ تُرجم كتابه إلى خمس وعشرين لغة، وبيع منه مليونا نسخة، وبخاصة في بريطانيا التي كانت أكثر دولة معولمة في العالم عصرئذ، وكانت دولة واعية على نحو خاص بالتعقيد المتنامي للاقتصاد العالمي. وعلى رغم أنها ربما جاءت خلف الولايات المتحدة وألمانيا في التصنيع، فقد ظلت هي القوة المهيمنة في عالم المصارف

والتأمين والشحن. وقد عوضت صادراتُها غير المنظورة أكثر ما فقدته جراء تراجع قاعدتها الصناعية. واحتاجت التجارة غير المنظورة إلى استقرار السوق.

ما لاحظه جيمس هو كيف أنتجت الرأسمالية المتأخرة تحولاً جوهرياً في طبيعة قوة الدولة. فنقطة الانطلاق للتنمية في أي دولة هي الحكومة، وما أطلق عليه ماكس فيبر احتكار القهر الشرعي على إقليم محدد. ولكن، عندما تشرع الدولة في القسر والإكراه («الحرب تصنع الدولة والدولة تصنع الحرب»، كما يذكرنا تشارلز تيلي Charles Tilly)، سرعان ما تجد الدولة الصناعية الحديثة أنه يتعين عليها تقييد ممارستها للقوة في أمور المصالح المتعلقة بالنمو الاقتصادي الطويل المدى. وما يميز الدولة الحديثة الفعالة حقاً هو فرضها قيوداً على نفسها بقدر قدرتها على إرغام الآخرين.

الجانب الذي أخطأ فيه جيمس وأنجل لم يقتصر فقط على ضيق أفق تحليلهما، بل تطبيقه على المشهد الأوربي المعاصر. فهما، في المقام الأول، أفرطا في التركيز على الاقتصاد، ولم يركزا على الأفكار بشكل كافٍ. لقد تميز القرن العشرون بتبلور الأفكار بشكل مركز. فالقومية، والشيوعية، والفاشية، كلها أخرجت العولمة عن مسارها في الثلاثينيات. وفي المقام الثاني، تجاهل جيمس وأنجل مدى القوة التي راكمتها القوى الأوربية العظمى عبر القرن التاسع عشر، إلى درجة أنه ربما ينتهي الأمر بتنافس أكبر بينها. لقد أدرك نيتشه أن الحروب العالمية ستقع، وأطلق عليها "وخز ضمير القرن العشرين للسياسة الكبرى". وتضمنت الأفكار العظيمة أكثر فكرة إغراءً وإقناعاً من بين الأفكار جميعاً، ألا وهي: عالم من دون حرب.

بُنيت الحروب العالمية التي تبعت ذلك على رغبة عالمية في القوة أدت إلى استنزاف القوى العظمى، وعاد بنا المسار التاريخي إلى عصر التنوير. ذلك أنه على رغم أن الرحلات العظمى في القرن الثامن عشر، وأشهرها رحلات بوجانفيل وكوك إلى المحيط الهادي، ربما كانت مدفوعة بالإلهام العلمي، فإنها قدّمت معلومات مكّنت من التوسع الاستعماري اللاحق. فالمعرفة بالعالم الخارجي قادت بسرعة إلى محاولة السيطرة عليه. وفي القرن التاسع

عشر تم احتواء هذه النزعة التوسعية في إطار قواعد، تمثلت بتحالف فضفاض من القيم والدين والمصالح، مكّنت القوى الاستعمارية الكبرى من التوسع من دون الوقوع في صراع فيما بينها. وجرى توجيه القوة الصناعية إلى الخارج أكثر من إهدارها في التنافس الدولي الذي استهلك كثيراً من الثلاثمئة عام السابقة. وبحلول عام 1914، استحوذت هذه الدول بشكل مباشر أو غير مباشر على 84٪ من الكرة الأرضية.

شهدت إفريقيا آخر اغتصاب رئيسي لأرضها في إطار تلك القواعد. إذ تحولت الإمبريالية في إفريقيا إلى سباق بعد عام 1870: "هرولة" للبريطانيين، و"سباق خيول" للفرنسيين، و"لحظة ذعر" للواصلين متأخرين؛ الألمان الذين كان الأمر بالنسبة إليهم أشبه بسباق للوصول إلى الجانب الآخر قبل أن يوصد التاريخ أبوابه. وقد تم إبراز هذا الهوس بجلاء في فيلم جون بورمان John Borman **الأمل والمجد** *Hope and Glory* (1987) الذي يصف طفولة بيلي روهان في وقت الحرب، فهو ولدٌ مصمم على مواصلة اعتزازه بكونه بريطانياً على رغم الغارات الجوية على المدن البريطانية، في ظل ساتر للحماية في الأعلى وقناع للغاز تحت مكتبه المدرسي. تسأل المعلمة مشيرة إلى المناطق الملونة باللون القرنفلي على خريطة العالم: «ما نسبة سطح الكرة الأرضية التي يستحوذ عليها البريطانيون؟». لم يعرف بيلي الإجابة، لكن جنيفر، التلميذة النجيبة في المدرسة، تعرف وتجيب: «خُمسا سطح الأرض». ترد إيفانز، معلمة الفصل: «خمسا سطح الأرض ملكنا؛ يقاتل الرجال ويموتون لحفظ المناطق الملونة بالقرنفلي لكم». تم تلوين تلك المناطق باللون القرنفلي نظراً للاستثمارات الوطنية الاستثنائية.

شهدت الحرب العالمية الأولى اغتصاباً للأراضي التي تبقت من العالم؛ في منطقة بحر الأدرياتي، وأوربا الشرقية، والشرق الأوسط. وتضمنت الحرب العالمية الثانية أيضاً اغتصاباً آخر للأرض، وهذه المرة من قبل ألمانيا النازية واليابان الإمبريالية، وعن قريب من انتهائها تفككت الإمبراطوريات العالمية وأسفرت عن ميلاد نظام عالمي نعيشه اليوم، يتعين فيه على الدول تحديد قوتها في الداخل وفي الخارج لكي تحقق إمكانيتها في السوق.

تتطلب الرشادة الاقتصادية نمو مؤسسات مثل منظمة التجارة العالمية والبنك الدولي، وتلك المؤسسات تتطلب، بدورها، أن يدرك أعضاؤها أنه ينبغي أن تكون المصلحة الذاتية وليس تحقيق الرغبات السياسية، هي أساس صنع القرار السياسي. وهذه المؤسسات تميل بدورها إلى تشجيع مزيد من الشفافية في عملياتها والثقة بين أعضائها. ولو كان جيمس حياً بيننا اليوم لرأى أنه محق.

دعونا نعد إلى رأيه الثاني عن أن الحرب لم تمسِ فقط غير مربحة، بل أصبحت، بالتحديد، محرجة أيضاً. لقد أعيدت تسمية وزارات الحرب لتصبح وزارات الدفاع. ويضيف: «إن السلب المحض والسيطرة السياسية» لم يبقيا «هدفين مقبولين أخلاقياً»، على الأقل بالنسبة للبلدين اللذين يعرفهما جيداً، وهما بريطانيا والولايات المتحدة. وقد أشار مؤلفون آخرون إلى هذه النقطة (Wilshire 1984: 351). ولكن ما لم يقدِّره جيمس هو المدى الذي بلغته القوى العظمى في محاولتها فرض نظام على عالم غير منظم. وفي هذا يشرح كوينسي رايت Quincy Wright: «تميل الحرب الحديثة لتكون حول الكلمات أكثر من الأشياء؛ حول الإمكانيات والآمال والتطلعات، أكثر من الحقائق والمظالم والظروف» (C. H. Gray 1997:97).

ما ميز الأمريكيين هو أنهم كانوا يحلمون للشعوب الأخرى، وليس لأنفسهم فقط. وما وعدوا به هو طلاق بائن مع الماضي، تاريخ ما عاد يسأل ما الذي تقاتل المجتمعات ضده، بل ما الذي يقاتلون من أجله. زعم وودرو ويلسون أن هدف أمريكا الوحيد من الحرب عندما أعلن الكونغرس الحرب على ألمانيا في نيسان/ إبريل 1917، هو «صون مبادئ السلام والحرية». وأكد أنه لم يكن لدى الولايات المتحدة مقصد أناني، ولم تسعَ لمقابل أو تطالب بتعويض عن التضحيات التي تقدمها (Hagen 2007:106). وما أصرت عليه هو نظام عالمي جديد يتم فيه حظر الحرب.

وهناك تفسير في علم الاجتماع يوضح هذا. لقد تنبأ كانط أنه عندما تزيح الطبقة المتوسطة الطبقة الأرستقراطية من السلطة، فإن الحرب، بصفتها ماضياً أرستقراطياً، سوف

تنتهي. لكن الطبقات المتوسطة كانت لها أحلامها المبنية على الغرور الكانطي من جهة أن الجمهوريات (أي الديمقراطيات) لا تتحارب. وإذا كان هناك مكان للفرسان في العصر الحديث، فهو مجرد وسيلة لتحسين المكانة الاجتماعية. وفي هذا قال الرئيس جون تايلور في عام 1852: «من الأفضل أن نعلن أنفسنا فرساناً للحرية وننظم حملة ضد الحكومات الاستبدادية». كان ثمة مجال باقٍ لاستخدام السيف، ولكن فقط لتحقيق ما وصف بأنه "عقائد النزعة الجمهورية". وكان الهدف المشروع الوحيد للحرب هو تحسين المصير الإنساني. الحرب يمكن أن تُعلِّم الشعوب الحرية أو تهيِّئهم لها. وكان هناك كثير من التنويعات على هذا الموضوع. وتظل عبارة ويلسون الرنانة «جعل العالم آمناً للديمقراطية» هي أشهر تعبير بهذا الصدد.

أتيح لكارل ماركس الشاب أن يرى إشارة قوية لهذه الرؤية عندما كان يعمل مراسلاً في لندن لصحيفة **نيويورك ديلي تريبيون** *New York Daily Tribune*. في عام 1856، غطى ماركس نقاشاً برلمانياً بشأن الحرب التي عرفت باسم "حرب السهم" (1856-1860) بين الإمبراطورية الصينية المتداعية والعالم الحديث (في صورة بريطانيا وفرنسا). ومع أن سبب نشوب الحرب كان هو التجارة الحرة، فإن الصراع قد استُغِل من قبل البِنثاميين* الراديكاليين، في فرصة فريدة لإرغام الصين على المضي قدماً نحو المستقبل. لقد كانت المعارضة المحافظة هي التي انتقدت الحكومة الليبرالية على تفكيرها في أن الحرب يمكن - أو ينبغي - أن تخاض لمصلحة الإنسانية. وسارع ماركس إلى التهكم قائلاً: «إيرل ديربي، رئيس أرستقراطية إنجلترا بالوراثة يدَّعي ضد بنثام ناشداً الإنسانية، وليس المساعدات الإنسانية التي تفيد الجموع، وربما يعاني في ظلها الفرد... منجذباً إلى الرأي العام؛ إلى صوت الله، ضد أعظم فائدة لأكبر عدد من الناس. سليل الغزاة يدعو إلى السلام، بينما يدعو عضو في "جمعية السلام" إلى معاقبة من يرتكبون أعمالاً غير إنسانية» (Hurd 1967:56).

---

* إشارة إلى مؤيدي الفيلسوف الإنجليزي النفعي جيرمي بنثام Geremy Bentham (1748 - 1832) (المترجم).

من المفارقة بطبيعة الحال أن تتحول المغالاة في المصلحة الوطنية، باعتبارها عاملاً شرعياً للحرب، إلى مشروع للنخب البرجوازية المحتقرة، وليس للجموع الكادحة. ولكن، كما يقول بيير روزانفالون Pierre Rosanvallon، فإنه بمجرد أن نتوقف عن التفكير في الليبرالية من حيث هي عقيدة، ونعدها نمطاً للفكر أو مجالاً للرؤية، عندئذ يترابط كل شيء. إن الليبرالية الاقتصادية (السوق المفتوحة)، والتحويل إلى الديمقراطية (العقول المفتوحة)، وبناء الدولة (الحكومة المفتوحة)، تبدو متشابكة جداً إلى درجة أن بعضها لا ينفصل عن بعض (Trouillot 2003:54). وللروائي روبرت موسيل Robert Musil عبارة لطيفة في هذا الأمر عندما أطلق على الحرية الأخلاقية اسم «ملحق فلسفي للحرية التجارية» (Musil 1979:361).

يمكن أن يلام جيمس لإخفاقه في إدراك أن هذا يفرض استخدام القوة على مستوى مختلف تماماً. فقد أخفق في ملاحظة كيف أن الأخلاقيات أصبحت مصدراً للقوة، وكذلك الأساس الرئيسي للإقدام على المخاطر؛ إذ تقتضي الأخلاقيات إلغاء الحرب في المستقبل، إنه الوعد بأنه ربما يتم في وقت قريب وضع العلاقات فيما بين الدول في مستوى جديد تماماً وخالٍ من المخاطر. ولكي يقلب أولريش بك مبدأ كلاوزفيتس كتب: «العنف العسكري... هو استمرار لأخلاقيات حقوق الإنسان بطرائق أخرى» (Beck 2005:233). وقبل أن تصبح عبارة "حقوق الإنسان" عبارة دارجة، أو حتى مفهوماً، بدأ الغرب صياغة متطلبات أخلاقية لسلوكيات الآخرين. أصبحت الحرب شيئاً لم تكن إياه من قبل؛ طريقة لجعل الآخرين لا يدركون فقط ما هو منطقي، بل لكي يتقبلوا أيضاً آراء الثقافات الأخرى. وباتت طريقة لإقناع المجتمعات العنيدة بالتصرف بأسلوب أكثر "عقلانية".

ربما لم تلهم محن الآخرين الدول الغربية فعلياً إلى درجة التفكير في عمل عسكري حتى بعد عام 1914، إلا أنه يمكن تتبع ما يصفه أحد المؤرخين بـ"إثارة الرعب" التي سرت في الرأي العام البريطاني من وقت إلى آخر، استجابة للفظائع التي عاناها الأرمن في

أوائل تسعينيات القرن التاسع عشر. ويقال إن غلادستون وهو على فراش الموت قد تمتم: «هؤلاء الأرمن المساكين»؛ ربما أول مرة يفعلها رئيس وزراء بريطاني سابق. لكن دعاة «معاقبة مرتكبي الأعمال غير الإنسانية» قد عادوا مرة أخرى في كوسوفو بعد 150 عاماً من أجل مبدأ إنساني آخر هو معاقبة "التطهير العرقي".

ما تغير في السنوات الأخيرة، على رغم الحديث عن حقوق الإنسان والحوكمة العالمية والمجتمع المدني العالمي، هو أن الغرب بات أكثر حصافة فيما يتعلق باستخدام القوة. صارت الحرب حول المصالح لا القيم. ويتم الآن استخدام القوة العسكرية بشكل كبير لغاية واحدة، واحدة فقط، وهي إدارة المناطق الهائجة، المناطق الرمادية الغامضة، الدول الهشة والمجتمعات الفاشلة التي تنبع منها المخاطر الرئيسية التي تواجه الغرب. وتم تقليص الحرب مثلما جرى تقليص طموحنا الاستراتيجي، فلم يعد الغرب يهتم ببناء نظام عالمي جديد، ولكن إدارة اللانظام العالمي. حتى في الولايات المتحدة، أدرك المحافظون الجدد، آخر الفرسان الراغبين في المغامرة لإعادة تشكيل العالم بالصورة التي يرونها، أن شن حرب على اللاإنسانية هو مهمة لا طائل منها. والمهمة حالياً هي الحد من حالة اللاإنسانية. المهمة، كما تقول كوندوليزا رايس، ليست جعل العالم مثالياً، بل جعله أكثر أمناً قليلاً.

لنعد إلى مقالة جيمس مرة أخرى. يرى جيمس في النقطة الثالثة من نقاشه أن العالم بات معقداً جداً، وأن الحرب صارت خطرة حتى إنها تستوجب على القوى العظمى الآن تسليح نفسها، لا لكي تخوض الحرب بل لردع الآخرين عن خوض حروب ضدها. لقد سلحت نفسها فقط لتشجيع السلام: «ربما يمكن القول إن استعداد الأمة التنافسي القوي للحرب هو الحرب الحقيقية الدائمة التي لا تتوقف، وإن المعارك ما هي إلا نوع من التحقق العام من الهيمنة التي تم اكتسابها خلال زمن السلام» (Wilshire 1984:350). الرأي ذاته استوعبه عدد متنوع من الكتّاب، من نيتشه إلى إنجلز الذي فهم أن سباق التسلح قد أمّن الردع وأضعف الحرب في الوقت ذاته. ما رآه هؤلاء الكتاب هو عالم كان يسلح نفسه لتجنب الحرب لا لإثارتها.

كل هذا كان يمكن أن يحيّر المناصر الكبير للسلام الدائم، إيمانويل كانط. ففي كتابه المعنون **بداية تكهنية للتاريخ الإنساني** *Speculative Beginning of Human History* (1768)، يرى أن أعظم شر هو ذلك الذي تستقيه الشعوب المتحضرة، ليس من الحرب الفعلية، الحالية أو الماضية، بل من التسلح المستمر دونما نهاية من أجل الحروب المستقبلية (Smith 2007:82). لكن جيمس لم يكن فيلسوفاً من أتباع كانط، ولم يكن لديه متسع من الوقت للمبادئ الميتافيزيقية، أو الحتميات النوعية،* لقد كان واقعياً، وآمن بأن المنهج الواقعي للعلاقات ما بين الأمم هو وحده المنهج الجاد أخلاقياً للسياسة. وأفضل ما يمكن أن نأمله هو ما يسميه هوبز** "بحبوحة العيش"، وفي حالة الحرب، أن يكون هناك على الأقل التزام بقيد حضاري ما في استخدامها.

لقد أضحت الحاجة للقيد ماسّة بالفعل. فكل الثقافات تؤسس ممارسة الحرب. وتقدير مزية أن تكون الدولة أفضل من جيرانها في الحرب، يجعل من المنطقي رعاية ممارسات مثل مكافأة المحاربين، وإبراز مفاهيم "نحن" و"هم"، وتطوير وسائل لتعظيم المشاركة المجتمعية في الصراع. وكانت الدول القومية بالفعل أكثر نجاحاً من غيرها في تلك الأمور؛ إذ أعدت جيوشاً محترفة، وثقّفت جنودها، وشيطنت أعداءها من حيث الطبقة والجنس، وأثبتت كفاءة خاصة في حشد مجتمعاتها بالكامل للقتال، بيد أنها كانت ناجحة جداً إلى درجة تنفي معها النجاح؛ فقد دمرت حروب القرن العشرين الدولة القومية ذاتها. وثبت أن جيمس كان محقاً؛ فقد اضطرت الدولة القومية في النهاية إلى كبح جماح العواطف التي تثيرها القومية.

---

* الحتميات النوعية Categorical Imperatives: بحسب إيمانويل كانط، هي ما يفرضه كون الإنسان إنساناً، من التزامات وواجبات بموجب العقل الذي يميزه عن غيره من الكائنات، وهي تمثل نوعاً من القانون العالمي الذي يدركه الإنسان بعقله، ويساعده في معرفة التصرف السليم، فلا يرتضي الإنسان، مثلاً، لغيره ما لا يرتضيه لنفسه. (المحرر)

** توماس هوبز Tomas Hobbes (1588 – 1679) عالم رياضيات وفيلسوف وفقيه قانوني إنجليزي، من أشهر منظري العقد الاجتماعي. (المحرر)

ولكن لسوء الحظ وقعت الكارثة؛ اندلعت الحرب، وقراءتنا لمقال جيمس تـصطبغ حتماً بهذه المعرفة. إن ثقته بالمستقبل لم تكن فقط في غير محلها، بل إن خبرته تُعد إنـذاراً لنـا بأنه لا يمكننا الثقة بأي شيء. يشتمل أصل كلمة "ثقـة" 'confidence' بالإنجليزيـة عـلى معاني: الأمانة، والأمل، والإيمان. ولا ينطبق أي من تلك الكلمات عـلى المـستقبل، بـل إن الكلمات تميل لتذكيرنا بخسائرنا؛ ومنهـا الإيـمان بالتقـدم الـذي عـدّه جيـل جـيمس مـن المسلَّمات. فالحروب العالمية التي تلت ذلك قد تميزت بمستوى من الهمجية التي ظن القرن العشرون أنه قد تركها خلفه. وكان من شأن جيمس مؤلفـاً، أن يحـزن لـو علـم أن القـرن سيبدأ بتدمير مكتبة لوفين العظيمة مع تقدم الألمـان نحـو بـاريس. وذلـك مـا يـشير إليـه الروائي توماس كينيالي Thomas Keneally في روايته **ضـحية الفجـر** *A Victim of the Aurora* حول قصة قتل خلال الرحلة القطبية الإدواردية: «لقـد كـان عمـلاً غـيَّر شـكل القرن بصورة تامة. من ذلك الوقـت لم يدهـشني أي شيء». في الروايـة، لم تكـن الجريمـة مريعة في ذاتها فقط بل وفي آثارها أيضاً. والأمر ذاته قد ينطبق على تدمير واحدة مـن أقـدم المكتبات الأوربية. ولم تكن هذه سوى مجرد البداية. من الناحية الرمزيـة يمكـن القـول إن القرن العشرين قد انتهى بحريق مكتبة سرايفو في عام 1992 (عمل همجي دمر مخطوطات من العصور الوسطى، لم تُحرر أو يُعَد إنتاجها أو طباعتها، مع العلم أنهـا مطبوعـة في مهـد عصر الطباعة).

ما الخطأ إذاً؟ ما أخفق جيمس في مناقشته في مقالـه هـو تعقيـد النظـام الـدبلوماسي العظيم الذي "أدارته" القوى العظمى أملاً في ردع بعضها بعضاً، ومنعاً للحروب. ولكـن للأسف، انهار النظام عام 1914. وطالما كان مغرياً تفـسير أحـداث مثـل الحـرب العالميـة الأولى بأنها كانت مصادفة بانتظار أن تحدث. فقد كان من الممكن أن يطيع الشخص الـذي اغتال فرانس فرديناند* أمر إجهاض مهمته الذي أُرسل إليه من قبل المتآمرين العـسكريين

* فرانس فرديناند Franz Ferdinand هو ولي عهد الإمبراطورية النمساوية المجرية الذي اغتيل في حزيران/ يونيو 1914 عـلى يـد طالب صربي يدعى جافريلو برينسيب Gavrilo Princip، وعلى أثـر ذلـك غـزت الإمبراطوريـة النمـساوية المجريـة صربيـا، وتصاعدت استجابات القوى الأوربية فاندلعت الحرب العالمية الأولى. (المحرر)

في بلغراد. وكان من الممكن أن يلغي فرانس فرديناند نفسه رحلته عندما ألحت عليه زوجته بفعل ذلك، أو أن يتبع نصيحة مستشاريه ويغادر سراييفو فوراً عقب الاحتفالية في قاعة مجلس المدينة. ولو لم يسلك سائق الأرشيدوق الطريق الخاطئ، ولو لم يكن مغتاله الشاب الذي أخفق في مهمته في بداية اليوم موجوداً في البقعة الصحيحة في الوقت الخاطئ، لما حدثت عملية الاغتيال. لكن عندئذ علينا أن نتساءل إن كانت هناك مصادفات في التاريخ، أو إن كان ذلك هو أسلوب التاريخ في لفت نظرنا إلى أننا لم ننتبه بشكل كافٍ على المخاطر التي نواجهها، في ضوء تعقيد النظُم التي يتعين علينا إدارتها.

في الواقع، يتم تمييز التاريخ بأحداث كبرى مثل عام 1914. يشير الفيزيائي مارك بيوكانان Mark Buchanan، إلى أن الأفكار الرياضية الحديثة تشير إلى احتمال أن منطقاً مفرداً يكمن وراء الأحداث الشديدة الاضطراب، مثل انهيار سوق البورصة الذي سرَّع "الكساد العظيم". ونحن دائماً على وعي بمخاطر إخفاق النظُم، مثل الانهيار الاقتصادي، أو نشوب حرب كبرى، ولكن لا نعي دائماً أن كثيراً من أهم شبكاتنا هي أبداً على حافة عدم الاستقرار (Buchanan 2002:11-12). هذا لأنها معقدة جداً، والنظُم معقدة لأنها مكونة من كثير من الأجزاء المتداخلة.

خذ على سبيل المثال النظام الدولي عام 1914 الذي تكوّن من القوى العظمى والصغيرة، والمصارف، والمؤسسات، والأفكار التي طافت بحرية دونما حواجز. لكن هذه ليست نهاية الأمر، فلو كان الأمر كذلك لاقتصر النظام المعقد على أنه معقد وحسب (مثل مكنة فيها أجزاء متداخلة). لكن النظُم المعقدة لها خواص أخرى، وما يميزها عن النظُم غير المعقدة هو أنها تنتج عدداً متنوعاً من السلوكيات (Homer-Dixon 2006: 21-2). قد يتكون محرك السيارة من أجزاء متنوعة، غير أنه إما أن يعمل وإما ألا يعمل. وإذا عمل فسوف يصلك إلى وجهتك، وإذا تعطل المحرك فلن تذهب إلى أي مكان سريعاً. وعلى العكس من ذلك، فالنظام المعقد، مثل سوق البورصة، يفرز سلوكاً لا يمكن أن نعزوه إلى أي جزء بعينه. وسواء أوجدنا أنفسنا نتداول في سوق صاعدة أم وجدناها في سوق هابطة، فكلتا الحالين نتيجة للشراء والبيع من جانب كثير من المستثمرين المختلفين.

للأسف، لم تفهم الأطراف اللاعبة ما كان يجب عليها فعله للحفاظ على ميزان القوى الأوربية في حالة توازن. فجميع النظُم تعمل في حالة تنظيم ذاتي حساس. والحروب هي نتاج توترات تتبع قانون القوة حتى إن أصغر (أو أكبر) حدث يمكن أن يدخلها في صراع. كانت المشكلة في النظام الأوربي هي أنه طوّر أنماطاً معقدة من الروابط التي جعلت انهياره أكثر (وليس أقل) احتمالاً. كما أن سباقات التسلح بين القوى (التي في الأغلب تسمى "حلقات مفرغة") كانت من بين العوامل المساعدة. كان سباق التسلح البحري بين ألمانيا وبريطانيا واحداً من أكثر العوامل الشديدة الضرر، ذلك أنه عزز شعوراً عاماً بعدم الأمن. ولكن الأمر الذي لم يكن أقل ضرراً من ذلك (مع أنه لا يحظى بالمناقشة في الأغلب) هو حقيقة أن بعض الأطراف، مثل ألمانيا، لم تنفق سوى قليل جداً على الدفاع، وليس كثيراً جداً. وأحد الأسباب التي جعلت ألمانيا ترغب في خوض الحرب عام 1914، وفقاً للمؤرخ في جامعة هارفارد، نيل فرجسون Nail Ferguson، هو خوفها من أن الفجوة العسكرية بينها وبين أعدائها قد بدأت تضيق.

في عام 1913 أنفقت ألمانيا 3.5٪ من الناتج القومي الإجمالي على الدفاع، أي أقل من فرنسا أو روسيا. وقد قوبلت المعارضة في داخل البرلمان ضد زيادة الضرائب باستحالة اقتراض مزيد من الأموال من دون توسيع الفجوة في عائد السندات بين ألمانيا والدول الأوربية المنافسة. ويخلص فرجسون إلى أنه كانت هناك سبل عدة تمكِّن ألمانيا من زيادة الإنفاق ومن ثم مواكبة منافسيها، وبالتالي تضْمن نظام الردع. ومع ذلك، فحتى مع زيادة الاقتراض ظل دَين ألمانيا صغيراً ولم يكن يشكل إلا كسراً من الناتج القومي الإجمالي، وظل أقل من نظيريه الفرنسي أو الروسي، وبقيت نسبة فائدة الدين أقل من نظيرتها في بريطانيا. كما أن زيادة الضرائب كانت ستجعل مستويات الضرائب متقاربة مع بريطانيا في نسبة من الناتج القومي الإجمالي، وتظل الضرائب أقل نسبة من الإنفاق العام. والحقيقة، كما يذكرنا فرجسون، هي أنه بحلول العام الثالث من الحرب، ارتفع الإنفاق العام إلى أكثر من 70٪ من الناتج القومي الإجمالي. وقد رفعت الحكومة بشكل حاد حصتها من العوائد والنفقات، وكان البرلمان يدعم جهود الحرب بمستويات هائلة من الإقراض القصير المدى للحكومة.

و«حقيقة أن الحكومة الألمانية قد استطاعت مواصلة تكلفة شن حرب كاملة على ثلاث جبهات لمدة ثلاث سنوات تشير إلى أنه كان في استطاعتها أن تتحمل بسهولة تكلفة تجنب الحرب، الأقل بكثير، من دون صعوبة» (Ferguson 1998:142).

المشكلة هي أنه على رغم أن الأوربيين قد فهموا الأجزاء المكونة للنظام، مثل سباق التسلح البحري، وأنظمة التحالفات، وحتى الأسواق المالية، فإنهم لم يستوعبوا بشكل كامل النظام بأسره. وأصبح من المستحيل توقع جميع الاختلاطات المحتملة لإخفاقات المكونات، أو التناغمات السلبية الممكنة للإخفاق المصاحب. وقد حالت هذه المشكلة دون تحقيق توازن حقيقي، حتى إن أزمة صغيرة وقابلة للاحتواء في البلقان، بدا أنها تنطوي على اختلالات كارثية. ويطلق على هذه العملية عبارة "حرجية ذاتية التنظيم" 'self-organizing criticality'. إن ما حدث عام 1914 هو أن النظام بات حساساً، لأنه بدأ بالفعل في تطوير "خصيصة طارئة"؛ وهي مستوى عام من عدم الاستقرار الذي يُسرّع الحرب في النهاية.

علاوة على ذلك، تميل النظُم إلى الانهيار عندما يتم عقد "النهايات الطرفية" (بمعنى عناصر النظام) في الشبكة بشكل محكم (Homer-Dixon 2006: 115-16). وقد كان النظام الأوربي عام 1914 مرتبطاً بشكل محكم جداً حتى إنه لم يسمح إلا بهامش ضئيل جداً من الخطأ متى نشأت أزمة. وباختصار، لم يتمتع النظام إلا بقدر ضئيل جداً من المرونة. فالنظام المرن، كما يرى هومر وديكسون، يستطيع أن يستوعب الاضطرابات الكبيرة من دون أن يغير سلوكه الأساسي. وكان الأوربيون بحاجة إلى منع "سوابق الزلزال" من تفجير إخفاق متزامن. كانوا بحاجة إلى كبح جداول تعبئتهم؛ بحاجة إلى وقت للتفكير قبل أن يفزعوا؛ كانوا بحاجة إلى القدرة على امتصاص الصدمات. ذلك أن مرونة النظام وقدرته على استيعاب الصدمات هما "خصيصة طارئة" أيضاً (بمعنى أنها ليست نتيجة لأي جزء مفرد من أجزاء النظام ولكنها نتيجة للتناغم بينها).

للأسف، بمجرد اندلاع الحرب شجع النظام تفاقمها. فعلى سبيل المثال لم ينوِ أحد أن تتحول الحرب إلى حرب عالمية، ولا حتى البريطانيون الذين كان مقدراً لهم أن يكونوا هم الأخسرين، ولكن روابط النظام ضمنت أن تتحول الحرب إلى حرب عالمية، وبسرعة كبيرة. وقد أصبحت هذه الدينامية حساسة وفعالة أول مرة عام 1905 في أثناء أزمة المغرب، وذلك عندما سعت ألمانيا لتعزيز استقلال هذا البلد ضد الطموح الاستعماري الفرنسي. كشفت الأزمة أنه لم يبق بالإمكان معالجة المنافسات الإقليمية بضبط النفس كالمعتاد سابقاً، فقد أضحت الآن عرضة لكل من "الأوربة" و"العسكرة" معاً (Strachan 2003:37). لكن العوامل الرابطة الأخرى لم تكن أقل حسماً في ضمان انتشار الحرب وتفاقمها في الوقت ذاته. ولم يكن من بين تلك العوامل ما هو أهم من العلاقة ما بين الأسواق المالية في نيويورك ولندن، وهي التي مكّنت بريطانيا من أن تحوِّل نفسها من اقتصاد أواخر القرن التاسع عشر إلى أول مكنة حرب حديثة في العالم. وهذا بدوره قد مكنها من مواصلة القتال بعد أن أُنهك الفرنسيون.

سيظل المؤرخون يتجادلون في شأن "الحرب الكبرى" أو الحرب العالمية الأولى أكانتا حتميتين أم لم تكونا كذلك؟ وسينخرطون في تقديم الحجج المضادة للوقائع التي اكتسبت شعبية في السنوات الأخيرة. ومن قراءتي للأحداث أرى أن النظام كان مصيره الإخفاق، لأنه مع تراكم التعقيد أصبح غير مستقر بشكل متزايد. وفي نهاية المطاف، انهار ذلك النظام لأنه لم يتمتع بمرونة كافية. وتبعت ذلك حرب كارثية أثبتت فيها المعارك أنها غير حاسمة، وفي النهاية استُنزف الجميع.

النظام يتماسك ما بين عامي 1949 و1989

يميل كثير من المؤرخين إلى رؤية المدة ما بين عامي 1949 و1989 (التي يطلق عليها القرن العشرون القصير) استمراراً لسنوات ما بين الحروب، وهدنة بين الحملتين اللتين نطلق عليهما الحربين العالميتين الأولى والثانية. ربما كان بالإمكان تجنب الصراع الثاني لو لم يصل هتلر إلى السلطة. ذلك أن "حرب هتلر" كانت رؤية رجل واحد، وإرادة فرد واحد. ويمكن أن

نعزو نشوبها إلى الإخفاق الأخلاقي لرجل واحد و/ أو حركة سياسية أكثر من كونها مسؤولية سببية (أي الانهيار غير المتوقع أو المقصود للنظام). ومع ذلك لم يكن في استطاعة هتلر أن يحقق ما حققه وحده، ذلك أن التكتيكات التي طبقها الجيش الألماني بطريقة فعالة قد تعلمها في الحرب العالمية الأولى. كما يمكن القول بأن الجيش الإمبريالي القديم الذي كان فخوراً بالخدمة فيه قد كتب نص الحرب العالمية الثانية قبل أن يقترح هو المشروع.

في عام 1945، لم تكن هناك اتفاقية سلام ولا مؤتمر فرساي. وتوقف القتال في أوربا فقط، وتواصل في أمكنة أخرى في إندونيسيا وكوريا، على رغم أن القتال هذه المرة لم يقتصر على القوى المنتصرة، وشمل أيضاً وكلاءها الكوريين والفيتناميين والسلفادوريين والكوبيين. لكن أُبرم سلام بين القوى العظمى، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى الردع النووي. الردع النووي أعطى النظام شكله، واستقراره أخيراً.

كان كارل شميت Carl Schmitt هو صاحب المقولة الشهيرة بأن التمييز بين الصديق والعدو أساس السياسة، وهو ما يشكل المنطق الرئيسي للدولة. كما شكل المنطق الرئيسي للنظام الدولي بعد عام 1945. ورأى شميت أنه لا ينبغي اعتبار العدو سيئاً (بشكل يستبعد أي أمل في التكيف معه)؛ يجب ألا يشيطَن أو يُجعل غير متعاطف تماماً، حتى إنه يجب أن يُنظر إليه على أنه منافس ذو خطر، فلربما لاتزال هناك إمكانية للعمل معه، وحماية النفس ضده في الوقت ذاته (Laidi 1998:86). هذا هو ما كان الوضع عليه بعد النزعة الأخلاقية القصيرة المعادية للاتحاد السوفيتي مطلع الخمسينيات. حتى إن جون فوستر دلس قد تخلى عن الحديث عن "تحرير" أوربا الشرقية و"تقليص الشيوعية"، وحتى إن خطاب رونالد ريغان عن إمبراطورية الشر كان يستهدف الاستهلاك المحلي وليس الجمهور الدولي. وكما أكد شميت، المهم هو أن نستطيع العيش بسلام مع العدو، ولكن لا نكون أبداً في حالة سلام. وأي تكيف (مثل الانفراج، والتجارة، وغيرهما) لا يستبعد أبداً إمكانية الحرب.

ولحسن الحظ، فإن الأسلحة النووية جعلت احتمال الحرب أمراً غير مغرٍ، حتى إن القوتين العظميين قد رضيتا بالردع مبدأً حاكماً للأمن الدولي، حتى في ظل عالم أكثر تعقيداً. بدأ العصر النووي بقصف هيروشيما في 6 آب/ أغسطس 1945، ولم تكد تمر أشهر قلائل حتى نشر برنارد برودي Bernard Brodie، الأستاذ بجامعة ييل، كتاباً بعنوان **السلاح المطلق** *The Absolute Weapon*. وفي هذا الكتاب طرح هو والمؤلفون المشاركون معه طرحاً مدهشاً، وهو أن الأسلحة النووية لم تُصنع لتظل مكانها فقط، لقد غيّرت هذه الأسلحة قواعد الاشتباك بشكل حاسم. ومن هنا، فإن الغرض الرئيسي من المؤسسات العسكرية لم يبق كسب الحروب، بل تجنبها. وقد أدرك الجنرال ماك آرثر هذا الأمر مبكراً، فلم تمض إلا أيام على قيام الولايات المتحدة بإلقاء قنبلتين ذريتين على اليابان، وهو ما أنهى فعلياً الحرب فجأة، حتى قال للصحافي ثيودور وايت: «وايت، هل تعلم ماذا يعني هذا؟ أمثالي أصبحوا عديمي النفع. فلن يكون هناك مزيد من الحروب» (Ruggie 1996:350).

وبدلاً من ذلك كان هناك سلام مسلح، ولكنه كان سلاماً من نوع خاص. لم يكن ممكناً نشوب مزيد من الصراعات المسلحة مهما كانت شمولية خطط كل طرف لمثل هذا الحدث. وعليه، يحق لنا أن نرى "سلاماً" في حرب يبذل فيها الطرف المنتصر كل ما في وسعه لكي لا يطلق طلقة واحدة، أما الطرف الخاسر فقد لا يملك الوصول إلى أسلحته، حتى عندما يواجه المرحلة النهائية.

ومع ذلك، يتعين علينا الاعتراف بأن السلام النووي قد تماسك على رغم توافر التقانة وليس بفضلها. وكما كتب بالارد في كتابه **معرض الوحشية** *Atrocity Exhibition*، فإن «أمداء الأسلحة لها سحر خاص: كل هذه التقانة التدميرية تركز على إنتاج "لا شيء". وأقصى ما نستطيع الوصول إليه هو حالات هواجس عقلية» (Ballard 1995:15). لقد

حددت أمداء الأسلحة شكل الحرب الباردة مثل موقع اختبـار القنبلـة الذريـة في بيكينـي أتول.* ومثلها مثل كل الهواجس، كانت ذات خطر على صحة العالم.

ولم تكتف القوى العظمى بتصنيع أسلحة أكـبر وأكـبر يقـدر وزنهـا بالميغـاطن، بـل حاولت تصنيع السلاح النهـائي، وهـو الثالـث في سلـسلة مـا عـرف بقنابـل "الحـروف الهجائية". نحن نعرف أول قنبلـة، وهـي القنبلـة (A) التـي أحرقـت مـدينتين يابـانيتين، والقنبلة (H) التي شقت طريقها إلى الوعي العام بعـدها بـسنوات قليلـة. لكننـا نميـل إلى نسيان القنبلة (C)، وهي قنبلة هيدروجينيـة يمكـن أن تحـول عنـصراً مثـل الكوبالـت إلى عنصر مشع تفوق قوته قوة عنصر الراديوم بنحو 320 ضعفاً. وعلى رغم أن القنبلـة (C) لم تُصنع بعد، فقد ذُكرت في أفضل الكتب مبيعاً في ذلك الوقت، مثل كتاب **على الشاطئ** *On the Beach* لنيفيّ شوت Neville Shute (1957). وقد ذُكرت في السيرة الذاتية لـبروس شاتوين Bruce Chatwin بعنوان **في باتاغونيا** *In Patagonia* (1977) حيث يقول لنا: إنه وهو تلميذ في المدرسة رسم سحابة زرقاء كثيفة تقذف ألسنة اللهب على الأطراف. وتخيـل نفسه وحيداً على لسان أخضر، يمسح بنظره الأفق مترقباً تقدم السحب. كانت باتاغونيـا، على ما يبدو، هي المكان الوحيد على الخريطة الذي يمكن أن يظل فيه على قيد الحياة عندما نسفت بقية العالم نفسها (P. D. Smith 2007:395).

لقد نُسيت قنبلة الكوبالت إلى حد بعيد عقـب أزمـة الـصواريخ الكوبيـة، وكـذلك نُسيت "مكنة نهاية العـالم"، وهـي قنبلـة ظهـرت في فـيلم **دكتـور سـترينجلاف** *Doctor Strangelove* الذي انتقد فيه المخرج ستانلي كوبريك Stanley Kubrick الحرب البـاردة. وما فعله كوبريك فيما يخص الحرب النووية فعلـه فـيما يخـص الفـضاء في ملحمتـه التاليـة بعنوان **2001**، وإن كان قد كثفها وجعلها أكثـر استعراضـية، وأضـفى عليهـا مزيـداً مـن العمق. وكان الهدف من تصميم "مكنـة نهايـة العـالم" في الفـيلم هـو أن تطلـق الأسـلحة

* بيكيني أتول Bikini Atoll : مجموعة من 23 جزيرة مرجانية صغيرة تتبع جمهورية جزر المارشال في المحيط الهادي، كبراها هـي جزيرة البيكيني التي كانت مسرحاً لأكثر من 20 اختباراً للأسلحة النووية ما بين عامي 1946 و1958 (المحرر).

النووية إذا ما تعرض البلد لهجوم. وقد لقي هرمان كـان Hermann Kahn، الـذي بُنيـت عليه شخصية دكتور سترينجلاف جزئياً، حتفه عام 1983 وهو مقتنـع تماماً بـأن المـشكلة الأساسية للحد من التسلح هـي تـأخر موعـد صـناعة "مكنـة نهايـة العـالم". ولم يـدرك المحللون العسكريون أن الروس قد صنعوا بالفعل نسخة من المكنة إلا بعد اقتحـام سـور برلين وبدء ذوبان جليد الحرب الباردة. ولاتزال المكنة كـما هـي، في قلبهـا نظـام حاسـوبي يطلق عليه 'Perimeter' أو "السور"، بدأ تشغيله بالكامل في كانون الثـاني/ ينـاير 1985، ووظيفته هي تحديد إن حدث تفجير نـووي عـلى الأراضي الروسـية، وفحـص إن كانـت قنوات الاتصالات مع الكـريملين قـد قطعـت. وإذا كانـت الإجابـة عـن الـسؤالين هـي "نعم"، فعندها سوف يستنتج جهاز الحاسوب أن الدولة تتعرض لهجوم، ويقـوم بتفعيـل ترسانتها النووية. وكل ما يحتاجه لإطلاق الصواريخ هـو موافقـة بـشرية نهائيـة مـن مقـر القيادة الذي يقع على عمق كبير تحت الأرض.

ولا شك في أن هذا يتطلب ضابطاً شجاعاً ليكون مستعداً، في ظل انقطاع الاتـصال برؤسائه في الكريملين، لأن يتجاهل نصيحة هذا النظام المفترض ألا يخطئ. بعبارة أخرى، بدلاً من أن نجتاز العصر النووي، نجد أنفسنا محصورين داخله. ولايـزال الغـرب يواجـه احتمال إطلاق رؤوس نووية استراتيجية روسية عبر نظام حاسوبي صُـمم وصـنع أواخـر السبعينيات. إلى ذلك يضيف بالارد لهؤلاء منا الذين لايزالون يعتقـدون أن فـيلم **دكتـور سترينجلاف** هو أفضل تعليق ذي مغزى على العصر النووي، أن النظام لايزال شاهداً حياً نظمتـه المكنـة لـمصلحتنا، ودلـيلاً عـلى عـدم أهميتنـا مـن حيـث إننـا كائنـات (Ballard 1997:76).

عند التأمل في الماضي نجد أننا كنا محظوظين حقاً أننا اجتزنا مرحلة الحـرب البـاردة، ليس فقط لأن القنبلة (C) لم تُصنع، ولكن أيضاً لأن التقانة التي استُخدمت لم تخدم النظام دائماً كما كان متوقعاً. وعلى رغم أن الردع قد تماسك فـإن الـتحكم في الأسـلحة النوويـة لم يكن من دون خطأ. فقد كانت هناك إخفاقـات مزعجـة عـدة في مراكـز عمليـات القتـال

المصممة لكشف العدو؛ حيث إن مراكز عمليات الحروب البرية التابعة للقوات الجوية الأمريكية، التي شيدت عام 1961، في الشيشان وكولورادو، قد عانت جراء إخفاقات مقلقة في البرمجيات. فطوال ثماني دقائق سادها التوتر عام 1979، أخطأت البرمجيات في التعرف على سيناريو للاختبار معتبرة إياه هجوماً حقيقياً بالصواريخ، وكان من الممكن أن يُحدث هذا الخطأ تفجيراً نووياً. وفي العام التالي أدى عطل في شريحة حاسوب إلى إنذار القيادة الجوية الاستراتيجية بالخطأ ضد هجوم. وتواصلت الإنذارات الكاذبة، ولاسيما عقب تركيب أجهزة حاسوب جديدة. تعقيد التقانة الكامنة في قلب الردع النووي جعلها عرضة للحوادث.

يطلق عالم الاجتماع تشارلز برو Charles Berrow على الأعطاب التي تحدث في النظُم المعقدة مثل مشكلات أجهزة الحاسوب "حوادث اعتيادية"، ويقول لنا إنها من الأرجح أن تحدث في النظُم المترابطة بإحكام التي تتفاعل فيها مكونات متنوعة بسرعة على وصلات غير مرنة (Hughes 2004:90). نظام التحالف الأوربي عام 1914 كان يشبه هذه النظُم المترابطة بإحكام، وفي العصر النووي أخذ طابعاً تقانياً. وعلى سبيل المثال، نجد أن الصواريخ البالستية العابرة للقارات التي يرتبط فيها نظام الدفع بإحكام بنظم التوجيه عرضة "للحوادث الاعتيادية". وفي حالة ثري مايل أيلاند أوشكت سلسلة الأعطال المتلاحقة التي شملت مكونات فيزيائية متفاعلة وأعطال المعدات أن تسفر عن انصهار نووي. وفي حالة أسلحة الحرب الباردة، ربما لا نعي بالكامل كم نحن محظوظون لفوزنا بمهلة.

نجحت هوليود كالعادة في التقاط القلق العميق بشأن الحوادث التي قد تقع مستقبلاً. وفيلم **حد الأمان*** *Fail Safe* (1964) هو أحد أكثر الأفلام الجادة على رغم ضعف الأداء الدرامي؛ حيث يحكي قصة عطل يصيب جهاز الحاسوب في قاذفة القنابل

* تعني عبارة fail safe حرفياً الإخفاق بالأمان، وأخذ الفيلم اسمه من النظم الهندسية التي يتم تضمينها كثيراً من الأجهزة، وتعمل على ألا يؤدي إخفاق النظام إلى تدميره أو إيذاء المستخدم، ومن ذلك مثلاً: إطفاء جهاز الحاسوب تلقائياً في حال إخفاق نظام التبريد في خفض حرارته، أو إتاحة فتح البوابات الكهربائية يدوياً في حال انقطاع الكهرباء. (المحرر)

الرئيسية التابعة للقيادة الجوية الاستراتيجية في الولايات المتحدة الأمريكية، التي تعطي أوامر للطائرات بإسقاط قنابلها على هدفها المحدد مسبقاً؛ موسكو. وبمجرد إطلاقها لا يمكن إرجاعها. وهناك فيلم آخر هو **ألعاب الحرب** *War Games* (1993) يُظهر عبقرياً مراهقاً في مجال الحاسوب يقتحم شبكة حاسوب الدفاع الوطني الأمريكي، وبسبب ظن المراهق أن "الحرب النووية الحرارية" هي مجرد لعبة فإنه يقود العالم إلى حافة الكارثة. كان الفيلم تعليقاً ساخراً على المخاطر الكامنة في ألعاب محاكاة الحرب التي تطورها القوى العظمى، والآن نعرف كيف أن لعبة محاكاة حرب للناتو في وقت متأخر من العام ذاته كادت تشعل صراعاً حقيقياً.

نعيش اليوم في عصر المخاطر الذي بدأت تتشكل معالمه في الحقبة النووية. اعتقدنا في السابق أن التقانة هي شكل من أشكال "التبسيط الوظيفي"، شكل أتاح للمشغل والمبرمج البشريين وهماً بالتحكم. وما إن أدركنا أن الحوادث "شيء عادي"، وأن شبحها سيظل دائماً، بل وفي أكثر الأجهزة تطوراً، حتى كان علينا أن نعيد التفكير في موقع التقانة في حياتنا بشكل عام. وبمجرد أن نرضى بأن النظُم الدبلوماسية المترابطة بإحكام في الأغلب تخفق، يجب علينا تطوير نظم أكثر مرونة وقدرة على امتصاص الصدمات، وذلك للحؤول دون نشوب الحرب بين القوى الرئيسية.

وفي منتصف الحقبة النووية بدأنا نغرس "عادات التعاون"، مثل اجتماعات القمة بين القادة السياسيين، واتفاقيات الحد من التسلح، وتدابير بناء الثقة التي عززت رسالة أنه يجب تجنب الحرب النووية مهما كلف الأمر. واليوم يُلاحَظ أن الأنظمة الدولية التي تدير النظام الدولي هي أكثر شفافية من سابقتها، ونتيجة لذلك فهي تميل إلى بث مزيد من الثقة بين أعضائها. وقد استطاعت المؤسسات المتعددة الأطراف التي شُكِّلت منذ عام 1947 تغيير مشهد الحرب والسلام؛ فوضعت معايير، وقنوات اتصال خلفية، وممارسات مؤسسية جديدة، ساهمت كثيراً في تعديل سلوك الدول. وهذا هو العالم الذي كان من شأنه أن يعجب جيمس، لكنه عالمنا وليس عالمه.

بالنظر إلى الوراء، انطلاقاً من هذه النقطة المتقدمة، يمكننا أن نرى أن الآمال التي طرحها جيمس في مقاله لم تكن سوى تعبير عن فكرة عامة بدأت تسود التفكير الليبرالي مع نهاية القرن التاسع عشر. وقد أضفى عليها جيمس صبغة فلسفية، وأضفى عليها آخرون صبغة اقتصادية واجتماعية، لكنها في النهاية تعبير عن اقتناع بأن الحرب قد استنفدت إمكاناتها، وأن التاريخ يأخذ البشرية في اتجاه مختلف. لم ينكر أي مفكر ليبرالي أنه ربما تكون هناك نكسات على طول الطريق، ولكن لم يتوقع أحد نكسة بحجم الحرب العالمية الأولى، ولم يتوقع أحد فظائع الحرب العالمية الثانية، فكيف إذاً الدمار الهائل الذي كان يمكن أن يحل لو نشبت الثالثة؟

المشكلة في رؤية جيمس كانت مشكلة فلسفته. لقد طلب من قرائه أن يسألوا أنفسهم: ما النفع المحتمل أن يعود عليهم من معتقداتهم وممارساتهم؟ لقد كان جيمس براغماتياً عنيداً مخلصاً لمدرسته الفكرية، رأى الفلسفة أداة للمعرفة (لتغذية المنطق السليم) وليست إجابة عن ألغاز الحياة أو ما وراء الطبيعة. نشد جيمس، كما يزعم برتراند راسل Bertrand Russell، «إقامة بنية فوقية من المعتقدات على أساس من الشك»، ومثل جميع المحاولات، بدءاً من بيركلي Berkeley ومَن جاء بعده، أخفقت المحاولات بسبب مغالطات المؤيدين لها. ووصف راسل جميع هذه المحاولات بأنها جزء من «الجنون غير الموضوعي» الذي ميز العصر الحديث (Russell 1971:773).

كانت مغالطة جيمس هي اعتقاده أن المصلحة الذاتية هي التي توجه البشر، وأنهم دائماً يسألون سؤالاً وحداً: أين تكمن المنفعة؟ لكن دوافع البشر، في الواقع، ليست دائماً أنانية. وقد أقر هو ذاته بأن العقل البشري شاعري بطبيعته؛ أي أن الأفكار العظيمة هي التي تمكننا من الحلم. و على رغم كل هذا الحديث عن تنامي تعقيد الحياة الذي بدأ يجعل الحرب أمراً غير مغرٍ، فإنه لم يتوقف عن التساؤل لماذا ترغب الدول عادة في القوة، إنها ترغب في القوة لفرض النظام، لتأمين سلام دائم، وفي القرن العشرين نجد أن المجتمعات كانت مستعدة للمخاطرة بكل شيء في سبيل تحقيق الأحلام. لكنها أقل استعداداً لفعل ذلك اليوم، ويرجع ذلك جزئياً إلى معرفة ما حدث بعد عام 1914.

ومع ذلك، فإن ترددنا في المخاطرة بكل شيء في المعركة يرجع أيضاً إلى معرفة أن الحرب هي، بشكل خاص، أداة غير مثالية لتحقيق الرؤى، تماماً مثلما أن الثورة هي، قطعاً، طريقة خاسرة لإصلاح أي مجتمع، مهما بلغ عناده في مقاومة التغيير. وربما كان الليبراليون من أمثال جيمس في وضع أقوى لو أنهم حددوا أن المشكلة تكمن في الحرب ذاتها وفي تعقيدها المتنامي. ربما كان من الأفضل لهم لو أنهم احتجوا، ليس بأن الحرب باهظة التكلفة من الناحية الاقتصادية، أو أن مواصلتها أمر محرج للغاية، ولكن بأنه لم يكن مرجحاً أن تخاف تلك الدول التي كانت لاتزال تنخرط في لعبة "السلب" مثل ألمانيا واليابان، من التكلفة أو الإحراج ما بقيت تعتقد أن الحرب قد تحقق لها نصراً سريعاً.

تعقيد الحرب

قبل عام 1914 بمدة طويلة أدرك كثير من الجنرالات المثقفين ما الذي تنطوي عليه الحرب الطويلة. فبدلاً من صراع قصير، قد يجدون أنفسهم في رحى صراع لا نهاية له، يتطلب حشداً كاملاً للسكان والصناعات. وينتج عن ذلك ما توقعه كلاوزفيتس في حالة غياب هدف محدد للقتال. عندئذ ستستمد الحرب إرادة من نفسها، وتدخل في استعراض مطلق وغير مقيد للعنف (Finkelkraut 2001:72).

بحلول أوائل القرن العشرين، بدأت الحرب تصبح أكثر خطراً، لأنها باتت أكثر تعقيداً، وتعقيدها المتنامي عكس تنامي تعقيد الحياة. ومع أننا نتحدث الآن عن نظرية التعقيد طوال الوقت، فإنه لم يحدث التفكير فيها بصفتها فرضية حول تاريخ العالم بقدر ما استخدمت لوصف حالة الأوضاع التي كانت سائدة من البداية. ومع ذلك كان المُنظِّر التقاني لانغدون وينر Langdon Winner محقاً في الإشارة إلى أننا بدأنا إدراك التعقيد من عقد السبعينيات فقط، ليس على أنه حقيقة بل مشكلة. «إذا كانت هناك خصيصة فريدة للحقبة الحديثة فهي تغير ظروف الوجود، إلى درجة أن شيئاً قد أُدرك من قبل بوضوح باعتباره "تعقيداً" أصبح الآن يُقحم نفسه باستمرار في وعينا» (Winner 1975:49). التعقيد بالتأكيد ليس أمراً فريداً لعصرنا، ولكنه أصبح المنشور الرئيسي الذي نحلل من خلاله ممارساتنا. ويقع التعقيد في قلب عصر المخاطر، وانتقاده المتنامي للذات.

إن أحد الاستنتاجات المذهلة حقاً للبحث التاريخي الحديث هو المدى الذي بلغه المؤرخون في تحديد نزعة طويلة المدى باتجاه التعقيد. إنه موجود في كل شيء، بدءاً من "الانفجار العظيم" وخلق الكون الذي أصبح أكثر تعقيداً عندما بدأ بالتمدد. في بداية نشأته، لم يكن ممكناً التفريق بين المادة والطاقة، تماماً مثل التفريق بين القوى الفيزيائية الأساسية مثل الجاذبية والكهرمغناطيسية، والقوى النووية القوية والضعيفة. وعندما تمدد وبدأ يبرد أصبح أكثر تعقيداً. وأخذت المادة والطاقة طريقين منفصلتين. ظهرت النجوم، وانكمشت وسخنت بفعل قوة الجاذبية، وعندما تلاشت النجوم الأكبر في نجم متجدد شديد التوهج خلَّفت عناصر أثقل وفَّرت المواد الخام للهياكل الكيميائية المعقدة، ومنها الكائنات الحية مثلنا.

في رواية دكتورو E. M. Doctorow بعنوان **مدينة الله** *City of God*، هناك وصف مختصر لأصول الكون، من تلك اللحظة قبل 15 مليار سنة أو أكثر، إذ يُقدَّر حدوث الانفجار العظيم، حتى اللحظة التي «ينصهر فيها عدد من ذرات الكربون والنيتروجين في جزيء وتصبح خلية واحدة»، تُنتج «أول كيان في الكون له إرادة ذاتية» هو نحن (Doctorow 2000:6). ومع أن دكتورو روائي، يمكن منحه رخصة شعرية. وسواء أكان خلق الحياة الإنسانية مصادفة أم كان أمراً تم بذكاء كما يزعم كثيرون، فإن هذا ليس موضوعنا. الموضوع هو أن الحياة نموذج أولي للتعقيد الذي يتعذر تقليله. فالخلية الحية تحتوي على نحو 100 مليون بروتين من 20 ألف نوع مختلف. وجينوم البكتيريا البسيطة فيه شفرة وراثية يمتد عدد حروفها إلى أربعة ملايين حرف.

إن تمدد الكون لم يوحِ بأن ظهورنا أمر حتمي، لكنه يفترض أن ظهور النظُم المعقدة بشكل متنامٍ هو جزء من اتجاه كوني أكبر وجهة تدفقات طاقة أكثر تركيزاً وتعقيدات كيميائية أكبر. فعلى سبيل المثال، لا يتطلب استمرار الهياكل البسيطة ما بين النجوم في الفضاء سوى طاقة ضئيلة، وربما لا يتطلب أي طاقة على الإطلاق. أما استمرار النظُم الأكثر تعقيداً فيتطلب قدراً كبيراً من الطاقة. في كوكبنا تمكن رؤية التعقيد في ظهور الحياة

ذاتها: تطور التحكم البيولوجي في ضوء الشمس من خلال التمثيل الضوئي، وظهور الكائنات المتعددة الخلايا التي تحتاج (وتستطيع أن تعالج) تدفقات من الطاقة أكبر مما تحتاجه وتعالجه نظيراتها لدى الكائنات الوحيدة الخلايا (Christian 2006:23).

لنعد إلى «نقطة النهاية» عند دكتورو؛ وهي خلق أول الكائنات التي تتمتع «بإرادة ذاتية». ما يُميز البشر هو أننا أكثر تعقيداً بشكل لامتناهٍ من الكون ذاته. وبإحصاء عدد التشكيلات العصبية التي يمكن أن يتكيف معها المخ البشري، قُدِّر أن بإمكانه إنتاج نحو $10^{70,000,000,0000,000}$ "فكرة" محتملة. وللمقارنة، هناك نحو 10^{80} ذرة فقط في الكون أجمع. ومع ذلك فالمخ أصغر بكثير، وعلى رغم أنه يحتوي على 10^{27} ذرة فقط، فإن الشعور بالتفكير اللامحدود ينبع من كبر عدد العلاقات الممكنة التي يمكن أن توجد بين مجموعات الذرات.

إن هذه الوصلات العصبية هي التي تتيح لنا التعلم الجمعي. ومن خلال تزودنا باللغة بإمكاننا أن نتشارك فيما نتعلمه أفراداً. ويمكننا فعل ذلك بطريقة دقيقة جداً إلى درجة أن المعرفة التي تتراكم داخل الذاكرة الجمعية تفوق المعرفة المفقودة. نتيجة ذلك، لدينا سبيل لمخزون هائل من الأفكار والسلوك والأساليب. والتعلم الجمعي (أي القدرة على مراكمة المعرفة على مستوى المجتمع) هي ما يجعلنا مختلفين عن الكائنات الأخرى في كوكب الأرض.

من حيث التطور التاريخي في الأعوام ستة الآلاف الماضية، استمر التعلم الجمعي في التطور مع تطور المجتمع البشري إلى تركيبات أكثر تعقيداً: من قبائل الصيد والجمع، وقرى الزراعة، والحضارات الأولى إلى "الشبكة الكوزموبوليتانية" اليوم. والشبكات البشرية، كما يرى الماكنيلّانِ The McNeills، تزيد من فرص الالتقاء. فالقرابة، والعبادة المشتركة، والتبادل الاقتصادي، والتعاون السياسي، والتنافس العسكري، كلها تنبع من الشبكات التي كوّناها. وفي جميع هذه العلاقات ينقل الناس المعلومات ويستخدمونها لتعديل سلوكهم (McNeil and McNeil 2003).

ما يضفي على المعرفة صفة مشتركة بشكل متنامٍ هو أننا اكتشفنا أنه بإمكاننا جميعاً أن نُكوِّن أفكاراً أكثر منطقية عن العالم مما يستطيعه كل فرد. وقد بحث جيمس سورويكي James Surowiecki مؤخراً في فكرة بسيطة، وهي أن المجموعات الكبيرة من الناس أكثر ذكاء من النخبة القليلة مهما كان ذكاؤها. وهي أفضل في حل المشكلات وتعزيز الابتكار. اطلب من مئة شخص أن يجروا في ماراثون، واحسب متوسط الزمن الذي استغرقوه لقطع المسافة، وفي كل مرة سيكون المتوسط أسوأ من الوقت الذي استغرقه العداء الأسرع. ولكن اطلب من المجموعة ذاتها حل مشكلة، فستجد أن المتوسط على الأقل بالجودة ذاتها لأذكى عضو. في معظم الأشياء، المتوسط يعني المستوى العادي. أما في صناعة القرار فيعني التميز. «يمكنك القول: كأننا قد تمت برمجتنا على أن نكون أذكياء جمعياً» (Surowiecki 2005:11).

وقد عزا المؤرخ الاقتصادي جويل موكير Joel Mokyr الثورة الصناعية إلى «سلاسل من التطلعات» (Robert Wright 2001:190-1)، أي حقيقة أن فكرة ما تقود إلى فكرة أخرى. وهذه السلسلة يمكن أن تفسر تاريخ التقدم التقاني بأسره الذي كان محركه الأساسي هو العقل الاجتماعي الجمعي. تاريخنا يظهر أن تبادل المعرفة يزداد طوال الوقت بسبب عامل آخر، وهو التقانة؛ المحرك المهيمن للتعقيد منذ بدأت الثورة الصناعية. والتاريخ هو التطور باتجاه التركيبات المعقدة التي أُسِّست وأُديرت بوساطة تدفق المعلومات التي تُدار اليوم بطريقة إلكترونية.

وعلى رغم أن أهمية هذا بالنسبة للحرب قد لا تكون واضحة فإنها حقيقية. لقد كان تشارلز بيرس Charles Peirce، مؤسس المدرسة البراغماتية الأمريكية، هو أول من زعم أن "معنى" أي رسالة مفردة (أي المعنى الذي نستقيه من المعلومات التي نعالجها) هو السلوك الذي تستحثه فينا. فالسلوك المناسب للمعلومة التي تحملها الرسالة حول حالة البيئة عادة ما يقود إلى سلوك مناسب للمعلومة التي تم توصيلها. باختصار، ما يغذي التعقيد هو معالجة المعلومات. خذ مثلاً القاطرة، فمحركها ليس فقط أحدث معالج للطاقة، إن لديها شيئاً يحكمها، وهو حلقة تغذية راجعة، ومن ثم فهي تعالج البيانات بشأن حالتها.

وتميل المجتمعات أيضاً إلى أن تصبح أكثر تشابكاً بمرور الوقت، ذلك أن التغذية الراجعة المتعددة تشجع الناس على الالتقاء. وإذا ما أصبحت المجتمعات الحديثة معقدة بمعدل أسرع فلأنها أكثر تقبلاً من مجتمعات ما قبل الحداثة للمعلومات الجديدة؛ إنها تميل إلى تقبلها وتبنيها، وذلك بطريقة جماعية (Wright 2001:248). باختصار، إنها تتعلم بطريقة أسرع.

ويمكن القول بأن التطور الثقافي هو تطور وتوريث الصفات المكتسبة على غرار نظرية لامارك Lamarck، من حيث إن الصفات والمهارات المكتسبة يمكن أن تنقل للأجيال بمعدلات أسرع. ومع أن التاريخ، بطبيعة الحال، يعج بالتقلبات (أي "توازنات بارزة" في لغة التطور البيولوجي)، إلا أن الاتجاه واضح بشكل كافٍ للمؤرخين. إنه الاتجاه بعيداً عن التماثل البسيط؛ أي نحو التنوع والتماثل المعقد الذي نسميه اليوم العولمة (McNeil and McNeil 2003:320).

وإذا كان التاريخ هو قصة تغير سريع ومتراكم فمن قبيل التضليل أن نطلق على ذلك اسم التقدم. "التقدم" ذاته هو نوع من البناء الثقافي، وفي صورته الحالية هو مفهوم التنوير الذي تمت ترجمته خلال القرنين الماضيين إلى أيديولوجية حياة. وقد حظي باهتمام قوي، وبخاصة في تعبير إيمانويل كانط «الخطة الخفية»، وحتى عند آدم سميث في ريادة الطبقة المتوسطة باعتبارها طليعة النظام الاقتصادي والأخلاقي المتفوق. ولعل أسمى تعبير عنه نجده في اعتقاد هيغل أن التاريخ هو قصة حرية تصبح على وعي بذاتها.

وبإمكاننا، إن أردنا، إدماج مفهوم "التطور" في التاريخ من دون أن نُهرِّب افتراضات معيارية، مادمنا لا نقصد بالتطور أكثر من زيادة التعقيد. ولعله من قبيل المصداقية الادعاء بأن التاريخ ليس تقدمياً progressive، بل هو اتجاهيّ directional. الاتجاهي هو قدرتنا على التعلم، وعلى التكيف مع بيئتنا، والتعلم بطريقة متنامية بسرعة. ولهذا السبب استطاعت حضارتنا الاستمرار. وما يجعلنا نتعلم بسرعة (نتعلم أكثر، على

رغم أنه ليس بالضرورة أن نعرف أفضل) هو تبادل المعلومات الذي يتم حالياً تسهيله أكثر من أي وقت مضى، عبر التقدم التقاني والشبكات العالمية، ولاسيما الشابكة (الإنترنت).

في عام 1965 شرح المهندس جورج مور George Moore المبدأ الذي عُرف فيما بعد بقانون مور، وهو أن قدرة (بمعنى سرعة) المعالِجات الصغرى تتضاعف كل 18 شهراً. ومؤخراً تم تدعيم هذا بقانون غيلدر Gilder، الذي ينص على أن سرعة النقل (أو عرض النطاق) على الإنترنت تتضاعف كل عام.

الجدول (2-1)

النظُم الحية مقابل التطور الآلي

التطور الطبيعي	التطور الآلي
نبات/ كائن بيولوجي	عملية أو برنامج
تطور بطيء جداً	تطور سريع جداً
تعقيد هائل	درجة تعقيد منخفضة حتى اليوم، وفي النهاية ستفوق درجة التعقيد نظيرتها في الطبيعة
ليس ثمة هدف طويل المدى في العقل	يتم تحديد أهداف طويلة المدى
المحاولة والخطأ بطريقة عشوائية	يوجه بوساطة فريق تصميم ذكي
بقاء الأقوى	الانتقاء بناء على معايير التصميم
لا يمكن نسخ النسخة المنتقاة فوراً	يمكن نسخ النسخة المختارة ونشرها عبر الإنترنت
طرائق التطور نادراً ما تتغير	طرائق التطور تتطور بسرعة
كل نبات أو كائن يتطور يكون منفصلاً مادياً	يمكن ربط برامج التطوير على الإنترنت

إن أهمية التقانة الحديثة لها سبب. فإذا كان الانتقاء الطبيعي لم يُظهر أي دليل على التصميم الذكي فإن التطور الآلي يظهره. فالتطور الآلي موجه، وهادف، وذكي، ويبشر بأن يجعل الحياة أكثر تعقيداً. في التطور الآلي تتغير التقانة مع التعلم. فطرائق الحساب لا تظل كما هي. والتعقيد لا يصاحب التصميم الأصلي بل "الهندسة التطورية" (Martin 2006:190-1). ويمكن أن يوفر الانتقاء الطبيعي تحسينات محددة (مع استمرار المورثات

في التكيف)، وتتيح الهندسة التطورية التدخل الإنساني عندما يصل النظام إلى طريق مسدود. والهندسة التطويرية ليست عشوائية، لأن البشر يضعون أهدافاً، أهمها الأداء. فإذا ما اخترعت برنامج حاسوب للتبادل التجاري الخارجي، على سبيل المثال، فإنك تريد أن يعمل هذا النظام على الوجه الأفضل. وعندما يتوقف النظام عن العمل بالشكل المأمول يقوم المبرمجون بتغيير الحسابات. في سوق العمل، حيث يكون دافع الربح هو "الهدف المستمر"، من الضروري أن تتطور التقانة، وتتكيف، وتتعلم، وتحسن نفسها. على سبيل المثال، تستخدم شركة ديملر-كرايسلر التطور الذي يرتكز على الأهداف، لإدخال تحسينات على تصاميم محركات الديزل. واستخدمت صناعة الطيران الطريقة ذاتها لتحسين محركات الطائرات. ويمكن إدخال تعديلات لا نهاية لها على البرامج.

التطور الآلي سيغير التاريخ بسرعة لم نشهدها من قبل بجعله أكثر تعقيداً.

التعقيد والحرب والمعركة الحاسمة

لم يعرف كلاوزفيتس بشكل رسمي قط التعقيد بصفته جزءاً من طبيعة الحرب، باستثناء قوله: «إن كل شيء في الحرب هو بسيط، لكن البسيط صعب [على نحو متزايد]». وعبارة "على نحو متزايد" هي إضافتي على نصه. فالحرب تزداد تعقيداً، ومن ثم تصبح غير حاسمة، على نحو متزايد. هذا لم يعن أن الحرب ستصبح حتماً أمراً مكرراً بقانون حقود للتاريخ. فالتعقيد لم يوضح هذا، بيد أنه أرغم المجتمعات على أن تكون أكثر إبداعاً. وبدلاً من حل اللغز كما أمل جيمس وآخرون، ألهم المجتمعات لإطالة أمد اللعبة قليلاً باستحداث قواعد مختلفة.

هذا التطور قد أثار أيضاً تكاليف الفرصة البديلة للحرب. فعندما أصبحت الحرب معقدة بات على من يخوضونها توقع عواقبها على أنفسهم، وعلى الاقتصاد الأكبر، وعلى الاستقرار الاجتماعي والسياسي في الداخل، وعلى النظام الدولي. حتى في ميدان المعركة عند رسم التكتيكات، يحتاج الجنرالات إلى بعد نظر أكثر من ذي قبل. ويتعين على الساسة أن يضمنوا ألا يصبح الحلفاء أعداء، أو العكس. إن المشكلة في التعقيد في الحرب هي

الأسئلة التي يجب أن نطرحها في بداية كل حرب: من حلفاؤنا؟ ما مصالحنا الحقيقية على المدى الطويل؟ ما مدى دقة تقويمنا للعدو؟ وعلى رغم أن هذه الحسابات منطقية فإنها تصبح أكثر تعقيداً مع تطور المجتمعات، ومع ارتفاع تكلفة الحسابات الخاطئة. في النهاية، وجدنا أن الحرب ليست حاسمة كما توقعنا.

منذ سنوات كتب المؤرخ راسل وايجلي Russell Weigley، كتاباً بعنوان **عصر المعارك** *The Age of Battles*، ليتحدى الاعتقاد الشائع أن تاريخ الحروب في أوربا كان تاريخ المعارك الحاسمة. وكما يذكِّرنا وايجلي، يعج التاريخ الحديث بقادة مثل: نابليون، وروبرت لي Robert E. Lee ، والقيادة الألمانية العليا في كلتا الحربين العالميتين الأولى والثانية، ممن استمروا في تحقيق نجاحات تكتيكية واحداً تلو الآخر، فقط على حساب خسارة استراتيجية. كان هذا ادعاءً جريئاً ومثيراً للجدل في الوقت ذاته، لأن المعارك دائماً ما أعطت الحرب جاذبيتها الميدانية، ولم تكن أي حقبة أكثر ميدانية من الحقبة النابليونية. فقد تم خوض خُمس المعارك في أوربا في حقبة ما بين عامي 1490 و1815 في السنوات الخمس والعشرين من الحروب الثورية والنابليونية (Bell 2007:7). وانتهت حياة نابليون المهنية بمعركة ووترلو، وهي واحدة من آخر المعارك التي وُضعت فيها الجيوش النظامية في مواجهة في تشكيلات برية، مع قرع الطبول ولمعان أنصال البنادق في ضوء الشمس. وقد شارك كلاوزفيتس نفسه في حملة ووترلو، لذا ليس مستغرباً أنه كان ينبغي أن يتأثر باحتمال المخاطرة بكل شيء في مقامرة واحدة.

في الخيال الغربي، للمعركة الحاسمة جذور أطول. في المعارك بين القوات اليونانية المدججة بالأسلحة وتشكيلات الفيالق الرومانية، وجد ميكافيللي وغيره من الكتاب ذوي النزعة الإنسانية في عصر النهضة "نوعاً مثالياً" للحرب. حتى هوبز، وعلى رغم أنه أشار إلى أن «الحرب لا تقتصر على المعركة أو فعل القتال»، فقد أصر على أن المدة الفاصلة بين القتال مهمة، لأنها تُعد «وقتاً يتيح التعرف بشكل كافٍ على الإرادة لمواصلة القتال». وفي القرن التاسع عشر، أولى المنظِّرون الغربيون أهمية خاصة للمعركة باعتبارها الهدف الذي ينبغي أن توجه إليه الجهود كلها في الحرب.

ومع ذلك، بدأ كثير من المؤرخين العسكريين يتحدّون عشق المعركة الحاسمة باعتبارها التعبير الأسمى عن إرادة القوة؛ بل إنهم بدؤوا يشككون في حسمية كثير من المعارك في الحقبة الحديثة؛ حتى أشهرها. وقد أوضح أحد أشهر المؤرخين العسكريين الأمريكيين، وهو والتر ميليز Walter Millis، في كتابه الشهير المعنون **الأسلحة والإنسان** *Arms and Man*، أن «ووترلو كانت آخر المعارك التي تنتمي إلى تلك الدراما المروعة، وأكثرها حسماً، ولم تكن لتكرَّر بعد ذلك. ومن ثم فقد بدأت الحرب تفقد فضيلتها الوحيدة، ألا وهي قوتها في فرض القرارات» (Weigley 1993: xii).*

ويضيف المؤرخ بريان بوند Brian Bond، في كتابه المعنون **البحث عن النصر** *The Pursuit of Victory*، أنه يجب على طلاب التاريخ العسكري جميعاً أن يذهلوا من «تناقض الانتصارات العسكرية وسخريتها وسرعة زوالها» في الحقبة الحديثة، مهما بدت مذهلة أو حاسمة في وقت ما. وبات كسب الحروب يتم على نحو متزايد بالاستنزاف، لأنه أصبح يتوقف على نحو متزايد على العوامل الاقتصادية والاجتماعية، بقدر ما يتوقف على أداء الجيوش في ميدان المعركة.

بدءاً من عام 1850 فصاعداً، مالت القوى التي كسبت الحروب إلى أن تكون أكثر قوة اقتصادية من أعدائها: فرنسا ضد النمسا عام 1859، والشمال ضد الجنوب في الحرب الأهلية الأمريكية (1861-1865)، وبروسيا ضد فرنسا (1870-1871)، والغرب في الحربين العالميتين، وأخيراً الولايات المتحدة وحلفاؤها في الحرب الباردة. وعلى رغم أن انتصارات الطرف الخاسر كانت في الأغلب مدهشة من الناحية التكتيكية فإنها لم تجدِ كثيراً. وقد تحدث المارشال فون مانشتاين von Manstein بعد ذلك عن "الانتصارات الضائعة" لألمانيا في المدة 1940-1941 (Weltman 1995: 65)؛ إذ لا تمكن ترجمة أي من النجاحات التي حققتها ألمانيا في ميدان المعارك في المدة 1940- 1941 (ولعلها الأشد إدهاشاً في التاريخ الحديث) إلى نتيجة استراتيجية حاسمة.

---

* في الأصل Weighey والصواب Weigley وهو المذكور في قائمة مراجع الكتاب. (المحرر)

وفي هذا كتب جوناثان بيلي Jonathan Bailey، إن "عملية باربا روسا" كانت خطة ميتافيزيقية أكثر من كونها خطة عسكرية، نتيجة لاعتقاد سياسي أكثر من تحليل عملياتي هادئ. واقتناعاً من هتلر بأن الاتحاد السوفيتي سوف ينهار تحت وقع الضربات المتكررة، فقد جرّد قوة الغزو الألمانية من معظم القوة النيرانية التي ستحتاجها فقط في حملة استنزافية. وأي افتراض بأن القوة النيرانية سيثبت أنها حاسمة كان من شأنه تقويض المعتقدات الأيديولوجية التي ضمنت المشروع بأسره. وخلال الأشهر الستة الأولى، حقق الجيش الألماني بعض الانتصارات الملحوظة التي لاتزال تشجعنا على أن نرى الأشهر الأولى للعملية ضربة رئيسية في مناورات الحرب. ولكن التكلفة كانت باهظة: بلغ عدد القتلى والجرحى 830 ألف جندي، أي أكثر مما تكبدته ألمانيا في معركتي "فيردون" و"السوم" مجتمعتين (Bailey 2007:56). وعلى رغم السيطرة على الأرض فإن الحرب لم تُكسب، واستمرت ثلاث سنوات أخرى، تحول فيها القتال إلى سلسلة من المواجهات العنيفة والهمجية.

وللأسف، في محاولة لتحدي هذا المنطق، أصبحت الحرب بالنسبة لبعض الدول نموذجاً ميتافيزيقياً صُمِّم بشكل خاص في الأيديولوجية الفاشية لاختبار "إرادة القوة" الفائقة لدى المشاركين فيها. وكانت السمة المميزة لحكومة الرايخ الثالث هي رغبتها في المخاطرة بكل شيء. رأى هتلر نفسه مقامراً أولاً وأخيراً، رجلاً يقدم على المخاطر: «ليس هناك نجاح من دون مخاطرة؛ لا في السياسة ولا في الحرب» (Bessel 2004:86). لم يكن يرى السياسة على أنها فن الممكن. فالممكن يلغي المخاطر، وكان يُنظر إلى السياسة هنا على أنها كفاءة، وظيفة وغرض. إرادة القوة كانت لا تهتم بالسياسة وتنافيها، كانت تقاس بالمخاطر التي تكون الدول على استعداد لتقبلها. «إنها مسألة لامبالاة» كما أعلن هتلر «ما نسبة الألمان الذين يصنعون التاريخ؟ الأمر الوحيد المهم هو أننا آخر من يصنع التاريخ في ألمانيا» (Koselleck 1984:203). اعتقد هتلر أن إرادته أقوى من الظروف التي تحيط به، وهذا ما يفسر إقدامه على المخاطر، لقد قامر بكل شيء وخسر كل شيء، وبإخفاقه أكد أن الشعب الألماني لن ينسى مرة أخرى أن السياسة تبنى على حساب المخاطر.

لكن النازيين أظهروا بعدها كراهة للتعقيد من أي نوع، فكتب هيغل: يصبح المجتمع على حافة التفكك عندما يظهر "تكثيفاً مَرَضياً" لمبادئه الأولى. لقد عرفت ألمانيا الحرب على أنها عنصر أساسي لوجودها، وما فعله النازيون هو فقط تركيز هذا المبدأ إلى حقيقة واقعية. والنموذج الاشتراكي الدارويني للصراع المستمر الذي تتجدد فيه الدولة في ميدان المعركة قد ولّد فكرة أخرى: عسكرية القرن التاسع عشر (وهي الإيمان بأن القوة العسكرية هي المثل الأعلى للدولة). في تأصيل النازيين للحرب، فعلوا ما هو متوقع منهم. ففلسفتهم قد جردت الخبرة الإنسانية من التنوع. لقد كانوا أعظم مبسِّطين للعصر. حاولوا تبسيط الحرب مثلما حاولوا تبسيط الحياة بإزالة الشعوب جميعاً منها، وليس اليهود فقط. حاولوا تبسيط الحرب، وبالمقابل أغرقتهم الحرب بتعقيدها. وفي النهاية، وعلى رغم المظاهر، لم يكونوا جيدين جداً فيها.

الهرولة نحو الهزيمة

إذا كان التعقيد المتنامي للحياة يؤدي إلى تزايد مخاطر خوض الحرب بجعلها أقل حسمية فإن الحل بالنسبة للطرف الأضعف هو السرعة. لقد أخذت الحرب تزداد سرعة. وظلت السرعة دائماً عنصراً أساسياً للإدارة الناجحة للحرب (إيصال الجيش إلى ميدان المعركة أولاً والتفوق على العدو). ولكن في الحقبة الصناعية أصبحت السرعة نوعاً من الإدمان وأمراً ذا خطر.

وقد أثار الإدمان المتنامي على السرعة قدراً كبيراً من التعليقات على مدار القرن التاسع عشر. ولتقويم أسباب ذلك، دعونا نستدعِ أحداثاً افتراضية؛ "سيناريو معكوساً" (التاريخ الافتراضي)، يشمل عالم القرن التاسع عشر، وقد اخترع فيه الحاسوب، وكان متاحاً للاستخدام العام. لم يصنع تشارلز بابيج Charles Babbage محرك الفرق (النموذج المبدئي لأول حاسوب)، ولم يقترب مطلقاً من تحقيق خطط النموذج القابل للبرمجة، المحرك التحليلي، ولكنه في عام 1830 كان أقرب إلى اختراع الحاسوب من أي شخص آخر خلال مئة العام التالية.

يقـدم وليـام جيبـسون William Gibson وبـروس سـتيرلنغ Bruce Sterling، في روايتهما المعنونة **محرك الفـرق** *The Difference Engine* (1988)، تاريخـاً بـديلاً للعـصر الفيكتوري يفترض أن آلات بابيج قد صنعت فعلاً. وفيها يـدير كيـتس دار سـينما، وفيهـا ديزرائيلي كاتب عمود للنميمة، وفيها كبار أصحاب مصانع الحديد تحت السيطرة. يجلـس بابيج مثل لورد في مجلس اللوردات. ويتم تمرير البيانات عبر المملكة من خلال البرقيـات. وفي مكتب الإحصاء المركزي، تقوم محركات تحليلية ترتبط معاً بطريقة تسلسلية، بمعالجـة ملفات كل رجل وامرأة وطفل في المملكة. وهناك محركات أصغر تقوم بفحص البطاقـات الائتمانية للزبُن على صناديق الحساب في المحلات الـصغيرة. ولكـن لنـدن ليـست مدينـة سعيدة.

وفي رواية أخرى عن محرك بابيج التحليلي تحت عنوان **دان لينو وجوليم لايمهـاوس** *Dan Leno and the Limehouse Golem* للروائـي بيـتر أكرويـد Peter Ackroyd (1994)، يقول مشغل أحد المحركات: «أعرف أنه ربما نـستطيع محـو الحـزن كلـه بـبعض البرمجـة» (Spufford 1996:22). في نـسخة سـتيرلنغ وجيبـسون لم يـتم ذلـك، فعـالمهم المتصوَّر يتجه بسرعة نحو الانهيار المنظم (Spufford 1996:277).

لاريب في أن الرواية ليست تاريخاً افتراضياً بمعنى الكلمة، ذلك أنها تعج بالمفارقات التاريخية. وكـما يكتـب فرانـسيس سـبوفورد Francis Spufford فقـد «اخـترع سـتيرلنغ وجيبسون عالماً من الحواسيب الكبيرة البطيئة، شبيهة بـأجهزة IBM في عقـد الـستينيات، ولكنهم طعموها بشبان يرتدون معاطف طويلة كهؤلاء الذين يمكن أن نقـابلهم اليـوم في وول ستريت. عالمهم هو عالم الشاشات الضخمة التي تشبه شاشات السينما، وفي عصرهـم البريطاني الفيكتوري تتوافر الرسوم البيانيـة في غيـاب الأشـعة الكاثوديـة التـي تمـر عـبر الأنابيب» (Spufford 1996:203).

لكن هذه المفارقات التاريخية هي التي مكنتهم من التقاط الأمور المزعجة بشأن عـالم العصر الفيكتوري: السرعة لم تخبر أحداً بوجهتها. ويقول أحـد شـخوص الروايـة، وهـو

أرستقراطي يتحسر على مرور اللحظة الأرستقراطية في التاريخ وبزوغ البرجوازية: «نمى إلى علمي أن المسار الحقيقي والطبيعي للتطور التاريخي تعرض لعنف رهيب»، لأنه يجد نفسه يشعر بالغربة (مثلما يشعر كثيرون غيره في القصة) من عالم أتباع فلسفة بنثام النفعية المحض.

في هذا الإطار، أشّر مولد العالم الحديث إلى انفصال حاسم مع حياة ما قبل الثورة الصناعية التي جاءت قبلها. وبدأ التاريخ يتسارع، وماانفك يتسارع منذئذ. وبدأ يتم تعريف القوة من حيث الطاقة والسرعة التي رسختها. وحتى مقدم الثورة الصناعية كان العلماء مهتمين باكتشاف قواعد الطبيعة وإيقاعاتها. وبعدها اهتموا بتحويل الطبيعة إلى نظام، وكيفية الحصول منها على قوة أفضل والاستفادة منها. ومع مرور الوقت، اتضح أن الحرارة هي شكل من أشكال الطاقة التي يمكن تحويلها إلى أشكال أخرى بمعدل ثابت. وتم تحويل الطاقة إلى قوة، وترجمة القوة السياسية (أو الأفكار؛ كالثورة والقومية وقوة الدولة) إلى قوة كاسحة يمكن توجيهها إلى نقطة دقيقة. وبعدئذ أصبحت الطاقة المفهوم المركزي للحرب.

لم يفهم أحد أفضل من نابليون مفاهيم الكتلة (الجموع) والوقت والمسافة التي تدخل في تشكيل القوة. ولأنه درس علوم المدفعية فقد تمتع بفهم قوي لمبادئ الفيزياء ومفاهيم الطاقة والقوة. وفي هذا يرى مانويل دولاندا Manuel DeLanda في جيش نابليون تجسيداً لمحرك تجريدي:

> نابليون نفسه لم يدمج المحرك على أنه شيء فني في حربه.. ولكن المحرك التجريدي أثر في طريقة تشكيل نابليون للجيوش: فالجيوش "التي تستخدم المحركات" كانت هي أول من يستغل مخزون الأجسام البشرية الموالية والمخلصة، لإقحام هذه الأجسام في حساب مرن (تكتيكات غير خطية)، واستغلال الفارق ما بين الصديق والعدو؛ من أجل نقل المعركة من المبارزات المنظمة المتعلقة بالأسر الحاكمة إلى مواجهات بين الأمم (DeLanda 1991:141).

وإذا كانت الآليات المنظمة لا تنقل إلا الحركة فحسب على طول مسار معد مسبقاً، فإن المحركات الحرارية تولد طاقتها بنفسها، ثم الحركة. وحتى قبل وصول عصر السكك الحديدية، استطاع نابليون دفع جنوده أكثر من أي أحد قبله، دفعهم إلى السير خمسين ميلاً في 36 ساعة. وفي هذا كتب عسكري محنك شارك في حملاته: «اكتشف الإمبراطور طريقة جديدة لشن الحرب. إنه يستغل أقدامنا بدلاً من الحراب» (Bell 2007:196). ويوضح روبرت ليونارد Robert Leonhard، أحد المؤلفين العسكريين الأمريكيين المعاصرين البارزين، ثقافة السرعة لدى نابليون بتقدمه إلى "أولم" عام 1805. فخلال ستين يوماً قطع مسافة 400 ميل. وتحركت بعض القوات بمعدل 18 ميلاً في اليوم في آخر انتشار للقوات بين نهري الراين والدانوب (Leonhard1999:132). ربما لم يستطع نابليون تحريك جيوشه بوساطة السكك الحديدية (تخيل ما الذي كان يمكن أن يحققه لو أن عصر السكك الحديدية بدأ مبكراً)، ولكن كان هناك مبدأ ميكانيكي يحرك تفكيره في شأن الحرب.

ومع ذلك، فإن السرعة في ذاتها لم تتّحد مبادئها الأساسية، وهي تقدير هذا التفكير في الحرب بوصفه عملاً تجارياً. يجب على المستثمرين في السوق أن يخمنوا ما الذي سيفكر فيه غداً أولئك الناس الذين يمتلكون المال لكي يصبح مصدراً رئيسياً للدخل. الأمر المهم هو أن تشتري الآن وتبيع في الوقت المناسب لكي تجني ربحاً. وفي أواخر العصر الحديث، لم يكن منطق السرعة في الحرب أمراً مختلفاً (Trouillot 2003:51)، فقد استهدفت السرعة إضعاف الروح المعنوية للعدو وتقويض ثقته بنفسه، لكسب اليوم ما قد لا يمكن كسبه بالضرورة غداً، لأنه لا تمكن مواصلة السرعة إلى غير نهاية.

الخدعة هي حمل العدو على التركيز على "المدى القصير" وليس على المدى البعيد، لأنه في المدى البعيد قد يتغير كل شيء. في العالم المالي، في الأغلب يكون الأداء على المدى القصير هو كل شيء. والاستثمارات والمشاريع والاحتمالات البعيدة المدى تستغرق وقتاً حتى تظهر نتائجها. فعوائد البحوث والتطوير البطيئة، وإن كانت توفر نمواً متواصلاً، وتلك المعدودة، وإن كانت مخاطرها مجزية، كلها تستغرق وقتاً حتى تؤتي ثمارها، ولهذا السبب في الأغلب تحفز الأسواق المالية إلى الاهتمام بالمدى القصير.

مشكلة السرعة هي أن الطاقة كلها تتبدد؛ فالسرعة تفنى في النهاية كما اكتشف نابليون نفسه في عام 1812 عندما وصل إلى موسكو. السرعة لا تجدي نفعاً عندما يصل الجيش إلى ما يطلق عليه الاستراتيجيون "نقطة ذروة العمليات"، حيث يكون قد تقدم إلى مدى بعيد وبسرعة كبيرة إلى حد أنه لا يمكنه تثبيت نفسه في الميدان. كل الجيوش، وبخاصة أكثرها طموحاً، تكتشف أن الطاقة تتلاشى كلما أطلقت نفسها. وكما كتب أحد الاستراتيجيين البريطانيين: «تحمل الحملة الهجومية أمراً بدهياً في ذاتها، جرثومة قاتلة، تضعف ذاتها بنجاحها» (Virilio 1986:122). ومن الحماقة بمكان الدعوة إلى أن السرعة هي ذاتها فضيلة. إنها حماقة لأنها تُعِد الجنود للاهتمام بالتكتيكات أكثر من الاستراتيجية. الفضيلة الرئيسية في الحرب ليست السرعة، ولكن الذكاء.

عصر الوفرة

تلك الحدود قد أدركها بوضوح بعض الجنرالات الذين زجوا بدولهم في الحرب عام 1914. وعلى رغم ما قالوه لشعوبهم (وأحياناً لأنفسهم) من أن الحرب ستنتهي بحلول عيد الميلاد، فإن كثيراً منهم قد شكوا الأسوأ. كان متوقعاً أن تستمر سنوات وفي النهاية لا تفرز فائزاً بشكل عام. حتى فون شلايفن von Schlieffen، مهندس خطة حرب ألمانيا في عام 1914، قد حذّر الإمبراطور من أن الحرب المستقبلية «ستكون حرباً قومية لن تتم تسويتها بمعركة حاسمة، ولكن بصراع طويل ومرهق مع دولة لن يتم التغلب عليها حتى تتم هزيمة قوتها الوطنية بأسرها، وسوف تنهك شعبنا تماماً، حتى لو كنا منتصرين» (Strachan 2003:43-6).

وقد اتضح هذا المنطق بدايةً في أول صراع رئيسي في العصر الحديث، وهو الحرب الأهلية الأمريكية (1861-1865)، ففي ظل طول أمد الصراع وسّع الاتحاد تركيزه على عملياته، وكان تدمير الجنرال شيرمان لجورجيا وساوث كارولينا بوابة إلى المستقبل، ووُصف بأنه «أول جنرالات الحكم الشمولي في العصر الحديث»، لأنه شن حرباً ليس على المسلحين فقط بل على الشعب أيضاً (Hagen 2007:82). وفي هذه المرة لم يكن ما أصاب

الشعب هو نتيجة "دمار جانبي"، بل كانوا هم الهدف المقصود. فقد كان هدفه تدمير المصانع والمحاصيل الزراعية، وفي حالة أتلانتا تدمير المدينة بأسرها. وقد وصف وايجلي الاستراتيجية بدقة على أنها «الطريقة الأمريكية في الحرب». لقد أدخلت الحرب في عصر الصناعة عاملاً جديداً في الحرب: الدولة (أو تحالف الدول) التي ستفوز من خلال التفوق في الإنتاج على أعدائها. كانت الحروب في حقبة ما قبل الصناعة تقرَّر بمدخلات محدودة، أما الحروب العالمية فقد شملت الوفرة لا الندرة: وفرة في الأفراد والأسلحة حتى في مجال العمليات الذي حوّل في النهاية العالم كله إلى مسرح للصراع.

إن الدراسة الكلاسيكية للحرب تأسست مثل الاقتصاد الكلاسيكي الحديث، على فكرة ندرة الموارد. فقد كان هناك حد لعدد الأفراد الذين يمكن إرسالهم إلى ميدان المعركة. فلا يمكن خوض الحرب بتكاليف زهيدة. كل الحروب تكلف دافعي الضرائب. وكان فن الاستراتيجية يقضي بعمل سلسلة من التوازنات الناجحة: مقايضة الوقت بالمساحة، والأهداف الطويلة المدى بالقصيرة المدى (أو تلك التي يمكن تحقيقها بسهولة أكثر). عند الذهاب إلى الحرب، افترضت الحكومات أنه يجب عليها التعامل مع مُدخلات محدودة وليست وفيرة. بيد أن القرن الحادي والعشرين كان حقبة الوفرة؛ إذ يمكن للدول خوض الحرب لسنوات من دون معاناة انهيار اقتصادي.

أخرجت الحرب العالمية الثانية الولايات المتحدة من الحالة الاقتصادية المتراجعة التي وصلت إليها بفعل الكساد العظيم. وأخذ عمال المزارع المهاجرون المثيرون للشفقة الذين وصفهم جون شتاينبك John Steinbeck في روايته **عناقيد الغضب** *Grapes of Wrath* يتمتعون بدخل يعادل دخل الطبقة المتوسطة. كما أن "وثيقة المحاربين القدامى" GI Bill* في عام 1944 قد منحت جيلاً بأكمله تعليماً لم يكن ليحصل عليه قط. وفي حالة الاتحاد

* وثيقة شاملة اقترحها الرئيس روزفلت، واستهدفت أساساً العائدين من الحرب العالمية الثانية بمنحهم منحاً تعليمية، وقروض إسكان من دون دفعات مقدمة، وإعانات بطالة، وقروضاً للبدء بمشروعات، كما تضمنت إعانات للفلاحين الباحثين عن عمل، وغير ذلك، وهو ما مكن ملايين العائلات الأمريكية من الانتقال من الضواحي إلى المدن، والتمتع بنوعية حياة كانت حكراً على الأثرياء قبل الحرب، وكان ذلك ضمن سياسة تهدف إلى منع تكرار الكساد الذي سبق الحرب. (المحرر)

السوفيتي، فإن ما حفزته الصناعة الحكومية لم يكن أقل من «ثورة صناعية ثانية» (على حد وصف جون إريكسون John Erickson) (Keegan 1977:170). باختصار، لم تكن التكاليف الحدية للحرب، مثل التكاليف الحدية للتصنيع والتوزيع (وهما اثنتان من الوظائف الرئيسية للندرة في الاقتصاد الحديث) كبيرة كما كان متوقعاً.

منذ أكثر من عقد مضى، قدم جورج غيلدر، رائد الوفرة، لقرائه طريقة جيدة للتفكير في شأن هذا كله:

> في معظم التاريخ البشري، اعتقدت غالبية الناس أن الاقتصاد هو لعبة محصلتها صفرية (يكسب فيها طرف على حساب الآخر)، وأن الندرة سوف تسود في النهاية على الوفرة. وكان القس مالثوس هو المناصر الشهير لوجهة النظر القائلة بأن السكان يتزايدون بشكل هندسي في حين تتزايد المنتجات الزراعية بشكل حسابي. وحسب وجهة النظر المالثوسية، فإن ندرة الغذاء تخنق في النهاية النمو. ورأى كارل ماركس أن الاقتصاديات جميعها تتحول في النهاية إلى صراع طبقات حول "وسائل الإنتاج" النادرة.

ينبع تركيز الاقتصاديات على الندرة من حقيقة أن النقوصات قابلة للقياس، وتنتهي إلى الصفر. وهم يقيدون نموذجاً اقتصادياً لإنتاج نتيجة قابلة للحساب بوضوح، نقطة تعويق قابلة للتحديد في الدورة الصناعية، أما الوفرة فهي أمر غير قابل للحساب، وليس لها سقف واضح، وعندما تكون الوفرة كالهواء أو الماء تكون بمنزلة "أمور خارجية" غير مرئية. ومع ذلك فإن الوفرة هي القوة المحركة في النمو الاقتصادي والتغيير.

وعليه، كيف يمكن التوفيق بين هذا والاقتصاديات الكلاسيكية الجديدة؟ يوصي غيلدر بأنه يجب علينا تبني الإهدار.

في كل ثورة صناعية، يتم تخفيض تكلفة بعض العوامل الرئيسية في الإنتاج بشكل كبير. وفيما يتعلق بالتكلفة السابقة لتحقيق الهدف، يصبح العامل الجديد بالمجان بشكل افتراضي. وقد أصبحت القوة المادية في الثورة الصناعية بالمجان افتراضياً، مقارنةً بتكلفتها عندما كانت تأتي من قوة عضلات الحيوانات وقوة العضلات البشرية. وفجأة يمكنك

فعل أشياء لم تكن تستطيع فعلها من قبل. يمكنك أن تشغل مصنعاً على مدى 24 ساعة في اليوم، وهو ما يوفر منتجات بطريقة لم يكن يتصورها أحد قبل الحقبة الصناعية. وكان معنى هذا أن القوة المادية قد أصبحت بالمجان من حيث المعنى الافتراضي، واضطر الاقتصاد كله إلى أن يعيد تنظيم ذاته ليستغل هذه القوة المادية، وأنت مضطر إلى "إهدار" طاقة المحرك البخاري ومشتقاته لكي تسود، سواء كان ذلك في الحرب أو في السلام (Anderson 2007:175-6).

منحت الوفرة الحلفاء مزية في كلتا الحربين العالميتين؛ إذ مكنتهم من تحمل خسارة المعارك المبكرة، حتى يدرسوا كيفية ممارسة قوتهم المادية الرئيسية. ولعل الأمر الأكثر إعجاباً هو الموارد البشرية الاستثنائية للاتحاد السوفيتي. ففي أضخم معركة في التاريخ، بين تشرين الأول/ أكتوبر 1941 ونيسان/ إبريل 1942، تم الزج بنحو سبعة ملايين رجل في القتال، وخسر الروس فقط مليوني شخص. وقد توقعت القيادة السوفيتية العليا خسارة اثنين أو ثلاثة رجال مقابل كل جندي ألماني. ولم تكن استراتيجية ستالين المبذرة لتتم لولا معرفته أن هناك موارد بشرية لا تنضب. في عام 1941 بلغ متوسط معدل الاستمرارية للمجندين الجدد في بعض الوحدات أربعة إلى خمسة أيام فقط. وكان يتوقع منهم أن يذهبوا إلى المعارك بتعليمات لسحب الأسلحة من زملائهم الذين سقطوا لعدم توافر مزيد من الأسلحة لهم (Connelly 2006:29).

وعلى رغم هذا يجب علينا أن ندرك أن الوفرة، مثل السرعة، لا تتحدى بذاتها مبادئ الحرب أكثر من تحديها الفعلي لقوانين الاقتصاد. وكما يذكرنا غيلدر، الموارد الوفيرة ما هي إلا عامل فقط في نظام تحدده ماعدا ذلك الندرة، وهذه الموارد لا تتحدى الأسس الاقتصادية التقليدية لأنها ببساطة تخدم خفض الأسعار وزيادة الإنتاجية. وكذلك فإن الشيء ذاته أيضاً في الحرب، فلم تمنح الوفرة النصر للحلفاء. وقد خسرت قوى المحور والقوى المركزية لأنها توقعت أن سلسلة من الانتصارات التكتيكية المثيرة للاهتمام ستكون كافية للفوز بمبادرة استراتيجية. لقد خسروا لأنهم تجاهلوا تعقيد الحرب، بما في ذلك محصلتها الصفرية.

التعقيد والمحصلة اللاصفرية

لو كان هذا المفهوم متوافراً لوليام جيمس لاستدعاه بكل تأكيد. بالبناء على فكرة المحصلة الصفرية (موقف تكون فيه مكاسب بعض هي خسائر لبعض آخر)، والمحصلة اللاصفرية (موقف قد يكسب فيه كلا الطرفين أو يخسر، ومحصلة المكاسب والخسائر للأطراف المتنافسة لا تكون صفراً) التي لا يكون فيها فائزون، وتلك التي لا يكون فيها خاسرون. يشرح روبرت رايت كيف أن التاريخ على مدار خمسة الآلاف سنة الماضية قد ربط الناس في منظومة أكبر وأكثر تعقيداً من الشبكات. تاريخياً، أياً ما كان العامل المساعد للتعقيد، فإنه يميل إلى أن يكون محصلة لاصفرية، وأياً ما كان ما يهدده فإنه يميل إلى أن يكون محصلة صفرية. ونحن نميل إلى التفكير في الحرب على أنها محصلة صفرية لأن الجنود يُقتلون. وعادة ما يكون هناك منتصر وخاسر. ولكن حتى في الحرب، هناك ميل إلى أن تكون ثمة دينامية لاصفرية المحصلة.

عندما باتت المجتمعات أكثر تعقيداً أنتجت الحرب محصلات لاصفرية. وفي هذا يقول رايت: «لوضع دينامية التطور الثقافي هذه في اللغة الداروينية للانتقاء الطبيعي، يلاحظ أن ما يتم اصطفاؤه هو امتدادات أكبر وأكبر من المحصلات اللاصفرية، ولكن أحد المنتخِبين الرئيسيين هو بُعد المحصلة الصفرية للحرب» (Wright 2001:64). وهذا ما دفع بعض الناس إلى تضامن عضوي، وشكل تهديداً خارجياً تطلب تعاوناً أوثق. ولشرح هذه الفكرة يقتبس رايت من مقال جيمس **المعادل الأخلاقي للحرب**: «إذا فكرنا في كمية عدد الأشياء، إضافة إلى جبهات الدول، التي حسمتها الحروب في التاريخ، يجب أن نقف بإجلال أمامها على رغم كل الفظائع. حضاراتنا الفعلية، الجيدة والسيئة على السواء، قد شهدت حروباً في اللحظات الحاسمة» (Wright 2001:54).

وكان على الأشخاص المسالمين مثل جيمس أن يقروا بأن الصراعات ليست جميعاً ذات محصلة صفرية، فالصراعات في الأغلب تقرب المجتمعات للتعاون بشكل أفضل حول مقصد مشترك. تُعرّف الفلسفة الداروينية الجديدة الحرب على أنها «عدوان تحالفي

بين أعضاء النوع». ووفقاً لافتراض هذه الفلسفة فإن المجتمعات البدائية تظهر أن ما يجعلنا بشراً هو الذكاء الميكافيللي الذي نتقاسمه مع القردة وبخاصة الشمبانزي. يمكننا تصور ما يفكر فيه الآخرون، ويمكننا الدخول في تحالفات، ويمكننا خداع الآخرين. وهذا النوع من الإدراك الاجتماعي هو ما يجعل السلوك التحالفي ممكناً. بعبارة أخرى، نجاحنا في البشرية استلزم مزيداً من التقدم في الذكاء الميكافيللي، عندما وجد البشر أنفسهم منخرطين في «سباق إدراكي على التسلح».

التعاون يقود بدوره إلى تطوير هياكل اجتماعية هرمية على نحو متنام. أما والتر بيجهوت Walter Bagehot، محرر صحيفة **الإيكونوميست** *The Economist* سابقاً، فقد شرحها على هذا النحو: «الأكثر تدجيناً هم الأقوى» (Wright 2001:57). وبناء التحالفات فيما وراء القرية كان الخطوة التالية. في وقت ما، اندمجت القرى فشكلت مدناً. ربما استسلمت المدن من ناحيتها لأعمال السلب التي قام بها البدو في عصور مختلفة من التاريخ، ولكن عمليات الغزو قد أضعفت البدو وجردتهم من قوتهم. وعلى مر الزمن، تحولت عواطفهم الخاصة، كالشراسة والجشع والطموح، إلى فضائل عامة؛ تحولت الشراسة إلى وطنية، و الجشع إلى رأسمالية، والطموح إلى سياسة.

باختصار، كلما ازداد فهم المرء للأصول الأنثروبولوجية للحرب، تمكنا من الجزم بأن الحرب لم تكن محصلتها دائماً صفرية. وعلى رغم رؤية إيمانويل كانط لعالم في حالة سلام، فإنه قد كتب حول فائدة «الحالة الاجتماعية غير الاجتماعية» 'unsocial sociability'. «لقد بُرمجنا جميعاً على الرغبة في الشرف والقوة والمكانة». ومن دون هذه الصفات الاجتماعية لم نكن لنتطور قط. وقد ازداد الدافع للتمتع بمكانة اجتماعية من قبل دائرة معارفنا على مر الوقت، وأصبحنا نرغب بشكل متزايد في أن نُحتَرم ولا يُخاف منا. كما أن ما يسمى "الغرض الكوزموبوليتاني" للفيلسوف كانط يقدم لنا دينامية داخلية، جعلت العالم مكاناً أكثر أمناً. حقاً إن ما أدركه في النهاية في هذه «الخطة الخفية» هو النهاية الحتمية للحرب. وقد أكد عالم الاجتماع هربرت سبنسر Hebert Spencer، بثقة، أن الحرب قد

«أعطت كل ما يمكن أن تعطيه» (Wright 2001:238). لقد استنفدت إمكانياتها التعاونية. والمرحلة التالية من التعقيد تتطلب أن يكون العالم في سلام مع نفسه.

وللأسف، فإن هذا المنطق لم يتماسك في القرن العشرين، الذي ينبغي أن يذكرنا بأنه ليس هناك اتجاه مستقيم أو بُعد واحد للتاريخ، بل إن هناك نكسات وعمليات حذف متعددة. المحصلة الصفرية للحرب (كما يفهمها كثيرون اليوم) ليست، للأسف، ضرورية للإنسانية، إنها بالتأكيد غير محددة سابقاً. وليس هناك دليل على وجود خطة رئيسية أو حتى "يد خفية" تعمل في التاريخ. ويمكن لارتفاع درجة حرارة الأرض أو حتى حدوث انهيار اقتصادي رئيسي أن يوقف العولمة، أو حتى يعكسها، كما حدث في عقد الثلاثينيات. وكل ما يمكنني أن أزعمه، مع إدراكي للأمور الطارئة في التاريخ، هو أن تزايد الطبيعة الصفرية المحصلة للحرب يمثل اتجاهاً. فالحرب لا تغدو موقعة للخطر فقط، بل ويصبح القيام بها بنجاح أمراً صعباً. كما أن السرعة لا تقدم حلاً، واستراتيجيات الاستنزاف لم تعد تتمتع بالجاذبية التي كانت عليها من قبل. وهناك أسباب تدعو إلى الشك في أننا ربما لا نشهد حرباً رئيسية بين الدول، على شرط ألا يخرج التحرك تجاه التعقيد الأكبر عن مساره بفعل الحرب نفسها.

على مستوى الأطراف غير الحكومية، نجد الصورة أقل طمأنة. فمع أن العولمة ربما تجمع العالم فهي تفرقه في الوقت ذاته. والإنترنت تضيف مزيداً من مجتمعات المصلحة التي تتعارض وتقاطعات ذات خطر: حدود الدين، والقومية، والعرق، وحتى الثقافة. إنها تساعد جماعات معارضة مثل القاعدة. إنها تغذي المجتمعات الافتراضية من البغضاء والتطرف الديني. ولسوء الحظ فإن بعضاً من الأطراف الجديدة التي أفرزها عصر المخاطر، ومنهم الإرهابيون والعصابات الإجرامية عبر القومية، يلعبون لعبة المحصلة الصفرية. ومع أن عصر المخاطر ربما لا يشبه الحرب فقد اختار أن يظل في مجال الحرب من خلال إعادة تسميتها بإدارة المخاطر.

الخلاصة

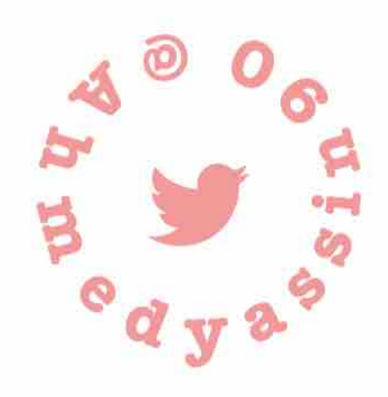
كما أشار نيتشه، ليس ثمة "قفزة" بين الحقب التاريخية، فعادة ما تمهّد كل حقبة الطريق للأخرى بشكل تدريجي. والمؤرخون محقّون في قلقهم من الانفصال المفاجئ عن الماضي، وفي اكتشاف الإشارات التي ربما تم تجاهلها في وقت حدوثها، والتي ربما تبدو ذات مغزى عند التأمل في الأحداث الماضية. ولهذا اختار دوتوكفيل de Tocqueville لكتابه عن أعظم حدث فاصل في تاريخ بلاده عنوان **النظام القديم والثورة الفرنسية** *The Ancien Regime and the French Revolution*. ومثل هذه الوقائع الفاصلة في التاريخ ضروري لتوضيح الماضي لكي لا يصبح مجرد قصة من الأحداث العشوائية. فالتاريخ يتطور ببطء.

إن عصر المخاطر لم يأت فجأة بين ليلة وضحاها، لقد بدأت مقدماته في العصر الذي سبقه، ولاسيما في الإدراك المتنامي بأن العالم أخذ يصبح معقداً بطريقة كبيرة إلى درجة أن كل شيء له عواقب، وكثير منها لم يستطع أحد توقعه، وهذا هو السبب في أننا نقوم الآن باستجواب أنفسنا أكثر من أي وقت مضى. لقد أصبحنا ننتقد ذاتنا بشكل لا يمكن تغييره، وبالتالي نتجنب المخاطر بشكل متنامٍ.

ولا شك في أن الانتقاد الذاتي حالة أساسية للحداثة، كما يقول لنا ماكس فيبر. فالتساؤل العقلي المستمر عن الواقع هو سمة العصر الحديث. وقد انعكست مخاوف فيبر حول التداعيات الأخلاقية للحداثة في كثير من الأشكال، على شكوكنا في شأن الحقيقة التي تكمن وراء الحداثة ذاتها. لقد انعكس على تشاؤم عميق يستند إلى الفجوة التي يقال إنها تقع بين معرفتنا بالعالم والعالم ذاته. ونظراً لأننا لا نعرف بالفعل سوى القليل عن آلية عمل العالم الذي نعيش فيه، فإن أي محاولة لتحويله على أساس معرفة ما هو واقعي وما ليس واقعياً، يمكن أن تقود إلى كارثة.

وقد تعمقت تلك الشكوك بشكل كبير حالياً إلى درجة أنها قادت إلى شعور مبالغ فيه من الخوف. لقد كان فيبر، على الأقل، واضحاً في رأيه بشأن شيء واحد؛ فقد تنبأ أن القرن

الحادي والعشرين، في طريقته المميزة، ربما يكون بالقدر نفسه من الخطر الذي شهده عصره. ولهذا السبب لم نعد مستعدين لأن نثق بالعالم أو الواقع. ونحن اليوم أكثر يقظة بشأن المستقبل. ومع أننا لانزال نقبل أن التاريخ ربما يكون تقدمياً، فإننا ندرك أيضاً أن هناك ثمناً يُدفع لأي تقدم قد نصنعه.


@Ahmedyassin90

الفصل الثالث

الحرب في عصر المخاطر

«كلما أكثرنا من الحديث عن الكارثة كنا أكثر أماناً في الواقع. يبدو أن الحياة تعمل بهذه الطريقة، أليس كذلك؟» (Don DelLillo, *White Noise,* 1986, p.205).

يسأل أحد شخوص رواية دون دوليلو المعنونة **شارع جونز العظيم** *Great Jones Street*: «من هذه السيدة اللطيفة؟»، فيجيب: «أمن». «اسمها إيبفاني باول. ربما سمعت عنها، لقد اعتادت العمل في مجالات كالغناء وعرض الأزياء والتمثيل. والآن تعمل في مهمات أمنية» (DeLillo 1978:181).

ما المانع؟ لقد أصبح الأمن صناعة متنامية، وهو مجال يتوسع على مر الوقت. والأمر ذاته، ولكن بطريقة مقلقة أكثر، ينطبق على مفهوم الأمن.

دعا رئيس الوزراء الفرنسي، ليونيل جوسبان، في حملته الانتخابية عام 2001، إلى «معركة ضد انعدام الأمن» (Bauman 2003:120). وهذه هي المشكلة: هناك الآن كثير من الأشياء التي تجعلنا نشعر بعدم الأمان، فبعضنا يمتلك سندات مالية تتعرض للمخاطر في أسواق متذبذبة، وآخرون خسروا بعضاً من المزايا الأمنية التي عدّوها من المسلَّمات. بل إن كثيرين منا قد فقدوا أمن معتقداتنا الأساسية مثل التقدم والعلم. وأصبح انعدام الأمن الآن سمة دائمة للعالم الذي نعيش.

بيت القصيد هنا أن ثمة نقطة تحول في كل عصر. طريقة جديدة لرؤية وفهم تماسك العالم. فعصرنا هو عصر المخاطر، وانعدام الأمن هو سمته المميزة.

ما مغزى الاسم؟ كثير. اللغة ذات أهمية خاصة هنا، لأنها تشكل التصنيفات التي نفهم من خلالها العالم. وفهم طبيعة موقفنا في الشؤون الدولية أمر مهم لأنه يشكل استجابتنا السياسية والعسكرية للأحداث. ففي حين كنا نقلق في السابق بشأن الدفاع والردع، قلقنا الآن هو بشأن "الأمن". وهذه الكلمة الآن واسعة الانتشار إلى درجة أنها أصبحت تشكل ما يطلق عليه أحد الكتاب مصطلح "قواعد العنف" 'grammar of violence' الخاصة بعصر المخاطر (Tripp 2007:30).

عالم المخاطر

لقد اعتدنا الحديث وفق قواعد مختلفة. فمن قبل كنا أكثر تفاؤلاً حيال المستقبل. وفي العصر الكلاسيكي كانت كلمة الأمن security (اشتقت من كلمة 'securitas' باللغة اللاتينية) تشير إلى الهدوء والتحرر من الهم، أو ما عرّفه سيسيرو Cicero بغياب القلق الذي تقوم عليه الحياة السعيدة. أما آدم سميث Adam Smith في كتابه **نظرية العواطف الأخلاقية** *The Theory of Moral Sentiments*، فقد تحدث فقط عن أمن الحاكم الذي امتلك جيشاً متأهباً لحمايته من الاستياء الشعبي، ولكونه "آمناً" شخصياً كان باستطاعته السماح لرعيته بحرية "الاحتجاج" السياسي.

كما حلم بعض مفكري الحركة التنويرية بمقدار أكثر طموحاً؛ فاقترح كودورسيه Codorcet أن الأمن الاقتصادي للأفراد كان أمراً ضرورياً للمجتمع السياسي، وكان الخوف (الخوف من الخوف) في نظره هو عدو الرؤية السياسية. وفي تضاعيف القرن العشرين ذهبت الحكومات إلى مدى أبعد من ذلك؛ إلى توفير "التحرر من الخوف" و"التحرر من الفقر" لمواطنيها، وكلاهما كان حجر الزاوية لرؤية روزفلت لنظام عالمي جديد يتشكل في إثر الحرب.

ما يشعرنا بانعدام الأمن بشكل خاص هو أن النظام العالمي الجديد لم يبق هدفاً واقعياً، وذلك في ضوء المخاطر التي لا نهاية لها والتي نواجهها بشكل يومي. يبدو أن الحرب تهرب من المحدِّدينِ الضيقين اللذين سادا القرن العشرين؛ وهما الردع والدفاع،

وصار موضوعها الرئيسي الآن هو الأمن بمختلف أشكاله. وما نؤمِّن أنفسنا ضده الآن هو أشكال مختلفة من المخاطر؛ المعروفة وغير المعروفة، الواقعية والخيالية، الخارجية أو الداخلية، التي يجعلنا كل منها أكثر قلقاً مما كنا.

وقد عبّر روبرت صامويلسون Robert Samuelson، الكاتب في صحيفة **واشنطن بوست**، عن جوهر هذا التغير في مقال بعنوان «إعادة اكتشاف المخاطر» 'Rediscovering Risk' بقوله: «لقد كانت الأحداث التي أعقبت هجمات الحادي عشر من سبتمبر، ومنها الإرهاب والحرب على العراق، استعارات مجازية للسمات المميزة والمحددة لحقبة جديدة... وهي عصر المخاطر» (*Washington Post*, 23 October 2002).

وهكذا نجد أنفسنا نعيش في مجتمعات مخاطر، وهو المصطلح الذي أصبح شائعاً بفضل كثيرين، ومنهم عالم الاجتماع الألماني أولريش بك. ولذا، سوف أستدعي خلال الفصلين التاليين بعضاً من أعماله. ودعوني أضف أن الكلمة التي استخدمها في كتابه الذي حقق نجاحاً كبيراً عام 1992 هي كلمة مطاطة في اللغة الألمانية. وكما يشير مترجمو كتابه إلى اللغة الإنجليزية، فكلمة 'Sicherheit' ربما تعني "الأمن"، أو "السلامة"، أو "اليقين" (Adam 2003:27). وفي اللغة الإنجليزية، تشير كلمة 'risk' إلى ظلال متشابهة من المعاني المبتكرة. فالاقتصاديون مهووسون برأس المال المخاطِر، ومجتمعاتنا مهووسة بالمخاطر التي تحيط بالأطفال، وعلماء الاجتماع يحللون السلوكيات العالية المخاطر. وعنوان كتاب بك **مجتمع المخاطر** *The Risk Society* يحمل المغزى ذاته الذي حمله عنوان كتاب هربرت ماركوز **الإنسان ذو البعد الواحد**، عندما نُشر عام 1968. وعلى رغم أنه تتم الإشارة إلى كلا العنوانين أكثر مما يتم الاقتباس من النقاشات الموجودة في الكتابين، فإنه ينظر إليهما على أنهما يعبران بشكل أكثر وضوحاً عن معظم الكوارث التي تهدد وجود جيل بعينه.

الجدول (3-1)

التحول إلى عصر المخاطر

الحرب بوصفها دفاعاً	الحرب بوصفها أمناً
تهديدات	مخاطر
دول	فاعلون غير دوليين/ دول مارقة
أنظمة	سقوط أنظمة (معاهدة حظر الانتشار)
أيديولوجيات (دولة)	أيديولوجيات (غير دولية)
خوف	قلق/ السلامة الفردية
دفاع (إقليمي)	أمن
نظام عالمي جديد	فوضى عالمية

الفرضية الأساسية لبك في ذلك الكتاب هي أننا قد شهدنا تغيراً جذرياً في السياسة الاجتماعية والخبرة الثقافية، وهو الأمر الذي يحدد مرحلة جديدة من الحداثة. إن منظور مجتمع المخاطر هو آلية مشجعة للاكتشاف تتيح لنا المراقبة والتحقيق في خصوصيات عالمنا، وتدفعنا لنتساءل: لماذا تسوده درجة غير عادية من القلق بشأن المستقبل؟

يُعزى جزء من قلقنا إلى أن فكرة "المخاطر" لا تنطوي على أي من الدلالات الإيجابية السابقة. وفي هذا يصر الكاتب الفرنسي جورج برنانو Georges Bernanos على أن «العالم ينتمي إلى المخاطر. وسوف يصبح العالم في وقت قريب مزيجاً من المخاطر، وتسابقاً لأكثر الأمور جسارة». أما وليام جيمس فذهب إلى أبعد من ذلك فقال: «إننا لا نستطيع أن نعيش على الإطلاق من دون أن نعرض أنفسنا للمخاطر من وقت إلى آخر».

إن المخاطر التي تنطوي عليها الحرب هي التي أعطت المشروع سمته الأخلاقية (Manguel 2005:23). فالشجاعة هي التي أتاحت للجندي أن يقدم حياته لشيء أعظم؛ الوحدة، أو الكتيبة، أو الدولة، أو القضية التي تجعل الحياة ذات قيمة. وأعظم ما كان يخشاه جيمس ليس عالماً من دون حرب، بل عالماً من دون تحدي الإقدام على المخاطر، وهو السبب الذي جعله قلقاً جداً، ودفعه إلى البحث عن معادل أخلاقي للحرب.

وباختصار، كان هناك شيء من هذا القبيل، شيء يعدّ مخاطر جيدة، على شرط أن تتوافر لدينا الشجاعة للإقدام عليها. الشجاعة، كما تؤكد هنّا آرندت Hannah Arendt، مطلوبة عملياً في كل شي نفعله. إنها ركيزة الحياة السياسية. الشجاعة هي إحدى الفضائل السياسية الأصيلة، ذلك أن العالم السياسي يسبقنا، ويستمر بعد رحيلنا، ولا يتمسك بالحياة ذاتها باعتبارها الهم الأول. الشجاعة تحررنا لنكافح من أجل ما يجعل الحياة ذات قيمة؛ إنها معتقداتنا وحريتنا أو - ببساطة - الناس الآخرون (Arendt 1977:132-5).

اليوم يتم إثناؤنا عن معظم حالات الإقدام على المخاطر. فاللغة التي نستخدمها تعكس انشغالنا غير المسبوق بجوانبه السلبية. خذ على سبيل المثال عبارة "في خطر" 'at risk'؛ إذ يشير بحث في الصحف البريطانية إلى أنها قد استخدمت نحو 2037 مرة في عام 1994. وبعدها بست سنوات تضاعف استخدامها بنحو تسع مرات (Furedi 2006:xviii). يستغل فرانك فوريدي هذه النقطة ليقول: أن تكون "في خطر" تعني اليوم أن تكون «عاجزاً عن تشكيل البيئة»، حتى إن الأمر أسوأ من ذلك، أن تكون في خطر تعني أن يتضاءل شعورك بالمسؤولية تجاه أفعالك. إن الافتقار إلى المسؤولية المباشرة هو الذي يعزز القلق الذي نشعر به. وهذا ينطبق بشكل خاص على الأمن الدولي، إلى حد أن خبرتنا الاجتماعية تولّد الشك في أننا في خطر معظم الوقت من الإرهابيين والعصابات الإجرامية الدولية المنظمة، وكذلك الأوبئة العالمية الجديدة مثل الإيدز. ومن عام 2008، نشرت الحكومة البريطانية سجلاً وطنياً سنوياً تحدد فيه احتمالية الوقوع والتأثير المحتمل لعدد من المخاطر المختلفة التي ربما تؤثر بشكل مباشر في بريطانيا. ويجد البريطانيون أنفسهم، مثلهم مثل الآخرين في الغرب، وهم يعيشون في عالم أصبح القلق جزءاً من الحياة اليومية فيه.

عصر القلق

إذا صح قول سانت-بيف Sainte-Beuve بأن لكل عصر علته الخاصة به فربما يكون القلق هو علة عصرنا هذا. وإذا كان عدم الهدوء عرَضاً عادياً بما يكفي للوجود

الإنساني، فإنه يمكن أن يتحول إلى عُصاب عميق يغذي القلق ذاته، وذلك إذا أصبح الخوف واعياً بذاته، وهي حالة يطلق عليها الألمان "الخوف من الخوف". والقلق هنا هو تركيبة اجتماعية، إلى حد بعيد، فكيفية نظرنا إلى العالم والحياة بشكل عام تحدد مستوى قلقنا. بعضنا يكون بطبيعته أكثر قلقاً من الآخرين. والشعور التفاؤلي، كما يقول لنا الأطباء، يقود إلى حياة أطول.

لعل من الأمثلة ذات الدلالة على مستوى القلق الذي وصلنا إليه هو ما حدث في آب/ أغسطس 2002 عندما قام قناصان بقتل عشرة أفراد في واشنطن العاصمة. وكان من ارتكبا هذه العملية متقلبي المزاج في اختيارهما للمستهدفين، ولم يصنفا ضحاياهما عرقياً أو اجتماعياً، بل اختاراهم بطريقة عشوائية، وهو ما جعل هجماتهما أكثر إرباكاً للرأي العام. وما أثار مزيداً من القلق هو رد فعل الحكومة والمواطنين على السواء الذي يكشف عن سمة عصرنا أكثر مما نرغب في أن نعترف به. بعض المواطنين اشتروا سترات واقية من الرصاص لارتدائها عند ذهابهم إلى التسوق أو تشذيب حدائقهم. ووضعت مدارس عدة فصولها في حالة الطوارئ، فمنعوا مليون طفل من الخروج لتناول الغداء أو المشاركة في الأنشطة الترفيهية في الهواء الطلق. وفي بعض المدارس تم إلغاء اختبارات المهارات والقدرات. كما أُجِّلت الرحلات المدرسية. وأزال نحو خمسين فرعاً من مقاهي ستاربكس الجلسات الخارجية. وتوقف كثير من الناس عن الذهاب إلى النوادي الصحية. وألغت رابطة الكرة في واشنطن العاصمة ألعاباً يشارك فيها نحو 5000 لاعب.

المثير في الأمر بشكل خاص هو أنه لم يكن هناك تبرير إحصائي يمكن فهمه لكل هذه التدابير (Sunstein 2005:90-1)؛ فعدد المواطنين في منطقة واشنطن الذين كانوا في خطر يفوق خمسة ملايين. حتى لو قتل القناصة شخصاً كل ثلاثة أيام، فإن الخطر الإحصائي سيكون فقط واحداً في المليون، وهو عدد أقل بكثير من ضحايا الأنشطة اليومية، مثل القيادة لمئات الأميال، أو تدخين لفافتين، أو السفر عشر مرات في الجو، أو شرب ثلاثين زجاجة (صودا دايت) تحتوي على مادة السكرين. وحتى بعض الاحتياطات

التي اتخذها بعض السكان المحليين، كالقيادة لمسافة أطول إلى ولاية فيرجينيا بغية شراء الغازولين، قد زادت مخاطر الحياة اليومية.

كثير من العوامل شكّل مخاوف غير ضرورية. أحد هذه العوامل هو افتراض الخوف من الجرائم المتعلقة باستخدام الأسلحة النارية، الذي عززه الخوف من الإرهاب بعد الحادي عشر من سبتمبر. وقد تفاقمت بفعل مجتمع المخاطر لتشمل الخوف من المجهول وغير المألوف. الخطر هو بشكل أساسي اعتقاد أو موقف، طريقة تفكير في العالم إلى درجة أن خبرتنا الاجتماعية تولّد شكوكاً في أننا في خطر معظم الوقت الذي نميل فيه إلى الشعور بمزيد من القلق.

هذا هو الفهم العميق للفيزياء الكمية. المشكلة هي أن الفيزياء ليست سهلة الفهم للإنسان العادي، حتى إن الفهم العميق لها قد طبق بشكل متقطع فقط على العلوم الاجتماعية، باستثناء إحدى ركائزها الأساسية، وهي مبدأ عدم اليقين لهايزنبرغ Heisenberg. يذكر هذا المبدأ أن جميع الملاحظات لا يعتمد عليها، لأنه لا يمكننا ملاحظة الطبيعة ذاتها بل الطبيعة المعرضة لمنهجنا في البحث. والملاحِظ يؤثر في الأحداث أو الظواهر التي يلاحظها، والعقل المشارك يغيّر الواقع الذي يشارك فيه. فكما أن طبيعة الواقع تؤثر في العقل فإن العقل يؤثر في الواقع، والحواس تشتته لكنها تعوضه أيضاً.

معظم المناقشات الخاصة بمجتمع المخاطر يطرح بطبيعة الحال المشكلات ذاتها مثل الفيزياء الكمية؛ فمن الصعوبة بمكان التحقق عملياً من ادعاءات كلا الطرفين من خلال التجربة. فنحن لا نعرف مدى صحة "نظرية الأوتار" 'String theory' التي تفيد بأن الكون يتألف من أحد عشر بُعداً؛ حيث يتم توليد المادة جميعها من خلال تذبذبات عُقَد دقيقة ومتناهية الصغر من الطاقة. ومع ذلك فكثيرون يعتقدون صحة هذه النظرية. ويمكن القول، مثل بعض العلماء، بأن الفيزيائيين ليس لديهم مصلحة في إهدار وقتهم على نظرية تفترض خصيصة جديدة للطبيعة أصغر بمئة مليون بليون مرة عما يمكننا التدقيق فيه بحواسنا بشكل مباشر أو بوسائل معززة (Greene 2000:212).

يستمد النقاش تفسيرات جزئية من الفيزياء، كما أنه ينطوي أيضاً على فلسفات بارزة حول كيفية عمل الفيزياء. فالتقليديون يريدون أن يتم ربط العمل النظري بشكل وثيق بالملاحظة التجريبية. ويرى آخرون أننا مستعدون لمواجهة أسئلة أبعد من قدرتنا التقانية الحالية على الاختبارات التجريبية. الشيء ذاته يمكن أن يقال عن كثير من الادعاءات التي يطلقها علماء الاجتماع. وفي النهاية، الموضوع هو مسألة اعتقاد أن أدبيات المخاطر قد حددت اتجاهات مهمة مميزة لعصر بعينه.

أنا مقتنع من جهتي بأنها توفر إطار عمل موحداً للتفكير في شأن الأسلوب المختلف للحرب في عصر المخاطر. خذ على سبيل المثال ملاحظة كاشفة جداً ظهرت بعد شهور من غزو العراق، وذلك بعد مرور مدة طويلة اتضح فيها أنه ليس ثمة أسلحة دمار شامل. أصر وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد بثبات على أن «التحالف لم يغزُ العراق لأننا اكتشفنا دليلاً جديداً مهماً على سعي العراق لامتلاك أسلحة دمار شامل، بل لأننا رأينا الدليل القائم في ضوء جديد من منظور خبرتنا بهجمات الحادي عشر من سبتمبر» (Buley 2007:100). حتى في العلوم، كما كتب هايزنبرغ في كتابه **فهم الفيزيائي للطبيعة** *The Physicist's Conception of Nature*: «إن موضوع البحث لم يعد الطبيعة ذاتها، ولكن بحث الإنسان في الطبيعة. وهنا، يواجه الإنسان مرة أخرى نفسه وحيداً» (Lukacs 2005:68). وقد عرفت انعكاسات هذا على العلوم من مدة طويلة. وبدأنا ندرك عند مناقشة الأمن أن هناك علاقة بين العقل والمادة أقوى مما كان يُعتقد من قبل. لا شيء يسمى عالماً آمناً بشكل موضوعي، وسواء أكنا نشعر بالأمن أم لا فهذه مسألة إدراك.

التعقيد وعدم الأمان الذاتي

أثار عصر المخاطر وعياً فريداً خاصاً به. لقد عُرف عصر ما بعد الحداثة بأنه «حداثة أكثر تواضعاً» (Lipton 1999:11)، عصر تنسجم فيه الحداثة مع حدودها، إذ أرغم على الاعتراف بالعواقب العالمية لمبادراته ومشاريعه. والقلق بشأن المخاطر لم يبق مسألة سطحية؛ إنه يتدخل في تركيبة البيئة، في ثقافتنا، ولاسيما النمطية اليومية التي تقود حياتنا.

وبهذا المعنى، يمكن القول بأننا نعيش في "عصر المخاطر" لأننا أصبحنا على وعـي متـأخر نوعاً ما بالتعقيد الذي يشكل جزءاً من الحياة.

على العكس من ذلك، كانت لدى الحقبة الصناعية نظرة غير معقـدة تجـاه الحيـاة، ولاسيما ما يخص علاقة البشر بالطبيعة. فعملية التحديث المتواصلة بلا هوادة قد سلبت الكوكب، وخربت كثيراً مما تحتوي عليه البيئة، وبخاصة التنوع البيولوجي. كما أن تعداد السكان في العالم قد ارتفع بشكل كبير، ولم يتم تمويل ذلك من خلال الـدخل الطبيعـي، ولكن من خلال استنزاف الموارد الطبيعية (وبشكل ملحوظ الوقود الأحفوري والمنـاخ المستقر). لم نكن في صراع لاستئصال أنواع أخرى. كان الأمر أكثـر تعقيـداً مـن غريـزة قاتلة لا تهدأ أبداً حتـى تختفـي الأنـواع الأخـرى. بـدلاً مـن ذلـك، استـسلمنا لغرائـز استحواذية لم نعترف بها دائماً، غرائز لم تخبرنا متى نتوقف حتى يُحرم، شيء لم نقصد إيذاءه قط بشكل قاتل من شيء كان يحتاجه. لدينا اليوم علاقة مختلفة تماماً مع الطبيعة. أدركنـا أن الطبيعة معقدة بصورة لم نتخيلها، تماماً مثل حجم تعقيد نظُم مناعتنـا. وحقيقـة أننـا نتحدث عن النظُم البيئية تؤشر إلى تغيير في الإدراك، ذلك أن النظم معقدة بطرائق مختلفة ومتنوعة.

لقد اتضح لنا في وقت متأخر أن البيئة قد تضررت نتيجـة أفعالنـا، وربـما بطريقـة لا تمكن معالجتها. من بين جميع التحديات غير المقصودة للأمن العالمي، ربما يكـون التـدهور البيئي هو الأهم. وكان من بين الأساطير الحضرية أنه عندما تم حرق قطاعات كبـيرة مـن غابات الأمازون عام 1987، أمكنت مشاهدة الدخان من الفضاء، مع صنيع آخر للإنسان وهو سور الصين العظيم. لم يكن كلا الأمـرين صـحيحاً، ولكـن منظـور الفـضاء أصـبح حيوياً لإحداث تغير رئيسي في الوعي. والتغيرات في الوعي تتكرر كثيراً متى أصبحنا عـلى دراية بالتحديات الجديدة التي ينبغي أن نواجهها. ومن وقت إلى آخر نصبح أكثر حساسية لمحنة الآخرين، وليس محنتنا فقط. ومع ذلك فالتغير في الوعي هو أمر أكثـر عمقـاً لأنـه لا يمثل استجابة للعالم فقط، بل عادة ما تصاحبه رغبة في تغيير العالم للأفضل.

إن عصر المخاطر يمثل هذا النوع من تغير الوعي. فنحن نـدرك الآن أننـا نـستهلك التاريخ أكثر مما نصنعه. وقد مالت الحقبة الحديثة إلى معاملة الطبيعة البشرية كـما تعاملـت مع باقي العالم الطبيعي، على أنها مخزون لا ينفد. وبتعبير لويس C. S. Lewis، فإن المشكلة في الأنظمة الشمولية للمعتقدات، مثل الشيوعية، هي أنها مالت إلى التعامل مع البشر عـلى أنهم مخزون ثابت. وقد وصف سـتالين الـشيوعيين بـأنهم «مهندسـو الـروح الإنـسانية». وكتب لويس: كنا نحاول دائماً إخضاع الطبيعة، لأنهـا كانـت الاسـم الـذي أطلقنـاه عـلى الأشياء التي أخضعناها إلى حد ما. ولأن العملية لم تستطع الوصول إلى المرحلـة النهائيـة، يمكن للإنسانية التمسك بأن المكاسب تفوق الخسائر. لكـن بمجـرد أن تأخـذ الإنـسانية الخطوة النهائية بتقليص نفسها إلى مستوى الطبيعة، فإن العملية برمتها تصبح مهـددة بـأن تنتهي إلى كارثة، والكائن الذي كان في موقف الحصول على مكاسب والكـائن الـذي تـتم التضحية به يصبحان مهددين بأن يكونا شيئاً واحداً ومتماثلين (Mitchell 2007:1).

لقد وقع أكثر من 100 مليون شخص ضحية لبرامج الهندسة المثالية عـلى مـر القـرن الماضي. إذ تم تنفيذ كثير من تلك البرامج في ألمانيا النازيـة، والاتحـاد الـسوفيتي، والـصين الماوية، ومؤخراً في كمبوديا التي شملت مشروعات إبادة جماعية. وقد عرَّف بالارد الإبادة الجماعيـة بأنهـا «تطبيـق اقتـصاديات الإنتـاج بالجملـة عـلى احتقـار الـذات» (Ballard 1997:277). وكانت الحكومات الشمولية بشكل خاص تحتقر الضعف الإنساني.

ليس من السهل إصلاح مجتمع، وبالقدر نفسه ليس سهلاً استرداد إنـسان. في بدايـة قرن مخيف أدركنا أن الطبيعة البشرية معقدة للغاية بحيث لا يمكن إصلاحها، بقدر مـا لا تمكن إعادة هندسة الروح الإنسانية. فالتعقيد لا يلازم الأمور الخارجية (السياسة: اختلاق أورشليم جديـدة أو مثاليـة اشـتراكية) فقـط، بـل يـلازم الداخليـة (كيـف يفكـر النـاس ويشعرون وينظرون إلى العالم وإلى أنفسهم) أيضاً. إنه مبدأ هايزنبرغ مجدداً. فنحن جزء من الطبيعة التي نراقبها ونسعى للهيمنة عليها. واستجابتنا للعالم وفهمنا لمكاننـا فيـه هـو أمـر ذاتي وغير موضوعي.

لقد اكتشفنا بعد أكثر القرون دموية في الحقبة الحديثة أن الناس يميلون إلى تحقيق أفضل ما يمكن أن يحققوه عندما تعطى لهم الحرية لتوسيع النافذة الضيقة التي تعودوا أن يروا من ثناياها طيف الإمكانيات البشرية. ولكن يتعين أن يسمح لهم بالقيام بذلك بأنفسهم. ومن الأهمية بمكان القول إن حرية الإقرار بأن للأفعال عواقب هي إحدى حسنات أي مجتمع منفتح.

المشكلة التي تواجهها مجتمعاتنا هي أن فوائد اتباع مسار عمل معين ربما تفوق المخاطر، ولكننا لا نمتلك عملة مشتركة نقارن بها عواقب الأفعال المختلفة. فكل مفاهيم المخاطر تبنى على أساس التمييز بين الواقع والمحتمل. ولن يكون المفهوم ذا معنى إذا كان المستقبل مقرراً مسبقاً، أو مستقلاً عن أفعالنا. والمخاوف بشأن المستقبل مرتبطة بالقلق بشأن النتائج التي تنتج عن أفعالنا. ذلك أن كثيراً من المخاطر التي نجابهها تصاحبها عواقب غير مقصودة لأفعالنا.

يمكن التحقق من التحدي بالتجربة. ويكشف عالم النفس الألماني ديتريش دورنر Dietrich Dorner في كتابه بعنوان **منطق الإخفاق** *The Logic of Failure*، كيف يمكن أن تؤدي بعض المواقف المعقدة إلى آثار مؤذية دونما قصد من أحد. وفي إحدى هذه التجارب، طلب دورنر من المشاركين معالجة بعض المخاطر التي تواجهها البشرية في مناطق مختلفة من العالم، مثل الفقر، وضعف الخدمات الطبية، والتلوث. واستطاع كل مشارك أن يطبق مجموعة متنوعة من البرامج، بما في ذلك خطط لتطعيم الأطفال، وبرامج معززة لتربية الماشية، وحفر مزيد من آبار المياه. عقب ذلك تم إسقاط تأثيرات هذه البرامج على المستقبل من خلال برنامج حاسوبي. ووجد أن بعض هذه البرامج تساهم بشكل حقيقي في تخفيف المعاناة الإنسانية، لكن برامج أخرى تتسبب في كوارث لم يتنبأ بها المشاركون، وذلك خطأ صنعوه بأنفسهم. لقد انتهت بعض البرامج إلى كوارث نظراً لأنهم ركزوا على المشكلات بمعزل عن العوامل الأخرى، إذ إنهم لم يقدروا حجم الآثار الجانبية الكبيرة للنظم المعقدة عند إدخال تلك البرامج (Sunstein 2005:46).

في عالمنا المعقد كل شيء متداخل ومتشابك. وقد وصلت هذه الفكرة في عـام 2002 عندما أورد علماء برازيليون أنه تم فقدان نحو 9300 ميل مربع (أي نحو 24 ألف كيلومتر مربع) من غابات الأمازون المطيرة في العـام الـسابق. وعـلى رغـم أنهـا كارثـة بيئيـة فإنهـا تفجرت بسبب قرار إزالة أشجار لتوفير أرض جديـدة بغيـة تربيـة الماشـية وزراعـة فـول الصويا لتلبية الطلب الذي تدفعه طفرة المواليد الجدد (معظمها في أوربا)، وابتغاء البحـث عن غذاء خالٍ من المواد المعدلة وراثياً ومن ثم خالٍ من المخاطر (Wright 2005:185-6).

بعبارة أخرى، إن محاولة الحد من المخاطر على الصحة في مجال مـا ترفـع المخـاطر في مجال آخر، وهذا شيء لم يتعمده أحد. في هذه الحالة، لم تكن التغيرات البيئيـة التـي جلبهـا التدخل البشري في أحد مجالات العمل البشري منسقة مع الأفعال في مجال آخر، وكان لهـا نتائج شبة قاتلة. الأمر ذاته ينطبق على بعض المبادرات التـي أطلقهـا المـشاركون في تجربـة دورنر الذين لم يقدروا التكلفة البيئية لحفر مزيد من الآبار، أو مشكلة الرعي الجائر عنـدما قـادت سياسـتهم إلى زيـادة قطعـان الماشـية بـشكل كبـير. والمـشكلة هـي أن الخطـوات الاحترازية التي اتخذت لمعالجة المشكلة يمكن أن تنتهي بسلسلة مختلفة مـن المخـاطر التـي ربما تثبت أنها أكثر خطراً من المشكلات الأصلية التي كانوا يهدفون إلى معالجتها.

بعبارة أخرى، أصبحت المخاطر سمة بنيوية للتصنيع المتقـدم (Adam 2003:7). لم يبق في وسعنا تجنـب المخـاطر مـثلما لم يبـق في وسـعنا وقـف التقـدم التقـاني. والأخطـار المعاصرة، ولاسيما تلك المصاحبة للتقانات الجديدة، تختلف عن مخاطر الماضي، ذلك أنه لا يمكن رسم حدودها، سواء من حيث التوقيت أو المكان (ما يحدث على بعد آلاف الأميال في الأمازون يمكن أن يؤثر فينا جميعاً). كما لا يمكـن التنبـؤ بهـا دائـماً مـن خـلال تطبيـق القواعد العادية للسبب والنتيجة، فكثير منها غير مقصود. ولعل الأسوأ هو أنه لا يمكننـا التأمين ضد الكوارث التي ربما تنتج. على رغم أن إدارة العواقب هي المنطق السائد لإدارة المخاطر، فنحن نعرف أن المخاطر التي نواجهها لا تنشأ دائماً جراء قرارات سيئة، أو تفكير استراتيجي غير كافٍ، أو حتى افتقار إلى الخيال. ففي الأغلب تنشأ من حقيقة أن كـل شيء نفعله عادة ما تكون له آثار جانبية.

وكما كتب إمرسون Emerson، مع كل شروق يأتي خطر جديد: «هناك صدع في كل شيء خلقه الله. دائماً ما يبدو هناك... هذا الظرف الانتقامي ينسل خلسة من دون توقع... هذه الضربة الخلفية، ارتدادة البندقية». تثير الآثار الجانبية تساؤلات حول الوكالة في علم الاجتماع الكلاسيكي. إنها تحط من قيمة رأس المال، وتدمر الثقة، وتلطخ الأجندات. وكما يقول بك: «إن الأثر الجانبي، وليس المنطق المؤثر... أصبح محرك التاريخ الاجتماعي» (Beck 1997:31)، وكما سأناقش في الفصل التالي، فقد أصبح الأثر الجانبي محرك الحرب أيضاً.

لمجتمع الأمن مصطلحه الخاص للتعبير عن ذلك، وهو 'blow-back'، وهو يعني "أثراً غير متوقع وغير مرغوب فيه". وعليه يتتبع أحد الكتاب صعود الإرهاب الإسلامي بدءاً من الدعم الأمريكي للقاعدة في الحرب الأفغانية في الثمانينيات، والذي يشخصه بأنه "جهاد" أمريكي ضد الشيوعية (Mamdani 2004). فهذه الحالة تعبر بجدارة عن الأثر غير المتوقع وغير المرغوب فيه الذي لا يقتصر على هذه العلاقة فقط، بل ينطبق على كثير من العلاقات التي أقامتها الولايات المتحدة خلال الحرب الباردة، وبخاصة في العالم الإسلامي، وارتدَّت عليها لتصيدها. وفي هذا يرى بعضهم أن «فوضى حقبة ما بعد الحرب الباردة هي - إلى حد بعيد - نتيجة للشخصية المتناقضة للانتصار الأمريكي في الحرب الباردة» (Saul 2006:66).

إن كثيراً من الباكستانيين قد ندموا على دعمهم السابق لحركة طالبان، ففي السنوات القليلة الماضية، تقلصت العمليات العسكرية ضد الجماعات الموالية لطالبان في المناطق القبلية، والتي شملت أكثر من 100 ألف جندي، بسبب رغبة إسلام أباد في السابق للتخلي عن قطاعات واسعة من الأراضي للمليشيات القبلية. وهذا ما مهد الطريق أمام ما يسمى "طلبنة" كثير من مناطق شمال وجنوب وزيرستان، وجعل المليشيات جسورة على بسط سلطتها على مراكز حضرية رئيسية في وادي سوات (Shaikh 2007:19). تشمل الآثار غير المتوقعة وغير المرغوب فيها حصْد ما تزرعه، وهي استعارة مجازية من الإنجيل لدفع

ثمن سوء تقدير الجيل السابق. اكتسب معظم الجماعات العنيفة التي نواجهها الآن، مثل الجهاديين، خبرتها في تصنيع القنابل إما من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، وإما من وكالة الأمن الداخلي في باكستان، في حالة طالبان. وحتى في حالة العراق، فقد كانت حركة الوفاق الوطني العراقي هي التي تفجر سيارات مفخخة في بغداد تحت إشراف وكالة الاستخبارات الأمريكية قبل الغزو عام 2003. وفي هذا نتحمل جميعاً قدراً من مسؤولية المرحلة الحالية من الإرهاب.

مجتمع المخاطر في الحرب

في كتاب بك المعنون **مجتمع المخاطر العالمي** *World of Risk Society* والذي نشر عام 1992، حدد ثلاثة أنواع من التهديدات العالمية الرئيسية للأمن في عصر المخاطر، نشأت من تعقيد عالمنا المعولم. أولها التهديدات للبيئة. وما دفع إلى الاعتراف بهذه التهديدات هو التغير في الوعي الذي حدده تقرير بعنوان **مستقبلنا المشترك**، بالتعاون مع الأمم المتحدة في عام 1983، بالعبارة الآتية: «في منتصف القرن العشرين شاهدنا كوكبنا من الفضاء لأول مرة. وربما يجد المؤرخون أن هذه الرؤية أكبر أثراً على الفكر من الثورة الكوبرنيكية في القرن السادس عشر، والتي أربكت الصورة الذاتية للبشرية جراء كشف أن الأرض ليست مركز الكون» (Bordo 1992:168). لقد أوصلت صور الأقمار الصناعية للعالم موقعه الهش في الكون. وقد أظهرت الكوكب بصورة جديدة فيما يتعلق بأنفسنا. والأمر الرمزي بالنسبة لهذا التغير قد جسّده قرار اتخذته هيئة تحرير مجلة **تايم** *Time* من سنوات عدة بالتحول عن أبطال الرياضة والساسة وتسمية الكوكب "رجل العام"، لقد فعلت ذلك لأن التدهور البيئي قد وضعه الآن في خطر قاتل.

ولعل الأهم بشأن البيئة هو أنها تشكل تحدياً مختلفاً عن معظم القضايا الأمنية الأخرى، ذلك أن ليس فيها موقف سياسي أو أخلاقي مستقل عن المصلحة التي تستثمر فيها الأطراف السياسية. البيئة في حد ذاتها ليست تهديداً، فهي ليست واحدة من "الأطراف الأخرى" الغامضة التي نخطط لحماية أنفسنا منها في المستقبل. إن البيئة هي

المهدَّدة بسبب النشاط البشري وما يلحق به من أنشطة الدول. وإن نشاط الدول من جهته، وعبر الاحترار العالمي والتغير المناخي، هو الذي يهدد النظُم الإيكولوجية المحلية، وكذلك الكوكب. وقد أرغمَنا ذلك أيضاً على الشعور بالريبة في أن الدولة ربما تكون هي المشكلة وليست الحل.

أما المجموعة الثانية من المخاطر التي حددها بك فتتعلق بشكل مباشر بالفقر الذي يُعلَّق عليه هو أيضاً مسؤولية كثير من الدمار البيئي في السنوات الأخيرة. الاختلاف الجوهري هو أنه بينما تنبع التهديدات للنظم الإيكولوجية، التي يقودها الثراء، من الآثار السلبية للإنتاج، ففي حالة التهديدات للنظم الإيكولوجية التي يحركها الفقر، نجد أن الفقراء هم الذين تهددهم المخلفات السامة (المستوردة أحياناً من دول أخرى) والتقانات القديمة (صناعة الكيماويات).

هناك ادعاءات في السنوات الأخيرة أنه في حين يتضمن العنف الحالي في دارفور عوامل قبلية وعرقية، فإنه يمكن أن ينظر إليه على أنه صراع على استخدام الأراضي يضاعفه التغير المناخي. إنه تقدير مثير للجدل، على الأقل إلى حد أنه يميل إلى رفع اللوم عن الساسة، ولم لا إذا كان ممكناً إلقاء اللوم على المناخ؟ ومع ذلك، فالتغير المناخي بالتأكيد سيؤثر في أسباب وأمكنة اندلاع الصراعات المستقبلية. وعند ربط الفقر بالبيئة، يتحدانا عصر المخاطر مجدداً لإعادة التفكير في أفكارنا التقليدية فيما ينبغي أن يشكل الأجندة الأمنية.

إضافة إلى ذلك، حدد بك نوعاً ثالثاً من التهديدات، وهو وجود "أسلحة الدمار الشامل"، وهذا المصطلح أطلقه العالم برنال J. D. Bernal عام 1937. خلال معظم القرن العشرين، كان التهديد يأتي من الدول، وقد حدد بك نفسه ذلك في وقت ما من حيث هو تهديد متبقٍّ من مخلفات الحرب الباردة، لكنه أقر بأنه كان جزءاً من اتجاه أكبر، وهو خصخصة العنف التي برزت في شكل جماعات أصولية وإرهابية سعت إلى شراء أشد الأسلحة تدميراً.

ومع أن خصخصة العنف لم تكن لتحظى باهتمام كبير في معظم القرن العشرين، فإنه بالرجوع إلى الأحداث الماضية نجد أنه كان ينبغي أن تحظى بذلك، لأنها سكَّنت نفسها في الخيال قبل ذلك. فقبل الحرب العالمية الأولى بوقت قصير، كتب ولز H. G. Wells في روايته المعنونة **العالم المحرَّر** *The World Set Free* عن سلاح نووي يمكن أن يُمسك بقبضة اليد. كما تأمّل كثيراً في الخصائص التدميرية المتزايدة للتقانة وتطبيقها غير المحدود للأهداف الحربية، وعواقبها القاتلة على السياسة العالمية:

> بالتأكيد، يبدو الآن أنه لا شيء أكثر وضوحاً للناس في القرن العشرين من السرعة التي تصبح معها الحرب مستحيلة. من المؤكد أنهم لم يدركوا ذلك. لم يدركوا ذلك حتى انفجرت القنبلة الذرية في أيديهم المرتعشة. ومع ذلك كان يجب أن تثير هذه الحقائق الواضحة حفيظة أي عقل ذكي. فخلال القرنين التاسع عشر والعشرين، كانت كمية الطاقة التي استطاع الإنسان التحكم فيها في ازدياد مستمر. وبتطبيقها على الحرب نجد أن القدرة على توجيه الضربات، والقدرة على التدمير، في تزايد مستمر. ولم تكن هناك زيادة تذكر في القدرة على الهروب. وكل نوع من الدفاع السلبي والمدرعات والتحصينات وما إلى ذلك، كانت تشهد زيادة هائلة في الجانب التدميري لها. بات التدمير سهلاً حتى إن أي ساخط أو مستاء يمكن أن يستخدمه، أحدثت انقلاباً ثورياً في مشكلة الشرطة والحكم الداخلي. وقبل أن تبدأ الحرب الأخيرة كان معروفاً للجميع أن بإمكان أي شخص أن يحمل في حقيبة يده كمية من الطاقة الكامنة التي تكفي لتدمير نصف مدينة (P. D. smith 2007:200).

لم يصف أحد نهاية العالم مثل ولز. لقد كان مهندس لحظة نهاية العالم عندما حملق الناس إلى الهاوية. في حالته الخاصة لمعت في ذهن ولز فكرة القنبلة النووية التي يمكن أن تحمل في اليد من قراءته لكتاب فريدريك سودي Fredrick Soddy بعنوان **شرح الراديوم** *The Interpretation of Radium* ومزج ذلك بقلقه حول كيف أن «العالم لايزال مخدوعاً بمعدات وادعاءات الحرب» (Strathern 2007:90).

في قصة أخرى بعنوان «بكتيريا الباسيلس المسروقة» "The Stolen Bacillus" (1895) وصف ولز كيف يمكن لإرهابي انتحاري حقن نفسه بفيروس مميت حتى يتمكن

من نشر المرض في المدينة، وهي إمكانية ما باتت اليوم تُقرَأ على أنها رواية بعد أن أمست شفرات أمراض، مثل الأنفلونزا الإسبانية والجدري، متاحةً للعامة (P. D. Smith 2007:200). إضافة إلى ذلك، فإن شركات خاصة أصبحت تمتلك الآن جينومات أمراض أخرى، ومنها الالتهاب الكبدي الوبائي من نوع (C) والإيدز والأنفلونزا المزمنة. ولم يتخيل ولز عالماً تسجَّل فيه براءات اكتشاف أمراض شائعة وغير شائعة في الجامعات والمؤسسات الخاصة.

بتحديد الأنواع الثلاثة من المخاطر، أصرّ بك على التمييز بينها وبين الأخطار الأخرى التي اضطرت المجتمعات إلى مواجهتها في الماضي. وأصر على الاحتفاظ بحق تعريف "مجتمع المخاطر" على أنه خاص بحقبة واحدة، هي عصرنا هذا. حتى الآن أدت المخاطر إلى تغيير كل شيء، ولاسيما طريقة نظرتنا إلى الأمن. المثير في الأمر هو الطريقة التي شقت بها هذه المعرفة طريقها إلى العقل الجمعي. فنحن نتحدث عن "الحرب على الإيدز" و"الحرب على الفقر" و"الحرب على الجريمة". هذه الاستعارات المجازية تضفي بدورها ظلالاً أكثر تشاؤمية، وأصداءً أكثر عالمية.

المسألة ليست أننا نعيش في عالم أقل أمناً مما كنا نعيش فيه قبل عام 1989، أو حتى إننا في خطر أعظم. كلا الادعاءين غير صحيح. الأمر المحدد بالنسبة لكثير من مخاوفنا هو أنها قائمة في غياب أي كارثة تاريخية؛ حتى ارتفاع حرارة الأرض والتغير المناخي لن يؤثرا في معظمنا خلال الأعوام العشرين المقبلة. وفكرة الحرب بين الدول تتراجع طوال الوقت. والتهديد الوجودي للحرب النووية قد رُفع أيضاً؛ فقد كنا جميعاً معرضين لخطر أكبر في أثناء أزمة الصواريخ الكوبية مخافة احتمال الدمار مما نتعرض له الآن.

في عام 1962، كانت القوات الجوية الأمريكية تخطط لإطلاق 950 صاروخاً نووياً في هجوم أولي، ثم 370 صاروخاً آخر إذا حاول السوفييت الانتقام. وعلى رغم أنه كانت هناك توقعات بمقتل نحو عشرة ملايين أمريكي فقد كان يُتوقع أن عدداً أكبر من المواطنين السوفييت سيلقون حتفهم جراء التسمم الإشعاعي والمجاعة وانهيار المرافق الصحية

العامة. ولم يكن هناك سيناريو لتفجير من قبل جماعة إرهابية، مثل القنبلة التي تدمر مركز بيتسبيرغ في رواية توم كلانسي Tom Clancy بعنوان **محصلة مخاوفنا** *The Sum of our Fears*، يشكل تهديداً بهذه الضخامة.

لكن ما يجعلنا نشعر بمثل هذا القلق هو شيء آخر: إنه حقيقة أن كثيراً من التهديدات التي نواجهها هي غير محدودة. فقد أصبح الأمن "ثلاثي الأبعاد"، وأكثر ما يؤثر فيه هو خيالنا. المخاطر لا تبنى دائماً على التقويمات الموضوعية التي نجدها في الفيزياء، فهي غير موضوعية ومغروسة في الثقافة. كما أنها ليست دائماً منفتحة على الاختبار أو التحقق منها. ليست دائماً قابلة للعد والإحصاء. وهذا هو التحدي، لأن المجتمعات مثل الناس لا يسهل تجريدها من مخاوفها. وبخلاف الخوف، فإن القلق لا ينبني على الأمور الآنية أو المنظورة، بل على تلك المتخيلة. ويمكن أن يذهب الخيال إلى مستويات بعيدة في المستقبل. ولهذا نجد أنفسنا نعيش في ما أسماه توني بلير «زمن ما بعد العالم الآمن». وصعوبة إدارة المخاطر قد قلصت من سلطة الدولة القومية التي كنا نتطلع إليها في السابق بوصفها مصدراً للأمن. والآن نجد أنفسنا سكاناً لمجتمع غير مؤمَّن؛ حيث تتلاشى فيه الحماية مع تعاظم الخطر (Beck 1992:101). ومن ثم أصبحنا أكثر قلقاً من ذي قبل، وأضحى القلق الذي نعانيه أكثر نفاذاً وتغلغلاً فينا لأنه ليس نتاج المخاوف التي كانت تطاردنا من قبل فقط مثل الخوف من البطالة أو الحرب، بل إننا نعيش في عالم نواجه فيه مخاطر لا نهاية لها، مخاطر عالمية وذات احتمالات كارثية.

ولأن المخاطر التي نواجهها غير محدودة أصبحنا نميل إلى أن نؤصلها في ذواتنا. خذ البعد الأول، المكاني. الإرهاب والتغير المناخي والجريمة الدولية المنظمة، كل ذلك يؤثر في الجميع في كل مكان. ما من مكان نختبئ فيه، والمسافة (البعد) لم تعد تضمن الأمن. لقد رسمت حقبة الحرب الباردة أجنحة وجبهات وحددت ما الذي يقع "خارج المنطقة". لكن الحرب على الإرهاب لا تعترف بمثل هذه الجبهات. والشيء ذاته ينطبق على انتشار الأمراض، فعلى رغم أن مجتمعات العالم الأول ربما لا تنتج مرض الالتهاب الرئوي الحاد

(SARS) فإن مسافراً مصاباً به على متن طائرة بوينج 767 في هونغ كونغ يمكن أن يصل به إلى لندن بعد إحدى عشرة ساعة فيتفشى الوباء.

وفي هذا أعلن كولن باول في أيار/ مايو 2002 أن «الإرهاب لا يحترم حدوداً جغرافية أو أخلاقية، وجبهاته هي كل مكان...» (Tilly 2007:152). إن حقيقة كون الإرهاب نشاطاً عالمياً تزيد من القلق، لأن كثيراً من التهديدات الأخرى قابلة للانتشار بشكل واسع للغاية، حتى إنه لا يمكن احتواؤها بسهولة من قبل النظُم الأمنية، أو حتى النظم العالمية الجديدة. ومع أن الحركة المناهضة للعولمة في الولايات المتحدة قد تخشى من المؤامرة عليها من قبل منظمات الأعمال الضخمة ومن قبل الحكومة، فإن المتآمرين المزعومين لا يشعرون بذلك، بل إنهم يجدون أنفسهم هم أيضاً يعيشون فيما شكا الرئيس بيل كلينتون من أنه «عالم لا تنتهي مخاطره» (*New York Times,* 17 December 1998).

في البعد الثاني، أصبحت المخاطر الاجتماعية غير محدودة أيضاً من حيث إنها آخذة في الصعوبة على نحو متزايد، إلى درجة يصعب معها تحميل المسؤولية لفرد أو مؤسسة. يولي العصر الحديث أهمية للتحكم، وكان الردع يبنى على الإسناد، على توزيع اللوم على الآخرين ومحاسبتهم على أفعالهم. لكن من الذي يمكن أن يتم تحميله مسؤولية انهيار الأسواق المالية؟ إنها شبكات موزعة تثير زعزعة الأسواق المالية، وهي ما تجعل المخاطر اليومية في الأسواق تبدو أصعب في التحكم فيها مما مضى. ومن يمكن تحميله مسؤولية انتشار المرض؟ لقد وصفت سكرتارية الطوارئ المدنية البريطانية فصيلة (H_5N_1) من أنفلونزا الطيور في عام 2005 بأنها «تهديد ذو خطر مثل الإرهاب» على الشعب البريطاني (*Independent on Sunday,* 16 October 2005).

الفيروسات بطبيعتها قاتل صامت وغير مرئي، يتكاثر ويعيش خلسة في خلايا الكائن الحامل له. وفي الأغلب نحن لا نعرف أننا مصابون حتى وقت متأخر للغاية. وتصيب الفيروسات الناس بالهلع، لأنها مجهزة بشكل مثالي للغاية لتنفيذ هدفها بافتراس صور الحياة الأخرى.

وبشكل مماثل، كان من الممكن أن تعزى التهديدات الأمنية في القرن الماضي في العادة إلى دولة واحدة، مثل الاتحاد السوفيتي، أو إلى طموحات رجل واحد كما في حالة هتلر. أما الآن فكثير من التهديدات لا يمكن تتبع مصدره، وحتى إذا أمكن فمن الصعب تحديد الإرهابيين أو تحميلهم مسؤولية أفعالهم. خذ على سبيل المثال الهجمات الإلكترونية على إستونيا في أيار/ مايو 2007 التي أعقبت الاحتجاجات الروسية ضد إغلاق نصب تذكاري لقدامى محاربي الجيش الأحمر. وقد أخذت هذه شكل هجمات "حرمان من الخدمة" (بإغراق الشبكات المستهدفة بكمّ هائل من الرسائل الزائفة التي تسببت في حدوث بطء في الشبكات أو توقفها عن العمل). وقد استخدمت الشبكات الروبوتية التي يطلق عليها اختصاراً "botnets" لأول مرة. بعض هذه الشبكات ضخمة تستخدم عشرات آلاف الحواسيب حول العالم، ويمكن استئجارها في السوق السوداء. وعلى رغم أن الحكومة الإستونية علمت بأن الهجمات ربما تمت بتنسيق من قبل مواطنين روس (بتواطؤ أو من دون تواطؤ مع حكومتهم)، فقد كان من المستحيل تحميل المسؤولية أحداً، لأن الهجمات قد صدرت من 76 دولة مختلفة.

القلق هو الاسم الذي نمنحه لافتقارنا إلى اليقين، لجهلنا بماهية التهديد، وعجزنا عن تحديد ما يمكننا وما لا يمكننا فعله لمجابهته، ويبدو حقاً أن المقاييس التي نعتمدها تعد مما يعمق شعورنا بنذر الشر. وكما كتب باومان في كتابه **الخوف السائل** *Liquid Fear*: «من بين الآليات التي تدعي أنها تتبع قانون الحركة الدائمة، يبدو أن التكاثر الذاتي لكتل الخوف والأفعال النابعة من الخوف، يعتز بمكانته» (Bauman 2006:137).

وقد سعى بك نفسه لمقاربة موضوع الإرهاب في أعقاب الهجوم على مركز التجارة العالمي في محاضرة دعي إلى إلقائها في مؤسستي؛ كلية لندن للاقتصاد، بعد مرور عام على ذلك الحدث. إذ أقر بك أن الأمر الذي يجعل الإرهاب مختلفاً جداً عن كثير من المخاطر الأخرى التي حددها في عقد التسعينيات هو حقيقة أنه صُمم بذكاء، ذلك أنه لم يكن غير مقصود مثل حادثة تشرنوبل. فهجمات القاعدة على نيويورك وواشنطن قد أضفت على

الحادث مبدأ القصد والتعمد. وساهم ذلك في تقويض الثقة بالحماية التي تستطيع الدولة تقديمها. «مفهوم التهديدات الإرهابية يجعل الريبة النشطة تحل محل الثقة النشطة. ومن ثم يقوض الثقة فيما بين المواطنين، وفي الأجانب والحكومات في مختلف أنحاء العالم... (إنه) يفجر التضاعف الذاتي للمخاطر من خلال عدم تحديد مفاهيم وخيالات المخاطر» .(Beck 2004:44)

يبرز الإرهاب أيضاً البعد الثالث لعالم بك غير المحدود؛ الوقتي الذي يجعلنا أكثر قلقاً. ذلك أنه من حيث الوقت نجد أن الأخطار كامنة، لأن عواقب الأفعال يمكن أن تستغرق وقتاً طويلاً حتى تظهر. فالأثر الارتدادي boomerang effect لا يحدث دائماً بشكل فوري. وهذا ما يجعل عملية صنع القرارات تثير قلقاً كبيراً.

في الحرب الباردة كانت الأمور مختلفة، أو بدت كذلك؛ إذ كانت الدولة تستطيع مراقبة التوازن النووي، وتستطيع تحديد الثغرات في القدرات الصاروخية أو في قدرات القاذفات، وكان لديها وقت لسدها. وقد أكد الجنرال روجرز، القائد الأعلى لقوات التحالف، أن بإمكان حلف الناتو أن يقلص عدم توازن الأسلحة التقليدية الذي ازداد في عقد السبعينيات من خلال زيادة النفقات الدفاعية بنسبة 3٪. أما الآن فليس بوسع أحد أن يعرف كم يكفي. ولانزال نتطلع إلى توقع الأمور غير المتوقعة، ولكن تطلعاتنا تخفق في كل مرة. ولاتزال الحاجة إلى التصنيف والتنظيم والمراقبة تحتل أهمية محورية في الخبرة الحديثة، فمجتمعات المخاطر منشغلة بالتحكم في المخاطر وحالة عدم اليقين.

في الوقت ذاته، لم يبق بإمكان الحكومات أن تنظم المخاطر التي يواجهها مواطنوها كل يوم. وكل محاولة للتحكم فيها مشكوك في قيمتها في عصر يتسبب في ارتفاع درجة حرارة الأرض والإرهاب، وكلاهما لا يعرف حدوداً. لكن الحكومات لا تستطيع التحكم فيهما من خلال التنبؤ بما سيحدث. القواعد البدهية القديمة التي أتاحت قدراً من

الطمأنينة على مر الوقت، مثل التحليلات الإحصائية، والحسابات الأكتوارية،* واحتمالات وسيناريوهات الحوادث، كلها لم تبق مقنعة جداً.

دراسة الحالة رقم (1): اللياقة البنيوية للدولة في مواجهة الحرب

> في أعقاب هجمات الحادي عشر من سبتمبر، أصبح التهديدات العالمية تعرف من حيث نقاط الخلاف في داخل المجتمعات أكثر مما هي عبر الحدود الإقليمية التي تفصل بينها. بدءاً من الإرهاب إلى الأمراض العالمية أو التدهور البيئي، أصبحت التحديات عبر قومية أكثر مما هي دولية. وهذه هي السمة المميزة للسياسة في العالم في القرن الحادي والعشرين... وفي هذا الإطار، علمتنا هجمات الحادي عشر من سبتمبر أنه ينبغي النظر إلى الإرهاب ضد المصالح الأمريكية "هناك" تماماً مثل النظر إلى الإرهاب ضد أمريكا "هنا". وبالمنطق ذاته، إن الوطن الأمريكي هو الكوكب (11 September Commission, 2004).

لامحدودية المخاطر لها انعكاسات كثيرة، لعل أكثرها إلحاحاً هو أنها تجردنا من الإيمان الذي كان لدينا من قبل بقدرة الدولة على حمايتنا من المخاطر المتعددة. ففي الماضي كان هناك تهديد من دول أخرى، أما الآن فالدولة أكثر أمناً من ذي قبل. ففرضية السلام الديمقراطي، مع أنها لاتزال مفتوحة على التجربة العملية، تحظى بقبول واسع، حتى إن الولايات المتحدة باتت لا تواجه قوة أو مجموعة قوى. وبدلاً من ذلك فهي تواجه تحالفين من الفاعلين من غير الدول، هما: الحركة المناهضة للعولمة، وتنظيم القاعدة.

لكن الموقف يتغير بصورة جذرية عندما يتعلق الأمر بمصير مواطنيها. ففي الماضي كانت الوحدة الوطنية القوية تهدف إلى حشدهم وإرسالهم إلى المعركة، لكنها لم تبق الآن تؤمنهم ضد الأطراف من غير الدول، سواء أكانت تأخذ شكل رفاقهم من المواطنين في

---

* تعتمد الحسابات الأكتوارية على تقديرات خبراء مؤهلين في الرياضيات والإحصاء وحساب الاحتمالات والاقتصاد والمالية والبرامج الحاسوبية، وتطبق أساساً في مجال التأمين، لحساب المخاطر وتحديد قيم وثائق التأمين وعوائدها، كما تطبق في مجالات العقارات والأجور والمعاشات وغيرها، ويتم تدريسها في كثير من الجامعات. (المحرر)

الوطن الذين ينوون تفجيرهم، أم شكل الأجانب الذين هم على بعد آلاف الأميال ولكنهم يتمتعون بتأثير عالمي.

يرتبط الأمن والدولة معاً ارتباطاً مفصلياً. وعقب عام 1850 تم توسيع مفهوم الأمن الذي توفره الدولة لمواطنيها ليشمل ليس فقط السلامة من الأعداء الخارجيين، بل والأمن من المخاوف الداخلية: القلق الذي ينبع من الإصابة بالأمراض أو البطالة أو الفقر المدقع. وربط العقد الاجتماعي في فلسفة بسمارك بين الدولة والمواطنين بشكل أوثق مما في فلسفة هوبز، ذلك أن بسمارك هو الذي دخل في أول "صفقة كبرى"؛ الدولة توفر الضمان الاجتماعي في الداخل في مقابل استعداد المواطنين للتجنيد في الجيش.

وأصبح عقد بسمارك الاجتماعي شائعاً لأن الحداثة جعلت الناس أقل أمناً. كما أن العمل الصناعي تطلب ثقافة أدبية مشتركة، وأشكالاً مشتركة من التنظيم الاجتماعي أيضاً، كما تطلّب حساً بوجود مجتمع قوي بشكل كافٍ لموازنة حالة الاغتراب التي ينتجها. وافترض فرانسوا إيفالد François Ewald أن عملية التصنيع تستلزم استحداث شيء مثل دولة الرخاء، ولم ير إيفالد دولة الرخاء التي بزغت عقب الحرب العالمية الثانية في شكل تحكم الديمقراطيين الاشتراكيين أو اليساريين الاشتراكيين في السلطة، ولم يرها مشروعاً يضمن النظام الاجتماعي بعدما كشفت الحرب الانقسامات الاجتماعية العميقة، بل رآها طريقة تقنع بها الدولة المواطن بأن الحداثة ذاتها أصبحت الآن آمنة (Ewald 1987).

الانهيار اللاحق لما يسميه الدولة «المدبرة للاحتياجات المستقبلية» غيَّر كل شيء. لقد سلب المواطن ضمان أنه عندما يحتاج إلى المساعدة فهناك آلية دعم ستساعده. وقامت المعاشات الخاصة ومعاشات الشركات بسد الفجوة بين ما تعد به الدولة وما يمكن أن تقدمه. تضمن البرامج الصحية الخاصة العلاج الفوري، ويعِد التعليم الخاص بتعليم أفضل للأطفال. وبطبيعة الحال فإن الشركات الأمنية أفضل من قوات الشرطة في توفير ضمانات لحماية الملكيات الخاصة على مدار 24 ساعة في اليوم. وفي العالم الغربي أصبح عدد حراس الشركات الأمنية الخاصة الآن يفوق عدد قوات الشرطة. وأصبح الأثرياء في هذه

الأيام، وحتى الأقل ثراء، يركزون انتباههم على نحو متزايد على ما يطلق عليه أنتوني جيدنز «استراتيجيات البقاء المخصخصة» (Mythen 2004:109).

تعاني دولة الرخاء مشكلات في جبهة أخرى. لقد كانت قادرة على تقديم وعود بتوفير فرص عمل كاملة. وبحلول عقد الستينيات، أصبحت الحشود العاطلة خلال عهد الكساد العظيم جزءاً من ماضٍ منسي. لكن هذا لمّا يبق صحيحاً في عالم "التقليص" وإدماج الشركات، فنظم العمل الحالية ما عادت تعمل بشكل قياسي أو نموذجي، بل بشكل فردي. في الماضي، انحصرت نظم العمالة في داخل حدود الدول، أما اليوم فأصبحت عالمية، فالعمل يذهب إلى الأمكنة التي فيها عمالة رخيصة وضرائب منخفضة. في الماضي، اعتمدت الأعمال على البناء البطيء للعلاقات، والآن أصبحت تعتمد على الصفقات التي تشمل عدداً من المقابلات لمرة واحدة، وعلى العقود وإبرام الصفقات، وباتت تعتمد على وجود المحامين؛ لا على الثقة (Sacks 2002:154).

ويذهب مؤلفو كتاب **إعادة هندسة الشركة** *Re-engineering the Corporation*، مدى بعيداً في الدفاع عن "إعادة الهندسة" ضد تهمة أنها ليست سوى غطاء لفصل الموظفين من أعمالهم: «التقليص وإعادة الهيكلة تعنيان إنجازاً أكثر بعدد أقل». ولكن كلمة "أقل" هي المشكلة. فإلى أين سيذهب الباقون؟ (Ellin 1997:62-3).

عندما يتم تسريح العمال فإنهم يميلون لأن يكونوا عديمي النفع. لقد اكتشفت القوة العاملة ما أسماه روبرت ريتش Robert Rich «عدم جدوى الولاء» (Sacks 2002:154). وربما لا يتوقع العمال مساعدة من أصحاب العمل السابقين، وبخاصة إذا كانوا متقدمين جداً في العمر بحيث لا يمكن توظيفهم مجدداً. فمصير الذين لم يجعلوا من أنفسهم قيمة للآخرين هو التسريح من أعمالهم. وبما أن إدارة الاقتصاد تتطلب أعداداً أقل فأقل من العمال، نجد أن الفجوة الأخلاقية بين الجماهير والنخبة تستمر في الاتساع. وأمست النخبة تراقب الجماهير بتعاطف ضئيل مع جيل وُلِد في عالم صعب وأكثر تقييداً.

إن التفريغ التدريجي للعقد الاجتماعي من مضمونه يطرح تساؤلاً ذا أهمية كبيرة لهذه الدراسة: أماتزال الدولة القومية التي تعد هي النقطة المرجعية الرئيسية، حتى في الاتحاد الأوربي، لهوية المواطن "لائقة بنيوياً" لتحمل الحرب؟ هذا المصطلح اجتماعي، وأنا أدين بالفضل في اهتمامي به لأولريش بك، ومن ثم من الأهمية بمكان شرح ما الذي يقصده:

يستخدم بك هذا المصطلح للتركيز على مواطن الضعف التقانية التي تجعل الدولة هشة. فنحن نعيش في عالم يعج بتحديات عابرة للحدود، وطبيعة المخاطر العابرة للحدود هذه في القرن الحادي والعشرين هي التي تثير مسألة العلاقة ما بين المواطن والدولة. حتى إن فكرة الحرب التقليدية بين الدول باتت تتلاشى وتصبح ضرباً من الخيال بفعل سرعة تأثر المجتمعات الحديثة بتوقف إمدادات الطاقة والاتصالات. يمكنك أيضاً أن تفكر في الدمار الذي قد يسببه تفجير ما يطلق عليه بك "القنابل الصناعية" التي تكمن في قلوب مدننا: المخازن، ومحطات المعالجة في شكل منشآت طاقة نووية، ومصانع كيماوية، ومحطات تكرير النفط، ومقالب النفايات السامة. والخلاصة التي يتوصل إليها هي أن الخطر الذي يجابهه الناس الآن في الداخل قد بدأ يهدد قدرة الدولة على خوض الحرب ضد الدول الأخرى.

أود أن أضيف أنه حتى عندما تخوض الدولة حرباً ضد أطراف من غير الدول بعيداً عن الوطن بآلاف الأميال، فإن العقد بين الدولة والمواطن يصبح محل تساؤل؛ إذ لم تعد الدولة تطلب تضحيات من جانب المواطنين كما في السابق. وفي هذا الإطار، يضيف بك بشكل استفزازي أنه ربما حان الوقت لكي نبدأ في النظر إلى الدولة القومية، مع فئات أخرى مثل الطبقة والنوع الاجتماعي، باعتبارها شكلاً مؤسسياً مكروراً موروثاً من القرن التاسع عشر، ولم يعد يلاقي الصدى ذاته الذي كان يلاقيه في عقول الناس من قبل (Adam 2003).

لقد تأسست الدولة القومية على مبدأ المجتمع. وأحد التحديات التي تواجهها هي أن الوضع المجتمعي قد تفكك، وبات منافسة بين الأفراد. خلال الاحتفالات بالذكرى

المئوية الثانية للثورة الفرنسية كانت هناك مقولة شائعة: «1789: الرعية أصبحوا مواطنين. 1989: المستهلكون أصبحوا مواطنين». وحقيقة أنه قد تمت إعادة تعريف المواطنة بمعايير اختيار المستهلك هي مسألة تدعو للأسف بالنسبة لكثيرين. فالمواطن يفكر، على نحو متزايد، في الأمن من حيث السلامة الفردية، ويسعى لحماية نفسه من أي شيء يعرضه شخصياً للخطر. وكما يقول لنا المترجم الإنجليزي لكتاب **مجتمع المخاطر**، مارك ريتر (Adam 2003:37)، فإن المصطلح الذي يستخدمه بك ليصف المخاطر التي واجهتها القوة العاملة منذ إدخال مزيد من أنماط العمل المرنة للعمالة هو "Fressetzung" الذي يعني كلاً من: "تحرير" و"تسريح" أو "عمالة زائدة"، أو حتى "مكان عام"؛ إنه مكان ليس فيه التزام اجتماعي.

بالنسبة إلى بك، هذا التلاعب بالكلمات قاد إلى "تأكُّل التقاليد" الخاصة بالقيم، ولاسيما في العلاقات الاجتماعية التي اعتادت تجسيدها. والمحصلة الأساسية لهذه "الفردية" هي أن الفرد ذاته يصبح الوحدة التي تعيد إنتاج ما هو اجتماعي في عالم الحياة.

ومن هنا، فإن الشعور بعدم الأمان ليس محض حقيقة واقعية للبيئة التي نعيش فيها، بل أصبح حالة وجودية. والأثرياء من الأفراد الذين يمكنهم دفع تكلفة توفير الأمن سوف ينقذون أنفسهم من البيئات الخطرة؛ إذ ينقلون سكناهم إلى حيث يمكنهم إرسال أبنائهم إلى مدارس أكثر أمناً، وينتقلون إلى مجتمعات مسوَّرة، ويتخيَّرون عزل أنفسهم، مجازياً وفعلياً، عن المواطنين الآخرين. وفي هذا يضيف باومان (Bauman 2007:11): هؤلاء الذين يمكنهم دفع تكلفة توفير الأمن يحصنون أنفسهم ضد جميع المخاطر المرئية وغير المرئية، الحاضرة أو المتوقعة، المعروفة وغير المعروفة. وحقيقة أن الحياة الحضرية قد أصبحت خطراً، وأن المدينة باتت ساحة معركة، قد قلّصت البعد الاجتماعي إلى مدى أبعد. وأصبح مشروع الحياة هو مشروع تحقيق الذات. إذ إن هذا "التطوير الداخلي" ليس لديه وقت كثير للنظم أو المشروعات "الخارجية" التي شكلتها الحياة الاجتماعية أو الحياة الجمعية للمواطنين.

كما أن الأفراد يؤمّنون مستقبلهم بطرائق أخرى تعزلهم عن العالم الاجتماعي. يُرغَم المواطن، على نحو متزايد، على تأسيس أنشطته على جهوده، ومن هنا جاء نمو التنظيم الذاتي، والمساعدة الذاتية، والإدارة الذاتية التي تُطلَب منا جميعاً، وبخاصة من حيث الصحة؛ إذ يتوقع منا أن نتبنى أساليب حياة صحيحة من أجل حياة صحية (Appadurai 2006:122). وحتى المجال المدني آخذ في الانعزال عن المجال السياسي. وأصبح لدى كثير من المواطنين في الغرب وعيهم المدني الخاص بهم: مساجدهم، وتجمعاتهم المدنية التي في الأغلب تفصل نفسها عن الحياة السياسية بالمعنى التقليدي. وما يؤشّر لانهيار النظام المدني هو أننا أصبحنا نتحدث، بشكل متنامٍ، عن مجتمعات: "المجتمع أسود"، أو "المجتمع آسيوي" أو "المجتمع مسلم".

وتدخل الحكومات في حوار مع "قادة المجتمعات"، بل الأغرب من ذلك هو أننا نتحدث عن "شرطة مجتمعية" أو "رعاية مجتمعية". ثم إن هناك حديثاً عن الذين هم خارج "المجتمع" الذين يعيشون في عالم موازٍ، مستقلين عن العالم الذي يستقون منه حقوقهم القانونية. ويصر بعض الكتاب، مثل أبادوراي، على الحق في أن تكون غير أمريكي أو غير بريطاني، من حيث الثقافة، والسياسة، وبخاصة أسلوب الحياة. بعض الناس يريد حياة مختلفة ويعيش حياة المنفى الأخلاقي، وآخرون يرغبون في عالم مضادٍ لعالم ماكس فيبر، من العنف الذي يضرب الحياة اليومية أو الاعتيادية التي تكوّن الفضاء المدني؛ فضاء التجمع والتحاور السلميين.

في عالم ما وراء الدولة القومية هناك شبكة عالمية من القوة والسياسة والعنف تعطي المواطن الذي يشعر بالغربة إمكانية كاملة للوصول إلى التقانات القاتلة التي يمكن أن توجّه ضد الدولة أو ضد رفاقه المواطنين في الداخل (Appaduarai 2006:122). ووفقاً للاستراتيجية الأمنية الوطنية للمملكة المتحدة (2008)، يتعين على الشرطة وأجهزة الأمن أن تكون على استعداد، في أي مدة، للتعامل مع 20 مؤامرة، و200 جماعة أو شبكة، ونحو 2000 فرد من الذين ترى أنهم يشكلون تهديداً إرهابياً على الدولة والمواطنين على السواء (National Security Strategy of the United Kingdom 2008).

حقاً، إن أحد التحديات الرئيسية للدولة هو طبيعة المجتمع التي تزداد تشابكاً. فالإنترنت لا تراعي أي جبهات أو حدود؛ إذ يمكنها الوصول إلى كل بيت. والأدلة الإرشادية لكيفية صنع قنبلة متاحة على الإنترنت لأي شخص يرغب فيها، وفهم كيفية صنع القنابل بات ممكناً لأي مواطن يتوافر لديه الوقت والرغبة في صنعها. بعبارة أخرى، لم تبق الدولة تحتكر تقانة العنف. في الحرب الباردة، لم تصنع الدولة تقانات الدمار الشامل فقط، بل واستثمرت في مشروعات أخرى مثل الطائرات النفاثة، والطاقة النووية، والفضاء، والواقع الافتراضي أيضاً. وقد أعطت هذه الاستثمارات الحكومات بعض التحكم في تلك التقانات، وقد تم تخزين كثير منها في معسكرات أو قواعد متخصصة جداً، مُنعت العامة من دخولها، وتم تأمينها بنظم مراقبة قوية.

وفي الولايات المتحدة، سرعان ما أصبحت أضخم هذه المؤسسات البحثية، التي تعرف باسم "المنطقة 51"، مصدراً لنظريات المؤامرة والبرامج التلفزيونية المثيرة مثل **ملفات إكس** *X-files*. لكن هذه الحقبة قد انتهت بالفعل وباتت خلفنا. أما القرن الحادي والعشرون فسوف يكون عصر "المكنة الممكنة"؛ فإذا كان القرن التاسع عشر قد اشتُهر بأنه مدفوع بقوة البخار بوساطة الخبراء، والقرن العشرون بأنه مدفوع كهربائياً، باستثناء السيارات بشكل غريب، فمن المرجح أن يُحرَّك القرن الحادي والعشرون رقمياً بوساطة المواطن. وتشمل الأمثلة المبكرة لذلك أجهزة الوكمان من شركة سوني، والهواتف الخليوية الأولى، وأجهزة الحاسوب، والإنترنت، والسفر في الواقع الافتراضي. بوابات هذه المكنات تقوم الآن بربط الأفراد عبر شبكة. إنه "تشبيك شخصي"، وهو أشد ما تخشاه الدولة (Urry 2003:126).

نتيجة لذلك، يتعين علينا أن نعيش في احتمالين غير محببين يحددان عصرنا. أحدهما هو أنه ربما تتم مراقبة بعض المواطنين عن قرب أكثر من الآخرين. ولا شك في أن التصنيف على أساس عرقي هو تصنيف قائم، حتى وإن أنكرته الحكومات. وقد أبرز فيلم هوليود **حالة حصار**، الذي حقق مبيعات هائلة، الإقامة الجبرية الجماعية للمسلمين في أثناء سلسلة الهجمات الإرهابية في نيويورك. تلك كانت رواية، بطبيعة الحال، ولكن الحياة

الحقيقية قد تنسخها يوماً ما. وقد خلص استطلاع للرأي أجري نهاية عام 2004، إلى أن 53٪ من الأمريكيين فضلوا تقييد الحريات المدنية للمسلمين (حتى لرفقائهم المواطنين) من أجل تعزيز الأمن (Stearns 2006:43).

أما التحدي الثاني فربما ينشأ مما يطلق عليه علماء الديمغرافيا "التحول الديمغرافي الثالث"، وهو التدفق الجماعي للمهاجرين إلى شمال أمريكا وأوربا، وهو ما سوف يغير التركيبة الوطنية بشكل جذري وربما دائم ، إن استمرت معدلاته الحالية. إضافة إلى ذلك، فإن معدل الخصوبة الأدنى مما يلزم للإحلال السكاني، والمعدلات المتسارعة لهجرة السكان المحليين قد يشكلان معاً أحد أعظم التحديات التاريخية على مر العصور. فعندما لا يقوم المجتمع بإعادة إنتاج نفسه، يكون بحاجة إلى نقل دم؛ بحاجة إلى مهاجرين. ومع ذلك فإن الهجرة تزيد حالة عدم اليقين التي تنتجها العولمة، لأنها تميل إلى إشعارنا بمزيد من عدم الأمان.

يتخذ هذا التحدي أشكالاً مختلفة داخل العالم الغربي. فعلى رغم أن الولايات المتحدة لا تنتج انتحاريين، فإن لديها قدراً غير قليل من الإرهابيين المحليين، مثل تيم ماكفي* وأونابومبر.** ولكن ما يقلق الأمريكيين هو "الغريب عرقياً"، وبخاصة الذين

* تيموثي ماكفي Timothy McVeigh: اتُّهم بتفجير شاحنة محملة بالمتفجرات أمام مبنى ألفريد دورا الفيدرالي في مدينة أوكلاهوما، ما أسفر عن مقتل 168 شخصاً، وقال إنه فعل ذلك انتقاماً من مكتب التحقيقات الفيدرالي الذي شن هجوماً على مزرعة لإحدى الطوائف الداودية في تكساس الجنوبية أسفر عن مقتل 90 شخصاً. وقد أعدم عام 2001 (المحرر).

** Unabomber: اختصار لعبارة مفجر الجامعات وشركات الطيران University and Airline Bomber، وهو الاسم الذي أطلقه مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي على تيودور جون كازِنْسكي، أستاذ الرياضيات الشاب الذي استقال من عمله في جامعة كاليفورنيا، بيركلي عام 1971، ليعيش في كوخ خشبي بلا ماء ولا كهرباء في منطقة نائية في مونتانا. وعندما دُمِّرت الحياة البرية من حوله لدواعي التطوير الحديث، بدأ إرسال قنابل في طرود إلى الجامعات وشركات الطيران، فأرسل 16 قنبلة ما بين عامي 1978 و1995، أسفرت عن مقتل ثلاثة أشخاص وإصابة 23 آخرين. وفي عام 1995 أعلن أنه مستعد للكف عن الإرهاب إذا نشرت صحيفة التايمز أو واشنطن بوست مقالاً له حول المجتمع الصناعي ومستقبله The Industrial Society and Its Future، وفيها يرى أن المجتمع الحديث سلب الإنسان حريته واستقلاله. قبض عليه عام 1996، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة، بعد أن أقر بأنه مذنب، وكتب عديداً من الأعمال التي نشرت عام 2010 في كتاب بعنوان العبودية التقانية Technological Slavery (المحرر).

يتحدثون الإسبانية، ويُعتقد أنهم قد يجلبون معهم خلُق العمل الخاص بالعالم الثالث. وعلى رغم القلق في أوربا بشأن طالبي اللجوء والمهاجرين، فإنه ليس من الغريب عرقياً بل من "الغريب خلُقياً" من يُعتقد أنه يشكل الخطر الحقيقي. ذلك أن الرابط الأخلاقي بين المواطنين الذي يجعل النظام المدني أمراً ممكناً هو أهم بكثير من العرق. وللأسف، عندما يصبح الغريب عرقياً غريباً خلُقياً (أي غريباً عن النظام المدني الذي هو جزء منه)، بل حتى عندما يصر على غربته، فإن الدولة تواجه معضلة؛ حيث تواجه عندئذ تهديداً يسميه جان جاك روسو «الأجانب من بين المواطنين»، ويعني بهم المواطنين المعارضين للعقد الاجتماعي الذي يحفظ المجتمع المدني. فالغريب خلُقياً، مهما كانت خلفيته الاجتماعية أو العرقية، هو بطبيعته مواطن معادٍ اجتماعياً. وفي أوربا، كما يكتب ديفيد سيلبورن David Selbourne، يتمتع بمزية العيش في مجتمع يمنحه حقوقاً من دون أن يصر دائماً على تحمل واجباته. وإذا كانت الواجبات من دون حقوق تنتج عبيداً، فإن الحقوق من دون واجبات تنتج غرباء (Selbourn 1994:108).

لقد كان التحدي الذي شكله المهاجمون الانتحاريون للندن في 7 تموز/ يوليو أنهم رأوا أنفسهم أعضاء مجموعة مقهورة ومهانة. وقد ادعوا في الأشرطة التي تتحدث عن استشهادهم أنهم كانوا يسعون للانتقام لإخوانهم المسلمين في العراق وفلسطين. ذهبوا لقتل إخوانهم المواطنين للانتقام من أجل "إخوانهم في العقيدة" الذين لم يقابلوهم قط. وهذه هي قوة "المجتمع المتخيَّل" (الأخوّة الإسلامية) حيال مجتمع آخر (المملكة المتحدة). وبطبيعة الحال، سيكون يوم شؤم إذا ما فهم المواطنون المسلمون وغير المسلمين معارضة كل من الطرفين للآخر على أنها عنصر جوهري وأساسي لهم.

يعاني كثير من المجتمعات الغربية هذا الخطر الآن، وربما يطاردها الخوف من أنها قد تجلبه لنفسها بتصرفاتها. فالعلاقة ما بين السياسة البريطانية في العراق وتفجيرات لندن (2005) أكدها كل من أيمن الظواهري، نائب زعيم تنظيم القاعدة، والمركز المشترك لتحليل الإرهاب في بريطانيا. وتوقعاً لمثل هذه الهجمات، أطلقت وزارة الخارجية قبل ذلك

بعام برنامجاً جديداً أطلقت عليه اسم «الارتباط بالعالم الإسلامي» "Engaging with the Islamic World"، تضمَّن برامج للتواصل تهدف إلى شرح السياسة البريطانية للجمهور المحلي.

لم تأخذ الحكومة البريطانية في حسبانها الخلافات التي تسري في المجتمع سوى مرة واحدة من قبل، وذلك في عام 1919 عندما رفض عمال الشحن في لندن تحميل سفينة يطلق عليها "جولي جورج" بأسلحة كانت متجهة إلى بولندا في حربها ضد روسيا السوفيتية. وقد أجبر تهديد اتحاد نقابات العمال بالقيام بإضراب عام الحكومة على تعليق شحنات الأسلحة. ومع أن الانقسامات الطبقية واقع حقيقي، فإنه لم يترجم قط إلى خيارات في مجال السياسة الخارجية. هل ينسحب هذا على المجتمع المتعدد الثقافات الذي وصلنا إليه الآن؟ هل تشكل الخلافات العرقية التي تسري في برادفورد وبرمنغهام وبرلين الآن خطراً على الأمن القومي؟ ما أقلق الحكومة البريطانية بشكل خاص هو إلقاء القبض على تسعة شبان بريطانيين مسلمين في شباط/ فبراير 2007 من منطقة برمنغهام، اتهموا بالتخطيط لاختطاف وذبح جنود بريطانيين مسلمين عادوا من أفغانستان.

هناك اختلاف حساس بين "الغريب عرقياً" الذي تخشى منه الولايات المتحدة وبين "الغريب أخلاقياً" الذي ربما يواجهه الأوربيون بالفعل، وهذا يعقد من عملية بناء الدولة في أفغانستان والعراق، سواء اعترف الأوربيون بتلك الحقيقة أم لا. الأمريكيون يعتقدون أنهم يخوضون حرباً، والأوربيون يعتقدون أنهم يسعون إلى منع اندلاع حرب في الداخل. ألقى الرئيس بوش خطاباً كاشفاً في تشرين الثاني/ نوفمبر 2005 قال فيه للشعب الأمريكي: «إن قواتنا تكافح الإرهابيين في العراق حتى لا تواجههم هنا في الداخل» (*The Times,* 22 November 2006). لكن الأوربيين لا يستطيعون أن يبقوا الإرهاب بعيداً بهذه الطريقة. فانتحاريوه قد أخذوا مواقعهم بالفعل.

كل هذا يترجم إلى تغذية راجعة إلكترونية مستمرة. من المفهوم تماماً أننا ربما نخشى جميعاً سرقة أسلحة نووية، أو غاز السارين وقنابل الأنثراكس، لكن ما يلحق أكبر ضرر

من الناحية النفسية هو تلك القنابل القديمة في السيارات والقطارات، أو ما يطلق عليه مايك ديفيز Mike Davis «العتاد الوحشي والمكنات المعتادة للإرهاب الحضري» (Davis 2007). ذلك أن أشد المواطنين التزاماً بالقانون يبدأ في التساؤل إن كان يتعين على حكومته أن تعرضه بالفعل لمخاطر أكبر من خلال خوض الحرب. لم يبق العقد الاجتماعي يوفر الضمان الذي اعتاد أن يوفره في السابق. فالعالم آخذ في التعقيد حتى إنه ليثير الشكوك في الأسس السائدة للعقد الاجتماعي الذي تقوم عليه الدولة القومية.

دراسة الحالة رقم (2): القلق والمرض

دعوني أعرض مثالاً آخر لتوضيح كيف أن مفهوم الأمن أصبح "بلا حدود" في عصر المخاطر. لدينا هنا ظاهرة أخرى تتشكل. بمجرد ظهور قضية ما على رادارنا الذهني مثل شيء يمكن أن يجتاز الحدود، أو يتغلغل خلسة قبل أن يعرف أحد أنه هنا، يميل بسرعة إلى أن يصبح قضية أمنية لأول مرة. أما هل ينبغي أن تكون هذه هي القضية؟ فهذا سؤال جدلي وليس موضوعنا. المرض هو أمر يجعل كثيرين منا يشعرون بالقلق والخطر، وما يجعل بقيتنا تشعر بعدم الأمان في عصر المخاطر هو أمر يهم بكل تأكيد مجتمع الأمن.

إن مناقشة المرض عملية صعبة بشكل خاص للخبراء الأمنيين، كما هي بالنسبة لأي شخص آخر. بداية هناك نقص في الرؤية، فنحن قريبون للغاية من الأحداث حتى إنه تصعب رؤية مغزاها بوضوح. في وقت كتابة هذا الكتاب، لم يكن قد مر على اكتشاف فيروس سارس سوى ست سنوات، ولم يكتشف الإيدز على أنه وباء إلا في الثمانينيات. المشكلة الثانية تتعلق بالاتجاهات السائدة، فهناك أمور كثيرة تتطلب منا التركيز عليها: ارتفاع درجة حرارة كوكب الأرض، والتغير المناخي، وأمن الطاقة. وهناك دوماً إغراء في هذه القضايا بالتركيز على الدارج، ورواج الظاهرة على حساب القيمة.

لكن إذا ما تبنينا أسلوباً تاريخياً شاملاً يمكننا أن نقوّم بشكل أفضل كيف أن المرض قد استغل شريان القلق العميق الذي يميز عصر المخاطر. فالمرض له تاريخ (كما أن للتغير

المناخي وغيره تاريخاً). وقد كان نيتشه هو من زعم أن لكل عاطفة إنسانية تاريخاً. وكان أول من أشار إلى أنه يمكننا كتابة تاريخ الذهنيات، مثل تاريخ الجشع والحب والإحسان، وحتى الخوف. وبعدها بسنوات قال سيغموند فرويد إنه يمكن تقسيم الخوف إلى ثلاث حقب تاريخية: الذعر، والخوف، والقلق، ومع أننا نميل إلى التفكير في أنها مترادفات إلا أنها ليست سواء (Naphy and Roberts 1997:190).

في زمن ما قبل العصر الحديث شعر الناس بالذعر من المرض. ربما يكون النص الرئيسي في هذا هو لثوسيديدس تحت عنوان **تاريخ حرب البلوبونيز** *History of the Peloponnesian War* الذي يخبرنا بالأمراض المخيفة التي قتلت نسبة كبيرة من أهل أثينا في السنوات الأولى من الصراع التي تضمنت أشدها كارثية، حرب الزعيم بيركيلز. أصيب ثوسيديدس نفسه بالمرض، وقدم لنا وصفاً دقيقاً لأعراضه. وتعد روايته دراسة باثولوجية ذات شقين: باثولوجيا المرض ذاته، والمجتمع بأسره وهو يتفكك تحت وطأة تأثير المرض. لكن ما أخاف أهل أثينا حقاً هو أنه لم يكن لديهم تفسير لما يحدث لهم، ومن ثم فلم يكن أمامهم إلا أن يعزوا مصيرهم إلى إرادة الآلهة. أما الطاعون الذي قتل نحو ثلث سكان أوربا في القرن الرابع عشر، فقد كان أكثر تدميراً وذعراً، بالأخذ في الاعتبار أن العصور الوسطى لم تكن تعرف هي أيضاً مفهوم علم الأوبئة.

أما الحقبة الحديثة فلم تكن بالقدر ذاته من الهلع والذعر من الأوبئة، لقد كانت مخيفة من الأمراض التي يمكن تفسيرها طبياً لكن لا يمكن فعل شيء كثير لمنعها أو احتوائها. لقد عرف القرن التاسع عشر جيداً أن التمدن والزحام المصاحب له قد غذيا انتشار الأمراض. والعولمة، في مراحلها الأولى، قد زادت فرص تصديره. خذ على سبيل المثال وباء الكوليرا الذي تفشى في البنغال عام 1826 (أول وباء عالمي من نوعه)، فمع وصوله إلى جنوب روسيا تسارعت وتيرة العدوى، وعرقل الحروب الروسية والتركية والفارسية زمناً، ثم إن الثورة البولندية عام 1831 نقلت المرض إلى البلطيق، ومن هناك وصل إلى إنجلترا بعدها بوقت قصير. ومن إنجلترا وصل إلى أيرلندا، ووصل إلى كندا والولايات المتحدة عبر الهجرة.

بعد ذلك أدى تفشي وباء الأنفلونزا فيما بين عامي 1918 و1919 إلى مقتل قرابة ثلاثة ملايين شخص. ولا يُعرف بالضبط إن كان الوباء قد نشأ على طول خنادق تعج بفئران مصابة بالمرض على الجبهة الغربية، أو في معسكر الجيش المزدحم بالجنود في كنساس؛ حيث كان آلاف الجنود ينتظرون الرحيل إلى فرنسا. وكان الوباء سريع الانتشار لأن المناعة كانت ضعيفة جداً. وقد أُنهك الأوربيون جسدياً ومعنوياً عقب أربعة أعوام من الحروب. وشُلَّت روسيا والصين بسبب الثورة والحرب الأهلية، ومن ثم لا نعرف حتى الآن الأعداد الحقيقية للضحايا.

ولكن إذا كان العالم الحديث يخشى المرض، فهو على الأقل يعرف كيف يكافحه. وقد استطاعت السلطات الحضرية من خلال توظيف تقنيات صحية جديدة تمولها عبر الاقتراض العام، أن تحدث قفزة في توفير الخدمات الصحية العامة. لقد أصبحت الرعاية الطبية حقاً مهماً حتى إنها غيّرت وجه الحرب خلال السنوات العشرين التالية. وما يجعل الحرب العالمية الثانية فريدة من نوعها هو أن الجيوش استطاعت أن توفر الدعم اللوجستي الذاتي في ميدان المعركة على بعد آلاف الأميال من الوطن من دون الخوف من أن تتفكك مثلما حدث في الماضي. كانت الكوليرا هي التي تسببت في تدمير كثير من جيش نابليون خلال زحفه إلى موسكو، وليس انسحابه من المدينة. وفي عام 1915 تفشى وباء التيفوس في صربيا بشكل قوي حتى إنه تسبب في وقف القتال لمدة ستة أشهر في البلقان. لكن لم يحدث شيء من هذا القبيل في الحرب العالمية الثانية.

وبطبيعة الحال كان الجاني هو القمل. استذكر الروائي الفرنسي فيرنان سيلين Fernand Céline محادثة ذات مساء في باريس مع رائد في قوات النخبة أيام هتلر؛ إذ سأله بصفته طبيباً للغستابو:* لماذا يبدو أن الأوبئة اختفت؟ لقد شق الحلفاء طريقهم من الشرق

* الغستابو Gestapo: اسم مختصر من عبارة Geheime Staats Polizei الألمانية التي تعني الشرطة السرية للدولة، وقد تم تأسيسها في نيسان/ إبريل 1933 في بروسيا، بعد قرابة شهر من تولي هتلر السلطة في ألمانيا؛ وشملت أعمالها تعقب الشيوعيين واليهود والمثليين والسلافيين في ألمانيا وخارجها، وترحيلهم إلى معسكرات الاعتقال ثم القضاء عليهم، وأطلق القانون الألماني النازي أيدي الغستابو بإعفائهم من المساءلة القانونية. (المحرر)

الأوسط إلى إيطاليا وكأنهم لم يتأثروا على الإطلاق. «كارثة، يا سيلين... أنت رأيت البرقيات. لقد اختفت الأوبئة... ». وبما أن سيلين روائي فقد كتب بطريقة شاعرية: لقد تمكن الحلفاء من القضاء على الفارس الرابع لنهاية العالم* (Céline 1986).

بإمكاننا أن نعزو النجاح في مكافحة التيفوس إلى منشأة مكافحة القمل، واستخدام مواد كيماوية جديدة مثل مادة DDT. وكان القضاء على القمل سمة خاصة لنظام معسكرات الاعتقال التي حالت دون تفشي الوباء. وبطبيعة الحال كانت هناك مفارقة ساخرة في هذا كله. لقد استمرت الحرب مثل "الحل النهائي"** لأنه لم يكن هناك ما يوقفها سوى النية الإنسانية الحسنة. وكتب العالم والشاعر التشيكي ميلوسلاف هولوب Miloslav Holub، قصيدة شديدة السخرية لخصت هذا كله. كان الموضوع الرئيسي لهولوب هو جوزيف مايستنر، وهو شاب عضه كلب مسعور في مدينة ألزاس في 6 تموز/ يوليو 1885، وكان مايستنر أول مريض ينقذ حياته لويس باستير بمادة الكينين. كان أول بواب لمعهد باستير، ولكنه انتحر بعد خمسين عاماً عندما احتل الألمان المعهد عقب سقوط باريس عام 1940. ويخلص هولوب إلى القول: «ذهب الجميع ولم يبق سوى الفيروس» (Holub 1984:73).

لايزال العصر الحديث يتمتع بهذه الروح. وعلى رغم رغبة الإنسان في التدمير، فقد عيش القرن العشرون على أمل القضاء على المرض. وكان الجدري هو أول مرض يتم القضاء عليه عام 1976. بعبارة أخرى، مع أن القرن كان مخيفاً من حيث انتشار الأمراض، فإنه تطلع قدماً إلى وعد الرئيس روزفلت في خطابه عام 1949 بأن العالم سوف يتحرر يوماً ما من الخوف. لقد أخذ روزفلت هذه العبارة من ثوريو Thoreau، وإذا ما عدنا إلى أصل الخطاب فسنرى كم كانت رؤيته مقنعة: يمكن أن يتخلص العالم ذاته من الخوف؛ «الرعب

* يرمز الفارس الرابع للموت، ويأتي بعد ثلاثة فرسان ورد ذكرهم في الإصحاح السادس من سفر رؤيا يوحنا في العهد الجديد من الكتاب المقدس للمسيحيين، يرمزون إلى الغزو، والحرب، والمجاعة، في مشهد يصف آخر الأيام ونهاية العالم. (المحرر)

** "الحل النهائي": خطة نازية للقضاء على اليهود في ألمانيا والمناطق التي سيطرت عليها خلال الحرب العالمية الثانية. (المترجم)

المجهول، غير المعقول وغير المبرر، والذي يشل الجهود التي نحتاجها لقلب التراجع إلى تقدم» (Bauman 2006:137).

وهكذا نصل إلى عصرنا الذي يمكن أن يوصف بأنه عصر ما بعد الحداثة. عصرنا لا يخشى المرض، لكنه مخيف ومثير للقلق. وما يجعلنا قلقين هو معرفة أنه لا يمكن القضاء على المرض أبداً. ولعل ما يزيد درجة الكآبة هو أننا الآن نعلم أنه حتى الأمراض التي تم القضاء عليها إلى حد كبير، على الأقل في العالم الغربي، مثل السُّلّ، مهيأة للعودة من جديد. وأصبح السل الآن يشكل تهديداً مُعدياً متنامياً مع وصول مهاجرين جدد من العالم الثالث. وربما يتم نشر مرض الجدري في المجتمع بوساطة خلايا إرهابية تقوم بإنتاج الفيروس في معاملها.

لقد أصبحنا أكثر قلقاً بسبب ظهور الفيروسات الخفية مثل الإيدز الذي يمكن أن يظل كامناً لمدة طويلة، وأضحينا قلقين بسبب أمراض مثل سارس الذي يمكن أن ينتشر عبر العالم في غضون أيام بسبب حركة السفر الدولية، كما تساءل ألدوس هكسلي Aldous Huxley في روايته **عالم جديد شجاع** *Brave New World*: «أيُّ أمل لدينا في المستقبل إذا كانت قنابل الأنثراكس في طريقها إلينا؟». وطرح ماكس فيبر سؤالاً مختلفاً جداً في التسعينيات من القرن التاسع عشر فقال: «أيُّ أمل لدينا إذا كان القوقازيون قادمين؟».

مازلنا نخاف الأحداث السياسية، على رغم أننا اليوم أكثر قلقاً في الأعم الأغلب بشأن نيات الفاعلين من غير الدول منا بشأن الدول. لقد تنبأ بهذا ولز، كاتب الخيال العلمي، في قصة بعنوان «بكتيريا الباسيلس المسروقة»، وتصف القصة التي كتبت عام 1895 شخصاً فوضوياً يحقن نفسه بالطاعون حتى يستطيع أن ينقل العدوى لمن حوله بشكل سري. وفي هذه الرواية يضع ولز يده على المشكلة. الفيروس ليس هو الخطر، بل السلوك البشري.

يتم الحديث عن مخاوفنا بصيغة المستقبل وليس الحاضر. ففي إحدى الفقرات التمهيدية لقرار مجلس الأمن رقم 1308 (أول قرار يصدر بشأن الإيدز من الأمم المتحدة) نعلم أنه «إذا لم يتم كبح الإيدز فربما يشكل خطراً على الاستقرار والأمن» (Elbe 2008b:178). وكالمعتاد، يتم الحديث عن مخاوفنا باستخدام الصيغة الاحتمالية أو الشرطية. وقد دفع الإحباط من الطبيعة التكهنية لكثير من مثل هذه النقاشات، عدداً من علماء الاجتماع الذين يدرسون المرض، للإصرار على أنه «يجب على من يكتبون عن الإيدز والأمن أن يتجنبوا، إن أمكن، استخدام كلمة "ربما"، أو على الأقل، أن يشيروا إلى أن الوباء ربما يفعل أو لا يفعل كذا». وإذا ما فعلوا ذلك فربما تتوقف عملية تحويل الإيدز إلى قضية أمنية، لأنها تعتمد بالأساس على منطق الخطر الاحترازي؛ حيث يسمح فيه لمستقبل ربما لا يتحقق أبداً بتحديد أفعال تُتخذ في الحاضر (Elbe 2008b:179-80).

ما الخطر الحقيقي للمرض إذاً؟ وهل ينبغي التعامل معه على أنه مشكلة أمنية على الإطلاق؟ يشكل المرض الآن 26٪ من إجمالي الوفيات العالمية سنوياً، وهو ثاني أكبر سبب للوفاة في العالم سنوياً. بالمقارنة، تشكل الوفيات جراء الحروب ما متوسطه 0.4٪ من الوفيات العالمية، ولعل ذلك يمثل أقل عدد في التاريخ. بعبارة أخرى، الحرب هي أقل إشكالية لمعظم الناس من أي وقت، ولايزال المرض في الحرب أقل إشكالية. لكن المرض ذاته قد أصبح مشكلة أمنية كما لم تكن الحال في الماضي. والسبب في ذلك يرجع إلى العولمة ذاتها. وكما يصر بك، فإن عالمنا أصبح من دون حدود، أصبح ثلاثي الأبعاد لأول مرة.

فيما يتعلق بالبعد المكاني، يؤثر الإرهاب، مثل التغير المناخي والجريمة المنظمة العابرة للحدود، على كل شخص وفي كل مكان. وهكذا الأمر بالنسبة للمرض. ففي لندن في القرن التاسع عشر، على الأقل في وقت تفشي الكوليرا في الأربعينيات من ذلك القرن، كان ممكناً تحديد المناطق التي ينتشر فيها، ومن ثم تجنبها. وقد أزهق المرض أرواح مواطنين من الفقراء أكثر من الطبقة المتوسطة. أما الآن فيمكن أن يهاجم المرض أي طبقة اجتماعية أو أي فئة عمرية في أي وقت. أضف إلى ذلك تنامي حركة السفر الدولية. وفيما يتعلق

بالإيدز، قال المدير التنفيذي لبرنامج مكافحة الإيدز في الأمم المتحدة: «إن الفيروس قد استغل شبكات الاتصال بين الناس بطريقة ملائمة» (Elbe 208b:181)، إذ يمكن للفيروس الذي يصاب به شخص في هونغ كونغ أن ينتقل إلى جنوب آسيا خلال أربع ساعات، وإلى أوربا خلال 12 ساعة، وإلى أمريكا الشمالية خلال 18 ساعة. يُشار إلى أن نحو 1.5 مليار شخص يسافرون جواً كل عام. وفي ذروة الرعب من فيروس سارس، تأثرت حركة الطيران بشكل كبير. وعلى رغم أن الناس قد توقفوا عن السفر فلم يدم ذلك طويلاً. ولا يبدو أن هناك شيئاً يغير رغبة الناس الراسخة في الحركة والتنقل.

أما البعد الثاني فهو الوقت، المرض يجعلنا قلقين لأنه كامن، وهذا يربط المرض بمتصل الحيز-الزمن. فعلى سبيل المثال، هناك أكثر من 140 مليون شخص يدخلون الولايات المتحدة كل عام. ونادراً ما تتجاوز المدة الزمنية لرحلات الطيران بين نقاط المغادرة والوصول 24 ساعة، ومع ذلك فإن بعض الأمراض لها مدة حضانة طويلة. وربما لا تظهر علامات المرض لأشهر، وسنوات في حالة الإيدز. تماماً كما أن لدينا أسلحة خفية وقنابل ذكية، الإيدز هو فيروس خفي. كما أنه ذكي مثل فيروس الحاسوب: كلاهما يستطيع البقاء كامناً لأشهر، وإذا ما كان الأخير مبرمجاً بحسابات تطورية فيمكنه التحور بسرعة أيضاً. وحتى في حالة الطاعون فإن الأعراض لا تظهر لمدة ثلاثة أيام، وفي حالة الجدري يستغرق ظهورها أسبوعين. نحن نقوم بفحص الركاب لكي نضمن أنهم لا يحملون أسلحة أو متفجرات، لكننا لا نستطيع فحصهم للكشف عن أمراض معدية، سواء أكانوا على دراية بأنهم مصابون أم لا.

وأخيراً هناك البعد الاجتماعي، خطر المرض لا حدود له أيضاً. إذ يصعب أن تُحمِّل أي شخص مسؤولية انتشاره، باستثناء ما يتعلق باختيارات أسلوب الحياة، مثلما هي الحال في الإيدز، أو المثلية الجنسية، أو تعاطي المخدرات بحقن الأوردة، أو باختيارات أساليب الحياة الثقافية كتعدد الزوجات، والدعارة في إفريقيا. هذا هو لب الموضوع؛ فعندما كنا نناقش التهديدات في الماضي، كنا نستطيع أن نعزوها إلى دوافع يتعلق أغلبها بالدول. أما

الآن فكثير من المخاطر التي نجابهها تأتي من أطراف من غير الدول، أو في حالة المرض تنشأ من الخيارات الحياتية أو السلوك الاجتماعي للسكان. لا يتعمد أي أحد أن يصاب بالإيدز أو السل أو سارس. وحقيقة أن المرض ينتشر بطريقة أفقية وليست عمودية، هو ما يجعلنا أكثر قلقاً من ذي قبل. القلق النافذ والمتغلغل فينا هو علامة عصر ما بعد الحداثة. ولا يسهل إخراج المجتمعات من قلقها (على عكس مخاوفها)، ولهذا يقول لنا فرويد إن القلق والخوف مختلفان جداً.

بخلاف الخوف، يعتمد القلق على الأمور المتخيلة لا الأمور الآنية أو المنظورة. وخيالنا في هذه الأيام يذهب بعيداً في المستقبل. ولهذا السبب نجد أنفسنا نتطلع إلى ما يسميه توني بلير «ما بعد العالم الآمن». نحن نعيش في عالم أصبحت فيه أمراض مثل سارس وإنفلونزا الطيور أمراضاً عالمية، وبالتالي أكثر كارثية، ومن ثم نسعى للتغلب على قلقنا بقص القصص على أنفسنا. وفي غياب "خطر واضح محيق" تصبح الحكايات الاجتماعية أكثر أهمية من ذي قبل.

لكن إلى أي مدى نحن على دراية حقيقية بالموضوع؟ عصر المخاطر يشجعنا على "أمننة" كل شيء، لكننا عادة ما نفعل ذلك في غياب معلومات موثوقة. فنحن نعمل على الدوام على إعداد قوائم من الاحتمالات. والسيناريوهات التي نرسمها والتوقعات تشبه معادلات أفلاطون في أنها تقدم عالم "ما وراء" الواقعي والآني أو ما يمكن أن يُرى (Bauman 2004:53). يذكرنا هذا بدونالد رامسفيلد وطريقته المميزة في تصنيف المخاطر؛ ومنها "المجاهيل المجهولة". فهناك مخاطر نعرفها، ومخاطر لا نعرف أننا نواجهها، وأخيراً أشياء لا نعرف أننا لا نعرفها. وفي حالة الإيدز تصح التصنيفات الثلاثة.

نحن نعلم أن 25 مليون شخص ماتوا منذ التعرف على الفيروس في مطلع الثمانينيات. نعلم أن 3.5 ملايين نسمة يموتون بسبب المرض كل عام، وأن 20 مليوناً آخرين مصابون. ونتحدث الآن عن "موجة ثانية" من الدول (روسيا والصين والهند) التي ربما تفوق إفريقيا في عدد الأشخاص الذين قد يصابون بالفيروس. وإذا حدث ذلك

فإن الأثر قد يكون أعظم، لأن تلك الدول الثلاث تتطلع لتصبح قوى عظمى لا دولاً هامشية تمثل ما يطلق عليه المحللون "الحالة الإفريقية". ومع ذلك يجب أن يتم التعامل مع هذه الأرقام بنوع من الحذر، لأن معظم البيانات التي تتوافر لدينا هي ليست عن الرجال، بل عن السيدات، ومعظمهن من الحوامل، وممن اخترن أن يخضعن طوعاً للفحص.

يمكننا تخمين أثر الفيروس على "الأمن الإنساني". نعلم أن الفيروس المسبب لمرض الإيدز يستهدف مدرسي المدارس الابتدائية، وبالتالي له تأثير بعيد المدى في التعليم. فيما يتعلق بالصحة العامة، نعلم أن الفيروس يستهدف أكثر قطاعات السكان إنتاجاً، وهي الفئة العمرية ما بين 15 و45 عاماً. ونتوقع أن ملايين الأطفال الذين أصبحوا أيتاماً قد يشكلون العصب الأساسي لعصابات شرسة تجوب شوارع المدينة. يمكن أن يجمح خيالنا، وعادة ما يجمح، بناء على ما نعتقد أنها "أمور بدهية".

ومع ذلك فثمة "مجاهيل معروفة". خذ على سبيل المثال انهيار الدول. تفضل منظمة الصحة العالمية أن تنظر إلى الوباء باعتباره كارثة اقتصادية، ووفقاً لتقرير **موجز سكان العالم** *World Population Profile* الصادر عن مكتب الإحصاء الأمريكي، فإن 30٪ من سكان بتسوانا مصابون بفيروس الإيدز. بعبارة أخرى، في غضون 20 عاماً فإن نسبة كبيرة من الشبان الذكور الذين يعيشون اليوم ستكون في عداد الموتى. ونظراً لحجم بتسوانا فإنها تعد إحدى أكثر الدول الإفريقية ثراء، وكذلك واحدة من الدول القلائل التي تتمتع بالديمقراطية الحقيقية. لكن في ظل انخفاض متوسط العمر المتوقع للفرد من 73 عاماً منذ عشر سنوات إلى 34 عاماً اليوم، فقد أصبح مستقبلها محل شك. في السنوات المقبلة ربما تصبح مجتمعاً يحمل على الأقل إحدى السمات التي رسمها وليام غولدنغ William Golding في رواية له بعنوان **سيد الذباب** *Lord of the Flies*، فربما تتم إدارتها من قبل فئة شبابية ممن حرمت التواصل مع كبار السن أو الحكمة الجماعية للقبيلة.

لكننا لا نعرف حقاً إن كان أي مجتمع سوف ينفجر داخلياً. يخبرنا المؤرخون أنه يجب أن يصبح معدل الوفيات 40٪ قبل أن يوشك المجتمع على الانهيار. وآخر مرة شوهد فيها

هذا الأمر كانت في العصور الوسطى. حتى وباء الكوليرا في عشرينيات القرن التاسع عشر، أول وباء عالمي، لم يقتل سوى 15٪ فقط من ضحاياه. وحتى الآن قتل الإيدز أقل من 3٪، وتلك نسبة ضئيلة تاريخياً.

وثمة "مجهول معروف" آخر، هو المعدل المرتفع لانتشار الإيدز بين العسكريين الأفارقة. ففي بعض القوات المسلحة هناك شكوك في أن معدل انتشار المرض يصل إلى نحو 60٪، وإن صح ذلك فسيكون له أثر حاسم على أداء تلك القوات. يُشار إلى أن الإيدز له انعكاسات خاصة على عمليات حفظ السلام، ذلك أنه في حالة كمبوديا في أوائل عقد التسعينيات، قامت القوات المسلحة بدور الناقل للمرض عند بدء نشرها. كما أن كرواتيا رفضت السماح بدخول القوات التابعة للأمم المتحدة خشية أن ينقل الجنود المرض معهم. وبعبارة أخرى، الإيدز ليس مشكلة أمنية في ذاته، ولكنه يصبح مشكلة عندما يتسبب الأثر الإجمالي له في تقويض الإيمان السياسي للبلد أو ثقته بالتدخل الخارجي. وفي حالة جمهورية الكونغو الديمقراطية؛ حيث لقي نحو 2.5 مليون شخص حتفهم في السنوات الأخيرة، هناك حتى شك في أن الجيوش الستة التي نهبت الدولة قد تم نشرها جزئياً، حتى يستطيع أفرادها دفع التكاليف الطبية.

وفي كثير من الدول الإفريقية، يتم إعطاء معظم الأدوية المضادة للفيروسات بشكل حصري لأفراد القوات المسلحة. وحيث إن التكلفة تصل إلى نحو 15 ألف دولار أو أكثر سنوياً، فإن التكاليف الطبية تفوق قدرة معظم الجنود الأفارقة، ولذا فإن نهب الدولة هو إحدى الطرائق لدفع تكلفة الرعاية الطبية. إنه لمن قبيل السخرية الصارخة أن نحوِّر مقولة كلاوزفيتس لنقول إن الحرب لم تعد فقط استمراراً للسياسة بطرائق أخرى، بل إنها في بعض مناطق العالم، تصير استمراراً للعلاج أيضاً.

ومع ذلك، ينبغي أن نتعامل مع الدراسات المتاحة لنا جميعاً بحذر. فكثير من الجيوش الإفريقية لا تقوم بإجراء فحوص طبية لأفرادها. والتقديرات المتوافرة لدينا تعتمد على بيانات مختارة. والبيانات المتوافرة لدينا بشأن الجنود الذين تم فحصهم وثبت

أنهم مصابون بالإيدز لا يمثلون بالضرورة نسبة كبيرة من حيث الفاعلية العملياتية. إذ يمكن للجندي أن يخدم لسنوات قبل أن يتطور لديه الفيروس، ويمكن له أن يقوم بمهمته في حفظ السلام بشكل جيد قبل إحالته للتقاعد بسبب المرض.

فيما يتعلق بالتصنيف الثالث لرامسفيلد وهو "المجاهيل المجهولة"، نجد أن الصورة مختلفة جداً. ذلك أننا قد دخلنا هنا في طريق غير مبينة، وقادنا إليها المتخصصون ذوو الأجندات الخاصة. وفي هذا يرى تقرير البنك الدولي لعام 2004 بعنوان **تفكيك مصيدة الصراع** *Breaking the Conflict Trap* أن الوباء، في جزء من صورة أكبر، يشكل أزمة في التنمية؛ حيث أشار رئيس البنك منذ سنوات إلى أن «كثيرين منا قد اعتادوا التفكير في الإيدز على أنه قضية صحية. نحن مخطئون... نحن نواجه أزمة تنموية رئيسية، ولكن أكثر من ذلك، هو أزمة أمنية» (Elbe 2008b:179).

ومن خلال ملاحظة لكارل منينجر Carl Menninger (اقتبستها سوزان سونتاج Susan Sontag في كتابها المهم **المرض استعارةً مجازيةً** *Illness as a Metaphor*)، يمكننا أن نرى إلى أين يمكن أن نصل: «ما المرض إلا جزء مما فعله العالم بالضحية، والجزء الأكبر هو ما فعلته الضحية بالعالم» (Sontag 1979). بعبارة أخرى، إن المرض مرتبط بأساليب الحياة (فكِّر في الهوس الغربي بالتدخين والسرطان)، وبالمستوطنات البشرية (العدوى تنتشر في المدن المزدحمة بالعالم الثالث)، وبالسلوكيات البشرية مثل ارتفاع درجة حرارة الأرض التي أصبحت ذات أهمية خاصة في نشر الأمراض المعدية. المرض ليس مجرد مسألة بيولوجية، إنه يُفسَّر أيضاً من خلال السلوك البشري.

وبالتالي فقد بدأ العالم يصرّ على إحداث تغييرات في الممارسات الاجتماعية. وتشترك الهيئات التنموية في مراقبة تلك الممارسات. وأصبحت المراقبة (كما سيتم توضيحه في الفصل الخامس) تحتل موقعاً محورياً في إدارة المخاطر في كل شيء؛ من حفظ الأمن العام إلى التحكم في الأسلحة. وأصبحت التنمية ذاتها أداة استراتيجية لحل الصراعات، وكذلك وسيلة لإعادة البناء الاجتماعي. والهيئات الاجتماعية، سواء أحبت أو لم تحب (ومعظمها لا

يحب)، تجد نفسها قد تحولت إلى أطراف أمنية، على الأقل في عيون الحكومات الأخرى. وبعض الهيئات مستعدة للتحريض على هذا الخطاب، لأنه يجلب لها التمويلات. وعلى أي حال فإن الحكومات تنفق على الحرب على الإرهاب أكثر مما تنفق على الحرب على الإيدز، مع أن الولايات المتحدة تنفق الآن 50 مليار دولار على برامج مكافحة الإيدز، لأنها عدّت الفيروس يشكل تهديداً للأمن القومي.

القصص التي نرويها مهمة لأنها تمدنا بوهم أننا نتحكم. إذا استوعبنا معنى موقف سريع التطور فربما كنا في وضع أفضل لمعالجة المشكلة، أو التنبؤ بالمشكلات التي قد تنشأ في المستقبل. لكن هناك أيضاً حالة تقنعنا بألا نجعل المرض قضية أمنية. وفي هذا أضاف الفيلسوف زيزك Zizek بنداً رابعاً لتصنيف رامسفيلد: هناك أشياء كنا نعرفها من قبل لكننا نسيناها. وما نسيناه هو أن المرض إلى حد كبير مسألة فقر، وليست مسألة أمن. والرابط بين سارس والإيدز وإنفلونزا الطيور هو الاقتصاد العالمي. والمتهم الرئيسي ليس هو فيروس G_5N_1 ذاته، بل مصير الجنس البشري، بما في ذلك السياحة الخارجية، وتدمير الأراضي الرطبة، وتمدن العالم الثالث، وحركة السفر الدولية. وما يجعل أثر المرض أكثر بروزاً هو أن غالبية سكان العالم تعيش لأول مرة الآن في مدن.

للأسف، نحن نقضي مزيداً ومزيداً من الوقت في ضبط الأمن في مجتمعاتنا ومكافحة أعداء تمت إعادة تعريفهم على أنهم "جماعات مخاطر" تشكل خطراً علينا وعلى أنفسها. ويشجعنا عصر المخاطر على تجريم مزيد من المجموعات طوال الوقت، وفي الوقت نفسه تجنب اللوم. بعبارة أخرى، تميل التصورات بشأن المخاطر لتعزيز الانقسامات الاجتماعية القائمة. وهذه ربما تكون سمة عامة للمجتمع البشري، وكما تقول ماري دوغلاس Mary Douglas، يميل الخوف من الخطر إلى تضخيم الانقسامات الاجتماعية. وفي عالم أيديولوجيته السائدة هي التنافسية الفردية «من الأسهل وصف غير الناجحين بالمهملين» (Douglas 1992:34,41).

معظم هؤلاء في المدن التي تنتشر فيها الأمراض بسرعة، ولاسيما في مدن الأكواخ التي يبلغ عددها 200 ألف مدينة متناثرة حول العالم، وفي العشوائيات المزدحمة بالسكان. هناك نحو 12 مليون هندي يعيشون في مناطق عشوائية في مومباي، وهي أكبر تلك العشوائيات على الإطلاق. كما أن تسعة أعشار الإثيوبيين في الحضر لا يعرفون سوى حياة العشوائيات. إن وصف هذا الوضع باعتباره حياة حضرية ليس صحيحاً، أو على الأقل ليس بالمعنى الذي نفهمه. يسود كثيراً من تلك المدن غياب القانون، ويسود القتل بوصفه حقيقة للحياة اليومية. في أواخر الثمانينيات كان القتل شائعاً في بوغوتا حتى إن مسؤولي المدينة شجعوا أباطرة المخدرات على أن يكونوا على وعي بالبيئة المحيطة ويقوموا بدفن ضحاياهم خارج حدود المدينة. وقد كتب على ملصق علق على تقاطع طرق رئيسية يقود إلى خارج المدينة: «لا تدفنوا الجثث هنا». اهتمام مسؤولي مدينة بوغوتا بالصحة العامة كان على ما يبدو أكبر من اهتمامهم بالحياة الإنسانية. ومن يوم شمل فيه القتل ضحايا فرق الاغتيال التابعة للشرطة التي استهدفت أطفال العشوائيات، يمكن النظر إلى القتل باعتباره حالة منحرفة "للتجدد الحضري".

إن مدن المستقبل، كما يرى مايك ديفيز، لن تبنى من الزجاج والصلب، بل من المواد البلاستيكية المعاد تدويرها والقوالب الأسمنتية والخشب المستعمل (Davis 2006:19). هذه التمددات الحضرية سوف تصبح ما يطلق عليه باومان: «وحدات التخلص من النفايات» للشريحة السكانية الهائلة العاطلة والمعطلة، وهي إلى حد كبير نتاج الحداثة. سوف تصبح مقالب نفايات "الدمار الموازي" للرأسمالية (Bauman 2004). إن ما يفسر مصيدة مالثوس التي يجد الفقراء اليوم أنفسهم محصورين فيها هو أن مدن الأكواخ الجديدة لا تقدم أي مصدر آمن للعيش. الفلاحون الذين هاجروا إلى مدن شمال أمريكا وأوربا في القرن التاسع عشر قد جُذبوا (وليس دُفعوا)، وسرعان ما وجدوا فرص عمل في ظل تسارع وتيرة التصنيع في المدن. وكانت مدن مزدهرة مثل مانشستر مصدراً هائلاً للوظائف التي لم تكن من دون معاناة إنسانية هائلة، وبطبيعة الحال ليست آنية، وفي النهاية انتشلت المهاجرين الحضريين من مصيدة الفقر من خلال التصنيع. ومن أسف أنه ليس

ثمة عملية تاريخية مشابهة لذلك اليوم، فالخبرة التاريخية لمدينة مانشستر في العصر الفيكتوري، أو مدينة سيول في القرن العشرين، أو حتى لوس أنجلوس في القرن الحادي والعشرين (وهي حواضر متنوعة عرقياً، ورأس المال الأخير للعالم الثالث) لا تقدم منظوراً مفيداً بشأن واقع الحياة الحضرية لهؤلاء الذين يعايشونها أول مرة.

من الملاحظ أنه لا تصرف أموال كافية للقضاء على المرض في الأمكنة التي يضرب فيها بأقصى قوة. كما أن برامج الوقاية من المرض تعاني نقصاً شديداً في التمويل؛ فميزانية منظمة الصحة العالمية هي مليار دولار، في حين أن قروض صندوق النقد الدولي تبلغ 35 مليار دولار. وفي الوقت ذاته، تتحمل المؤسسات الخاصة، وليس الحكومات، كثيراً من الأعباء، فمؤسسة آل غيتس* The Gates Foundation تلتزم بالقضاء على الملاريا، على حين أخفقت الحكومات في ذلك في عقد الستينيات، وتتحمل أيضاً مسؤولية توفير عدد من التطعيمات لوقاية الأطفال من الأمراض أكثر من تلك التي تقدمها حكومات العالم مجتمعة. وكل هذا يفسر، كما يرى إلب Elbe، أن ظهور الأمراض العالمية وانتشارها ليس نتيجة للحظ السيئ بقدر ما هو نتيجة سلوكياتنا. وكما أشار باستير في عبارة شهيرة: «الميكروب لا شيء، المجال هو كل شيء». وهكذا فإن السياق الثقافي في الأغلب هو الأكثر أهمية، إذ لم يكن الميكروب، بل السياق الثقافي، هو ما قاد جوزيف مايستنر للانتحار عام 1940. وبعبارة أخرى، هناك بصمة وبائية مميزة تتركها مجتمعاتنا على الكوكب. في الدراسات البيئية نتحدث عن مثل هذه البصمة: الأثر الإيكولوجي، والاستدامة، وأنماط الاستهلاك الإنساني، وبالأهمية ذاتها البصمة الوبائية التي ينتجها الاقتصاد العالمي المعاصر، مع أنها تحظى بمناقشة أقل (Elbe 2008a).

---

* تعرف أيضاً باسم مؤسسة بيل وميليندا غيتس، واختصاراً (B&MGF). أسسها عام 2000 بيل غيتس صاحب شركة مايكروسوفت وأغنى رجل في العالم، هو وزوجته مليندا، ثم انضم إليهم عام 2006 ثاني أغنياء العالم وارن بافيت Warren Buffett، وهي تقوم على ثلاثة برامج: اثنان منها للصحة والتنمية في العالم، والثالث خاص بالولايات المتحدة، ويهتم بالتعليم والمعلومات أساساً. ولكي تحافظ المؤسسة على وضعها بأنها مؤسسة خيرية معفوّة من الضرائب، يجب أن تتبرع بنسبة 5٪ على الأقل من قيمة أصولها سنوياً، وهو ما يتجاوز 1.5 مليار دولار سنوياً. (المحرر)

إن وصف ذلك بأنه تهديد وجودي للرخاء القومي يروِّج للخوف. إنه ليس رداً إيجابياً على تفشي المرض ذاته، إنه يميل إلى تغليب المدى القصير على المدى البعيد؛ يحدد الأعراض لا الأسباب الأساسية. وفي حالة المرض ربما يكون أكثر منطقية أن نرد المشكلة إلى الأطباء.

مشكلة الخبرة

هنا تكمن المشكلة. الأطباء هم خبراء ولم يعودوا أوصياء على المعرفة. وقد وضَّح الفارق بين الاثنين أنتوني جيدنز الذي يذكِّرنا بأن الدواء أيضاً له تاريخ. تقليدياً، كان الأطباء أوصياء على معرفة وجد مرضاهم أنها مُلغِزة، ما كانت تتوافر لهم، وما كانوا قادرين على فهمها. وهم لم يكونوا خبراء بالمعنى الذي نفهم به المصطلح اليوم. كانت لهم مكانة، لا كفاءة، ولم يكن ممكناً اكتساب معرفتهم من دون "مهنة"، وهو ما أضفى عليهم تلك المكانة، ولم تكن معرفتهم قابلة للنقل لمن هو خارج دائرتهم. وكانت مهارة الطبيب مهنة يتم تعلمها عبر التلمذة، والتدرب في الحقل، وبالخبرة، إضافة إلى حدس (لم يكن الطبيب معالجاً بل مشخِّصاً) وكانت تتم حماية ادعاءات المعرفة التي يستخدمها باعتبارها سراً (Giddens 1994:63).

أما اليوم، فالسلطات الطبية تراعي مبدأ التوافق: فهم يعملون مع مرضاهم، بل يعطونهم ثقتهم، ويعرفون أن من يعالجونهم، على الأقل في العالم المتقدم، سيكون لديهم فرصة غير مسبوقة للحصول على معلومات بشأن حالتهم على الإنترنت، وكذلك فرصة لا مثيل لها للوصول إلى جماعات الدعم، وفي بعض الحالات، العقاقير التي لا يصفها الطبيب. القصص التي نسوقها بشأن المرض تقودنا إلى الوثوق ببعض السلطات أكثر من الأخرى. في عصر المخاطر جميع المعلومات قابلة للتصحيح، جميع عمليات العلاج محل جدل. نحن نعيش في حقبة من الآراء الثانية، في سوق تنافسية للتشخيص.

الأمر المثير للمفارقة بشكل خاص هو أنه، في العالم الأوسع، كلما زاد اعتمادنا على الخبراء في المجالات جميعاً قلَّت ثقتنا بأنهم يعالجون الأمر على الوجه الصحيح. وللأسف

فإن أحد الأمور التي تضاءلت كثيراً في السنوات الأخيرة هي الثقة التي استثمرناها من قبل في الهياكل التقليدية للمعرفة. ومن الأهمية بمكان الإشارة، كما أشرنا فيما يتعلق بالحرب الباردة، إلى أننا حرمنا من النماذج الحسابية التي سمحت لنا في الماضي بتقدير حجم الأخطار التي نواجهها ومن ثم تأمين أنفسنا إلى حد ما ضدها.

تتعامل الكازينوهات مع المخاطر في كل وقت يلعب فيه المقامر على طاولة الروليت، ولكنها تعرف معدل المراهنة. وعلى رغم أنها لا تستطيع توقع النتيجة لدورة معينة لعجلة الروليت، فهي تعرف أنها في المحصلة الإجمالية سوف تحقق ربحاً (لم يتم استحداث نظام حتى الآن لهزيمة بيوت القمار). في الحرب الباردة كان ممكناً قياس التوازن العسكري من خلال أسلوب العدد الذي سمح للمقامرين (القوى العظمى) بحساب المخاطر بنوع من اليقين. كان ممكناً إحصاء عدد الصواريخ الروسية، أو القوات التقليدية، ومعرفة إن كان الاتحاد السوفيتي يتمتع بمزية 1:3 التي تعلم الجنود في الأكاديميات أنها أمر جوهري ليكون الجانب المهاجم على ثقة بالنجاح. ومع أن التحالف الغربي قد ابتلي كثيراً بالنزاعات الطويلة والقاسية حول ما إن كان ينبغي ألا تقيس التقويمات العسكرية فقط القدرات الخام، بل ونيات استخدام تلك القدرات أو عدم استخدامها أيضاً، فقد كان من الممكن كذلك تقويم النيات بنوع من الدقة عن طريق الدبلوماسيين أو الأكاديميين الذين زاروا موسكو.

لقد مهدت الحرب الباردة الطريق أمام مجتمع أكاديمي جديد من متخصصي الكريملين الذين عُدُّوا مؤهلين بشكل فريد لتقديم النصح لمتخذي القرار، سواء أكان "الحمائم" هم من يتولون مقاليد السلطة في الولايات المتحدة أم كان "الصقور".

باختصار، تقويم المخاطر هو مسألة حسابية، بغض النظر عن حساب المخاطر إن كان يتم علنياً أو ضمنياً. وعليه، فإن حساب المخاطر كان جزءاً من عالم وفَّر تمييزاً واضحاً بين السلامة والخطر، الحقيقة والزيف، الماضي والمستقبل (Adam 2003:7).* يمكننا

* في الأصل: Adams والصواب Adam وهو المذكور في قائمة المراجع. (المحرر)

إعداد هوامش للسلامة، وأن نميز بين الأخطار الواقعية والافتراضية، ونرسم حدوداً فاصلة بين الحاضر والمستقبل. لم يعد هذا الأمر صحيحاً، وهذا هو السبب في أن سياسة الأمن، في أكثر صورها الأساسية، قد أصبحت سياسة الإحساس بعدم الأمن. لا مناص من حقيقة أننا ربما لن نشعر مجدداً بالأمان كما كنا من قبل بفضل تقويمات وحسابات التهديدات. «إذا كان بالإمكان إظهار المعرفة مجالاً يتوسع حجمه بشكل غير متناهٍ، فإن منطقة الاتصال بالمجهول تنمو خارج جميع النسب» (Virilio 2005:17). الخوف من المجهول، بما في ذلك العواقب الغامضة لأفعالنا، هو ما جعل قضية إدارة الخوف تقفز إلى المقدمة.

لقد جذبت تصنيفات رامسفيلد للمعروفات المعروفة والمجهولة انتباهاً كبيراً، لكن رامسفيلد كان يردد (ربما من دون دراية) فهم الإكويني* للمجهول الأقصى للعالم في العصور الوسطى؛ أي الطبيعة الغامضة للنيات الإلهية تجاه الإنسانية. ربما يسعى البشر لفهم الإله لكنهم لن ينجحوا أبداً. سيجدون أنفسهم فقط يدخلون في منطقة أكبر من الظلام. لم يكن ممكناً طرح مثل هذه الأسئلة، فالبشرية تستطيع معرفة أنها عرفت، فقط لأنها عرفت أنها لم تعرف.

عصر المخاطر قابل للتعريف بحسب حدود المعرفة البشرية، لا بما يدور بذهن الإله هذه الأيام، ولكن بالعالم القابل للملاحظة والقياس الذي يحيط بنا. وما لا يمكن أن نعرفه يكشف أكثر عما يمكن أن نعرفه. ثمة حدود لا يمكننا عبورها، حدود لا يمكن تجاوزها بأي ثقة. عندما تصل الحياة إلى حدٍّ حسّاس من التعقيد يصبح من المستحيل فهمها بشكل تام. ومفارقة معرفتنا أننا لا نستطيع أن نعرف هي سمة واضحة لعصرنا تدفع باتجاه الإحساس السائد بالقلق. إن الفلاسفة يحبون المفارقات بسبب اللمحات العميقة التي تقدمها، وكما أشار من قبل برتراند راسل، فإن وظيفة الفلسفة الجيدة هي البدء بعبارة تعد غاية في الوضوح، ومنها تستنتج خلاصة لا يصدقها أحد (Barrow 2005:22).

---

* الفيلسوف الديني الإيطالي توما الإكويني Tommaso d'Aquino (1225 – 1274). (المحرر)

كان خطأ رامسفيلد هو أنه لم يذهب بعيداً في هذه المفارقات. ذلك أننا إذا لم نفهم ما لا نفهم (وإذا كنا مستعدين للاعتراف بهذا)، فيجب علينا أن نقبل أن الشعور بعدم الأمن هو نصيبنا. السؤال الذي ينبغي أن نسأله بعد ذلك هو ليس "ما الذي ينبغي أن أكون عليه؟"، ولكن "كيف ينبغي أن أكون؟"، (كيف يمكننا أن نشكل أنفسنا بطريقة تمكننا من التكيف بسرعة عندما تصبح المجاهيل ظاهرة؟) (Luhnann 1998:43).

مأزقنا شديد لأنه لم يبق لدينا قياسات أكتوارية لتقويم المخاطر التي يشكلها الإرهاب. يبدو أن هناك مَعيناً لا ينضب من الانتحاريين بالانتظار، كم عددهم؟ لا يمكننا سوى التخمين. ومن يطلَق عليهم اسم خبراء (في هذه الحالة هم أجهزة الاستخبارات) لا يفيدون كثيراً، فكثير منهم لهم سجل ضعيف في التقويم. الإرهابيون أيضاً لا يحضرون مؤتمراً، وقليل منهم يمكن عقد مقابلة معه في الميدان. معظمهم يختفون حتى يظهروا مرة أخرى بعد أعوام. وما ينوي الإرهابيون القيام به لايزال موضع تكهنات، معظمها لا يبنى على معلومات. لكن من الصعب أن تكون مستنيراً إذا لم تتوافر إلا معلومات ضئيلة، وهذا هو الذي يجعل أجهزة الاستخبارات توكل مهمة جمع المعلومات الاستخبارية إلى القطاع الخاص، مثل استخدام الأقمار الصناعية التجارية لتقويم المنشآت السورية أو الإيرانية (www.globalsecuirity.org).

أو خذ على سبيل المثال، حالة التفكك الوطني في الداخل التي تجعل الدولة أقل لياقة بنيوية لخوض الحرب مما كانت عليه من قبل. من بين الأوربيين المئة والواحد، الذين انخرطوا في عنفٍ سني متطرف عام 2007، سافر اثنان وثلاثون شخصاً إلى باكستان لتلقي تدريبات في معسكرات القاعدة. ومن بين هؤلاء كان نحو ثمانية وعشرين يخضعون للمراقبة من قبل أجهزة الاستخبارات الباكستانية أو الدولة الأصلية في وقت السفر. ومنهم فريتس جيلوفيتس الذي قُبض عليه في أيلول/ سبتمبر بتهمة تخزين متفجرات، والتخطيط لشن هجوم على أهداف عسكرية أمريكية ونوادٍ ليلية في دولته، ألمانيا. كان الاتجاه هو الحصول على متفجرات وغيرها من المواد من السوق السوداء والعصابات

الإجرامية. مشكلة تحديد ومراقبة مثل هذه الجماعات أبعد من إخفاق الاستخبارات بكثير. إننا لا نعرف حتى المعلومات التي نحتاج إلى تحديدها بشأن تهديد لم يظهر بعد. ذلك أنه على مر الوقت، من المحتمل أن تتغير سمات العنف الإرهابي في أوربا أيضاً: من المحتمل أن تعتمد بقدر أكثر على الإنترنت، ومن المرجح أن يطور المحليون نوع الفيديوهات الخاصة بهم، بشكل يمزج بين الخطاب الجهادي ومقاطع الفيديو التي تحمل موضوعات دينية وثقافة الشارع الحضرية. بالتأكيد، هناك أشياء لا نعرفها، هناك أشياء بحاجة إلى أن تُكتشف، فنحن نواجه دائماً مخاطر جديدة. ومع ذلك ففي معظم أوقات التاريخ، ولاسيما الحقبة الحديثة، يحول التحدي المجهول إلى أمر قابل للمعرفة (Furedi 2008:24). والآن تشك الدولة في أن هذا الأمر في بعض الحالات، ومنها الإرهاب، ربما يكون خارج قدراتها.

خذ أيضاً مثالاً آخر، وهو البرنامج النووي الإيراني. في عام 2005، أعربت وكالات الاستخبارات الأمريكية عن "ثقتها الكبيرة" بأن إيران لاتزال تطور برنامج أسلحة نووية. وبعد ذلك بعامين فقط ادعت تلك الأجهزة، وهي تشير إلى معلومات معززة ولكن بدرجة الثقة الكبيرة ذاتها، أن إيران قد تخلت فعلياً عن البرنامج قبل عام من تقديم التقرير الأول. وهذا التقلب لما اعتقدنا أننا عرفناه قد صدر للأسف من أجهزة استخبارات ليست في الولايات المتحدة فقط بل في كثير من الدول الأوربية.

في أوائل التسعينيات كانت معظم أجهزة الاستخبارات الغربية واثقة بأن العراق بعيد عن تطوير أسلحة نووية. وعندما أُرغم صدّام في النهاية على الموافقة بالسماح لمفتشي الأمم المتحدة بالدخول إلى العراق، اكتشف العالم أنه لا يفصله عن امتلاك قنبلة نووية إلا سنوات قليلة. وحتى بعد سقوطه لم يكن الموقف جلياً بقدر ما اعتاد منتقدو الغزو الإصرار عليه. صحيح أن لجنة تقصي الحقائق بشأن العراق التي شُكِّلت للعثور على أسلحة دمار شامل قد خلصت إلى أنه لا مخزون ثمة من الأسلحة، لكن تقريرها النهائي قد كشف أيضاً عن أن صدّاماً نفسه قد نوى دائماً البدء بالبرنامج بأسرع وقت ممكن، وأنه كان

هناك عدد كبير من المنافذ المفتوحة له للحصول على أسلحة نووية من قائمة كبيرة من جهات الاتصال التي تراوح من فرنسا إلى كوريا الشمالية. بعبارة أخرى، لولا الغزو الأخير لربما استمرت عملية الاحتواء إلى ما لا نهاية له (Chatfield 2008:66).

بيت القصيد هنا هو أن هناك كثيراً مما يمكن أن يعرفه العالم حول الأمور التي يختار نظام سري أن ينفق أمواله عليها، وتجب مراجعة وتقويم التقديرات الاستخبارية باستمرار. إن جمع المعلومات الاستخبارية، للأسف، يشبه توقعات حالة الطقس. لا يمكن أن تكون أساساً لخوض الحرب أو إعلان السلام في عصرنا؛ يمكن فقط أن تكون مرشداً في عملية صنع القرار. ومازالت المسؤولية تقف عند الساسة وإحساسهم الغريزي أكانوا يثقون بالتقديرات الاستخبارية أم لا.

وللأسف، فإن إدارة المخاطر تتطلب منا جميعاً أن نأخذ قرارات كل يوم. هل نغامر بالسفر إذا كان اللون الرمزي في المطارات "عالياً" (أي أحمر وليس برتقالياً)؟ كل قرار ينطوي عل عواقب لنا وللآخرين. لم يعد بإمكاننا فصل أنفسنا عن الجميع، فحياتنا تتداخل وتتشابك أكثر من ذي قبل، ومرد ذلك أنه يجب علينا اتخاذ قرارات على رغم حالات الشك، وهو ما جعلنا نعتمد بشكل كبير على الخبراء، و كما يقول جيدنز: إن الخبرة مختلفة جداً، من حيث التقدير النوعي، عن المعرفة.

تحدث بودريّار عن النقطة ذاتها في فقرة أساسية في كتابه **حرب الخليج لم تحدث** فقال: «كما أن الثروة لم تبق تقاس بالتفاخر بالثراء بل بالتدوير السري لرؤوس أموال المضاربات، كذلك الحرب لم تبق تقاس بشنها بل بتكشفها التخميني في فضاء مجرد وإلكتروني ومعلوماتي، تتحرك فيه رؤوس الأموال» (Baudrillard 1995:56). ومع أن المعلومات قد أصبحت الآن حساسة في تقرير خوض الحرب من عدمه، فإنها تخمينية إلى حد كبير، لأننا لا نملك معرفة مطلقة ومحايدة بشأن المعلومات أهي صحيحة أم لا. ونتيجة لذلك نجد أنفسنا مضطرين إلى العمل على أساس أسوأ السيناريوهات التي تزعجنا، ومن ثم نتخذ احتياطات غير ضرورية.

علم اجتماع المخاطر هو علم ما أطلق عليه ماكس فيبر 'Möglichkeitsurteile'' (أحكام بشأن الاحتماليات). إنها كلمة يصعب فهمها في العالم الذي يتحدث الإنجليزية. هناك كمّ كبير من الضوضاء الخلفية في عصر المخاطر، ليست كلها سهلة على الآذان. ومع ذلك فهي كلمة مفيدة، لأنها تجسد فكرة مهمة: الخطر يعني شيئاً "يصبح حقيقة" على مر الوقت. أما إذا كنا نعتقد أنها ستصبح حقيقة عاجلاً أو آجلاً، أو لن تصبح أبداً، فهذه مسألة تأمل: سواء علمية، أو اقتصادية، أو سياسية، أو شعبية. نعتمد على نظُم الخبراء لتحديد مستويات المخاطر، كما أن وزارة الأمن الداخلي تعتمد على خبرتها الخاصة عندما تصدر "إنذارات الخطر".

ومع ذلك فالمواطن العادي لن يطمئِنه شيء من هذا، على رغم أن انعدام الثقة العامة في الخبراء أعمق بكثير من الشك في أنهم ربما لا يعرفون كثيراً. في عقد الثمانينيات، كان أداء 90٪ من مديري الصناديق المشتركة أقل مما ينبغي. وفي مؤشر الخمسمئة لويلشاير Wilshire 500 Index، كان العدد مشابهاً بين مديري صناديق السندات (Surowiecki 2005:34). بعبارة أخرى، ليست هناك علاقة بين الخبرة والدقة. فقد أظهرت دراسات أن تقديرات الخبراء لا تتسق مع تقديرات الآخرين، ولا تتسق داخلياً فيما بينها. كما أنه من المحتمل أن يختلف الخبراء كما يتفقون. وأظهرت إحدى الدراسات أن الاتساق الداخلي لتقديرات أطباء علم الأمراض تمثل 50٪ فقط، ويعني ذلك أن طبيب علم الأمراض الذي يقدم له الدليل ذاته، سوف يقوم - في نصف الوقت - بتقديم رأي مختلف. وعلى رغم هذا السجل، فإن الخبراء ينخدعون بالمبالغة في تقويم احتمالية أنهم على صواب. وقد كشفت دراسة أن هذا صحيح بنسبة 70٪ فيما يتعلق بالمتداولين في التعاملات النقدية الخارجية. بعبارة أخرى، كما يضيف سورويكي، لم تكن لديهم فكرة بأنهم على خطأ، ولا إلى أي مدى هم مخطئون (Surowiecki 2005:34).

ما يجعل المشكلة تتفاقم هو أن الخبراء دائماً يختلفون بعضهم مع بعض. فعلوم المورثات الحيوية والهندسة والطاقة النووية، وكل القضايا العلمية الكبيرة، تدخل الخبراء في صراع

بعضهم ضد بعض في مناظرات عامة أكثر من ذي قبل. ويكسب الخبراء العقود الحكومية والاستشارات في قطاع الأعمال من خلال تحدي خبراء آخرين ممن هم على خلاف مع هيئات حكومية أو جمعيات أهلية أخرى. لقد أصبحت المعرفة قابلة للتصحيح. والخبراء جميعاً، بحكم التعريف، هم اختصاصيون، فبعضهم (وفق عبارة جيدنز) ينوون أو يحاولون «احتلال مستقبل شخصي» (بمعنى صناعة أسمائهم وتحصيل الثروات) (Beck 1997:88). أصبح كثير من الخبراء (وفق اقتباس جان ميردال Jan Myrdal) يمارسون نوعاً من "العهر الفكري"؛ الخبرة نفسها أصبحت سلعة تُشترى وتُشرى مثل أي شيء آخر.

وهذا ينطبق حتى على المعرفة من أجل الصالح العام، وبالعودة إلى موضوعنا، فهذا ينطبق أيضاً بشكل مدهش على الطب. فشركات الأدوية ليست الوحيدة التي تجمع المال من معالجة الأمراض الإنسانية، إذ تحاول الجامعات أيضاً اليوم تعظيم أرباحها من خلال إجراء مزيد من الأعمال التجارية لصالحها، ومن ثم جعل منتجاتها أكثر قيمة عندما تحصل على التراخيص. وإذا ما اعتقدوا أن لديهم عَقّاراً جديداً فسيجرون بأنفسهم اختبار إدارة الغذاء والعقاقير FDA الأمريكية. العلماء الذين شعروا في الماضي بنداء إنساني بات أغلبهم الآن رجال أعمال مهتمين بمنطق الربح والخسارة ذاته الكامن في أي مشروع تجاري آخر.

إضافة إلى ذلك، أصبحت الخبرة عابرة أو سريعة الزوال؛ إذ يثبت الواقع أن الخبراء مخطئون على الأمداء الزمنية القصيرة، في ظل أن المعرفة بالآثار الجانبية وعواقب خياراتهم التي يوصون بها تضعهم محل تساؤل. المعرفة في حركة طوال الوقت، إنها تتراكم بمعدل مخيف، ومع أنها تؤكد أحياناً آراء الخبراء فهي تستطيع أيضاً تحدي مصداقيتهم المهنية. ويرى جيدنز أن كثيراً من أشكال المعرفة لاتزال آمنة: «الرمال المتحركة مدعومة بمقدار من الأسمنت». ومع ذلك فإن المعرفة جميعها محل تساؤل، ويمكن أن نجد ذلك التنوع المحيّر للادعاءات المتنافسة في مجالات المعرفة "المتحركة"، مثل التقويمات الاستخبارية، تلك التي تنطوي على ما أُطلق عليه "المجاهيل المجهولة" التي أشار إليها رامسفيلد (Beck 1997:88).

المبدأ الوقائي

«ما نرسخه حسابياً هو "حقيقة موضوعية" في جزء صغير فقط، وفي الجزء الأكبر هو استعراض للاحتمالات». (Werner Heisenberg, *Dialectica*, 1948)

التكهنات بشأن المجهول هي تمرين للخيال. دعونا نعد إلى مقولة رامسفيلد عن «المجاهيل المجهولة»؛ «الأمور التي لا نعرف أننا لا نعرفها». دخلت اللغة. لقد تعاملت بعض الأوساط الصحفية مع كلام رامسفيلد هذا بنوع من السخرية، ومع ذلك، وعلى رغم أن الصياغة لا تبدو محببة من حيث دلالة المعاني، فإن دعاة البيئة قد وظفوها بشكل واسع منذ الثمانينيات من دون انتقادات كثيرة.

ففي ظل أننا نواجه حقاً أموراً غير معلومة، فلا غرابة في أننا بحاجة دائماً إلى الحيطة. نقوم بذلك كل يوم من حياتنا، فلم لا نفعل ذلك فيما يخص العلاقات الدولية؟ لقد تم تبني المبدأ الوقائي في القانون الدولي للبيئة في عام 1992 على أساس أن «غياب الدليل العلمي للعلاقة السببية... لا ينبغي أن يستخدم لتبرير التراخي وعدم الاستجابة». لقد وُلد مجتمع المخاطر من رحم الحركة البيئية في السبعينيات، عندما أقرت الدول لأول مرة بأن هناك مخاطر في استخدام أي تقانة، مهما كانت مفيدة. التلوث على سبيل المثال، هو الثمن الذي ندفعه للتقدم، ومع ذلك يمكن تقليص معدلات التلوث.

لقد تبنت الوكالة الأوربية للبيئة المبدأ الوقائي في كانون الثاني/ يناير 2002، مصرّة على أنه يمكن تجنب الكوارث فقط إذا اتُّخذت خطوات قبل وجود دليل قوي على الأذى (Furedi 2008:71). ربما امتنعت الولايات المتحدة من التوقيع على اتفاقية كيوتو، ليس بسبب الأدلة العلمية بقدر ما هو بسبب التكاليف، ولكنه مجتمع مخاطر أيضاً. وذكر إعلان البيت الأبيض بشأن البيئة والتجارة في عام 1999 أن أخذ الحيطة "عنصر أساسي" في السياسة التنظيمية الأمريكية. وقد قامت إدارة بوش بتوسيع المبدأ الوقائي في الأمن الدولي، ولاسيما مبدأ تغيير النظُم. وكان الدفاع التنبؤي عن النفس هو تبريرها القانوني

للهجـوم عـلى أفغانـستان عـام 2001. ورأى بعـضهم أن إعـادة التـشكيل الـسياسي للمجتمعات الأكثر عرضة لتغذية الإرهاب هي إجراء وقائي.

وقد استدعى الرئيس بوش هذا المبدأ في تبريره لغزو العـراق، وإن لم يكـن بالاسـم. ذلك أنه تم تبرير الغزو بالإشارة إلى حالة الشك وعدم اليقين: «إذا انتظرنـا حتـى تتحقـق التهديدات، فسنكون قد انتظرنا أكثر مما ينبغي». وأضاف: «أعتقد أنه مـن الـضروري أنـه عندما نرى تهديداً يجـب أن نتعامـل مـع التهديـدات قبـل أن تـصبح وشـيكة الحـدوث» (Sunstein 2005:4). هذه الطريقة في التفكير تُعد جوهريـة للفلـسفة التـي تقـوم عليهـا النزعة البيئية: الفعل هو المسار المعقول الوحيد في مواجهة الشك المعقول.

وكان رد رامسفيلد الشهير إبّان التحضير للحرب عندما كان يسأله الصحفيون عـن الدليل الذي يمتلكه على أن صدّاماً كان على وشك امـتلاك أسـلحة دمـار شـامل هـو أن «غياب الدليل ليس دليل الغياب». أصر الأمريكيون على أنـه لـيس في وسـعهم الانتظـار للحصول على دليل قاطع لبرنامج أسلحة الدمار الـشامل. تطلعـوا إلى ترجمـة جهلهـم إلى نفاد صبر. وولّد نفاد الصبر منطقاً بذاته: ترجم الجهل إلى معرفة؛ في هذه الحالة، معرفـة أن الانتظار لم يعد خياراً مقبولاً، لأن المعرفة سوف تأتي في وقت متأخر عـن الـلازم، هـذا إن جاءت أصلاً. وقد ذكر ذلك بشكل مبسط في القول إنه إذا انتظرنا أكثر مما ينبغي للحصول على دليل حاسم على الاحتباس الحراري فسوف يكون الأوان قد فات.

يسمع المرء من حين إلى آخر مناقشات عن أن الأوربيين هم أكثر تجنباً للمخاطر مـن الأمريكيين، وأنهم أكثر ميلاً لاتخاذ التدابير الوقائية، على رغم أنهم أقل استعداداً للمخاطر بكل شيء عندما يأتي الأمر إلى إدارة الأمن. وفي الأغلب يُقال إنهم أكثر حساسية للقـضايا البيئية. ومؤكد أن مثل هذه المزاعم مستساغ في ضوء عدم استعداد إدارة بوش للتوقيع على اتفاقية كيوتو أو معالجة مخاطر الأطعمة المعدلة وراثياً. بـل إن بـك يطلـق عـلى الولايـات المتحدة اسم "دولة المراقبة" حتى يميز بينها وبين أوربـا التـي هـي أكثـر اهتمامـاً بمعالجـة أسباب الإرهاب، لا الإرهـاب نفـسه. ومـع ذلـك فـإن الاختلافـات في الأسـلوب بـين

الولايات المتحدة وأوربا تلقي الضوء على الطبيعة القابلة للتغير للمخاطر ذاتها. إنها توضح أن إدارة المخاطر غير موضوعية إلى حد كبير.

إن المخاطر واقعية، لكنها تعدّ بنى اجتماعية أيضاً، بما أننا نستخدم طرائق متميزة لإدراكها (Lewens 2007:135). عند التفكير في شأن خطر ما، نطبق أساليب التعلم من خلال الخبرة الذاتية والقياس التقريبي. ومن ذلك "التوافر"، فنحن نميل إلى أن نقارن أحد المخاطر بآخر يقذف به في الإدراك، وربما يجعله أقل خطراً أو أقل حساسية من حيث الوقت. والبروز مهم أيضاً، على معنى حضور الحدث في الخيال، ذلك أنه ليس كل خطر حاضراً في الأذهان. ثم إن هناك الاحتمالية، أو ما أطلق عليه ميل J. S. Mill «التعلم من خلال الخبرة باتجاهات الخبرة». هل جربنا الخطر من قبل؟ أو هل هو خارج حدود الخبرة التاريخية؟ هل هو خارج إطار الخريطة الذهنية؟ إن هذا هو لب الموضوع: الخبرات تختلف.

ما تعده دولة ما "محتملاً" في مقابل ما هو "ممكن"، دع عنك ما هو "مرجح"، هو ما سوف يُستلهم من تاريخها الخاص. وكان حتمياً أن يكون تأثير أحداث الحادي عشر من سبتمبر في الولايات المتحدة أعظم من تأثيرها في أوربا، وهذا لا يعزى فقط لكون الهجوم قد شمل مدينتين أمريكيتين، لقد استدعوا سريعاً هجوماً "خفياً" آخر على الولايات المتحدة في عام 1941 أفضى إلى حرب طويلة ومكلفة. وفي محاولة لتفسير أهمية أحداث الحادي عشر من سبتمبر، اختارت إدارة بوش أن تستدعي الحرب الباردة دعوةً للتسلح. والتشبيه هنا ليس فقط أكثر تحفيزاً للذكريات بالنسبة للأمريكيين مما هو بالنسبة للأوربيين، بل ربما يكون أسرع في الاستدعاء للذاكرة، لأن التعبيرات المتعلقة بالحرب الباردة كانت دائماً أكثر واقعية في الولايات المتحدة مما هي في أوربا، حتى في ذروة الحرب الباردة: الخوف من التدمير، وشعبية نظريات المؤامرة، وتشكيل لجنة الأنشطة غير الأمريكية Un-American Activities Committee التي سعت إلى اجتثاث ومعاقبة الأفكار والأعمال التخريبية.

ولهذا السبب كان متوقعاً أن يشكل المبدأ الوقائي عامل حسم كبيراً. الاحتياطات التي ربما يراها شخص تدابير معقولة ربما يراها آخرون غير معقولة. تكمن المسألة في

أنفسنا، وليست في العالم الذي نسعى لتحليله. فنحن نعمل تحت وطأة سلسلة من المحددات الإدراكية والتحيزات التي تعوق قدرتنا على التنبؤ بالأمور غير المتوقعة. وأحدها هو تحيز التأكيد: أي أننا نميل إلى البحث عن دليل يؤكد أفكارنا المسبقة وتجاهل الأدلة المتعارضة، إذا وجدت بطبيعة الحال. وثمة تحيز آخر هو ما يطلق عليه دانييل كانيمان Daniel Kahneman "المغالطة السردية"، أي تفضيلنا للحكايات على الحقيقة، وميلنا إلى ضغط واختزال سلسلة من الأحداث غير المترابطة في رواية مفردة. إن الحكايات التي نكونها هي التي تثير الخوف فينا (Nuttall 2007:70).

باختصار، المنهج الوقائي ليس منهجاً غير عقلاني، بل غير متسق استراتيجياً. إنه يزعم أنه مبدأ عالمي، لكنه ليس كذلك في الواقع. وينبع عدم الاتساق من حقيقة أن الفعل وعدم الفعل كليهما يؤديان إلى نشوء مخاطر مختلفة، ومن ثم فإن المبدأ يمنع في الوقت ذاته ما يطالب به أو يدعو إليه. على الأقل، فيما يخص البيئة، هناك اتفاق عام على أن هناك حاجة لتقليص الانبعاثات الكربونية، لكن لا يتوافر إلا اتفاق ضعيف بشأن كيف نحيا حياتنا بشكل مختلف بحيث نصبح أكثر مراعاة للبيئة. إن تأمين أنفسنا ضد الآخرين يجلب لنا مجموعة مختلفة من التحديات. وبحكم تعريف المبدأ الوقائي، لا يمكن له أن يكون مبدأ موحداً لخوض الحرب، ولا يمكن أن يوحد مجتمعات المخاطر التي أخذت تتحول إليها تحالفات مثل الناتو.

الخلاصة

ما أردت أن أوضحه في هذا الفصل هو أن عصر المخاطر قد أنتج منهجاً لتحليل الأمن أكثر وضوحاً وصراحة وطويل المدى، ويرتكز على المخاطر، ولكن هذا المنهج للأسف لم يجعلنا نشعر بمزيد من الأمان. الشعور بفقدان الأمان يلازم العصر ذاته، وكل ما يمكننا فعله هو تخفيفه بالحكايات التي نرويها لأنفسنا، واستخدام القوة، في حالة الحرب أو التدخل العسكري، لكي تصبح هذه الحكايات مستساغة. وما يضاعف هذه المشكلة حقيقة أنه في حين تثير الهجرة والمرض، شأنهما شأن التغير المناخي وغيره من

القضايا، كثيراً من المشكلات الأمنية الصعبة، فليس ثمة حلول أمنية ملموسة لها، وكلما كانت الحلول أصعب كانت المشكلات أسوأ. نحن لا نعرف إلا قليلاً جداً. وحتى أسوأ السيناريوهات التي في الأغلب نتصرف في ضوئها تعتمد على عدد كبير من المتغيرات المعقدة، حتى إنها تجعلنا غير متأكدين مما ينبغي فعله في المراحل التالية.

تتطلب إدارة مخاطر التعامل مع أسلحة الدمار الشامل من خلال استخدام القوة (نزع أسلحة العراق أو إيران) تقويماً لتكلفة التدخل بشكل استباقي مقابل عدم التدخل في الوقت المناسب، كما تستلزم تقويماً لتكلفة استفزاز النظام في كل حالة للقيام بأعمال انتقامية على جبهات أخرى (الإرهاب)، وهي التي قد تؤدي إلى إضعاف الثقة بقرار الحكومة في الداخل. ومن ثم فإن كلاً من التقصير في اتخاذ إجراءات كافية، أو الإفراط في اتخاذ الإجراءات، سواء بسواء، يؤدي إلى نتائج قاتلة.

وعلى رغم أنه يمكن تقويم، بل وحتى قياس، مخاطر استثارة صراع عبر التدخل المبكر، فإنه لا تمكن معرفتها على وجه اليقين أبداً، ولن يتفق الخبراء فيما بينهم بشأن النتائج النهائية. فهناك حدود للقدرة التنبؤية لأي طريقة تحليلية، والصراع والأزمة يغذي بعضهما بعضاً. وهذا أمر معروف. الجديد في الأمر هو أننا نعرف أكثر، ومن غير المرجح أن يقول لنا أي تحديد للمخاطر (من النوع الذي يتيح لنا تصنيف الدول وفق مدى الخطر الذي تشكله؛ ومن حيث هي دول "مارقة" أو "دول تدعو للقلق") ما الذي يمكن فعله، ذلك أننا نحن أنفسنا (أو هكذا بدأنا نشك) قد نشكل أكبر تهديد إذا ما أخطأنا في الحسابات، أو تدخلنا بشكل مبكر أكثر من اللازم، أو اكتشفنا لاحقاً أنه لم يكن علينا التدخل على الإطلاق. لقد أصبحت إدارة العواقب مطلب الساعة.

الفصل الرابع

إدارة العواقب

في بداية الجـزء الأول مـن مـسرحية **هنـري الـسادس** لشكـسبير، يـشير رسـول إلى الانقسامات بين القادة الإنجليز التي أدت إلى خسارة الغزوات الفرنسية لهنري الخامس.

أحدهم يريد حروباً طويلة بتكلفة قليلة

وآخر يريد أن يطير بسرعة لكنه بحاجة إلى أجنحة

وثالث يفكر: من دون نفقة على الإطلاق

بكلمات خادعة ربما يحل السلام

خلال مدة الإعـداد لحـرب العـراق، واجهـت إدارة بـوش خيـاراً مـشابهاً: "غـزو خفيف"، أو عملية "الـصدمة والرعـب"، أو خيـار تركـه للأمـم المتحـدة. تعكـس لغـة شكسبير بأمانة، كعادتها، حوارات واقعية لنقاش سياسي عـلى مـستوى رفيـع، عـلى رغـم الأسلوب الذي صيغت به في هذه المسرحية المبكـرة التـي ربـما لم يكتبهـا شكـسبير بنفـسه بالكامل بل بشكل جزئي. ولكن مؤلف المسرحية يُبرز بشكل وثيق الصلة مشكلة الاختيار التي يواجهها الاستراتيجيون في كثير من الحـروب، ذلـك أن كـل قـرار لـه عواقـب، وفي الأغلب نشعر بالشلل عند التفكير في تلك العواقب، مثلما هي الحال أيضاً عند التفكـير في الفعل ذاته (Nuttall 2007:29).

لقد اعتقد بعض أعضاء إدارة بوش أنهم خاطروا بشيء قليل عنـد غـزو العـراق عـام 2003، وتوقعوا أن نظام صدّام ضعيف وسيسقط بسرعة، وسـيتم الترحيـب بهـم بـصفتهم محررين (كما تم الترحيب بالجيش الأمريكـي في غرينـادا عـام 1983). لكـن مـا اتـضح مـن

أحدث الكتابات التي ظهرت في شأن عملية صنع القرار الفعلية هو أن كثيراً من المسؤولين في المؤسسة العسكرية قد أدركوا المخاطر منذ البداية: خطر عدم الذهاب عبر الأمم المتحدة، وخطر المضي قدماً بجنود مشاة، توقعاً لأن تقود عملية الصدمة والرعب العراقيين للاستسلام، وخطر أن يجدوا أنفسهم متورطين في صراع طويل المدى في مكافحة تمرد.

حالف الأمريكيين الحظ في المرحلة التقليدية من الحرب، فقد جاءت معركة العراق سهلة جداً نتيجة اثني عشر عاماً من العقوبات، حتى إن نتيجتها كانت مؤكدة. لم يكن لدى الجيش العراقي أسلحة جديدة، أو حتى قطع غيار للأسلحة القديمة، كما أن معداته عانت قلة الصيانة، وعانى جنوده ضعف التدريب. حتى الوحدات الانتحارية التي واجهها الأمريكيون في التقدم صوب بغداد وعززت سلامة المناطق العمرانية من خلال الاشتباك في معارك هجومية مباشرة، كانت مدمرة من حيث الأرواح. لكن عند هذه النقطة نفد حظ قوات التحالف، وفي غضون أيام تقريباً من سقوط بغداد بدأ القتال الأول في المرحلة الثانية من الصراع كما توقع بعض الخبراء. ربما تكون العراق من حيث هي دولة قد هُزمت، لكنها من حيث هي مجتمع أثبتت صعوبة بالغة في الرضوخ.

في عصر المخاطر، يميل الشك في شأن المستقبل إلى أن يتضخم ويكثف انشغالنا "بالعواقب". وما يبدو أنه قد انتهى هو ليس الحرب، بل المنطق الذي كان يتم التحدث به عن التقدم من قديم الزمن، وهو "قبل" و"بعد". إذا كان تعقيد العالم قد جعل خوض الحروب بين الدول أصعب، فإنه جعل تحول "الحروب" إلى "معارك" وحالة «حرب الجميع ضد الجميع» بحسب وصف هوبز، أمراً أسهل. قال رامسفيلد معلقاً على عمليات السلب والنهب التي اندلعت بعد وقت قصير من دخول الأمريكيين بغداد: «مثل هذه الأشياء تحدث» في إشارة إلى أنها عادية ومتوقعة. لقد جرت العادة أن تبدأ الحروب بإعلان النية، وتنتهي بمعاهدة سلام. لكن على رغم دموية الحروب فإنها على ما يبدو تنتهي بشكل يسمح بمدة من الهدنة، يمكن فيها للمنتصر والمنهزم أن يراجعا نفسيهما. والآن نبدو غارقين بشكل دائم في حالة "بعد"، عاجزين عن الهروب من رتابة حالية لا تنتهي. فلا

شيء ينتهي بنتيجة مرضية، بل يستمر ويستمر، بشكل عنيف ومحبط، ويبدو أنه مقدر أن يستمر كذلك سنوات مقبلة. ويبدو أن ثمة تغيراً بنيوياً قد حدث في إيقاع التاريخ ذاته.

دعنا نقتبس مرة أخرى من مسرحيات شكسبير التاريخية. في الجزء الأول من مسرحية **هنري الرابع**، هناك ملاحظة جيدة لهوتسبر، المناوئ للبطل:

هل من الصالح

أن نضع جميع ثروات بلادنا

مرة واحدة في رمية واحدة.. رمية نرد فائزة

في مخاطرة ممتعة لساعة واحدة؟

يُبرز هذا المقطع أحد المخاطر الرئيسية في المخاطرة بكل شيء في المعركة. ليس الأمر أننا قد نخسر، بل قد ننتصر، وعندها فقط نكتشف أن الصراعات لا تُحسم جميعاً من خلال المواجهات في أرض المعركة، فكثيراً ما تحسم بعيداً عنها أو من دونها.

والسبب في هذا سنكتشفه في مقطع آخر من أعمال شكسبير، وهذه المرة من حديث لماكبث يناقش فيه حكمة قتل دانكن. إنه واحد من أشهر المقاطع في المسرحية:

لو أنها تمت، عندما تمت، لكانت جيدة

لو أنها تمت بسرعة. لو أن عملية الاغتيال

استطاعت تقييد العواقب، والقبض عليها

بموته، حال نجاح ذلك، لكانت هذه ضربة قوية

ربما تكون هي كل شيء، ونهاية كل شيء

وهنا، أمام ضفة النهر وجريانه

سنقفز إلى الحياة المتدفقة المقبلة

القطعة تترجم نفسها من القرن السابع عشر إلى ذهنية القرن الحادي والعشرين بسهولة لأننا نجدها تعكس ظروفنا الحالية. بل ربما لأنها رسخت في عقلنا. فإذا كان قتل دانكن يمكن أن يمنع كل العواقب التي تليه حقاً، كما يفكر ماكبث، إذا كان قتل الملك يمكن أن يضع نهاية، ليس له فقط، بل لجميع الأمور التي قد تلي قتله، فإنه في هذه اللحظة الثابتة من الوقت قد يواجه عواقب في حياة أخرى، بما في ذلك اللعنة الأبدية. إن ما يطلبه ماكبث أمر مستحيل، لو أن الوقت يتوقف في اللحظة المرغوب فيها من المستقبل، يمكن بثقة المخاطرة بكل شيء (Kermode 2001:208).

للأسف، فإن فعل القتل لا يمكن أن يكون نهاية. من المستحيل أن يتم تقييد عواقب أي فعل. ومعظم أبطال شكسبير يعرفون ذلك جيداً. وهم على دراية تامة بأن للأفعال عواقب، وإن ظل بعضها غير مرئي لبعض الوقت. مأزق ماكبث هو أنه يرغب في تنفيذ أفعال من دون عواقب، وهي الاستحالة الحقيقية الوحيدة.

المشكلة في الحرب ليست في الأساس قراراً سياسياً، مع أن إمكانية الخطأ بالنسبة إلى الفهم البشري، وحدود المعرفة البشرية، سوف يلقيان دائماً بظلالهما على ما يسميه البنتاغون "هيمنة القرار"، أي السرعة التي يمكن بها للعسكريين، على أساس المعرفة، أن يصلوا لقرار (على سبيل المثال: ما الذي يستهدفونه) (Rasmussen 2007:122). المشكلة أعمق من ذلك بكثير. إنها تنطوي على تعقيد. في عالم متشابك ومترابط يكاد يستحيل التنبؤ، ومن ثم الوقاية من كل آثار خوض الحرب.

وأصبحنا من ثم، وبشكل متزايد، مشغولين بعواقب أفعالنا الخاصة، أي الآثار الجانبية لمبادراتنا. الافتقار إلى القدرة على التوقع هو نتاج كل صراع، ولكنه اكتسب أهمية إضافية في عصر المخاطر، لأنه ربما تقع علينا نحن المسؤولية الكبرى للنتائج غير المرغوب فيها.

الآثار المتتالية

كلمة "سبب" هي هيكل لإله غير معلوم (William James).

كل هذه الأمور قد عُرفت في الحرب منذ القدم. لكن عصر المخاطر يعززها بجعل المستقبل أكثر غموضاً. فالعصر الحديث يشجعنا على اعتقاد أننا نصنع المستقبل بأنفسنا؛ هذا الاعتقاد هو ما يجعلنا عصريين. لسنا متشائمين بشأن ما الذي يكمن أمامنا، بل إننا أقل ميلاً للوم القدر أو الإله على الأحداث في الأفق. لكن الإدراك في زمن ما بعد الحداثة مختلف نوعاً ما؛ فنحن نعرف كذلك أن المستقبل يصنعنا أيضاً؛ لذلك، إذا كنا قلقين من التنبؤ بالعواقب كثيراً، فربما نكون حذرين بشكل مفرط بشأن المستقبل الذي نسعى لتشكيله، بل وربما نكون أكثر تواضعاً في أهدافنا الاستراتيجية، ولاسيما إذا تشككنا في أن العلاقة السببية هي ذاتها عملية تاريخية، أي أن "قبل" و"بعد" ما هما إلا مفهومان تاريخيان (أو مفهومان قلنا لأنفسنا إنهما أكثر جموداً مما هو حقيقي، لأننا صنعنا تاريخنا الخاص)، والقدرة على التوقع هي مفهوم تاريخي أيضاً. ومثل كثير من القيم "الخالدة" الأخرى، هل انتهت مدة صلاحيتها؟

المؤرخون لا يأتون بجديد، وأحد أسباب ذلك هو أن بإمكاننا اكتشاف أي شيء في الماضي إذا ما عرفنا ما الذي ينبغي أن نبحث عنه؛ إذا ما بحثنا عن أحداث تتناغم معنا أكثر مما كانت في عصرها. خذ على سبيل المثال مفهوماً جديداً نأخذه بجدية بالتأكيد، وهو الأثر المتتالي. هذا المفهوم قد عُبّر عنه في رواية ستندال Stendhal المعنونة **دير بارما** *Charterhouse of Parma* (1839)، حيث نجد البطل فابريس في معركة واترلو متعلقاً بسلسلة من الشخصيات القيادية في محاولة لا طائل منها لرؤية النمط العام للمعركة وهي تتكشف، والنتيجة هي الفوضى:

> كانت الشمس على وشك الغروب عندما قدم الحرس من الطريق الغائر باتجاه تل صغير يراوح ارتفاعه بين ثلاث وأربع أقدام ليدخلوا الميدان. سمع فابريس صوتاً خافتاً قريباً منه. أدار رأسه: فوجد أربعة رجال قد سقطوا من أحصنتهم، والجنرال نفسه قد أطيح من جواده، ولكنه كان ينهض مجدداً وهو مضرج بالدماء...

جاء الرقيب إلى فابريس. في تلك اللحظة سمع بطلنا صوت شخص من خلفه يهمس في أذنه: «هذا هو الوحيد الذي يستطيع أن يعدو بسرعة». أحس بنفسه ممسوكاً من قدميه... رُفع من الحصان من ناحية الذيل فانزلق على الأرض وانتهى إلى وضع الجلوس.

أمسك مساعد الجنرال حصان فابريس من لجامه، وركب الجنرال وأسرع به، وتبعه ستة ناجين من حراسه. نهض فابريس من الأرض وهو يستشيط غضباً، وأخذ يجري خلفهم صائحاً: «لصوص! لصوص!». مشهد هزلي أن تجري خلف لصوص وسط ساحة المعركة.

تلك القطعة، كما يرى بول هاميلتون Paul Hamilton، تظهر الصورة الفوضوية والمرتبكة التي تواجه معظم الجنود في ميدان المعركة. ينتهي المطاف بفابريس إلى خارج المكان في مشهد تاريخي، مدعياً خسارته الشخصية، وهي «همهمته الفضولية» (Hamilton 1996:16). يجب على المؤرخين (خلافاً لرأي تولستوي الذي زعم أنه تعلم كل ما عرفه عن الحرب من وصف ستندال لمعركة واترلو) أن يشرحوا مغزى الأحداث، إلا أنهم يواجهون مخاطر شديدة الخطر متى ما سعوا إلى القيام بذلك. وعندما يقللون من أهمية الأحداث، ربما يضللون الرأي العام للتفكير في أن نتيجة بعينها كانت حتمية. ومن هنا جاء الاهتمام الحديث بالتاريخ المضاد للوقائع الذي يسعى لمعالجة ما يطلق عليه تحيز الإدراك المتأخر.

وكما أظهرت دراسات نفسية عدة، يميل الإدراك المتأخر للأحداث إلى تشويه التأمل البشري في الأحداث الماضية، بتصوير النتائج بعد حدوثها على أنها كانت أكثر قابلية للتنبؤ مما بدت فعلياً قبل وقوعها. لذا يجب علينا تعقل الأحداث عندما ننظر إلى الوراء، فدراسة التاريخ تتطلب استحداث سلاسل الأسباب التي لم تكن مرئية لهؤلاء الذين شاركوا في الأحداث التي نحاول فهمها بالتأمل المثالي للأحداث.

النقطة التي يريد ستندال توصيلها، وهي نقطة مهمة، هي أنه يتعين علينا ألا نفهم العلاقة الارتباطية خطأً على أنها علاقة سببية؛ يجب ألا نفترض بشكل تلقائي أنه نظراً لأن

حدثاً ما يحدث فيجب أن يكون سبباً لحدث آخر. وهذا يشكل تحدياً. نريد أن تكون للأحداث أسباب، وأن نُقوِّم عند التيقن منها نمطاً متسقاً بشكل كافٍ ليكون دليلاً للفعل. فالحياة اليومية تبنى على العلاقة السببية. وقد أطلق كارل بوبر Karl Popper على "السببية" أنها «تجسيد ميتافيزيقي لقاعدة منهجية مبررة جيداً» (Carr 1972:94)، وهي طريقة فلسفية محض للقول بأن فكرة أن لكل شيء سبباً شرط لفهم ما يجري حولنا.

في العصر الحديث، سادت فكرة السبب والنتيجة. وعلى العكس من ذلك نجد أن عصرنا يسير في اتجاه غير خطي؛ بمعنى أننا ندرك أنه يصعب التنبؤ بالمستقبل، مثلما يصعب التنبؤ بالطقس.

وعلى رغم أن علماء الأرصاد الجوية يعِدوننا بدقة توقعاتهم، فإنهم يقرون بأن دقتهم لا يمكن ضمانها بعد أيام قليلة. ومع أنه يمكن تقديم توقعات سنوية، فإنه يستحيل أن نعرف على وجه اليقين إن كانت تلك التوقعات ستتأكد هذا اليوم. باختصار، السببية هي أمر جزئي فقط. يمكننا بشكل جزئي أن نعد نماذج ونتوقع ونسيطر على الأحداث، بل يمكننا أن نتخذ قرارات وفقاً لقائمة احتمالية. لكن السبب ربما لا يقود إلى نتيجة، وليس لكل نتيجة سبب يمكن استبيانه. فالسلوك يظهر كالحياة. وصفت الحياة ذاتها بأنها "خصيصة ناشئة" تنشأ عندما تتفاعل نظم فيزيائية-كيميائية معينة بطرائق غير متوقعة.

إذا ما عدنا إلى المثال المتعلق بالانفجار العظيم الذي أشرت إليه في الفصل الثاني، يمكننا أن نضيف أن جميع النظُم المعقدة، سواء أكانت العالم أم كانت المجتمعات البشرية، تُظهر عناصر النشوء على مر الوقت. بعبارة أخرى، فإن لدى الكائنات ذات الخلية الواحدة إمكانيات النشوء داخلها من البداية. ويمكن أن تقود (وقد قادت) الحياة كما نعرف اليوم، ولكن كانت هناك احتمالات أخرى.

إن ما يحتاجه كل شيء لكي يبدأ هو حدث يكون بمنزلة البوابة. ومع أن الانفجار العظيم كان أهم حدث على الإطلاق من هذا النوع فإن كل حدث تاريخي، سواء أكان

حرباً أم كان شغباً، يمكن أن يفجر سلسلة من الأحداث تترى باتجاه عواقب غير معلومة، وتؤدي إلى مجموعة كبيرة من السلوكيات.

عندما اندلعت أعمال الشغب في ضواحي باريس عام 2005، تم تفسيرها على أنها احتجاجات من قبل شبان مسلمين عاطلين عن العمل. وفي أوج الاضطرابات كان يحرق نحو 700 سيارة كل ليلة. بحلول الوقت الذي خفتت فيه حدة أعمال الشغب، كانوا قد طوروا حياة خاصة بهم. وبحسب التحليل النهائي للحكومة الفرنسية، فإن 39٪ فقط من المشاركين في تلك الأعمال كانوا من المسلمين، أما الباقي فكانوا شباناً من البيض ممن قلدوا السلوك الذي رأوه على شاشات التلفزة كل ليلة (*The Times*, 7 March 2007). التلفزة تشجع النزعة الاستعراضية، وفي الأغلب يسعى الناشطون إلى تفوق بعضهم على بعض في العنف، فبهذه الطريقة يكسبون الشهرة.

بعبارة أخرى، ينشأ بعض السلوك من دون أن يكون له بالضرورة منطق من حيث النية. وبعض المحتجين هم مثل فيروس الحاسوب الذي يحمل أمر "انسخني"، ويتم توجيهه إلى حاسوب آخر بلغته الخاصة بطريقة غير مرئية تماماً لمستخدم الجهاز. وما يجعل الفيروسات عنيدة بهذا الشكل هو أنها لا تحمل أي أغراض أخرى غير النسخ، إنها تميل إلى السفر بخفة (من دون حقائب) ولكونها ليست أكثر من حزمة معلومات. بل بإمكانها التحور بطرائق لا يمكن توقعها مسبقاً، ولاسيما إذا استخدم مطوروها برامج تطورية للمساعدة على سبر المشهد التكيفي الذي يخترقونه. وعليه يمكن للفيروسات أن تتحور بشكل مستقل عن مبرمجيها، ويمكنها أن تتخذ أشكالاً أخرى خاصة بها بسهولة (Dennette 2006:343).

ما يشجع تصاعد الأحداث هو الشبكات التي تميز عالمنا وتجعله معقداً بشكل غير نهائي. وذلك لأنها تنتج ما أسماه هوارد رينغولد Howard Rheingold "العصابات الذكية"؛ موجات من العنف التي يشكلها أفراد كثر عبر الرسائل النصية. فالمشاغبون

الذين كادوا يُفشلون اجتماع منظمة التجارة العالمية في سياتل عام 1999 استخدموا "تكتيكات حاشدة"، من الهواتف الخليوية، ومواقع الإنترنت، والحواسيب المحمولة، والحواسيب الكفية. وبعد عام من ذلك الحدث، استخدم آلاف من المواطنين في بريطانيا الذين يحتجون على الارتفاع المفاجئ في أسعار البنزين، ترددات شبكات اللاسلكي الخاصة بسيارات الأجرة، والبريد الإلكتروني عبر الحواسيب المحمولة والهواتف الخليوية لعرقلة وصول شحنات البنزين إلى محطات خدمة مختارة. وفي العام ذاته، قامت مجموعة من المراسلين المتجولين بتسجيل تظاهرة سياسية عنيفة في تورنتو على شكل مقاطع فيديو رقمية تبث على الإنترنت لكل شيء شاهدوه. كل هذه الأشياء قد ولّدت كتلة حرجة ظهرت من شبكات غير مترابطة بشكل قوي (انظر: Tilly 2005:156).

كان لهذه المظاهرات العفوية، بطبيعة الحال، هدف سياسي، حتى وإن لم يتشاطر المتظاهرون أنفسهم أيديولوجية بعينها أو برنامجاً سياسياً. واليوم يشكل الناشطون تحدياً للدولة بشكل خاص لأن العمل الاجتماعي المتشابك ليس له سبب أو برنامج أو حتى غرض ضروري. ولهذا السبب، يرى بعض الكتاب مثل ألان باديو أنه ليس سياسياً (ليس حدثاً)، وأنه كرنفال أكثر منه تظاهرة. كان التظاهر إحدى سمات القرن العشرين التي استطاعت فيها المجموعة الاجتماعية أن تعبر عن الأخوّة، سواء في تظاهرات الاتحادات التجارية، أو في مسيرات السلام، أو في الاحتجاجات الطلابية خلال حرب فيتنام. لقد أضفى شرعية على العمل الجماعي، وكان يهدف دائماً إلى إحداث فارق (Badiou 2007:106-8). واليوم، يجب علينا أن ندرس الفكرة المزعجة القائلة بأن السببية بمعناها التقليدي ربما لا تكون فاعلة دائماً. في مذهب الفاعلية المعاصرة، يمكن للأفكار والسلوك أن ينتشرا بشكل عمودي ليتنزّلا من القادة، ولكن ربما ينتشران بشكل أفقي أيضاً بالعدوى. ويتم تشبيك الفعل الثوري الافتراضي بطريقة غير معهودة تقليدياً في العمل الثوري. ويبدو أن هذه هي حال التمرد الذي اندلع سريعاً في العراق عقب دخول الجيش الأمريكي إلى بغداد.

مخاطر السرعة

> لقد خسر العالم الغربي بأسره تلك البدهيات التي تنمو منها المؤسسات... أحدهم يعيش يومه، وآخر يعيش بطريقة سريعة جداً؛ أحدهم يعيش بطريقة غير مسؤولة؛ إنها بدقة ما يمكن أن نسميه حرية (Nietzche, *Twilight of the Idols*, p.90).

جعلت الآثار المتعاقبة الحرب أكثر تعقيداً من ذي قبل. وعلينا أن نفكر في إمكانية أننا أنفسنا ربما نحفز هذه الآثار في ثنايا انشغالنا بالسرعة، كما حذر نيتشه الجميع من سنوات خلت. هل يشجع عالمنا المائع تلك العملية؟ هل السرعة هي المشكلة، وليست الحل؟

هذا سؤال يصعب طرحه في المؤسسة العسكرية. وكما يخبرنا كلاوزفيتس، بخلاف الفنون الميكانيكية، نوجه قوتنا إلى هدف حي من شأنه أن يرد على إرادة مضادة لإرادته. هذا الرد يضع كلتا الإرادتين في حلقة تغذية راجعة، حلقة تغذية راجعة إيجابية يمكن أن تنتج عمليات هروب، ميل كلاوزفيتس لاعتبار أن الحرب مطلقة. إن الطبيعة الخاصة بالتفاعل تجعله غير قابل للتنبؤ. وفي هذا أكدت قوات المارينز الأمريكية عام 1996 أن «الطبيعة المعقدة بشكل أساسي والتفاعلية للحرب تولّد حالة عدم اليقين». «حالة عدم اليقين ليست مجرد حالة بيئية قائمة، إنها (نتيجة عرضية) طبيعية للحرب» (US Marine Corps 1996:27). وعبارة نتيجة عرضية هي من إضافتي، ذلك أننا نرى أن جميع الحروب لا يمكن التنبؤ بنتائجها، والجانب الأقوى لا يتفوق دائماً. لكن يجب علينا الآن أن نطرح سؤالاً آخر: هل تزيد السرعة من حالة عدم اليقين في عالم معقد ومتشابك؟ وهل تفعل ذلك في شكل آثار متتالية؟

المشكلة مركبة، نظراً لحقيقة أنه منذ مدة وحتى الآن كانت هناك أصوات في المؤسسة العسكرية الأمريكية تغري بتقليل دور المصادفة والطوارئ، تلك العناصر الفوضوية التي ارتبطت تقليدياً بالحرب عبر رفع قيمة السرعة. لقد اعتمدت الولايات المتحدة أكثر من أي دولة أخرى على الثورة الرقمية لتقود زمام الريادة في شكل جديد

من الحروب، السرعة هي كل شيء فيه. وهي تعد نفسها المستفيد الرئيسي من قانون مور (ملاحظة أن سعر / أداء جهاز الحاسوب يتضاعف كل 18 شهراً). يمكن نسخ البتّات* ونقلها من دون تكلفة تقريباً، وهذه العملية تزيل اثنتين من الخصائص الرئيسية للندرة في الاقتصاديات التقليدية: التكاليف الحدية لكل من التصنيع والتوزيع. وبشكل مشابه لذلك تعمل قوانين الوفرة في التخزين وعرض النطاق الترددي، وفي كل شيء رقمي آخر في العالم الافتراضي.

نظراً لاقتباسي من مسرحيات شكسبير، دعوني أذكره مجدداً لتوضيح هذه الصلة. يمكن تسجيل كل ما كتبه شكسبير في حياته في نحو 70 مليون بت. وإذا ما وظفنا مصطلح "شكسبير" أداةً للقياس، مثل الجالون، وتشير كل وحدة إلى 70 مليون بت، يمكننا عندئذ رؤية ما ينطوي عليه نقل البيانات. إذ يمكن لشعاع الليزر في ضوء تقنيات الألياف البصرية المتاحة حالياً أن يرسل 500 "شكسبير" في الثانية. وعلى رغم أن هذه تعد قدرة مذهلة، فإن عملية تقسيم الأطوال الموجية وتحميل كل منها كماً من المعلومات تمكننا من إرسال مزيد، إذ يمكن تقسيم عرض النطاق الترددي لليف بصري واحد إلى أطوال موجية كثيرة، لكل منها شعاع ليزر مستقل. ومن ثم، يمكن إرسال 13 ألف "شكسبير" في الثانية عبر ليف بصري رفيع جداً، ويمكن لبعض الألياف البصرية حمل نحو مئة شعاع ليزر في وقت واحد، كل منها يحمل عشرات مليارات البتّات كل ثانية (Martin 2006:66).

إن هذه الثورة في إرسال المعلومات هي التي تمكن جيشاً من التقدم بشكل أكبر وأسرع مما مضى إلى حد كبير لأنها تسمح له برفع "ضباب الحرب". وهي تمكن العسكرية، وفق مقولة أحد المفكرين العسكريين الكبار، من «البحث في المستقبل» (Leonard

---

* البت pit : أصغر وحدة رقمية، وكل 8 بتّات تساوي بايت byte واحداً، ويقاس حجم البيانات الرقمية بالكيلو (ألف) بايت KB، والميغا (مليون) بايت MB، والغيغا (مليار) بايت GB، والتيرا (تريليون) بايت TB، ومعظم الحواسيب الشخصية الحالية مزودة بوحدات تخزين كبيرة تسع مئات الغيغابايتات من البيانات، وبعضها يسع تيرابايت أو أكثر. (المحرر)

1999:130). بهذا المعنى، ربما تكون الدراية الموقفية في الحرب أكثر ثورية من إدخال البارود أو حتى محرك الاحتراق الداخلي، لأنها قادت إلى زيادة تصل إلى عشرة أضعاف في سرعة معالجة المعلومات.

لكن في هذه النقطة يجب أن نسأل إن كانت هناك أي قيمة حقيقية في السرعة إذا كانت فقط تضخم العواقب غير المقصودة لتصرفات المرء نفسه. وبكثير من السبل تسهل لك قتل العدو باستخدام القوة المتاحة في ميدان المعركة بشكل أسرع مما يستطيع به العدو أن يقتلك. الدراية الموقفية تتيح الاستهداف الدقيق واستخدام القوة بشكل حصيف. لكن القيام بعمل غير معروفة عواقبه لا يعني بالضرورة القفز إلى المستقبل، إضافة إلى «البحث في المستقبل».

عند التزلج على الجليد الرقيق، والكلام لإميرسون، تكون السبيل الوحيدة لسلامتنا هي السرعة. ففي الحرب العالمية الثانية وجدت ألمانيا واليابان نفسيهما تتزلجان على جليد رقيق جداً، علم اليابانيون ذلك عندما ذهبوا إلى الحرب، ولم يكتشفها الألمان إلا في وقت متأخر. ويبدو اليوم، للمفارقة، أن الولايات المتحدة تحذو حذوهما. استغرق إرغام الجيش الصربي على إخلاء كوسوفو 81 يوماً، واستغرق إسقاط حكومة حركة طالبان شهرين، واستغرق إسقاط نظام حزب البعث في العراق ثلاثة أسابيع فقط. ولكن للأسف، في الأغلب يكون للسرعة نتائج عكسية، إنها تهدف إلى إضعاف الروح المعنوية للعدو مثلما كان الأمر في حالة فرنسا عام 1940. الأمر ذاته ينطبق على عملية الصدمة والرعب عام 2003 التي أظهرت بأي قدر وبأي سرعة أخذت الولايات المتحدة الحرب في القرن الحادي والعشرين إلى منطقة واحدة، على الأقل؛ وهي سلسلة القتل.

في عام 1991 بدأت عملية "عاصفة الصحراء" بحملة قصف تم الإعداد لها قبلها بمدة طويلة، ثم أعقبها هجوم بري. وفي عام 2003، استطاع الجنود على الأرض أن يقدموا للطائرات القاذفة التي تطير فوق رؤوسهم الإحداثيات اللازمة لقصف مواقع

محددة. لقد كان التأثير مدمراً. في عام 1991، كانت عملية تكليف طائرة باستهداف هدف ما تستغرق أياماً. أما خلال عملية تحرير العراق، فقد استغرقت هذه العملية أقل من عشر دقائق. ولكن، وعلى رغم كل هذا، اكتشف الأمريكيون أنهم لم يغيروا سوى ديناميات عملية قتل مدعومة بالشبكات الإلكترونية. إنهم لم يغيروا منطق الحرب، حتى التحديث الذي يرتكز على الشبكات ولا يتعلق بالقتل، ولكنهم حولوا النجاح التكتيكي في المعركة إلى نتيجة استراتيجية حاسمة.

قايضت الولايات المتحدة في العراق، ومن دون حكمة، السرعة بالكمّ، ليس فقط لاستغلال المبادرة والإمساك بزمامها، بل ومنع أعدائها من التكيف مع تكتيكاتها أيضاً. كما أنها سعت للإبقاء على الدعم في الداخل لتجنب مناقشة سياسية مطولة للصراع. وفي مواجهة قوات الحرس الجمهوري العراقية، استخدمت قوات برية صغيرة سريعة الحركة مزودة بقوة نيرانية هائلة فاقت كل التوقعات. وفي مواجهة المتمردين عقب عام 2004، ثبت أن قرار مقايضة السرعة بالكم هو حماقة تامة.

وعلى رغم أن الحرب في عصر المخاطر تتركز حقاً على الشبكات، فإن أهم الشبكات هي اجتماعية، وفي حالة العراق هي روابط قبلية وعشائرية، وليست فقط وحدات قوات خاصة ودبابات وطائرات من دون طيار. لم يعطَ تركيز كافٍ في الأيام الأولى للحملة على تأمين المناطق الحضرية الرئيسية والمباني الحكومية التي خلقت ثغرات أمنية استُغلت من قبل بعضهم في عمليات القتل ونصب الكمائن وارتكاب أعمال النهب على نطاق واسع. وأضعف التركيز المفرط على حماية القوات في داخل المؤسسة العسكرية الأمريكية (إحدى سمات عصر المخاطر) مهمة حفظ أمن المجتمع المهزوم. وفي الأغلب تم تجاهل كسب العقول والأفئدة. قال أحد القادة العسكريين: «عندما نقوم بعمليات، مثل تسيير دوريات... إنها دوريات قتالية، وتتحرك مثل الدوريات القتالية، ولها أهداف مثل الدوريات القتالية، فإننا بهذا لم نغير فعلياً أي شيء؛ ذلك أنه لا يمكننا إطلاق النار على كل شخص» (Graff 2004:66-7).

وقد ظهرت ملاحظة مهمة أخرى وهي **تقارير الدروس المستفادة للجيش** *Army Lessons Learned Reports* في كانون الأول/ ديسمبر 2003. فقد اكتشف أن أعظم الأصول الاستخبارية هي الجنود في الدوريات المترجلة الذين استطاعوا أن يتعرفوا على «الواقع على الأرض»، وهو في الأغلب يتعارض وتحليل القادة خلف خطوط القتال. ولكن عدد الدوريات كان محدوداً بسبب عدد المركبات المتوافرة في القوة المخصصة لذلك. ومن الواضح أن حماية القوات قد أخذت أولوية على الفاعلية في السلوك التكتيكي. وكما أشار أنتوني كوردسمان Anthony Cordesman في تحليله بشأن الأمور التي حدثت خطأً، تم تدريب القوات فقط للتعامل مع الحرب غير المتماثلة، ولم يتم تدريبهم للتعامل مع أعمال السلب والنهب، أو التفريق بين المدنيين المعادين وغير المعادين من المتمردين. وبعبارته، لم يتم تدريبهم للتعامل مع عواقب النصر (Cordesman 2003:499).

إنه استنتاج ذو مغزى. ربما يُنظر إلى عصر المخاطر مثل ضغط الوقت، وربما يصبح التاريخ قصة التسارع، لكن يتعين علينا أن ندرك أن السرعة لا تأخذ في اعتبارها التعقيد، ولهذا فقد ثبت أن الاتجاه الذي تأخذ العسكرية الأمريكية الحرب إليه يؤتي نتائج عكسية. وفي ذلك يطلق فيريليو Virilio على السرعة تعبير "الأفق السلبي". إنها تؤدي إلى حرمان حسي، لأنها تحجب إدراكنا للعالم، وتعمينا عن عواقب أفعالنا (Virilio 1986). كما أن السرعة تحرمنا أيضاً من الاتصال أو الخبرة المباشرة بالعدو، وذلك عادةً أمر قاتل عندما لا تنتهي الحرب بوقف رسمي للأعمال العدائية. السرعة ليست ظاهرة في ذاتها، بل هي في هذه الحالة علاقة بيننا وبين الحرب. وليست هناك واقعية خارج هذه النسبية. تتلخص واقعية المعلومات بشأن العدو بشكل كامل في سرعة انتشارها، كما أن المعلومات هي في العادة تحت سيطرة الدولة التي تقرر وصف العدو في لحظة ما. بعبارة أخرى، إنه "الوضوح" الذي يفسر حديثنا عن أمر "عالي الوضوح" high definition و"عالي الدقة" high resolution فيما يتعلق بظاهرتي الصوت والصورة (Virilio 1995:140).

في العراق، سرعان ما اكتشفت القوات الأمريكية أن النجاح التكتيكي لم يمنحها "الدقة العالية" سياسياً، لأنها لم تعرف سوى قليل جداً عن العدو أو الكيفية التي ربما يأتي بها رده على الهزيمة الأولية. قال الجنرال فرانكس في مذكراته: «السرعة تقتل». يُذكر أن الجنرال فرانكس كان جنرالاً يحمل نجمة واحدة في عملية "عاصفة الصحراء"، وهي الحملة الأمنية التي انتهت بنتيجة غير حاسمة. وخلُص إلى أنه في المرة المقبلة سوف تمكن التقنيات الجديدة القوات الأمريكية من الدخول بسرعة أكبر، وقد تم ذلك بالفعل تحت قيادته. وأضاف قائلاً: «أثبت النصر في "عاصفة الصحراء" أن للسرعة زخمها الخاص» (Strachan 2007:5). ولكن عملية تحرير العراق أثبتت أنها أقل حسماً. فإذا عدنا إلى الوراء، وجدنا أن جورج بوش نفسه قد ندم على أن الولايات المتحدة قد انتصرت بسرعة أكثر من اللازم. فقال: «لو عاد بنا الزمن لنظرنا إلى عواقب النجاح الكارثي؛ ذلك أن النجاح القوي، والسريع جداً، قد دفع العدو الذي ينبغي أن يكون قد استسلم أو قتل إلى الهرب ليعود ويقاتل مرة أخرى» (Buley 2007:123). أو كما أكد الجنرال مايرز، فإن الانتصار الأمريكي عام 2003 كان "مهذباً" للغاية. لقد أتاح للوحدات العراقية أن تتلاشى وتختفي، ثم تعود للقتال مجدداً تحت علم آخر. وقال مايرز للجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ متأملاً فيما حدث: «ربما كنا مهذبين أكثر مما يجب في نصرنا» (Buley 2007:123).

اختيار الكلمات مثير للدهشة كل الإثارة. إن ما قصده كلا الرجلين هو أن المجتمع يكون أكثر قبولاً بالهزيمة بعد أن يقاوم (وكما يقول لنا كلاوزفيتس فإن الدولة تسود الحرب عندما يكون العدو مستعداً لقبول الهزيمة لأي سبب). بل ربما تلاقي الهزيمة ترحيباً، مثلما كانت على الأرجح بالنسبة لكثير من الألمان عام 1945. إضافة إلى ذلك، بما أن الدولة لم تشوه نفسها، فليست هناك غضاضة في الاستسلام. أما إذا ما انهار جيش في غضون ثلاثة أسابيع أو ثلاثة أشهر، فربما يؤدي انهيار الروح المعنوية إلى تأكُّل الروح الوطنية. وربما كان هذا هو ما حدث في حالة العراق بالنسبة لكثير من الشباب الذين انضموا إلى التمرد، هؤلاء الذين أشارت إليهم القوات الأمريكية بأنهم "العراقيون المستاؤون".

ينبغي استرداد الشرف أحياناً. والنصر التكتيكي الساحق في ميدان المعركة الذي يتسبب في تفجير تمرد ليس نجاحاً على الإطلاق. إننا نواجه الآن مفارقة جديدة للحرب: ربما تصل إلى وجهتك أسرع من ذي قبل، ولكن في هذه النقطة تبدأ المشكلات. ودعونا نقتبس من شكسبير لآخر مرة: الحرب قد تجعل المنتصرين «ضحايا الوقت» (Sonnet 124).

تدل السرعة ضمنياً على سهولة الحركة، ولهذا فإن السرعة علامة على «أوقاتنا المائعة». لكن عندما تنجز الأمور بسرعة فإن انخراطنا مع المهمة التي في أيدينا عادة ما يصبح سطحياً. تحمل السرعة بطبعها مفارقة دائماً. إن الهدف من السرعة هو تقليص المخاطر: مخاطر خسارة الدعم الشعبي في الداخل إذا ما بدت الحملة تتباطأ، أو مخاطر تعريض القوات للخطر لمدة أطول مما هو ضروري. وكما يعلن ضابط في فيلم روبرت ردفورد Robert Redford بعنوان **أسود من أجل الحملان** *Lions for Lambs* (2008)، «يخبرنا فون كلاوزفيتس أنه كلما طال أمد الحرب كان تَعلُّم العدو ما ينبغي فعله أسرع». ومع ذلك فإن السرعة في الأغلب تشكل مجموعة جديدة من المخاطر؛ ذلك أنها تزيد فرص الإخفاق.

في العراق، كان يُنظر إلى كل عقبة أمام السرعة (مثل المقاتلين الفدائيين، الذين ظهروا بشكل غير متوقع عندما تقدم الجيش الأمريكي باتجاه بغداد) على أنها "عقبة" مؤقتة يتم تجاوزها أو إزاحتها جانباً مع تواصل تقدم الجيش. وهنا بيت القصيد. العقبات لا تختفي دائماً، بل تُنحَّى جانباً للحظة، ومن المرجح أن تظهر لاحقاً في لحظات غير متوقعة. في الحقيقة، ربما تكون العقبات التي نواجهها بمنزلة الحدود للعمليات العسكرية؛ علامات التحذير من أي تجاوز لتلك الحدود. ومع ذلك فنحن نميل إلى إعادة تعريفها على أنها مشكلات يمكن حلها إذا اقتضى الأمر في وقت لاحق. ليس لدينا الوقت ولا الدافع للتفكير في الظلام الكامن في نهاية النفق. نميل إلى غلق باب الإسطبل بعدما يندفع الحصان. وما يدعو للأسف، هو أنه في غمار سباقنا نحو المستقبل، هناك عدد متنامٍ باستمرار من أبواب الإسطبلات التي يجب غلقها. وفي المرحلة التي نصل فيها (في أوقاتنا المائعة هذه) هناك جزء

كبير من التقدم اليومي «يتمثل في إصلاح الضرر المباشر أو الجانبي الذي تـأتّى مـن جهودنـا الماضية والحالية لتسريع عجلة إنجاز الأمور». (Bauman 2007:116).

للأسف، في الأغلب لا يكون للسرعة مغزى استراتيجي، ولا تأخذ التاريخ في الاعتبار. يمكننا بطبيعة الحال الاستغناء عن كل شيء تعلمناه في المدرسة والحصول على جميع مزايا التحرر من المسؤوليات. ولكن الكفاءة في مثل هذه الحالات يُرجح أن تُشترى على حساب الخواء؛ ربما يثبت أن انتصاراتنا فارغة. ربما نُرغم في نهاية المطاف على الاعتراف بأن النجاحات التكتيكية، مهما كانت ذكية، ومهما لاقت من إعجاب المتخصصين، لا تترجم دائماً إلى النتائج السياسية المنشودة.

العمليات القائمة على التأثيرات

تتخذ تداعيات السرعة شكلاً آخر أيضاً، فيمكنها أن تشجع أخطاء التقدير التي ربما تشجع الشباب على الانضمام إلى التمرد. ومن ثم هناك حاجة للكبح والكياسة في الحرب. وكما يذكّرنا روبرت كابلان Robert Kaplan:

> نظراً لأن المعارك في عمليات مكافحة التمرد صغيرة النطاق، وفي الأغلب تكون سرية، فنادراً ما تكون الحبكة واضحة. ويصبح (التفسير) مسألة تصور، ويحظى بالنصر من يحبكون أكثر القصص إقناعاً. يجب على ضباط الشؤون العامة المدنيين، في صراعات عالم ما بعد الحداثة في القرن الحادي والعشرين، أن يصبحوا مقاتلين بأسماء مختلفة (Evans 2007:29).

تتضمن الحروب جميعاً نسج القصص. وتتغير القصص التي نرويها لأنفسنا وللآخرين على مر الوقت. في عصر المخاطر، نضطر إلى الاعتراف بأن الطريقة التي تُدار بها الحرب توصل "معنى" لا يقل أهمية عن الحرب ذاتها. وفي هذا قال المارشال ماكلوهان عندما أراد أن يشرح كيف أن الرسالة كانت مريبة: إن «الوسيلة هي الرسالة». تقر مجتمعات المخاطر الآن بأن الوسيلة ذاتها ليست أقل ريبة في عيون بقية العالم. وكانت

النتيجة هي جعلها أكثر "إنسانية"، إنها جزء من وعد المؤسسات العسكرية الغربيـة الـذي يطلقون عليه «العمليات القائمة على التأثيرات».

الإنسانية ليست شيئاً اكتُشف حديثاً. فمنذ مطلع القرن العشرين، سعت المجتمعات الغربية إلى إزالة بعض أشكال الوحشية الأكثر فظاظة من الفـضاء العـام. لكـن كـان مـن الصعب، حتى وقت قريب، القيام بذلك في الحرب. بالعودة إلى عام 1916، عندما كانـت المؤسسة العسكرية في ألمانيا تدعو إلى شن حملة عـسكرية مفتوحـة باسـتخدام الغواصـات ضد بريطانيا، مالت إلى رفض اعتراضـات المـدنيين واصـفة إياهـا بأنهـا «ثرثـرة إنـسانية» (Stone 2007:99). والواقع أن النقاش بشأن إن كان ينبغي، أو لا ينبغي، المضي قـدماً في شن هجمات مفتوحة باستخدام الغواصات على سفن قوات التحالف قد ذهـب إلى مـدى أبعد من الإنسانية، لقد تضمن نقاشاً بشأن العواقب السياسية إذا ما نُظر إلى ألمانيا على أنهـا أقل إنسانية من العدو الذي تحاربه.

وكان المستـشار الألمـاني بيـثمان هُلفـيج شـديد الحـساسية لتكـاليف سـوء التقـدير السياسي. وكان متشائماً من الحرب منذ البداية. وفي صـيف عـام 1914 قـال لابنـه: لـيس هناك فائدة مـن زرع شـجر الـدردار عـلى امتـداد عقـارات الأسرة في شرق بروسـيا، لأن الروس فقط هم الذين سيستفيدون منه. إضافة إلى ذلـك، فقـد قـاوم طلبـات الجنـرالات بشن حرب غواصات مفتوحة ضد بريطانيا؛ خوفـاً مـن أن تـستقطب الولايـات المتحـدة للمشاركة في الحرب. في كلا الأمرين، كان من شـأن كلاوزفيـتس أن يـشدد عـلى ضرورة ضبط النفس؛ إذ يقول لنا إن الهدف الرئيسي من فن الحرب هو «منع التوازن المهتزّ مـن أن يتحول فجأة إلى غير صالحنا، وأن يتحول نصف الحرب إلى حرب كاملـة» (Clausewitz 1982:401). في النهاية، مثَّل كل من قرار خوض الحرب، وقرار تبني حرب غـير محـدودة باستخدام الغواصات عقب ذلك بثلاث سنوات، إخفاقاً للقيادة السياسية، وهي مسؤولية يجب أن يتحمل بيثمان نفسه جـزءاً منهـا. إنهـا مـسؤولية الـسياسيين أن يتوقعـوا عواقـب أفعالهم وتصرفاتهم، هؤلاء مثل المستشار الألماني الذي – ببـساطة – لم يقاتـل بقـوة كافيـة لكي يُسمَع صوته.

وبالفعل كانت عواقب حملة الغواصات مدمرة. وبعيداً عن المخاوف الإنسانية المتعلقة بإغراق أناس أبرياء في السفن مثل سفينة لوزيتانيا التي قصفت بطوربيد قبل الحملة بعامين (وهي جريمة فاضحة، يبدو أن القيصر كان هو الوحيد في القيادة الألمانية الذي كانت لديه معطيات خاطئة بشأنها فقد سماها "تفكيراً مرعباً") فإن ذلك كان يعني خرقاً للقانون الدولي (لم تكن ثمة مسألة صغيرة عندما كان رئيس الولايات المتحدة شخصية أخلاقية مثل وودرو ويلسون). في البداية اكتفى ويلسون بقطع العلاقات الدبلوماسية أملاً في أن يقود هذا الإجراء ألمانيا إلى العودة لرشدها. لكن إغراق سبع سفن تجارية أمريكية أرغم ويلسون في النهاية على دعوة الكونغرس للاجتماع، ووافق الكونغرس في مطلع نيسان/ إبريل 1917 على إعلان الحرب. وعندما حان موعدها حثّت إعلانات التجنيد المواطنين بملصقات كُتِب عليها: «تذكروا لوزيتانيا» (Updike 2007:471).

في عصر المخاطر ننخرط دائماً في التنبؤ بالآثار السلبية لقراراتنا، ونجد أنفسنا مدفوعين طوال الوقت إلى إجراء علاقة حسابية بين المستقبل والحاضر. وهذه هي أيضاً دينامية نقاش الغواصات الألمانية فيما بين عامي 1916 و1917 مع اختلاف دقيق. فقد قام الألمان بجعل المخاطر خارجية، مثل رد الدول المحايدة على وضع سفنها في وضع يعرضها للخطر من خلال الاستمرار في التجارة مع بريطانيا، وبطبيعة الحال، خطر أن تضطر الولايات المتحدة إلى المشاركة في الحرب بسبب ضغط الرأي العام. واليوم، نجعل المخاطر داخلية في صورة عواقب الإدارة. ويصبح تقويم التداعيات أصعب بسبب تعدد الأطراف الذين يجب أخذهم في الاعتبار، ذلك أن الدول لم تبق هي الأطراف الأهم.

الفارق اليوم ليس أننا أصبحنا أكثر إنسانية من القيادة العليا الألمانية عام 1917. وليس حقيقة أن المخاطر التي اختارت تلك القيادة تحمُّلها كانت قابلة للقياس بطريقة لا يمكن القيام بها بالنسبة للمخاطر التي نواجهها اليوم. لكن الفارق الحقيقي هو أن تكاليف تحمل المخاطر قد أصبحت غير مقبولة بشكل كبير. لقد أصبحنا مستهلكين لا منتجين للمخاطر، ونجد صعوبة أكبر من ذي قبل في إسباغ الشرعية على المخاطر التي نطلب من

الآخرين أن يتحملوها (حتى من مواطنينا، أو زملائنا في تحالفات الراغبين التي ننتمي إليها). ولا عجب في أن السياسيين يشعرون بأنهم تحت وطأة الضغط واللعنة إذا لم يتصرفوا، واللعنة إذا تصرفوا.

اتضحت إدارة العواقب بجلاء في كوسوفو عام 1999، فقد مكنت الضربات الجوية الدقيقة الغرب من إخضاع الحكومة الصربية من دون إلحاق ضرر مباشر كبير بالسكان، على رغم أنه لم يمكن تجنب الضرر الجانبي كلية. وعلى مدار الثمانية والسبعين يوماً، نفذت طائرات قوات التحالف ما يقدر بنحو 37 ألف مهمة قصف. وعلى رغم أن الأهداف الأولية كانت هي القوات الصربية في كوسوفو فإنه عندما أخفقت في إحراز أي تقدم، اضطر الناتو إلى قصف أهداف اقتصادية، بل وحتى أهداف مدنية في صربيا نفسها. وبالنهاية تم استهداف 144 منشأة صناعية، ولعل أهمها كانت محطة الطاقة الصربية. وقد احتوت بعض القنابل ملفات كربونية، تقتصر على تعطيل المحولات بدلاً من أن تدمر مولدات الكهرباء ذاتها، وهو ما أدى إلى قطع الكهرباء في المدن الرئيسية لما بين ثماني ساعات و24 ساعة. وبمجرد أن تمكن الصرب من إعادة تشغيل الكهرباء مرة أخرى، تم تنفيذ مزيد من الضربات الجوية باستخدام القنابل النارية الكربونية غير القاتلة (Ignatieff 2001:107). ومن بين التدابير غير القاتلة الأخرى التي استخدمت في تلك الحملة موجات لاسلكية وإلكترومغناطيسية كان لها دور حاسم في شل النظُم الإلكترونية للدفاع الجوي الصربي.

كان الناتو محظوظاً مع عدوه. فصربيا لم تكن دولة شمولية، إذ كان يحكمها نظام سلطوي ضعيف نسبياً. واعتمد ميلوسيفيتش على شبكة من المستفيدين كان يكافئها باستمرار. وما إن بدأ الغرب استهدافهم عبر تجميد حساباتهم المصرفية في أوربا الغربية، ومنعهم من السفر إلى الخارج، وقصف سلسلة الكازينوهات والفنادق الخاصة بهم في الأسبوع الأخير من القصف، حتى مارسوا ضغوطاً على ميلوسيفيتش للاستسلام. وكان عدد قليل من الداعمين الماليين له من المواطنين الصرب، وكان معظمهم رجال أعمال

تتركز مصلحتهم الوحيدة في جمع المال، وإبقاء ميلوسيفيتش في السلطة لمدة طويلة كافية لجني أكبر قدر ممكن من الأموال.

ولكون صربيا دولة ذات اقتصاد متوسط الحجم، فقد كانت صغيرة بما يكفي لشن ضربات موجهة بدقة لتحقيق الأهداف المنشودة من دون دمار كبير، ومع ذلك كانت العواقب البعيدة المدى لحملة القصف تلك أكبر مما اعترف بها الناتو. ووفقاً للأمم المتحدة، فإن نسبة السكان الصرب الذين يعيشون حالة فقر قد تضاعفت في السنة التي تلت الحرب لتصل إلى 63٪ من إجمالي عدد السكان. وأورد البنك الدولي وصندوق النقد الدولي أن نحو 250 ألف شخص فقدوا وظائفهم في نتيجة مباشرة لقصف البنية التحتية المدنية. وفي بانسيفو ونوفيساد، وهما مدينتان تنافستا للحصول على لقب "الأكثر تعرضاً للقصف في صربيا"، دُمِّرت مصانع السيارات المزدهرة التي كانت توفر فرص العمل (Coker 2001:152).

منذ كوسوفو، تطورت إدارة العواقب إلى عقيدة: "منهج قائم على التأثيرات" للحرب. العمليات القائمة على التأثيرات هي اسم المنهج الذي يجب أن يحدد به التأثير المرغوب فيه لأي عمل أولاً، بغض النظر عن مجال هذا العمل وحجمه. في الهجوم الجوي الذي بدئ به غزو العراق، كان أول هم للأمريكيين هو تحييد فاعلية الدفاعات الجوية العراقية من دون أن يقوموا بالضرورة بتدمير الطائرات العراقية على الأرض. وعليه تم إبطال فاعلية نظام الدفاع الجوي العراقي من خلال سلسلة من العمليات المعدة خصيصاً لهذا الغرض، ومن ذلك ضربات انتقائية "صلبة" ضد مقرات القيادة والتحكم (فإذا أصبح الطيارون من دون تعليمات ولا أجهزة رادار ترشدهم ولا اتصالات، فمن غير المرجح أن يظلوا فاعلين)، وكذلك عبر سلسلة من "الضربات الناعمة" (بتغذية نظام المعلومات العراقي ببيانات غير حقيقية، ونشر فيروسات في الحواسيب) (Stephens 2007:134).

في هذا كتب ألان ستيفنز Alan Stephens: جاء مصطلح "العملية القائمة على التأثيرات" لكي يعرِّف فلسفة الحرب بأنها أكثر من عقيدة. الهدف هو تحقيق تأثير بعينه، وتجنب كل من العواقب المتوقعة وغير المتوقعة بأقل تكلفة ممكنة (Stephens 2007133-4). لكن فلسفة إدارة المخاطر لها مثالبها أيضاً. ذلك أن أثر ضربة جوية، على سبيل المثال، لا يتضح دائماً في حينه (Adam 2003:219)، بل إنه حتى لا يتضح دائماً في لحظة التأثير، وهذا هو الأهم. ففي الأغلب تكون التداعيات السياسية كامنة، أو بعبارة أخرى غير مرئية لكل أحد. وفي الأغلب تظهر المخاطر في شكل أعراض في وقت متأخر، وفي الأغلب تصل إلى مرحلة حرجة قبل أن يتم الاعتراف بها. إن المدة الفاصلة ما بين الفعل والتأثير (من حيث العرض الكامن) هي التي في الأغلب تشكل أهمية حاسمة في تحديد إن كان بالإمكان الإبقاء على الدعم الشعبي للحرب.

إن فضاء المعركة الحديثة هو بيئة معقدة للغاية. ويتم تعليم الجنود في كليات الأركان أنه كلما زادت المخاطر غير المعترف بها في وقتها، كان مرجحاً أن تتضاعف (Adam 2003:220). وعندما تكون المخاطر كامنة، فمن المرجح أن تصبح تكلفتها مرتفعة عندما تنفجر القنبلة الموقوتة في النهاية. ويعد هذا أمراً إشكالياً، وبخاصة في ضوء سرعة الحرب الحديثة التي ترجعنا إلى حقيقة أن السرعة في الأغلب لا تلقي بالاً للتعقيد. يتعين اتخاذ قرارات الاستهداف بسرعة، وعادة تُفضَّل الأمور الفعالة على المدى المتوسط، مهما كانت عواقبها. ويميل النجاح الآني إلى أن يقود إلى اللامبالاة، وفي الأغلب يُنظر إلى النجاح في ميدان المعركة على أنه جائزة في حد ذاته.

حرب بلا نصر

لطالما كانت المعارك مهمة لأن الانتصار كان هدف معظم الحملات العسكرية تقليدياً. استدعت هنّا آرندت في كتابها المهم **بين الماضي والمستقبل** *Between Past and Future*، جانوس إله الرومان، وهو إله البدايات والنهايات الذي كان له زوجان من العيون؛ زوج ينظر به إلى الماضي وآخر ينظر به إلى المستقبل. نُظر إلى جانوس، بفضل قدرته

على الرؤية المتزامنة لما لا يستطيع أن يراه البشر أبداً، على أنه يربط الماضي بالمستقبل. في الأيام العظيمة للجمهورية اعتادت الفيالق العسكرية أن تنطلق من المنتدى عبر بوابات جانوس، لكي تضمن بداية صحيحة للحرب، وتسير عبر البوابات في نهاية الحملة التي كانت تنتهي دائماً إما بالنصر وإما بالهزيمة (Arendt 1997:vii).

ولايزال السعي لتحقيق النصر افتراضاً تقليدياً للدراسات العسكرية. وقد شجع كلاوزفيتس قُرّاءه على أن يروا النصر بحسابات المعركة. وفي الأكاديميات العسكرية لايزال الجنود يُعلَّمون أن المعركة هي "جوهر" الحرب، وأنها "وظيفتها الرئيسية". وأن القتال المركز المحدود الحاسم، هو ما يجعل الحرب مفيدة سياسياً.

> الحرب هي صراع بين متصارعين، كل منهما يسعى لإجبار الآخر على تحقيق إرادته من خلال القوة المادية، وهدفه الآني هو أن يطرح العدو أرضاً، ومن ثم يجعله غير قادر على مزيد من المقاومة. وعليه فإن الحرب هي فعل قوة لإرغام العدو على فعل ما نريد... القوة (بمعنى القوة المادية) هي الأداة، والغرض هو فرض إرادتنا على العدو (Heuser 2002:84).

إن فرض إرادة المرء على الآخر لا يتطلب بالضرورة التمادي في القتل. وقد أوضح كلاوزفيتس أن الغرض الأساسي للمعركة غرض نفسي «الأمر ليس مجرد قتل متبادل، وتأثيره الحقيقي هو قتل شجاعة العدو وليس قتل محاربي العدو» (Heuser: 2002:85).

وهذا التشبيه الذي استخدمه كلاوزفيتس مثير للاهتمام، نظراً لأننا لانزال نرى الحرب بمعايير التنافس الرياضي: يتم خوضها "بشكل نظيف"، و"حاسم"، وبشكل خاص "وفقاً للقواعد". وفي ذلك، يرى وليام برويلز، أحد محاربي حرب فيتنام، أن كثيرين منا «يحبون الحرب بطرائق غريبة ومزعجة». ويضيف أن الرجال، لا النساء، هم الذين يحبون الحرب، لأنهم يحبون الرياضة. «الحرب لعبة وحشية وقاتلة، ولكن الأهم أنها لاتزال لعبة» (Kassimeris 2006:4). وكلما ازداد المرء تعمقاً في طبيعة الألعاب كان أسرع ما يكون في تحديد مبدأ رئيسي وهو: أن الألعاب تؤسس الفيصل بين النصر والهزيمة

(Gelven 1994:93). فنحن نلعب لكي نكسب، وبصفة عامة نستقي سعادتنا من الانتصار وليس من اللعب. قد نستمتع بلعب لعبة ما حتى لو خسرنا، إلا أنه لا يمكن القول بأننا نلعب لكي نخسر من دون أن يؤثر ذلك في منطق اللعبة. فالفوز يعطي المنتصر شعوراً بالرضاء الوجودي. وهو يحرص عليه أكثر من المهزوم (Gelven 1994:98).

إن التعامل مع الحرب على أنها لعبة يحول ميدان المعركة إلى ملعب، ويربط الفوز بتحقيق القيمة والمكانة. ولهذا السبب لايزال الأمريكيون في معظم أحاديثهم اليومية، يتحدثون عن "عراك" الحروب fighting wars، ولايزالون أكثر تردداً في الحديث عن "شن" الحرب waging war، وأكثر تردداً في الحديث عن "المحاربة" warring. إنهم يتحدثون وكأن ما يميز الحرب عن الأعمال الأخرى للعنف الجماعي هي اللحظة الحاسمة في ميدان المعركة التي يلقى فيها بالنرد وتقرر القضية.

كل هذا ينعكس في النقاش الداخلي الذي تجريه المؤسسة العسكرية الأمريكية مع نفسها. وهي تقر اليوم **اثني عشر** مبدأ للعملية. تسعة مبادئ تسمى المبادئ التقليدية: الهدف، والهجوم، والكتلة، واقتصاد القوة، والمناورة، ووحدة القيادة، والأمن، والمفاجأة، والبساطة. وقد أضيفت ثلاثة مبادئ أخرى كانت قد طورت في الأصل لعمليات بعيدة عن مجال الحرب، وهي: ضبط النفس، والثبات، والشرعية. وفي هذا يرى أنتوليو إتشيفاريا Antulio Echevarria أنه ليس ثمة مبدأ واحد من تلك المبادئ الاثني عشر يرقى لأن يكون مبدأ أصيلاً للحرب، لأنها جميعاً تتعلق بفعل القتال، أو الحصول على مزية تكتيكية على الخصم، وعلى رغم أن تلك مهمة حساسة فإنها ليست كافية في ذاتها لتساعد الغرب على التفوق في "الحروب الطويلة" التي سيجد الغرب نفسه يخوض غمارها .(Echevarria 2007:162)

ما يقوم به الغرب الآن هو إدارة مخاطر، وعلى المدى البعيد. ولهذا السبب يجب عليه أن يتساءل السؤال الآتي: هل أصبح النصر الآن بعيد المنال؟ أو لعل السؤال الأهم هو: هل النصر هدف مفيد؟ فكما يُفهم تقليدياً، ووفقاً لروبرت سميث، فإن الحرب لم تعد

تجلب النصر، لم تبق «حدثاً هائلاً حاسماً في النزاع في الشؤون الدولية» (Smith 2005:1). ويضيف المؤرخ العسكري روجر سبيلر Roger Spiller: «أصبح النصر مفهوماً بائداً» في الحرب على الإرهاب (Spiller 2005:356). وقد عزز تقرير قُدِّم لوزراء الدفاع في الاتحاد الأوربي في تشرين الأول/ أكتوبر 2006، هذه الخلاصة؛ حيث ذكر أن الحرب قد أصبحت غير متوقعة في عواقبها بشكل كبير، إلى حد أنه يجب على العسكر تجنب المفهوم التقليدي عن «النصر الصريح»، والتركيز بدلاً من ذلك على الترويج لتحقيق «أمن أفضل» (*The Times,* 25 November 2006).

وعلى رغم أن دونالد رامسفيلد قد قال: «ليست لدينا استراتيجية للخروج، ولكن استراتيجية للنصر»، فإنه كان أول من يقدم نموذجاً جديداً لتقويم النجاح في الحرب الطويلة، عندما أعيدت تسمية الحرب على الإرهاب (Hagan 2007:17). لقد قادت البيئة الأمنية المتغيرة قبل نهاية الحرب الباردة بمدة طويلة، الولايات المتحدة إلى الاعتراف بأن الحرب قد طورت منطقاً جديداً تماماً:

> في المستقبل، ربما تكون كلمة "نصر" أقل تبلوراً مما كانت عليه في الماضي. ربما تجب إعادة تعريف النصر في قوالب أخرى؛ مثل إعادة ترسيخ الاستقرار الإقليمي. وربما ينطوي أيضاً على عنصر زمني، ويُعرَّف من حيث فترات الهدوء أو عدم وجود أعمال عدائية... يمكن تحقيق النصر عندما يلبي الخصم طلبات محددة، مثل إبقاء قواته في الحدود المطلوبة، وتوفير المعاملة الإنسانية للأقليات، أو السماح بحدوث المعاملات الاقتصادية (Alexander 1999:204).

في حالة الحرب على الإرهاب، طورت الولايات المتحدة مجموعة من المؤشرات لتقويم النجاح والإخفاق:

- هل نتعامل مع الأسباب الجذرية للإرهاب؟
- هل نكسب العقول والأفئدة؟
- هل نشجع الإرهابيين على الانشقاق عن الحركات الإرهابية؟

- هل نُصعِّب عمليات تجنيد إرهابيين جدد؟
- هل نقطع التمويلات؟
- هل ننهي دعم الدولة لهم؟
- هل نقلص الفاعلية العسكرية للجماعات الإرهابية؟

ثم إن هناك إحصاء عدد القتلى (ديناميات القبض والقتل في اللغة العسكرية العامة اليوم): كم عدد الإرهابيين الذين يتم قتلهم كل أسبوع؟ مع أن رامسفيلد قد أقر قبل ترك منصبه بأن هذا ربما يكون أحد أقل المؤشرات أهمية لقياس النجاح. ولعل الموضوع المحوري للحرب على الإرهاب، مع أنه نادراً ما يذكَر علناً، هو أن النصر في عصر المخاطر لم يعد ممكناً؛ كل ما يمكن السعي لتحقيقه هو إدارة أكثر فاعلية للفوضى العالمية الحاصلة. النجاح الآن يعني تقليص حالة انعدام الأمن والفوضى إلى مستويات أكثر قبولاً.

لعل إحدى المشكلات التي تواجهها العسكرية الآن هي إقناع الرأي العام في الداخل والخارج بأنه ينبغي ألا يُنظر إلى "الإخفاق" في تحقيق نتيجة حاسمة في ميدان المعركة، حتى "الإخفاق" في جلب العدو للمعركة، على أنه انتكاسة، فلايزال ذلك أقل من الهزيمة. وقد اتضح هذا المأزق في آب/ أغسطس 2006 عندما قامت القوات الإسرائيلية بغزو جنوب لبنان، لقد كانت عملية عسكرية كبيرة، وقد استخدمت القوات الإسرائيلية كماً هائلاً من الذخيرة يعادل ما استخدمته في حرب عام 1973، وقتلت عشرة مسلحين من "حزب الله" مقابل كل جندي إسرائيلي لقي مصرعه في تلك الحرب، أو نحو 25٪ من قوة "حزب الله" التي شاركت في الخطوط الأمامية للقتال (وهو ما انعكس على ما يبدو في حالة شبه السكون للحزب في العام الذي أعقب الحرب). وعلى رغم أن الإسرائيليين لم يخسروا الحرب، فإن العالم اعتقد أنهم خسروها لأن الصراع استمر. ويبدو أنه لم يتم تحقيق نتيجة حاسمة.

ما أخفقت العسكرية الإسرائيلية في استيعابه عام 2006 أنه: إلى أي حد قد تغيرت بيئة الصراع؟ ذلك أن "حزب الله" ليس دولة؛ إنه كيان غير حكومي متعمق بشدة في

لبنان، ومنطق عملياته ومفهوم المكافآت والقيود لديه يختلفان بشكل جذري عما في معظم دول العالم. "حزب الله" ليس جيشاً؛ إنه شبكة معقدة تشمل ذراعاً عسكرية متطورة ومسلحة جيداً. ومع ذلك فهو أيضاً حركة سياسية، وهو كذلك دولة داخل الدولة في لبنان، وهو يعد الآن أكبر مالك للعقارات في البلد. إنه حركة اجتماعية، وكذلك حليف ووكيل لسورية وإيران، وله حضور عالمي يربطه بالحركات والمصالح الأخرى عبر العالم. إن النظام هو ما ينبغي استهدافه إذا ما أراد الإسرائيليون إضعاف قبضته على الخيال. وهذا يستدعي، كما يرى أوريت غال Orit Gal، استراتيجية مختلفة عن تلك التي اتُّبعت عام 2006؛ استراتيجية استنزافية، تطورية وتكيفية، ويتطلب حقاً استراتيجية شبيهة بتلك التي يستخدمها "حزب الله" ضد إسرائيل (Gal 2008:29-31).

هل يمكن تقويم حملة ضد تمرد من قبل طرف ليس دولة بمعايير الحسم؟ ما الذي يمكن أن يشكل "نصراً" غير القضاء على الحركة؟ وما وتيرة العمليات العسكرية التي ينبغي انتهاجها؟ يضيف غال أن لجنة فينوغراد التي شكلها الكنيست للتحقيق في حرب عام 2006، لم تطرح أياً من تلك الأسئلة. بدلاً من ذلك، فإن تقرير اللجنة وصف المحصلة بأنها «فرصة ذات خطر ضائعة»، وهي خلاصة تم التوصل إليها في ضوء اعتقاد خاطئ أنه كان يمكن تحقيق «نصر عسكري واضح».

لم تحسم كل الحروب في ميادين المعارك. وهذه حالة أخرى من تلك الحالات التي مهدت لعصر المخاطر. خذ على سبيل المثال النقاش الذي دار بين جنرالين سابقين في الحرب العالمية خلال الحرب الكورية. أحدهما، ويدعى دوغلاس ماك آرثر، قال للكونغرس عقب إقالته من منصبه إنه لم يكن هناك بديل من النصر. وقد جلب على نفسه غضب ترومان بسبب عدم القدرة على كسب الحرب بتوجيه ضربة نووية للصين. أما آيزنهاور الذي تولى منصب الرئاسة بعد ترومان، فقد استقر رأيه على هدنة تركت الأطراف المتصارعة عند خط الطول 38 حيث اندلعت الحرب. عقب ذلك اعترف بأن

الشيء الوحيد الذي خشي منه أكثر من خسارة الحرب الباردة كان كسب الحرب. "النصر" يعني الآن ضمان أن الحرب لن تندلع أبداً.

النصر ليس خصيصة لمنظمة ما، بل نتيجة لنشاط تنظيمي. والنتائج العسكرية وحدها ليست دائماً مقياساً مفيداً للفاعلية. يرى روبرت سميث أن الهدف من أي تدخل عسكري يجب أن يكون ترسيخ ظروف محددة على الأرض يمكن منها تقرير نتائج سياسية. وفي هذا السياق، من الأجدى الحديث عن النجاح، وهو مفهوم يحتاج أيضاً إلى إعادة تعريفه باستمرار. في حديث لرئيس أركان القوات البريطانية عام 2007، تحدث عن تحقيق النجاح في مسارح العمليات مثل أفغانستان، قائلاً: «على أي حال، نحن الذين نحدد ما هو النجاح» (Dannatt 2007). يبدو أن عصر الأهداف الكلية قد ولى، وأن إدارة المخاطر تتطلب إطاراً تحليلياً جديداً.

فوضى ذات مغزى: حالة "عملية الحرية العراقية"

فيما يتعلق بالتدخل في العراق، أشار باتريك أورورك إلى الآتي: «لقد فجرنا المكان، وتركنا فوضى من خلفنا... لكنها فوضى ذات مغزى؛ أن لا تعبثوا معنا» (O'Rourke). ولعل أفضل توضيح لهذا التفكير هو زيادة القوات في العراق؛ القرار الذي اتخذ عام 2007 بنشر 30 ألف جندي إضافي في العراق أملاً في السيطرة على الجماعات المسلحة، وهي استراتيجية حققت على الأقل في العام الأول بعض النجاح.

دعونا نعد للبداية. لقد كان غزو العراق مثالاً على إدارة المخاطر في أحد جوانبها الحساسة. فقد كانت "عملية الحرية العراقية" حالة كلاسيكية لما تطلق عليه صناعة التأمين "الخطر المعنوي". ذلك أن الأشخاص الذين يملكون وثائق تأمين على الحياة يميلون إلى أن يعيشوا حياة محفوفة بالمخاطر، أي أنهم يُقبلون على المخاطر التي ما كان لهم أن يُقدموا عليها لو لم يكن لديهم تأمين. كما أن قائدي سيارات السباق يخاطرون بحياتهم لأنهم أمهر سياقةً منا. بشكل مشابه، شجعت الثورة في الشؤون العسكرية الولايات المتحدة على

خوض الحروب في المقام الأول (Rasmussen 2007:74). لم تعان الولايات المتحدة قط خطر خسارة صراع تقليدي. وقد أعرب أحد الشخصيات المطّلعين في واشنطن عن هذا من قبل قائلاً: سيكون هذا «سهلاً» (Adelman 2002). وكل التوقعات المتشائمة بأنه سوف تكون هناك حرب شوارع متلاحمة في بغداد، أو نزوح اللاجئين إلى المعسكرات التي بنيت لهم في الكويت لم تتحقق. ومع ذلك لم تستعد الولايات المتحدة للعواقب؛ لمرحلة ما بعد النصر وإخفاقها في العثور على أسلحة دمار شامل، وهو ما حول الجيش الأمريكي من قوة تحرير إلى جيش احتلال. وبدت "عملية الحرية العراقية" استخداماً غاشماً للقوة، لا لأي هدف إلا لذاتها.

فعلت الولايات المتحدة ذلك لأنها قادرة على فعله. "فقط افعلوها"، هذه هي الجملة التي كتبت على القمصان التي ارتداها الشبان الكوسوفيون عام 1999 عندما حثوا الناتو على التدخل. وهكذا ربما كانت عبارة "قوموا بذلك لأنكم تستطيعون ذلك فحسب" هي شعار المهمة العراقية.

بمجرد أن تقرر دولة ما أن لديها القدرة على القيام بشيء ما ففي الأغلب تخفق في طرح سؤال "إن كان ينبغي القيام بذلك"، ويتحول الأمر إلى "كيف ينبغي القيام به"، فالسؤال "إن كان ينبغي" يشمل "ما الذي قد يحدث إذا ما اندلعت عمليات تمرد ومقاومة". لكن الولايات المتحدة، بصفتها مجتمع مخاطر، لم تكن مستعدة للالتزام. وكان عدم التزامها هو الذي أثبت مغزاه في النهاية. "إذا حطّمتَها ملكتَها"، هكذا حذر كولن باول الرئيس بوش في مدة الاستعداد للغزو؛ إذ قال محذراً: «سوف تفخر بامتلاك 25 مليون نسمة. سوف تملك كل آمالهم وتطلعاتهم ومشكلاتهم» (Ricks 2006:48). لكنها كانت ملكية يرغب مجتمع المخاطر في تجنبها بكل التكاليف. عندما قامت القوات الأمريكية باحتلال بغداد بعد عشرين يوماً من الحملة، سعى قائد القوات الأمريكية في العراق إلى فرض القوانين العسكرية، لكن البنتاغون ألغى الأمر بشكل فوري؛ إذ رأى كبار المسؤولين أنه لا ينبغي أن يتم وصف الولايات المتحدة بالمحتل، كما حدث في ألمانيا

واليابان عام 1945. الاحتلال مصطلح ينطوي على مسؤوليات والتزامات قانونية وسياسية وأخلاقية محددة، كان يُلزم الولايات المتحدة بتوفير دعم طويل المدى للدولة العراقية (US Senate 2003). وهذا بالضبط ما أرادت الولايات المتحدة أن تتجنبه، فمجتمع المخاطر يخشى الالتزام، في حين يُطلب منه تولي مسؤولية أكبر من ذي قبل عن الحياة اليومية لمواطنيه هو.

إن الرغبة في تجنب أي التزام طويل المدى هي التي دفعت إدارة بوش إلى الإفراط في اعتقاد أن الولايات المتحدة سوف تعمل في بيئة متسامحة؛ أي أن العراقيين سوف يستقبلون القوات الأمريكية بالأحضان. وكما ذكر بول ولفوفيتز: «أنا واثق جداً أنهم سيستقبلوننا استقبال المحررين، وهذا سيساعدنا على تقليص المتطلبات» (Ricks 2006:98). وبطبيعة الحال فقد تلاشى أي أفق لصحة هذه المقولة بسبب إخفاق القوات الأمريكية في توفير الخدمات الأساسية مثل الماء والكهرباء.

إضافة إلى ذلك، ظلت الإدارة الأمريكية في الشهور التي أعقبت سقوط بغداد، تفرط في التركيز على بيانها الرئيسي وهو البحث عن أسلحة الدمار الشامل غير الموجودة. ولم تتخذ الإدارة الأمريكية قبيل الغزو إجراءات تذكر للتعامل مع الفوضى التي نشأت مع انهيار الدولة، وهو ما خلّف فراغاً في السلطة سرعان ما استغله المجرمون والمسلحون وأعضاء حزب البعث السابقون. وكان التركيز الرئيسي لتخطيط ما بعد الصراع، وفق أحد مسؤولي الحكومة، هو أن العمليات ستكون «ترقيعاً وليست إعادة تصميم» (Gordon and Trainor 2006:468). هذا هو ما تفضل مجتمعات المخاطر أن تفعله: أن تُرقِّع، أو تُدعِّم، أو تعزّز. وعلى رغم أن إدارة المخاطر ربما تكون استراتيجية طويلة المدى، فإنها تشكل في العادة سلسلة من الإجراءات القصيرة المدى، وليست مشروعات كبيرة كجهود بناء الدولة فيما بين عامي 1945 و1950.

ماذا عن الديمقراطية إذاً؟ هنا أيضاً بنَت الإدارة الأمريكية آمالها على أن التطلع إلى أن العراق دولة يمكن إدخالها في العصر الديمقراطي كان عالمياً. وكما ذكر نائب حاكم

العراق، جاي جارنر: «لن نكون هنا [لمدة طويلة بما يكفي] لترسيخ الديمقراطية من القاع». ربما كانت الديمقراطية من بين أحد أكبر الدوافع السياسية لقرار غزو العراق، لكن لم يتم تخصيص إلا موارد قليلة لتشجيعها في المدة الآنية لما بعد الصراع. وحتى هنا سادت نزعة المدى القصير.

وقد عُزي الارتفاع المتنامي للجريمة، بما شجع الفوضى، إلى الإخفاق في تخطيط زمن ما بعد الصراع. يبدو أن الولايات المتحدة لم تدرك أن العراق كان بالفعل دولة إجرامية، وأن الدولة تحت حكم صدام حسين قد أصبحت دولة حزب واحد وأسرة واحدة، يهيمن عليها أفراد الأسرة المقربون والأتباع المحليون، وأن النظام البعثي كان أقرب ما يكون إلى عصابة جريمة منظمة منه إلى مؤسسة سياسية. ونتيجة لعدم رضا النظام عن فقدان السلطة قام بتنظيم انتفاضة أولية. في البداية، ظن النهّابون والمجرمون أصحاب السوابق والشبان العاطلون المعدمون أن تحالفهم معاً يمنحهم قوة جماعية للسرقة والقتل، وأن يوفروا لأنفسهم موطئ قدم داروينياً* في الاقتصاد المحلي (Looney 2005:67). وعلى حين اكتسبت الجماعات المسلحة زخماً، فقد استخدمت الأطراف السياسية مثل القاعدة موجة الجرائم لتمويل أنشطتها. ولعل أكبر جريمتين كانتا تهريب النفط (في الأغلب يزيد الطين بلة إعادة بيع النفط للحكومة مرة أخرى)، والخطف الذي ارتفعت نسبته من 1٪ من إجمالي الجرائم التي سجلتها الشرطة في عهد صدّام إلى 70٪ عام 2004. وفي ذلك العام، وصل متوسط عمليات الخطف في بغداد إلى اثنتين يومياً. وعلى رغم أن الجماعات المسلحة هي التي كانت تعطي أوامر تنفيذ عمليات الخطف، فقد كانت تعهد بذلك لعصابات إجرامية.

هناك ثلاث طرائق للنظر في هذه الظاهرة. الأولى هي النظر إليها باعتبارها نشاطاً إجرامياً محضاً، بارتداد المجتمع إلى "حالة من البدائية"، وخصخصة العنف بطرائق

* نسبة إلى تشارلز روبرت داروين Charles Robert Darwin (1809 – 1882): عالم تاريخ طبيعي إنجليزي، اشتهر بنظريته في التطور، ومن أبرز مؤلفاته كتاب أصل الأنواع The Origin of Species (المحرر).

أخرى. والثانية أن ننظر إلى الرابط بين الجريمة والعنف السياسي باعتباره سمة لعصر معولم. وكلتا المجموعتين تغذي إحداهما الأخرى. وهذه ليست ظاهرة قديمة بل جديدة، ولا تمثل تعهيداً للحرب، أو خصخصة العنف، بقدر ما تمثل فقداناً لبوصلة الحرب. أما الطريقة الثالثة للتعامل مع الموضوع فهي أن ننظر إليه من حيث الجوانب السلوكية؛ فانعدام الأمن يتزايد في عصر المخاطر. وتميل الشبكات لإنتاج "خصائص طارئة". ففي عالم متشابك، يمكن أن يصبح العنف ذاتي الدفع والاستمرار (ليس له منطق سياسي خاص). في عام 2003، أخفق الأمريكيون في منع تطور المرحلة التقليدية من الحرب في العراق إلى مرحلة غير تقليدية، وأخفقوا من ثم في إدارة عواقب نجاحهم الأولي لأنهم أخفقوا في تشبيك الأمن.

ما يجعل الحرب ذاتية الاستمرار هو أن تكاليف التفاعل منخفضة جداً. والتمرد المتشابك هو سمة عالم متشابك، والعالم المتشابك هو تحول تاريخي إلى مشهد اجتماعي جديد من الحرب، تماماً كما تغير المشهد الاجتماعي للحرب بعد "وستفاليا"،* وإن كان التغير حينذاك لصالح الدول والجيوش والمعارك الحاسمة في ميادين القتال التي عُزلت عن المجتمع بأسره. ونتيجة لذلك استطاعت الدولة ادعاء احتكار العنف.

لعل أفضل من كتب عن المجتمع المتشابك هو مانويل كاستيلز Manuel Castells في ثلاثيته الأصيلة ذات العنوان **عصر المعلومات** *The Information Age*. وبتطبيق نظرياته بشكل مبسط على العراق، يمكن أن نصوغ خمس مقولات. [أولاً] القوة في القرن الحادي والعشرين مدمجة وليست في يد طرف واحد، مثل الدولة، أو الفاعلين من غير الدول، أو المنظمات غير الحكومية، أو حتى العصابات الإجرامية. إنها مدمجة في الشبكات، وعندما تتعاون الأطراف من غير الدول (المتمردون) مع المجرمين، يجدون أن قوتهم

* صلح وستفاليا أو سلام وستفاليا: اسم يطلق على معاهدتي سلام عقدتا في مدينة وستفاليا الألمانية عام 1648، وتم بموجبهما إنهاء حرب الأعوام الثلاثين في الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وحرب الأعوام الثمانين بين إسبانيا وجمهورية الأراضي الواطئة السبع. ويعد أول اتفاق دبلوماسي في العصر الحديث، وقد أسس لنظام جديد في أوربا يقوم على مبدأ سيادة الدولة. (المحرر)

الجماعية أكبر من العنف الفردي الذي يمكن أن يقوموا به بمفردهم. [ثانياً] الأطراف الفاعلة، سواء كانت دولاً أو منظمات غير حكومية، ما هي إلا نقاط وصل في شبكة، ويميل عدد الأطراف إلى الزيادة مع الوقت. [ثالثاً] كل من هذه الأطراف الفاعلة هو ضعيف بمفرده، لكنه عندما يقومون بالتشبيك معاً تزداد قوتهم بصورة كبيرة. [رابعاً] إن التشبيك هو ما يشكل الطبيعة الذاتية الدفع التي تميز الحرب هذه الأيام. فالأهداف أو المقاصد الشخصية ليست بالأهمية ذاتها مثل الكتلة الحرجة (الكتلة الحرجة التي تنتج خصيصة طارئة، أو سلوكاً طارئاً). [خامساً] مثل هذه الصراعات يصعب وضع نهاية لها، لأن الشبكات لامركزية، إذ لم يبق هناك مركز جاذبية تمكن مهاجمته دوماً، بل يكون هناك دائماً طرف سياسي تتحاور معه (Castells 2001). الأمر الجيد هو أن مبدأ التدهور الحتمي ينطبق على هذا. كل شيء يتوقف عن العمل في النهاية، حتى التمرد المسلح. لكن مثل هذه النزاعات يمكن أن يستمر إلى النهاية، فقط إذا كانت تنتج فعلياً محصلة إيجابية: درجة أقل من الشعور بعدم الأمان للجميع. إنه هدف متواضع لكنه مهم، فإدارة المخاطر تُعنى بتقليص الشعور بعدم الأمان، وليس بتوفير عالم آمن.

باختصار، إن التمرد الذي أعقب سقوط صدام حسين قد غذّاه إخفاق التحالف في توفير أي أمن لهؤلاء الذين حرروهم للشعب العراقي؛ سواء أكان في صورة كهرباء، أم وظائف، أم سبل المعيشة الشخصية، والأمن هو الأهم. يُذكر أن انهيار الاقتصاد الرسمي أرغم الآلاف على اللجوء إلى اقتصاد غير قانوني يتمثل في الابتزاز الإجرامي، والخطف، والتهريب، والإرهاب.

في ذلك الوقت، تُركت للتحالف مهمة تأمين ما يستطيع تأمينه: أولاً، قواته، ثم مرافق البنية التحتية الأساسية الخاصة بالاتصالات وإمدادات النفط. وسرعان ما وجد نفسه يعتمد على أطراف "أمنية" متعددة لم تكن موجودة من قبل. بدأت القوات الأمنية تزداد في جهات كوزارة الداخلية. وإضافة إلى الشرطة العادية كانت هناك كتيبة الشرطة الميكانيكية، ووحدة الشرطة الوطنية للاستجابة للطوارئ، وثلاث كتائب شرطة خاصة

للحدود ترتبط بشكل كبير مع المجتمعات الموجودة على الحدود. وعلى رغم أن القائمة كانت طويلة فإنها لم تشمل الفرق الثماني عشرة والجهاز الكبير الذي يُعرف بجهاز حماية المنشآت. وبحلول تشرين الأول/ أكتوبر 2003، وصل إجمالي عدد أفراد هذه الأجهزة إلى 300 ألف رجل، لم يتم تدريبهم وتسليحهم جيداً. وبمجرد أن تمسي دولة ما غير قادرة على توفير الأمن يهب آخرون لشغل هذا الفراغ.

إضافة إلى ذلك، لم تتضح المهمات التي كُلّفت بها تلك الأجهزة قط. ولم يمض وقت طويل حتى بدأ يساور المراقبين الشك والريبة في أن تلك الأجهزة تؤمّن وتحمي الوظائف والمناصب السياسية لهؤلاء الذين دفعوا لها أو اخترقوها. بل إن كثيراً من تلك الأجهزة قد أصبح فعلياً بمنزلة جيوش خاصة. وحتى القوات الوطنية أفسدتها المصالح الخاصة، وانخرط معظمها في لعبة طويلة المدى، استخدموا فيها العنف (أو التهديد باستخدامه) من أجل المناورة والتفاوض للوصول إلى السلطة على المستوى الوطني أو الإقليمي. وسعى كل طرف أن يجعل الآخر يفهم أنه ليس بوسعه أخذ كل شيء، وأن نوعاً من الصفقات يجب أن تُبرم، وهو ما كان يحدث في نهاية المطاف. وبمجرد أن تخلّى العراقيون السنّة عن المنافسة على السلطة صيف عام 2007 (تم شراء نحو 80 ألفاً منهم بالأموال) لم يعد الشيعة بحاجة مبدئية لاستخدام وحدات مثل جيش المهدي. وانقسمت حركة الصدر إلى قادة متناحرين وقادة عصابات، وهو ما جعل من السهل القضاء عليهم من الجيش العراقي الناشئ، الأفضل تسليحاً وتدريباً وقيادة.

لقد كانت طريقاً طويلة انطوت على منحنى تعليمي طويل، ومع ذلك فالرحلة لم تنته بعد. من المرجح أن تظل العراق غير آمنة لسنوات تأتي، على رغم أنها قد لا تُقسَّم أو تصدِّر العنف للدول المجاورة على النحو الذي خشي منه بعض الناس في بعض المراحل. لكن ما أبرزه غزو العراق هو إحدى معضلات عصر المخاطر. البحث عن الأمن يرغمنا على التصرف (في حالة العراق الخوف من أسلحة الدمار الشامل لصدّام)، والإخفاق في التصرف ربما يجعل المخاطر التي يجب أن نواجهها. ليست هناك

أرض خصبة أفضل لتفريخ المخاطر من الإنكار أو الخمول. لكن إذا كان المرء خائفاً بشكل مفرط، ويسعى لتأمين المستقبل على أساس معرفة غير مكتملة، أو إذا أصبح كل شيء خطراً يجب اتخاذ تدابير حياله ولايزال هناك متسع، عند ذلك قد تتزايد المخاطر، وتجعلنا جميعاً أكثر إحساساً بفقدان الأمان. ويطلق على هذا "مصيدة المخاطر"؛ فكل من التفريط في اتخاذ إجراءات كافية، والإفراط في اتخاذ تدابير زائدة، على السواء، يمكن أن يكونا قاتلين (Rasmussen 2007:39). ويكمن الحل في القيام بما هو كافٍ فقط، من دون تفريط ولا إفراط.

المنطق ذاته جرى تطبيقه مع إطاحة صدام حسين من السلطة. وبالنظر إلى ما حدث، يمكننا أن نرى أن حرب العراق قد كُسبت وخُسرت في اليوم ذاته. وفي هذا يقول مايكل راسموسن: إن "أيقنة" النصر كانت مذهلة، لكن تمت إعادتها بعناية، فقد طار الرئيس إلى حاملة الطائرات الأمريكية أبراهام لينكولن، وهي التي أطلق منها أول هجوم بصواريخ كروز على أسامة بن لادن في أواخر التسعينيات. وبخلاف الرئيس ويتمور في فيلم **يوم الاستقلال**، ربما لم يكن الرئيس بوش طياراً في "عاصفة الصحراء"، لكنه تعلم الطيران في الحرس الوطني، وقاد طائرته إلى نحو نصف المسافة عبر المحيط الهادي (وإن لم يسمح له بالهبوط على حاملة الطائرات). «المهمة أنجزت»، هكذا جاءت عناوين الصحف، وحمل الحديث الأصلي كلمات ماك آرثر بمناسبة استسلام اليابانيين عام 1945: «صمتت أصوات إطلاق الرصاص». وفي اللحظة الأخيرة تم حذف هذه العبارة، لأن أصوات إطلاق الرصاص لم تتوقف، فالحرب لم تنته، بل إنها في الحقيقة قد بدأت للتو.

ومع ذلك فقد بدا النصر مكتملاً، والتزمت الولايات المتحدة بالنص لعامين تاليين. بل إن الصور التي بُثَّت على شاشات التلفزة قد استدعت ذكريات الحرب العالمية الثانية. قال بوش في أول أيار/ مايو 2003: «لقد شهدنا في صور سقوط التماثيل قدوم حقبة جديدة [من الحرب]» (Bobbitt 2008:208). لقد أعادت صور سقوط تمثال صدام حسين إلى الأذهان الصورة الأيقونية لأحد جنود الجيش الأحمر وهو يرفع العلم الأحمر

أعلى مبنى "الرايشستاج"* المدمر في برلين (مشهد تم إعداده بعناية من قبل الجيش الأحمر)، وكذلك الصورة التي التقطها روزنتال لقوات المارينز وهي ترفع العلم الأمريكي على جبل سوريباتشي في أيو جيما، ولعلها أشهر صورة لحرب المحيط الهادي. وتماماً مثلما تم تطهير ألمانيا من النازية، تم تطهير العراق من حزب البعث. وكان البحث لتعقب صدام حسين بعد ذلك أمراً مهماً؛ لأن محاكمته هدفت إلى طي الصفحة السابقة، تماماً مثلما قادت محاكمات نورمبرج الشهيرة إلى التطهير والسماح للألمان بالتحرك قدماً نحو الحرب الباردة، بوصفهم حلفاء للغرب حينئذ في المواجهة التالية مع الاتحاد السوفيتي.

لقد حقق الأمريكيون نصراً حاسماً، أو هكذا بدا الأمر، وهذه كانت هي المعضلة. فللأسف استمرت الولايات المتحدة في التقيد بالنصر المكتوب (المقصود به أسلوب الحرب التقليدية ذات البداية والنهاية الواضحتين) لمدة طويلة بعد أن تدهور الصراع إلى الانغماس في معارك خارج الرؤية الأصلية للحرب. وتعليقاً على أعمال النهب والسلب التي اندلعت في بغداد بعد سقوط صدام بمدة قصيرة، قال رامسفيلد: «من الطبيعي أن تحدث أمور كهذه». وعندما اندلعت أعمال التمرد المسلح عام 2004، واصل تسميته للمسلحين باسم «أصحاب الطريق المسدودة». لكنهم لم يصلوا إلى طريق مسدودة، بل الأمريكيون هم الذين وصلوا إلى ذلك، كما يضيف راسموسن (Rasmussen 2008).

* الرايشستاج Reichstag: مبنى البرلمان للإمبراطورية الألمانية في برلين منذ افتتاحه عام 1894 وحتى إحراقه عام 1933، وقد نسبت جريمة إحراقه لشيوعي كان في المبنى هو فان درلوب Van der Lubbe، وعلى أثر ذلك شنت الحكومة النازية حملة اعتقالات ضد الشيوعيين نالت جميع نوابهم في البرلمان، وبذلك تحول النازيون إلى أغلبية وتعززت سيطرتهم. وبعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية قُسّمت، واحتلت القوات السوفيتية برلين التي أصبحت عاصمة لدولة اشتراكية عرفت بجمهورية ألمانيا الديمقراطية، بعد انسحاب السوفييت منها عام 1949، ولم يهدم مبنى الرايشستاج، بل أعيد بناؤه عام 1964، واستخدم لأغراض ثقافية وتاريخية، أما جمهورية ألمانيا الاتحادية فقد اتخذت مقراً لبرلمانها في عاصمتها بون أطلقت عليه البوندستاج. وبعد توحيد ألمانيا عام 1990 أعيد بناء مبنى الرايشستاج واتُّخذ مقراً للبرلمان الألماني مجدداً اعتباراً من عام 1999 مع تغيير اسمه إلى البوندستاج لأن ألمانيا لم تعد إمبراطورية (رايش reisch). وفي عام 2008 صدر عفو عن فان درلوب بعد وفاته. ولم يزل حريق مبنى الرايشستاج وعلاقة الشيوعيين والنازيين به موضوعاً بحثياً. (المحرر)

ولم تغير الولايات المتحدة هذا النهج إلا في عام 2007 فقط عندما اعترفت بأنها لم تنخرط في حرب بل في معارك. في هذه اللحظة بالضبط أعيد تعريف النصر على أنه: تقليص الضرر تحت مسمى آخر. وقد لاقت نجاحاً جزئياً. أخيراً، تم إفقاد تنظيم القاعدة توازنه، وقلصت بعض المليشيات عملياتها، على الأقل للمدة المذكورة، وأصبحت بغداد وضواحيها أكثر أمناً. لكن كل هذا كان بثمن، كانت زيادة القوات الأمريكية عملية تكتيكية عالية، لقد كانت حملة عسكرية، وليست مهمة لضبط الأمن، على رغم أنه جرى تسويقها للرأي العام على أنها توفر مزيداً من قوات الشرطة لضبط الأمن. في عام 2007، تضاعف عدد العراقيين في السجون ليصل إلى 30 ألف سجين، وعلى رغم أن أعداد الضحايا غير واضحة بشكل تام فإن عدد المسلحين الذين لقوا مصرعهم قد ارتفع عن العام السابق بنسبة 25٪. وعلى رغم أن العقيدة الجديدة لمكافحة المليشيات كانت ذات طابع مناهض لاستخدام التقانة، وبدا أنها تعارض استخدام القوة الجوية، فقد تضاعف استخدام الضربات الجوية إلى خمسة أضعاف عقب زيادة القوات مباشرة، وذلك مقارنة بالعام السابق.

وقد أتاحت عملية زيادة القوات للولايات المتحدة استعادة السيطرة التي فقدتها. وبدلاً من الحديث عن استراتيجيات الخروج، بدأت في الحديث عن حرب طويلة انطوت على بعض التسويات غير المستساغة، مثل دفع أموال لنحو 80 ألف شخص من المليشيات السنّية. ومن المرجح أن تواصل الولايات المتحدة إدارة الموقف لسنوات مقبلة، لكن ما لم تفعله هو إغلاق القضية. فحتى في حالة زيادة القوات ليس ثمة نصر خالٍ من المخاطر. وكل ما نجحت في فعله هو تطبيق سلسلة من المؤشرات المرجعية: هل الموقف أكثر أو أقل أمناً؟ ولمن؟ هكذا يبدو أن الحرب مدفوعة بالتكتيكات. والنجاح التكتيكي على الأرض يقود إلى نتائج استراتيجية ربما تكون مُرضية أو غير مرضية، لكن من الصعب أن ترى استراتيجية بالمعنى التقليدي.

ومع هذا، ثمة منطق استراتيجي إذا بحثنا عنه، فقد أعادت الولايات المتحدة كتابة النص مرة أخرى لكي تعدّل عواقب إخفاقها، لقد أُرغمت على تكييف نفسها

مع العواقب الأولى لتدخلها: إبرام صفقة مع السنّة لقتال عدو مشترك، وهو القاعدة، أملاً في منع نشوب حرب أهلية سنية-شيعية. أما الدرجة الثانية من العواقب، فلم يكن هناك أهم من قبول الأمور الحتمية. فالعراق اليوم تحت سيطرة مجموعة قليلة من الكتل (الشيعة والسنة والأكراد) وبإمكانهم جميعاً تحدي قوة الدولة لأنهم جميعاً يمتلكون مليشيات مسلحة، وشبكات غير قانونية، ومناصب وزارية، ودعماً خارجياً. وعلى رغم أن إدارة بوش قد قدمت أسباباً كثيرة لغزو العراق فإن استقلال الأكراد لم يكن من بينها. ومع ذلك فإنهم يعدون مستقلين فعلياً في كثير من النواحي، فالحكومة الإقليمية لها جيشها الخاص بها، وتجمع ضرائبها الخاصة بالمنطقة، وتتفاوض على صفقات النفط فيها. وفي ضوء اكتساب الكتل شرعيتها من خلال عمليتين انتخابيتين، فإن كلاً من تلك الكتل لديها قوة كافية لعرقلة التقدم إن أرادت. لقد أصبحوا مشكلة العراق وليسوا حلاً لها.

يُفهم النجاح الآن في سياق ما نُسميه "المشكلات المستعصية"، وهي جزء من مفردات عصر المخاطر. وسأناقش هذا الموضوع بشكل أعمق في الفصل التالي. إن زيادة القوات تحمل كثيراً من سمات المشكلات المستعصية، وأسرد منها أربعة فقط:

أولاً، يتطور فهم المشكلة التي يسعى المرء لمعالجتها خلال بناء الحل. ثانياً، ليس هناك حل للمشكلة المستعصية، بل تطورات أفضل أو أسوأ فقط، وفي هذه الحالة تجنُّب الحرب الأهلية وتفكك الدولة أجزاءً. ثالثاً، في الأغلب تولّد الحلول مشكلات أخرى؛ ليس هناك نجاح مهما كان مؤهلاً أو لا جدال فيه من دون مخاطر. رابعاً وأخيراً، بما أنه لا نتيجة نهائية للمشكلة أبداً، فلا يمكن أن يكون هناك تعريف للنصر في المصطلحات النموذجية للحرب العالمية الثانية التي اعتقد الرئيس بوش أن بإمكانه الحصول عليها عندما أعلن على متن حاملة الطائرات الأمريكية أبراهام لينكولن أن «المهمة أُنجزت».

أخلاقيات إدارة العواقب

يفتتح نيتشه كتابه بعنوان **هو ذا الإنسان** *Ecce Homo* بعبارة مربكة: «نحن رجالَ المعرفة مجهولون لأنفسنا». هذه هي أيضاً أول كلمات يبدأ بها كتابه المعنون **مبادئ الأخلاق** *The Genealogy of Morals*، وهو كتاب سبقه بسنة فقط. ومن هنا، يتوصل نيتشه بسرعة إلى خلاصة مفادها أننا «غرباء بالنسبة لأنفسنا». وسواء أكنا غرباء أم لا، فمنذ ذلك الوقت ونحن نسأل أنفسنا؛ إنها سمة الخبرة الأليمة لكوننا نعيش في العصر الحديث. إن ماركس هو الذي جعلنا على وعي بالمدى الذي يتم فيه التنازل عن قيمنا ومعتقداتنا جزئياً، بسبب موقعنا الاجتماعي ومصالحنا الاقتصادية. وفرويد هو الذي جعلنا على وعي بغرائزنا ودوافعنا اللاشعورية. واليوم أصبحنا أكثر انتقاداً لأنفسنا من أي وقت مضى؛ فنشعر بشكل خاص بالذنب بشأن عواقب أفعالنا، وأصبحنا قلقين من أننا ربما نشكل الخطر الرئيسي الذي نواجهه. ويرتبط الذنب في هذا السياق بالشفقة ارتباطاً وثيقاً.

اليوم بدأنا في الاعتراف بشكل جذري بمسؤوليات جديدة تجاه هؤلاء الذين يبعدون عنا، ليس فقط من حيث المسافة بل من حيث الوقت أيضاً فيما يُطلِق عليه بك عالمنا الذي زالت حدوده. هذه هي الأبعاد الجديدة للمسؤولية التي تشمل الطبيعة ("تخضير" الأخلاقيات). لكننا اكتشفنا في وقت متأخر مسؤولية تجاه "الآخر" غير البشري؛ الغلاف الحيوي، وكذلك الكوكب. وكما يذكرنا هانز يوناس Hans Jonas فإن مفهوم المسؤولية لم يلعب دوراً محورياً في النظم الأخلاقية في الماضي (Jonas 1999:7). وهناك تفسير لهذا. المسؤولية هي وظيفة القوة والمعرفة، وحتى عهد قريب كان كلاهما محدودين من حيث الوقت والمجال. وكان الفعل "الصحيح" مقيداً بـ "هنا والآن". واليوم اختلف الأمر، لدينا قوة هائلة ومعرفة أكبر، على رغم أن ذلك لا يترجم بالضرورة إلى حكمة أعظم.

وبخلاف الأخلاقيات التقليدية التي أخذت في اعتبارها فقط السلوكيات غير التراكمية، علينا الآن التعامل مع أمور غير يقينية ليست لها سابقة تاريخية. وعلينا أن

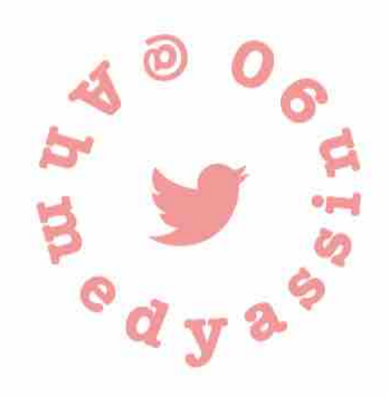
نتعامل مع المخاطر التي لا تعرف الحدود، والتي تشمل عواقب أفعالنا. العواقب تتدحرج وتنمو بسرعة ككرة الثلج، والمخاطر تتوالى وتتصاعد. ولهذا السبب فإن مجتمعات المخاطر التي نعيش فيها تتعامل مع احتمالات، لا يقينيات. إننا نقدر دائماً ونقيس ونتنبأ بعواقب أفعالنا؛ أملاً في إدارتها على أفضل وجه ممكن. وفي هذه المرحلة من التاريخ، هذا هو شكل عالمنا الأخلاقي. إنه يدفعنا لأن نجعل الحرب أكثر "إنسانية" لنا وللآخرين.

ما إن يبدأ مجتمع في إعادة تأطير إدارة العنف بهذه الطريقة، حتى يتبنى حتماً تجربة أخلاقية جديدة. هذه التجربة الأخلاقية لا تستبعد الحرب، بل في الواقع إن تجنب العنف يشجعنا على استخدام القوة بقدر أكبر. وقد تم تبرير غزو العراق بعد كل هذا، من حيث المبدأ الوقائي، لقد كان هدفه شراء هامش من السلامة لمستقبل العراق خالياً من أسلحة دمار شامل. وتم تسويقه للعالم على وعد بأنه سوف ينقذ أرواح الناس في المستقبل. وكما يرى كاس صنشتاين Cass Sunstein، فإنه يمكن الدفاع عن مثل هذه التجربة الأخلاقية على الأقل باعتبار أنها تعمل مثل قاعدة (Lewens 2007:168). ويمكن الدفاع عنها، مثل كل القواعد، على أساس أنها أفضل من البديل، بل إن هذه التجربة الجديدة ربما تُظهر نوعاً من "العقلانية الإيكولوجية" التي تعمل جيداً في السياقات الأكثر واقعية، حتى وإن اضطررنا، كما يحذر، إلى أن نأخذ في اعتبارنا دائماً أن المحصلة ربما تكون أسوأ بكثير من الوضع الراهن؛ في هذه الحالة الاستمرار في التعامل مع صدام حسين.

ومع ذلك فهناك عواقب أخلاقية أخرى متصلة بإدارة المخاطر. فعلى رغم أن بإمكاننا تحمل المسؤولية عن عواقب أفعالنا، فإننا لن نعرف أبداً ما هي تلك العواقب، ولا يمكننا أبداً التنبؤ بجميعها، ولا يمكننا أبداً أن نحسب بدقة تكلفة تلك العواقب التي يمكن التنبؤ بها. ومن ثم يجب علينا أن نعمل ونتصرف بناءً على هذه المعرفة. بطبيعة الحال هناك معضلات أخلاقية في عدم التحرك (في عدم الذهاب إلى الحرب)، ومن الذي سيتحمل مسؤولية العواقب التي تترتب على عدم التحرك. لم تستطع الأخلاقيات قط توفير أي معايير لتحديد المخاطر التي يتعين أن نتحملها. لكن من الناحية الأخلاقية، عادة ما يتاح لنا أن

نتحمل المخاطر على مسؤوليتنا الخاصة، وليس على مسؤولية الآخـرين. كيـف لنـا أن نقـوّم الادعاءات الأخلاقية عندما يحمّلنا الآخرون مسؤولية تدهور الموقف إلى نحو أسوأ؟

لو علم الأطراف جميعهم الذين ذهبوا إلى الحرب عـام 1914 عواقـب ذلـك، فلـربما كانوا أحجموا عنها. وإذا ما صح هذا (وليس ثمة ما يدعو إلى الـشك فيـه) فهنـاك بعـض الأمل للبشرية. وربما لم يكن جورج بوش أيضاً ليغزو العراق لو أنه علم ما سيكلفه الغزو. لقد ألقى عصر المخاطر بمجموعة جديدة من المعضلات الأخلاقية التـي نجـد أنفـسنا في وضع غير مناسب للتعامل معها، دع عنـك حلهـا. وفي أفـضل الأحـوال، يمكـن لحـرب إنسانية أن تكون إجراءً مخففاً لتقليص مخاطر خوض الحرب بشكل خاطئ جداً.


@Ahmedyassin90

الفصل الخامس

الأبعاد الجيوسياسية لإدارة المخاطر

في عام 1904، كتب هالفورد ماكيندر Halford Mackinder، وهو أعظم مفكر جيوسياسي في عصره أو في أي عصر آخر، ورقة مؤثرة بعنوان «محور تاريخ العالم» "The Pivot of World History"، قال فيها: إن الحدث الحاسم في العصر الحديث هو استيطان الأمريكتين من قبل الأوربيين، وسيبيريا من قبل الروس. فعلى حين أبحر الأوربيون عبر المحيط الأطلسي وأصبحوا أمريكيين، سافر الروس عبر كتلة اليابسة الأوراسية. وبحلول بداية القرن العشرين، وصل كلاهما إلى المحيط الهادي. وسيتم تحديد الاتجاه السياسي للقرن العشرين من خلال الصراع بين الطرفين (Zeman 1989:13).

هذه هي النقطة المهمة بشأن الجيوبوليتيكا. إنها تروي قصة. وما حدث أن ماكيندر قد فهمها خطأً. فمستقبل العالم لم يُحدد في المحيط الهادي بل في أوربا، كما كان في القرن الماضي، ولم تدخل الولايات المتحدة وروسيا في صراع حتى النصف الثاني من القرن العشرين. وظل الخطاب الجيوسياسي البارز، حتى انهيار الاتحاد السوفيتي في عام 1991، هو الضرورة المتكررة لمنع هيمنة قوة سياسية منفردة على أوربا. وشكلت أوربا وليس المحيط الهادي، محور تاريخ العالم. وربما كانت حقيقة أنها لم تعد كذلك هي أعظم تغير في الجيوبوليتيكا الحديثة.

لا شك في أن التفكير الجيوسياسي الحديث قد رسخ بعض القواعد الأساسية، فهناك دائماً عدو. في النصف الأول من القرن العشرين، كان العدو هو ألمانيا، وفي النصف الثاني كان الاتحاد السوفيتي. وهوية العدو ليست مهمة لقوة النظرية ذاتها، لكن المهم هو حقيقة أنه ينبغي أن يكون الصراع هو القوة الدافعة في الشؤون الدولية. ثانياً، تفترض

الجيوبوليتيكا أن ثمة مصلحة دائمة، فقد ظل توازن القوى الشاغل الرئيسي للقوى العظمى لنحو قرن، وكان تحدي السياسة بالنسبة للعالم الليبرالي هو تشكيل تحالف من المجتمعات ذات الفكر الواحد ضد أي دولة أو مجموعة دول تتحدى النظام الليبرالي.

وأخيراً، لكي يكون هناك معنى للتاريخ الاستراتيجي، يجب أن يكون هناك إطار عمل مفاهيمي رئيسي. كان إطار العمل في القرن العشرين هو النظام العالمي الجديد الذي وعد فيه كل رئيس [للولايات المتحدة] الشعب الأمريكي بأن يكون مكافأة لجهودهم. يجدر ذكر أن مفهوم "العالم" اختراع متأخر. ولم يتم تدريس أول دورة في "السياسة العالمية" في الولايات المتحدة إلا عام 1894. وصيغ مصطلح "الاقتصاد العالمي" ليصف التقسيم الدولي للعمل الذي شكلته الثورة الصناعية. وكانت أول "قوة عالمية" هي بريطانيا العظمى، وكان المفكرون الجيوسياسيون مهتمين بشكل النظام العالمي الذي سيظهر. الأمر المثير للاهتمام بشأن جورج بوش، أول رئيس [أمريكي] في القرن الجديد، هو أنه لم يتعهد بنظام عالمي جديد، ولكن فقط بإدارة أكثر نجاحاً للفوضى العالمية الموجودة. وعندما قال بوش للأمة إن الحرب على الإرهاب «ليست كغيرها» (Furedi 2008:9) كان يقول الحقيقة؛ فالولايات المتحدة لا تتوقع أن تشكل نظاماً عالمياً جديداً حتى ولو سادت، ذلك أن طموحاتها السياسية أكثر تواضعاً الآن مما كانت من قبل.

وقد استُغلت أحداث الحادي عشر من سبتمبر لكي يركِّز فعلياً انتباه الجميع على الأمور الواقعية الجديدة. وهناك مقطع رائع في قصة قصيرة كتبها دون دوليلو وشكلت أساساً لروايته بعد ذلك بعنوان **رجل ساقط** *Falling Man*، ينتقد فيها الهجوم على مركز التجارة العالمي. عند مشاهدة الصور المتلفزة للحادث الفظيع، تعتقد البطلة لأول وهلة أن ما تشاهده مجرد فيلم، وأن كل شيء سوف يعود إلى ما كان عليه، لكنها تعود بعد ذلك لتفكر في أنها ربما تكون مخطئة بشأن ما هو عادي. ربما الأمر غير عادي. «ربما هناك خفايا في تفاصيل الأمور؛ في الطريقة التي تمر بها الأشياء عبر العقل، طريقة ترجُّح الزمن في العقل، وهو المكان الوحيد الذي هو فيه بشكل ذي معنى». بدت آلة التصوير التي

أظهرت الدهشة بشأن اصطدام الطائرة الأولى بالبرجين التوءمين، وكأنها تُعبر عن عدم دهشتها من الطائرة الثانية. فمع ظهور الطائرة الثانية «أصبحنا جميعاً أكثر نضجاً وحكمة» (DeLillo). وبهذه الملاحظة السوداوية تنتهي القصة.

لقد أرغمتنا أحداث الحادي عشر من سبتمبر فعلاً على إدراك أن كل شيء قد تغير. أمن الوطن ليس أمن الأمة، والدفاع عن المواطن أصعب من الدفاع عن الدولة. وبخلاف الدول، لا يمكن ردع الأطراف من غير الدول. كما أننا أُرغمنا على التفكير بجدية في شأن الضربات الاستباقية، ذلك أن الأطراف غير الدول قد تكون أخطر من الدول، والنظُم المارقة قد تكون أشد خطراً. وبدلاً من حرب باردة تتميز بهدنات وفترات من الانفراجات السياسية والتعاون، دخلنا عالماً ربما نجد أنفسنا محرومين فيه بصفة مستمرة من الطمأنينة.

منظور جديد

باختصار، عصر المخاطر يتطلب منا منظوراً فكرياً جديداً للأمن. أُدخل المصطلح في الخطاب العام عام 1962 عندما نشر توماس كون Thomas Kuhn كتاباً بعنوان **بنية الثورات العلمية** *The Structure of Scientific Revolutions* ربما يكون فيه أكثر الأطروحات تأثيراً بشأن كيف يعمل، أو لا يعمل، العلم ويتقدم. وظّف كون المصطلح "المنظور" 'paradigm' للإشارة إلى مجموعة الإجراءات والأفكار التي تنظم تفكير العلماء في ما ينبغي أن يؤمنوا به، وكيفية عملها. ويضيف كون أن معظم العلماء يقضون حياتهم العملية في حل مشكلات وألغاز تميل حلولها إلى تعزيز الإيمان بالمنظور السائد. وبنوع من الاستهجان، وصف هذه الفكرة عن البحث بأنها "طبيعية"، وزعم أن العلماء انخرطوا في حل مشكلات لم ينجح آخرون في حلها، لكن في لحظات معينة من التاريخ، بطبيعة الحال، تتغير المنظورات، وتُطرح نماذج تفسيرية جديدة. وبالتالي يتغير العالم وفقاً لها.

اعتقد كون، الذي توفي منذ مدة، أنه لا ينبغي لعلماء الاجتماع استخدام هذه الكلمة. وأصر على أنها يجب أن تُقصَر على العلوم الطبيعية. يتغير العلم عندما يجد العلماء أن

نموذجهم القائم للعالم فيه انحرافات كثيرة للغاية، حتى إنه لا يمكن الاعتماد عليه في إطار العمل التقليدي، أو أنه يتناقض والافتراضات الرئيسية لإطار العمل. وعندما تتراكم الانحرافات سوف تفجر ثورة علمية، مثل الثورة الكوبرنيكية في القرن السادس عشر، أو الثورة النيوتنية بعد ذلك. يطلَق على هذا تحول المنظور (وهو مصطلح لم يستخدمه كون نفسه). يضطر العلماء من وقت لآخر إلى التخلي عن أفكار قديمة لصالح أخرى جديدة. وهذا ما حدث مع أطروحة كون التي كانت فيها أوجه تشابه مع أطروحة هيغل التي صورت هي أيضاً النظم العقدية بأنها تولِّد "تناقضات داخلية" لا يمكن حلها إلا بتغيير ثوري. وعندما يتم تبني منظور جديد فإنه يرسخ طرائق خاصة بتفسير الظواهر، تصبح بدورها طرائق للتفكير في شأن العالم. خذ على سبيل المثال التحول الكلاسيكي في المنظور، بالانتقال من العالم ما قبل الدارويني إلى العالم الدارويني. تتحدث نظرية الخلق عن العالم من حيث تكيف الإنسان، أما نظرية التطور الداروينية بالانتقاء الطبيعي فتتحدث عن الإنسانية من حيث مناسبتها للبقاء في العالم. وشتان ما بين الأمرين (Burrow 2007:99).

في العلوم الاجتماعية، على العكس من ذلك (وهذا هو أحد الأسباب التي دعت كون إلى الإحساس بأن علماء الاجتماع غير معنيين باستخدام المصطلح) لا تتغير المنظورات نتيجة للتناقضات الداخلية، ولكنها تتغير رداً على أحداث خارجية، وفي حالة القرن الماضي اشتملت على تحديات من قوتين عظميين هما ألمانيا والاتحاد السوفيتي. عقب عام 1947، كان الموضوع المهيمن على الساحة هو احتواء القوة السوفيتية، وكان اللغز الوحيد يدور حول أفضل طريقة لإدارته. وما انتهى في عام 2001 هو "التوقف الاستراتيجي" الذي أعلنت عنه إدارة كلينتون في أوائل عقد التسعينيات، وتمثل بالغياب الظاهر لأي تحدٍّ رئيسي لمكانة الولايات المتحدة في العالم. ولم يذكر رامسفيلد قط حقيقة أعظم مما ذكره عندما اعترف أن وكالات الاستخبارات لم تحصل على معلومات إضافية بشأن برنامج أسلحة الدمار الشامل في العراق، ولكن الحدث دفع الولايات المتحدة لإعادة النظر فيما كانت تعرفه بالفعل.

واليوم، تبنت الولايات المتحدة منظوراً أمنياً جديداً، وهو إدارة المخاطر، لمعالجة ثلاثة تحديات مختلفة جداً ظهرت في الأعوام الأولى للقرن الحادي والعشرين، وهي: تنامي الإرهاب، والصعود الذي يبدو عنيداً للصين، وأخيراً الفوضى المتنامية (التي في الأغلب ندركها أكثر مما نراها بشكل واقعي) على هامش العالم الذي تفككت حدوده. لقد حلت المخاطر محل التهديدات في قلب دراسات الأمن. ووصفت **كوادرينيال ديفينس ريفيو** (2001) الخطر بأنه «أهم عقيدة استراتيجية بمفردها» لفكر الأمن القومي. كما يحدد كتاب **المفاهيم الاستراتيجية** *Strategic Concepts* المنقحة للناتو لعامي 1991 و1999 إدارة المخاطر باعتبارها الهدف الاستراتيجي المحوري للحلف (Coker 2002:71-2).

إدارة [تحدي] الإرهاب

لاتزال الحرب على الإرهاب تحتل بؤرة التركيز حتى الآن. وسواء أسُميت "حرباً" أم نُظر إليها على أنها عملية سياسية، فذلك أقل أهمية من حقيقة أننا نميل إلى أن نطبق على الإرهاب النموذج ذاته الذي نطبقه في التعامل مع الجريمة المحلية. تهدف مجتمعاتنا الآن إلى إدخال تحسينات متواضعة على منع الجريمة، وكذلك إدارة أفضل للموارد، وتقليل عدد الأفعال الإجرامية واحتمالاتها، وتهدف في هذه الأيام إلى دعم أفضل للضحايا. هذه هي الأهداف ما بعد البطولية، بمعنى أننا لم نعد نتشاطر الأمل الفيكتوري العظيم بيوم تُستأصَل فيه الجريمة من الحياة الاجتماعية.

استحدثت مجتمعات القرن التاسع عشر، التي ابتكرت أول قوات شرطة وطنية، ونظمت نظم السجون، فكرة بطولية وفريدة فيما يتعلق بعلم الجريمة. لقد اعتقدوا أنه يجب ألا يعاقَب المجرمون فحسب، بل ويجب أن يُعاد تأهيلهم أيضاً، أو حتى تعويضهم. بمجرد تفكير تلك المجتمعات في المجرمين باعتبارهم ليسوا فقط أشراراً، ولكنهم أيضاً منحرفون اجتماعياً، أصبحت عملية إعادة تأهيلهم واجباً أخلاقياً. وأصبح السجن مدرسة إصلاحية يمكن فيها تحويل المجرم إلى مواطن مفيد، ثم يُعاد إدماجه في المجتمع بمجرد إطلاق سراحه.

إن معدلات الجرائم المرتفعة والنتائج المشكوك فيها لعمليات إعادة التأهيل (علاوة على ذلك ارتفاع معدلات العائدين للجريمة)، قد دفعت الدول إلى تبني استراتيجيات بديلة منذ أواخر الثمانينيات. وكما كتب توني بوتومز Tony Bottoms عام 1980: «لا أحد يدعي الآن بجدية... أن إعادة التأهيل لها أي قيمة نفعية في تقليل معدلات الجريمة أو في منع تجنيد العائدين للجريمة» (Rasmussen 2007:107). ولذا لا ينبغي أن ندهش من أن إعادة التأهيل في عصر المخاطر يمكن أن تؤتي نتائج عكسية؛ ذلك أن الأثر العكسي قائم في كل مجالات الحياة، حتى في علم العقوبات.

لقد بُحثت القضايا المعقدة للعقوبات في كتاب عنوانه **الجانحون العنيفون: مقاربة وإدارة المخاطر** *Violent Offenders: Approaching and Managing Risk* (1991)، وهو عرض غني بالإحصائيات للمشكلة، ولاسيما فيما يتعلق بعمليات إعادة تأهيل "السيكوباتيين".* ما اكتشفه المؤلفون هو أن إعادة تأهيلهم قد تكون لها عواقب غير منظورة. فقد كان السيكوباتيون الذين تلقوا تدريبات على الحساسية الاجتماعية ومهارات العلاقات الشخصية أكثر احتمالاً لارتكاب جرائم عنيفة عند إطلاق سراحهم. «توقعنا بعدها أن يكون المرضى قد تعلموا تعلماً كثيراً من البرنامج المكثف، لكن الجانحين السيكوباتيين استغلوا المهارات الجديدة في استخدامات غير مقصودة تماماً» (Dennett 2003:89).

الأمر المزعج بالقدر ذاته، هو أن دراسة أجريت على كل بريطاني ذكر ولد عام 1956، قد خلصت إلى أن ثلثهم ارتكبوا جنحاً أكثر خطراً من مخالفات المرور، وهو عدد مرتفع بشكل يثير الدهشة. تلك كانت الأخبار السيئة، أما الأخبار الجيدة فهي أن عدداً قليلاً فقط من الجرائم التي ارتكبوها هددت التناغم الاجتماعي، أو حتى جودة الحياة

---

* السيكوباتية psychopathy اضطراب في الشخصية يتصف المصاب به بفقر الانفعالات، والميل لتجنب العلاقات الشخصية، وارتكاب سلوك معادٍ للمجتمع، وقد يكون السيكوباتي متعلماً وذكياً، ولكنه يستخدم علمه وذكاءه في أعمال إجرامية، يتلذذ بها، ولا يندم عليها. ويرجعه بعض علماء النفس إلى أسلوب التربية القائم على القسوة والعنف والحرمان، الذي يجعل الطفل يفقد التعاطف ويلجأ إلى الاحتيال لتحقيق رغباته. (المحرر)

الاجتماعية. ولكن الأكثر إزعاجاً هو أن 5٪ من الذكور من مواليد عام 1956، قد ارتكبوا 70٪ من جميع الجرائم المسجلة، وكذلك 70٪ من جميع جرائم العنف. كما عاد عدد كبير منهم إلى ارتكاب جرائم بعد إطلاق سراحهم من السجن.

في العلوم الصلبة، يمكن جمع المعلومات وإعادة معايرتها ثم التوصل إلى نتائج، وإذا كانت النتائج محبطة يمكنك البدء مجدداً، أما في مجال العقاب وإعادة التأهيل فليس أمامك سوى فرصة واحدة. وهذه هي النقطة التي يجد إزاءها صناع القرار والمتخصصون في علم العقوبات أنفسهم منخرطين في علاقة مضطربة. فكلا الطرفين يود أن يروج لخرافة ثنائية ديكارتية* بين المراقب والممثل؛ بين هؤلاء الذين "يعلمون" وأولئك الذين "يعملون". حتى إن هذا التفريق قد بدا في وقت من الأوقات ضرورياً للعلوم الطبيعية. من ذلك الوقت، وجد العلماء أن العلوم الطبيعية لا تصف وتفسر الطبيعة ببساطة، ولكنها جزء من التفاعل بين الطبيعة وأنفسنا (إنها تصف الطبيعة وهي معرَّضة لمنهجنا في التساؤل). وعليه أيضاً، مثلما هو الأمر في المشروعات الإنسانية الأخرى، يجد الباحثون وسلطات السجون أنفسهم في النهاية يتقاسمون عواقب الإخفاق.

ولعلنا لهذا السبب نميل في الداخل للتصرف بحذر. نجد أنه من العقلانية الحكم على المجرمين بأحكام طويلة في السجن، ومن ثم لم يصل عدد نزلاء السجون لمثل هذا العدد من قبل. وأصبحت الآن عبارة «ارتكاب ثلاث جنايات سيعرضك للسجن مدى الحياة» 'three strikes and you're out' هي الشعار في الولايات المتحدة، حيث تم من عام 2005، سجن 2.2 مليون شخص. وهذا ما وضع الدولة على رأس القائمة الخاصة بعدد المواطنين الذين يتم سجنهم، في مرتبة تفوق كلاً من الصين (1.5 مليون شخص) وروسيا (870 ألف شخص). لا شك في أن هذا رقم كبير جداً، ولاسيما عند مقارنة عدد سكان الصين بسكان الولايات المتحدة. وتشير التوقعات الحالية إلى أنه بحلول عام 2020

* نسبة إلى الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت René Decartes (1596 – 1650) وهو من أول الفلاسفة الأوربيين الذين فصلوا بين العقل (mind) والمخ (brain)، واعتبر أن الظواهر العقلية لها وجود غير مادي (المحرر).

سيكون هناك مابين 3 و4 ملايين سجين في السجون الأمريكية، معظمهم من السود والهسبانيين.

حتى عندما نُفرج عن السجناء، فإننا نميل إلى مراقبة تحركاتهم. فبريطانيا تقوم حالياً بمراقبة تحركات ضعف عدد الأشخاص الذين يراقَبون في باقي أوربا. ولم يبق هناك أي شيء يسمى الحرية غير المراقَبة. ونتقبل الآن (على الأقل في الوقت الحالي) أنه لا يمكن القضاء على الجريمة، بل يمكن فقط التعامل معها. وأفضل طريقة لتحقيق هذا هي تقليص فرص الجرائم (تقليل قيمة الهدف)، وإخضاع عموم السكان للمراقبة التدخلية. لم نعالج مجرمين أفراداً بل نتعامل مع "بيئات إجرامية"، و"مجتمعات إجرامية". نطلق سياسات "اللاتسامح"، ونقوم بنقل الجانحين المشتبه فيهم من المناطق التي يُعتقد أنهم يشكلون خطراً عليها، ولاسيما في المناطق الأكثر أهمية بالنسبة لنا مثل مناطق السياحة والأعمال. نقوم بعزل المجرمين المحتملين في "جيتوات" أو في أحواض سكنية محصورة؛ حيث يمكن استيعاب عنفهم (إلحاق الضرر بالمكان الذي يعيشون فيه بما لا يسبب أذى كبيراً للاقتصاد).

وفيما يتعلق بالمراقبة، تعتمد العمليات الشرطية الناجحة بشكل متنامٍ على المعلومات التي توفر مناهج حسابية للتقويم الحديث للمخاطر. ذلك أن هناك علاقة خاصة بين السيطرة على الجريمة والسياسات المتبعة، تتمثل في "ثقافة السيطرة"، وهو مصطلح صيغ لوصف مجتمع تم فيه تضخيم وتعزيز الرغبة الدائمة في الأمن وإدارة المخاطر وتقليص فرص الجريمة، حتى إن تنظيم كل مجال من مجالات الحياة أصبح عرفاً. في بريطانيا، تنفق وزارة الداخلية ثلاثة أرباع الميزانية المخصصة للحد من الجريمة على كاميرات المراقبة التلفزيونية وتقنية التعرف على الوجوه. والآن ثمة كاميرا مراقبة لكل 14 مواطناً في بريطانيا. وتلتقط الكاميرات الآن صوراً لسكان لندن بما يقارب 300 مرة في اليوم الواحد عبر الكاميرات المثبتة في أعالي المباني المعززة أمنياً، أو في المحلات التجارية الكبرى، أو خلال سيرهم في الشوارع الرئيسية، أو المناطق السكنية، أو عند ركوبهم القطارات. كما تراقب الشركات عن كثب اختيارات المستهلكين في كل مرة يستخدمون فيها البطاقات

الائتمانية، أو زيارة موقع على الإنترنت، أو عند استخدام بطاقة الأويستر "Oyster Card" لركوب المترو في لندن. إضافة إلى ذلك، يتم تتبع السيارات التي تدخل لندن عبر كاميرات تعمل على مراقبة الازدحام المروري. ويمكن من خلال نظام تحديد المواقع عالمياً تتبع مستخدمي الهواتف الخليوية، وكذلك السيارات.

تستثمر وزارة الدفاع البريطانية في تطوير تقنيات الشبكة العصبية للربط بين الأشكال، والتي يمكن أن تقوم بعمل "مسح" للوجوه في الزحام، ومقارنتها بمثيري الشغب المعروفين لدى السلطات (Norris 1999:217). ويمكن لبرامج التعرف على الأشكال في مواقف صف السيارات، تنبيه القائمين على الإدارة للسلوكيات المريبة قبل ارتكاب أي جريمة. وفي وقت قريب جداً سيكون في استطاعتنا برمجة أجهزة حاسوب للتعرف على الأشكال والعلاقات التي لا يمكن أن يعرفها بعضنا في بعض؛ أي لغة الجسم، مثل كشف القلق، أو ربما حتى النية لزرع قنبلة (Martin 2006:286).

نظُم معالجة البيانات هي الأخرى في تطور مستمر. ويمكن الآن ربط كاميرات المراقبة التلفزيونية بنظم استرجاع المعلومات لتسهيل وظيفة ما يسمى "وساطة المعرفة" 'knowledge brokering' التي تذهب أبعد من تحديد الأشخاص وهم يتحركون؛ إذ يمكننا الآن أن نحدد أعضاء في جماعات سلوكية معينة من الذين نعتقد أنهم يشكلون خطراً على بقيتنا. في بريطانيا، يمكن لنظام إدارة شبكات مكافحة الجريمة الذي يربط الشرطة وشبكات كاميرات المراقبة التابعة للمجالس المحلية معاً، أن يتتبع المجرمين المعروفين وأصحاب السوابق الإجرامية الذين ارتكبوا جرائم مثل سرقة المحلات التجارية وسرقة السيارات والنهب. كما تتوافر لدى منافذ البيع بالتجزئة سجلاتها الخاصة التي تحوي أهم المجرمين، وتقوم بمراقبة تحركاتهم طوال الوقت. وحتى ولو لم يدخلوا متجراً ولكن مروا من أمامه، يمكن أن يتم إرسال معلومات بشأنهم بشكل تلقائي إلى المتاجر الأخرى في الشبكة.

بعبارة أخرى، يتطلب عصر المخاطر معرفة بالناس الذين نسعى للسيطرة عليهم (Norris 1999:24). فالمراقبة تُمكّن الدولة من إعداد سير ذاتية مختصرة للسكان لكي تحدد سلوكياتهم المحتملة في وقت ما. وبالتالي، لم يعد ممكناً فقط تتبع فرد ما وهو يتحرك في مكان ما، بل صار ممكنا تقويم قيمته الأخلاقية في الوقت ذاته باستخدام معلومات مخزنة في قاعدة بيانات (Lyon 2007:107). ويدعى هذا باسم "التصنيف الاجتماعي"، وهو عملية شاملة وحصرية ذات أهمية محورية لما ستصبح عليه إدارة المخاطر سريعاً (Lyon 2007:106).

أحدث المجموعات المستهدفة في بريطانيا هم الأطفال الذين يُعتقد أنهم "معرضون لخطر التحول لعناصر إجرامية"، وهم الأطفال لآباء يقضون أحكاماً بالسجن، أو مسجلين رسمياً ضمن قائمة مدمني المخدرات التي تشمل 300 ألف شخص. في كلا الأمرين، سوف يتم التعامل مع كل حالة في المستقبل بوساطة موظفي الهيئات الاجتماعية. ولا شك في أن التحديثات الدورية عن كل طفل آناء تطوره/ تطورها في مرحلة المراهقة سوف تمكن مقدمي الخدمة من تحديد هؤلاء الأكثر عرضة للتحول لعناصر إجرامية. والأمر لا يقف عند هذا الحد. فالاستخدام الأفضل للتقانة، بما في ذلك قارئات البصمات المحمولة، وماسحات الزحام، سوف يأتي بمزيد من الآلاف لقاعدة بيانات الحمض النووي في الشرطة. ويفترض أن يتم وضع الجانحين من أصحاب السوابق المسؤولين عن 50٪ من الجرائم قيد المراقبة لبقية حياتهم. ولن تكون هناك فرصة للخروج من السجن، وبمجرد أن يتم وضع أسمائهم في قاعدة بيانات الشرطة يبقون فيها مدى الحياة.

في ضوء هذا التنظيم الذي أصبح فيه التفتيش والسيطرة موضوعين رئيسيين للحياة الاجتماعية في الداخل، ليس مستغرباً أن يصبحا موضوعين رئيسيين للأمن الدولي أيضاً. وبالعودة إلى عقد الثمانينيات، رأى جاري ماركس أن عمليات "الاشتباه القاطع" التي أصبحت ممكنة من خلال تقنيات المراقبة الحديثة، تهدد بقلب الفكرة التقليدية التي تقضي بافتراض البراءة حتى تثبت الإدانة. سياسات اللاتسامح التي أدخلت في نيويورك في المدة

نفسها تقريباً تتيح للشرطة تحديد مثيري المشكلات "المحتملين" والتعامل معهم. إضافة إلى ذلك، فإن نظم التتبع، وكاميرات الفيديو، ونظم التعرف على الصوت، وكاميرات الصور الثابتة، والنظم الحاسوبية المثبتة في المركبات، تُمكّن الشرطة من مراقبة المناطق الحضرية ومن يسكنون فيها بشكل أكثر شمولية من أي وقت مضى. كما تشجع خطط المراقبة المجتمعية الجيران على مساعدة الشرطة على توزيع النشرات، وبخاصة المتعلقة بالمجموعات المحددة. وتضع الدولة العاملين في الدعارة والميالين لاستغلال الأطفال جنسياً والسجناء الذين تتم مراقبتهم إلكترونياً، تحت المراقبة داخل مناطق أمنية حيث يرجح أن يشكلوا خطراً على من هم أكثر عرضة للخطر، مثل الأطفال.

والآن أصبحت كل هذه الإجراءات ذات أهمية، لأننا على المستوى الدولي نطبق كثيراً من التدابير ذاتها على الدول التي نرى أنها "شاذة"؛ تلك التي تتصرف خارج الأعراف المقبولة. وفي حين يفترض أن تشجع (وإلى حد ما تشجع بالفعل) المؤسسات الدولية والاتفاقيات والمواثيق على مزيد من الشفافية والثقة بين الدول، تتراجع الثقة بشكل متزايد بين المجتمع الدولي وبعض الدول التي يضعها تحت المراقبة على مدى أربع وعشرين ساعة في اليوم. وينطبق التصنيف الاجتماعي على الدول كما ينطبق على الناس. في الداخل نميز الصالح من الطالح: نميز مشجعي كرة القدم من الفوضويين، والمتظاهرين من الناشطين أو المشاغبين، والمحرَّرين من الوهم من ذوي الخطر. والدول الموقعة للخطر هي مثل الأشخاص الموقعين للخطر، يُحكم عليها من سجلها ذي الخطر أيضاً. في البداية يتم تحديدها، ثم تصنيفها، وأخيراً التعامل معها وفق مستوى الخطر الذي تشكله.

تتخذ المراقبة، من حيث هي أحد أشكال الإدارة، صوراً عدة. وتسعى مؤسسات مثل صندوق النقد الدولي باستمرار إلى زيادة قدرتها على المراقبة. وتدَّعي النظم التجارية والبيئية بشكل متزايد الحق في مراقبة سلوك أعضائها. ويقع التحقق التدخلي في قلب كثير من اتفاقيات الأسلحة. وعلى رغم أن المجتمع الدولي ربما يكون قد تقبل الانتشار النووي بين الدول "العادية" (إسرائيل والهند وباكستان)، فإنه يشعر بالرعب من فكرة امتلاك

الدول "الشاذة" (كوريا الشمالية وليبيا وإيران) أسلحة نووية. في حالة هذه الدول، يكون تقويم المخاطر احتمالياً وليس حاسماً (Lyon 2007:24). ويتم تصنيف الجانحين على أنهم معتادو إجرام أكثر من كونهم انتهازيين (الفئة الأخيرة سوف تتصرف بشكل سيئ فقط إذا تم تشجيعها على ذلك). وبمجرد تصنيفهم على أنهم معتادو إجرام يوضعون تحت المراقبة المستمرة.

لقد أصبحت المراقبة بالغة الأهمية في الحصول على معلومات تتيح للمجتمع الدولي تحديد حجم الخطر، ومن ثم صياغة استراتيجيات إدارة المخاطر الضرورية للتعامل معه. وهي تمكن القوى الكبرى مثل الولايات المتحدة من جمع معلومات بصورة منتظمة لمراقبة سلوك مجموعات محددة ترى أنها "دول منبوذة" أو "دول مارقة"، أو ما تختار وزارة الخارجية الأمريكية بشكل دبلوماسي أن تسميه "دولاً مثيرة للقلق". وتمكنها من تطبيق نوع من "التخطيط الأخلاقي" الذي يسمح لها بتحديد من يقف "معنا" ومن لا يشارك في الحرب على الإرهاب. وأصبحت عبارة "إما معنا وإما ضدنا" إلى حد كبير شعار اليوم.

خذ على سبيل المثال حالة المراقبة في البحر؛ إذ تشجع الولايات المتحدة "الدراية بالنطاق البحري"، أي تتبع عمليات الشحن عبر العالم، وتشجع الحكومات الأخرى على القيام بالشيء ذاته. في عام 1993، أوقفت البحرية الأمريكية سفينة الشحن الصينية "ين هي" (وتعني الطريق اللبني) وصعدت على متنها عندما شكَّت في أنها تحمل مكونات أسلحة كيميائية لإيران. وحتى الآن كانت أكبر مهمة هي "عملية السعي الفعال" Operation Active Endeavour، وهي عملية تم توجيهها من القيادة البحرية لقوات التحالف في نابولي. بنهاية كانون الثاني/ يناير 2005، راقب الناتو نحو 59 ألف سفينة، وصعد على متن ثمانين منها بموافقة قباطنتها. وإجمالاً، تمت مرافقة 488 سفينة عبر مضيق جبل طارق (NATO 2005:4-5).

مرة أخرى نجد أن أوجه التشابه بين حفظ النظام في الداخل وإدارة المخاطر في الخارج مدهشة. في الداخل، تسعى قوات الشرطة للمراقبة المكثفة على الأمكنة ذات

المخاطر العالية، وفي الأوقات التي ترتفع فيها نسبة المخاطر. ومن ذلك على سبيل المثال ارتفاع نسبة حوادث السيارات التي يتسبب بها سائقون سكارى في بريطانيا، حيث يجرى فحص عشوائي لتعاطي الكحوليات خلال عطلات نهاية الأسبوع والعطلات العامة. ويمثل هذا نمطاً جديداً من العمليات الشرطية يركز على المخاطر، ويستخدم الاستطلاع بهدف تحديد مدى المخاطر التي يشكلها المجرمون، أو الأشخاص الذي ينخرطون في أنشطة إجرامية ناتجة عن الإهمال (القيادة تحت تأثير الكحوليات) على باقي المجتمع.

للرقابة ما يبررها، وهو تحديد الخطر قبل أن يدخل مرحلة حرجة. ولمنعه قبل أن يدخل المرحلة الحرجة، يُشجع المجتمع الدولي على الانتقال إلى الخطوة الثانية، وهي تقليل قيمة الهدف. تماماً مثلما نشجع المساعدة الذاتية في الداخل، نشجعها أيضاً على المستوى الدولي. وهذا ينطبق بشكل خاص على صناعة البحرية الدولية التي أعربت عن قلق خاص من أن الهجمات الإرهابية على السفن في ممر مائي استراتيجي، مثل قناة بنما أو قناة السويس أو مضيق ملقا، قد يؤدي إلى ضرر اقتصادي هائل لخطوط الإمداد العالمية. وربما يكون مضيق ملقا هو أكثرها تعرضاً للمخاطر، ذلك أنه تمر منه يومياً نحو 500 سفينة (نحو ربع حجم التجارة العالمية تقريباً). من الناحية النظرية، ربما يستطيع الإرهابيون تحويل سفينة شحن غاز مسال إلى قنبلة عائمة يمكن أن تغرق سفينة شحن. ومثل هذا الهجوم قد يكون له أثر تدميري يعادل أثر هجمات الحادي عشر من سبتمبر.

لمكافحة هذا التهديد، تتحول شركات الشحن والتأمين والنفط إلى السوق الأمنية الخاصة. وهجمات القراصنة مقلقة بشكل خاص لأن القراصنة اليوم، بخلاف هؤلاء الذين صُوِّروا في أفلام هوليود، يميلون إلى أن يكونوا مسلحين جيداً، ومجهزين بقذائف صاروخية وبنادق هجومية وأجهزة تحديد المواقع عالمياً وزوارق عالية السرعة. وفي هذا يُشار إلى أن هجوماً للقراصنة قبالة الساحل الصومالي على سفينة الركاب "سيبورن سبيريت" قد أشعل الاهتمام، كما فعلت الدعاية التي ولدتها ادعاءات شركة أمن خاصة تُدعى "توب كاب مارين" 'Top Cap Marine' عن أنها حصلت على عقد بقيمة 50

مليون دولار للتعامل مع عمليات القرصنة في المياه الإقليمية الصومالية ("US firm to fight Somali pirates", BBC News, 25 November 2005, http://news.bbc.co.uk/2/hi/ africa/4471536.stm). وقد سارعت الشركات الأمنية الخاصة للترويج لنفسها بغية تقديم خدمات أمنية عالمية. وتعمل الشركات الأمنية التي تتعاقد معها شركات الشحن في الممرات الدولية والإقليمية. وعندما تلتقي لغة الأمن العالمي مع خطاب المخاطر، فإن الاعتماد على الأمن الخاص يبدو هو الخيار المنطقي.

نجد الموقف أكثر تعقيداً على البر، ذلك أن دور القوات العسكرية هو خوض الحروب وكسبها، وفي المقام الأول منع اندلاع الحروب. وقد زعم الرئيس بوش أن تجفيف منابع الإرهاب هو أولويته الأولى في الحرب على الإرهاب، ولا شك في أن الوقاية خير من العقاب. قبل نشوب الحرب الاستباقية في العراق بوقت طويل، كان الأمريكيون يتحدثون عن "الدفاع الوقائي"، وهي استراتيجية تختلف بشكل كبير عن الحرب الباردة. في مطلع عقد التسعينيات، كان برنامج «تعاون نان-لوغار لخفض التهديد» 'Nunn-Lugar Cooperation Threat Reduction' يهدف إلى التعامل مع خطر الأسلحة النووية السوفيتية المفككة، وهو تهديد برز للبرنامج خلال زيارة مسؤوليه لموسكو بعد رفع الإقامة الجبرية عن غورباتشوف بوقت قصير. من الذي كانت له السيطرة خلال الانقلاب؟ ماذا لو أدى الانقلاب لانقسام المؤسسة العسكرية، فريق مع الرئيس وآخر مع المتآمرين؟ ماذا لو أن الاتحاد السوفيتي نفسه انزلق إلى الفوضى عقب 25 كانون الأول/ ديسمبر عندما تم حله بشكل رسمي؟

بعبارة أخرى، قبل هجمات الحادي عشر من سبتمبر بدأ الأكاديميون وصناع السياسات في التركيز، ليس على التهديدات التي يمكن ردعها (التهديدات الأهم القادمة من الدول الأخرى)، بل على المخاطر التي تقل عن عتبة الردع. وأشار اثنان من صناع السياسات إلى أنه يجب على الولايات المتحدة أن تحدد ثلاث فئات جديدة من المخاطر، وهي: القائمة (أ) التي تشمل المخاطر على وجود الولايات المتحدة، والقائمة (ب) التي تتضمن الطوارئ الإقليمية في الخليج العربي وكوريا، والتي ربما تهدد المصالح الأمريكية

هناك، وأخيراً القائمة (ج) التي تشمل الطوارئ التي ربما تؤثر في الولايات المتحدة بشكل غير مباشر. وتعاملت استراتيجيتهم الوقائية مع المخاوف المتعلقة بالقائمة (ب) التي – إن أسيئت إدارتها – ربما ترقى للقائمة (أ).

من ذلك الوقت أصبح هذا هو موضوع التفكير الأمريكي. يبدأ كتاب جون شتاينبرانر John Steinbrunner المعنون **مبادئ الحكومة العالمية** *The Principles of Global Government* بافتراض أن العمل الاستباقي ربما يكون ضرورياً في ظروف لم تحدد بعد. عالمه هو عالم من عمليات فقدان الأمن المتناثرة التي تشمل كل شيء؛ من انتشار المرض إلى تدهور البيئة. إنه عالم تحتفظ فيه "دولة المراقبة" بالحق في مراقبة المخاطر نيابة عن بقيتنا، والتدخل عند الضرورة (Steinbrunner 2000). ولا ينفي هذا وجود اختلاف عميق في داخل الولايات المتحدة بين هؤلاء الذين يرغبون في مهاجمة الدول المارقة عندما يخفق الاحتواء بشكل واضح، وأولئك الذين يفضلون تغيير النظام من حيث إنه أول أداة يلجؤون إليها، وليس آخر ملجأ. لكن الحق في التدخل هو أمر مقبول بشكل واسع النطاق من قبل صناع السياسات.

وقد تعزز ذلك بفعل النزعة الاستثنائية الأمريكية. يشار إلى أن كولن باول قد قال لجلسة استماع في مجلس الشيوخ عام 1991، عندما كان لايزال يشغل منصب رئيس هيئة الأركان المشتركة للقوات الأمريكية، إن الولايات المتحدة كانت «قوة يمكن الوثوق بها». وذكرت لنا **كوادرينيال ديفينس ريفيو** لعام 2006، أن القوة العسكرية الأمريكية هي «قوة من أجل الخير». هذا الاعتقاد الأخلاقي الذاتي هو الذي يعزز تنميط "الدول المارقة" بوصفها "دولاً إجرامية منحرفة"، يجب إخضاعها للسيطرة، مثلها في ذلك مثل المجرمين في الداخل. هذه هي الدول التي تم تحديدها في أحدث استراتيجية أمنية قومية باعتبارها (إذا اقتضى الأمر) هدفاً للعمليات الاستباقية.

يركز القسم رقم (3) على هزيمة الإرهاب، والقسم رقم (5) على انتشار أسلحة الدمار الشامل. وفي كلتا الحالتين، تحتفظ الولايات المتحدة بالحق في التدخل. «يجب نقل

المعركة للعدو، من أجل إرغامهم على الاختفاء». ومن الواضح أن هزيمة الإرهاب تؤشر إلى وجود «انفصال عن النماذج القديمة» (White House 2006).

هذه بالضبط هي اللغة التي استخدمتها إدارة بوش لتبرير الحرب في العراق، ومن الواضح أن التمرد الناجم عنها ليس له تأثير كبير في التفكير اللاحق. «لاتزال مكانة مبدأ الاستباقية كما هي في استراتيجيتنا للأمن القومي. وسوف نواصل عن قصد دائماً تقويم عواقب أفعالنا. إن دوافع أفعالنا ستكون واضحة، وستكون القوة محسوبة، وسيكون السبب عادلاً» (Williams 2006:40). وسيظل التفكير الوقائي، على الأرجح، يحتل مكانة مركزية في التفكير الاستراتيجي الغربي لسنوات مقبلة. وفي **الاستراتيجية الأمنية** لعام 2006، احتفظ الأوربيون بالحق في القيام بعمليات استباقية عند الضرورة. وهم يفضلون تسميتها "الاشتباك الاستباقي" والحديث عن "تعددية الأقوياء".

يرى بك أن المشكلة في إدارة المخاطر هي أنه يمكننا جميعاً الاتفاق على ما لا نريده (على سبيل المثال، امتلاك إيران للأسلحة النووية)، ونجد أن الأكثر تحدياً بكثير هو الوصول إلى اتفاق بشأن كيفية منع حدوث ذلك (Adam 2003:218). يهدد كل من عدم القيام بأي شيء، والمطالبات المفرطة، بتحويل العالم إلى مصيدة مخاطر. ولعل إيران هي حالة نموذجية لهذا الموضوع. فمعظم الحكومات تتفق على أن إيران ترغب في أن تصبح قوة نووية، لكنها لا تستطيع أن تتفق على ما يجب فعله بعد ذلك. أتفرض عقوبات عليها أم تلجأ إلى القوة العسكرية؟ لا يمكن للولايات المتحدة التنبؤ بعواقب الضربات العسكرية، على رغم أنها تستطيع التخمين بـ (زيادة دعم إيران للجماعات الإرهابية في الخارج، وارتفاع سعر برميل النفط إلى ما فوق 300 دولار). وإذا لم يكن تفاؤل الصقور ولا تشاؤم المنتقدين مبنياً على معرفة، فما الذي ينبغي فعله إذاً: أهو التراجع أم المضي قدماً؟

في ظل معرفة الأوربيين أنهم أقل قوة من الولايات المتحدة، نجدهم أكثر قلقاً منها عندما يبلغ الأمر مشكلة لا تنبغي مضاعفتها بالتدخل قبل الأوان، أو التدخل الذي لا

تُعرف له نهاية. وعليه فإننا نميل إلى الإفراط في التأمين. يجب علينا أن نحذر خلال سعينا لتجنب تكرار أخطاء سابقينا، من الوقوع في أخطاء لم يرتكبها أحد من قبل.

واليوم يتم تكييف تقويمات المخاطر، إلى درجة ما، مع مدى شعور مُعد دراسة المخاطر بالتعرض للخطر. إن عتبات المخاطر وحدودها أمور غير موضوعية إلى حد بعيد. ذلك أن مخاوفنا تبنى بشكل ثقافي. والأهم في الموضوع هو تحقق المخاطر في الوقت الذي نعيشه ونتخيله ونتصرف حياله كل يوم من حياتنا اليومية. والمشكلة هي أن إدارة المخاطر تجعلنا مسؤولين بشكل خاص عن تهورنا. إنها تجذب الانتباه إلى المبدأ الذي تطلق عليه شركات التأمين "الإهمال المساهم".

تتمحور إدارة المخاطر حول احتمالات: احتمال امتلاك إيران للأسلحة النووية في غضون السنوات الخمس المقبلة، وكذلك احتمال أنه في حال مهاجمتها لن تقبل بطريقة سلبية إهانتها. هذه ليست احتمالات نراها في لعبة (الروليت) التي ما هي إلا انعكاس لمعرفتنا غير المكتملة باللعبة. ذلك أنه لو عرفنا سرعة عجلة الروليت، وكذلك ثقل وتوازن كرة الرخام البيضاء، ولو استطعنا أن نربطها بحواسيب قوية بشكل كافٍ لكي تقوم بعملية الحسابات، لربما أمكننا هزيمة المنافس في كل مرة.

لكن المقامرة لا تعكس أي فكرة جوهرية حول الكيفية التي يعمل بها العالم. إن تقويم احتمالية امتلاك إيران للأسلحة النووية أمر مختلف تماماً. إنها مسألة تقويم سياسي في موقف سريع التطور ومربك جداً.

كانت تهديدات القدماء واضحة ومبنية على الجغرافيا، وفي بعض الأحيان كان يمكن التنبؤ بنتائجها وفق المعطيات التاريخية، وفي الأغلب كان يمكن حسابها بالطريقة الحسابية. أما المخاطر الجديدة فهي جزء من بيئة هي مكان يظهر تعقيده عندما نفحص أجزاءً أصغر وأصغر منه، ومدداً زمنية أقصر وأقصر. وسواء أبدا الشيء بسيطاً أم بدا معقداً فالأمر يتعلق في العادة بالقطاع الذي تنظر إليه. إذا ما اقتربت بقدر أكبر فستبدو لك التعقيدات التي يصعب استيعابها، وإذا ما رجعت قليلاً إلى الوراء فسوف تبدو الأمور بسيطة.

التحوط ضد صعود الصين

يعد صعود الصين مشكلة جيوسياسية ثانية للولايات المتحدة. وقد ذكرت **كوادرينيال ديفينس ريفيو** لعام 2006، أن الصين هي مفترق طرق استراتيجي. يمكنها أن تختار العمل مع الولايات المتحدة أو ضدها (*QDR* 2006). وإذا ما اتبعت النصيحة الشهيرة ليوغا بيرا، لاعب كرة البيسبول الأمريكي، فمن المحتمل أن تقوم بالاثنين معاً، حيث قال ذات مرة: إذا وجدت نفسك في مفترق طرق، ينبغي عليك أن تسلكه.

حتى وإن لم تكن الصين قوية بما يكفي لتكون نداً للولايات المتحدة في الوقت الحاضر، وحتى إن مالت لتكون أقل حدة من الدول الأخرى (ومنها البرازيل) في انتقاد الأفعال الأمريكية على المستوى الدولي، فربما تُرغم على المواجهة في نهاية المطاف. ومع ذلك فلا يوجد أيضاً سبب آني يدعو الولايات المتحدة للقلق الزائد من صعود الصين. بنيوياً، من المرجح أن تظل الولايات المتحدة القوة ذات الرقم واحد حتى منتصف القرن الحادي والعشرين. وحتى إذا تم التفوق عليها، فستكون الأمة الصناعية الرائدة بحلول عام 2012، والقوة الاقتصادية الرائدة في العالم بحلول عام 2035. فالحقيقة الجيوسياسية التي لا مفر منها (وهي حقيقة ملحوظة) هي أن حصتها في القوة الاقتصادية العالمية لاتزال ذاتها لمدة قرن، وربما تظل كذلك للأعوام الخمسين المقبلة على الأقل. وربما تظل حصتها في الناتج المحلي الإجمالي العالمي قريبة من 27٪ حتى عام 2050.

وعلى رغم الحرب الكارثية في العراق، فمن الخطأ الاعتقاد أن الولايات المتحدة تتحمل التزامات مفرطة. فلاتزال الولايات المتحدة تنفق 3.5٪ فقط من الناتج المحلي الإجمالي على المؤسسة العسكرية، مقارنة بما نسبته 35٪ في الحرب العالمية الثانية.

ومع ذلك، فإن من أمارات تكيف الولايات المتحدة مع عصر المخاطر أنها وصلت إلى استنتاج مفاده أنها لا تستطيع احتواء الصين الصاعدة، وبدلاً من ذلك فإنها تسعى للتحوط ضد صعودها. لقد كان التحوط سمة من سمات اقتصاديات السوق في عصر المخاطر لبعض الوقت. وكان أول "صندوق تحوط" هو ما أسسه ألفريد وينسلو جونز في

عقد الأربعينيات، وإن تكن نشأته التاريخية هذه ليست محل اتفاق؛ إذ إن بعض المؤرخين الاقتصاديين يرجعون بداية صناديق التحوط إلى استراتيجيات التداول التي مورست داخل شركات الوساطة والمصارف الاستثمارية، بينما يرجعها آخرون إلى التداولات الآجلة؛ وبخاصة تداولات العملة في السبعينيات.

وكما أنه لم يكن ثمة اتفاق رسمي على النشأة التاريخية لصناديق التحوط، فليس ثمة اتفاق على الكيفية التي ينبغي بها تصنيف هذه الصناديق كذلك. وتدرج مؤسسة بحوث صناديق التحوط Hedge Funds Research (HFR)، وهي إحدى قواعد البيانات الرئيسية لصناديق التحوط، 30 استراتيجية منفصلة [لأداء هذه الصناديق] مع وجود تداخل فيما بينها. في عقد التسعينيات، تبنى بعض مديري تلك الصناديق نظرات طويلة المدى، فيما تبنى بعضها الآخر وجهة نظر قصيرة المدى عند الاستثمار في المداخيل الثابتة والسندات والعملات. ويلاحظ أن بعض استراتيجيات الصناديق ذات ارتباط ضعيف بالعوائد الإجمالية للأسواق، في حين تراهن أخرى على تحركات الأسواق. وبعضها يهدف إلى تعزيز العوائد والآخر إلى تقليص المخاطر في حالة الأرباح شبه الثابتة وعمليات البيع الطويل المدى للصناديق. ويفضل بعض مديري صناديق التحوط التركيز على الأوراق المالية للشركات التي تواجه مصاعب مالية. ويشير مصطلح "الأوراق المالية المأزومة" إلى الأوراق المالية التي تصدرها شركات متعثرة وتطلبت حماية ائتمانية.

تختلف استراتيجيات التداول التكتيكي بشكل كبير أيضاً. فبعض مديري صناديق التحوط يحاولون التربح بتوقع الاتجاه العام لسوق البورصة الأجنبية، ويراهنون على التوقعات الخاصة بالأحداث الاقتصادية الرئيسية، مثل التغيرات في أسعار الفائدة، وتحركات أسعار العملة، وأداء أسواق البورصة. فيما يفضل مديرون آخرون استراتيجيات ترتكز نسبياً على القيمة، وتهدف إلى الاستفادة من سوء التسعير بين الأسواق المالية المعنية، مثل ديون شركة ما. وفيما يتعلق بمنهج الاستثمار الطويل المدى والقصيره، تشمل هذه الفئة من الاستراتيجيات الشراء والبيع لنوعين أو أكثر من الأوراق المالية مرتبطين معاً. وتعتمد المخاطر التي تنطوي عليها هذه العملية على مدى الارتباط بين الأوراق المبيعة أو المشتراة.

باختصار، استراتيجيات صناديق التحوط متنوعة للغاية. وفي ضوء هذا التنوع العريض، ربما لا نتوقع أن نجد موضوعاً مشتركاً. وتميل صناديق التحوط إلى الاستفادة من أمرين: الشك والفرصة. خذ على سبيل المثال شركة قامت بشراء شركة أخرى تمثل صادراتها 75٪ من أرباحها، فإذا تراجعت قيمة الدولار فلربما تواجه خطر تكبد خسارة كبيرة في الصرف الأجنبي نتيجة حدث غير متوقع مثل الحرب. يتأتى الشك من حقيقة أنه يستحيل التنبؤ بسعر الصرف الذي سيتم تطبيقه عندما يتم الدفع في وقت تسلم البضاعة فعلياً. وأحد الطرق للتحوط هو التأمين ضد انخفاض قيمة الدولار.

تدرك الشركات الخبيرة في هذا المجال أن المخاطر المالية التي تنجم عن عملياتها تقدم لها فرصة قوية لتعزيز أسسها، وفي الوقت ذاته تقوي موقف الشركة في السوق بحيث لا تتأثر سلبياً بتذبذبات الأسعار. وعند التعامل مع إحدى استراتيجيات التحوط تكمن المشكلة في عقد توازن بين حالة عدم اليقين ومخاطر خسارة الفرص بالنسبة لحملة الأسهم في الشركة، مع الإشارة إلى أن بعض هؤلاء قد يكونون ممن يفضلون تجنب المخاطر. ومن ثم فإن وضع سياسة تحوط هو قرار استراتيجي يمكن أن يؤدي النجاح فيه أو الإخفاق إلى نجاح الشركة أو انهيارها.

والآن يجب علينا توخي الحذر في الطريقة التي نطبق بها نموذج التحوط، لأن هناك اختلافاً كبيراً فيما بين الشركات والدول. فالشركات تميل إلى الإقدام على المخاطر أكثر من الدول، لأنها تسعى دائماً إلى تعظيم العوائد. على المستوى الاقتصادي الكلي، تحقق الشركات تخصيصاً كفؤاً للموارد من خلال المنافسة، وعلى المستوى الاقتصادي الجزئي، تخلق فائزين وخاسرين. وعليه فإن النظام كله يشجع الموازنة بين المخاطرة والمكافأة. فهو يشجع الإقدام على المخاطر في عالم يكافَأ فيه الفائزون ويعاقَب الخاسرون.

من ناحية أخرى، لا تتنافس الدول بالطريقة التي تتنافس بها الشركات. والتفسير الرئيسي لهذا هو أن الاعتماد المتبادل في العالم ليس على الوجه الذي نظنه، فالولايات المتحدة ربما تكون أقل اعتماداً على السوق من أي دولة أخرى، ولاسيما فيما يتعلق بالتجارة،

ذلك أنها تصدر 10٪ فقط من القيمة المضافة في الاقتصاد (الذي يعادل الناتج الوطني الإجماليGNP). بعبارة أخرى، تنتج الولايات المتحدة بضائع وخدمات لاستهلاكها المحلي إلى حد كبير. وعلى العكس من ذلك، فإن أضخم الشركات لا تبيع سوى نسبة ضئيلة جداً من منتجاتها للعاملين فيها. فصادرات شركة جنرال موتورز (أي مبيعاتها لغير العاملين فيها) تمثل عملياً جميع مبيعاتها البالغة أكثر من الضعفين ونصف الضعف من القيمة المضافة للشركة. بعبارة أخرى، عندما تتنافس شركة ما على حصة سوقية فإنها تتنافس بشكل مباشر مع الآخرين. شركة تربح وأخرى تخسر، ويمكن فعلاً أن تنتج السوق محصلة صفرية.

لكن الحال ليست هكذا في معظم الدول. إذا أدى الاقتصاد الصيني أداءً جيداً، فإن نجاحه لن يكون بالضرورة على حساب الاقتصاد الأمريكي. الأمريكيون يقترضون من الصين 700 مليار دولار سنوياً لتمويل نفقاتهم الزائدة وإبقاء أسعار الرهن العقاري والمنازل منخفضة. ومن خلال تعزيز الاستهلاك الأمريكي، يضمن الصينيون أن تظل الولايات المتحدة أكبر سوق لهم (Krugman 1998:9).

في هذا تصعد الدول وتهبط، ويمكن بالتأكيد توقع تغير وضع الولايات المتحدة مقارنة بالصين لصالح الأخيرة. لكن ليست أي من الدولتين منخرطة في سباق في القرن الحادي والعشرين كما يدّعى في الأغلب. على العكس من ذلك، في الأغلب تجد الشركات نفسها تتنافس للبقاء، وبخاصة عندما ينهار طلب المستهلك، إما لأن البضائع التي تنتجها لا تواكب الدارج العصري، وإما لأنها تتقادم بفعل التغير التقاني.

وكثيراً ما تخرج الشركات من الأعمال، لكن الدول نادراً ما تفعل ذلك، ومع هذا لا يعني بطبيعة الحال أنها لا تتنافس. ولاتزال الدول تتنافس على القوة، والمفارقة هي أن المخاطر أعلى. كما أن القوى العظمى تزدهر وتضمحل. ولا أحد يخسر واقعياً من انهيار شركة باستثناء موظفيها وحملة الأسهم، بل إن الموظفين يمكن إعادة تأهيلهم. ولكن الدول التي تخفق في المنافسة جيوسياسياً يمكن أن تتكبد تكلفة، مثلما يمكن أن يحدث لنا

جميعاً عندما لا نستطيع الاعتماد عليها للحماية. وأحياناً تُغيّب القوى العظمى عندما تفقد مكانتها العظيمة.

ومع ذلك، يمكن أن يكون التراجع النسبي للمركز العالمي لدولة ما ميزة للجميع. فانهيار الاتحاد السوفيتي أسفر عن لحظة أحادية قطبية للولايات المتحدة لم تكن من بين مصالح الولايات المتحدة ولا مصالح حلفائها. لقد شجعت اعتقاداً مبالغاً فيه بعدم الاستغناء عنها. توصلت إدارة بوش إلى أنه يمكن الحفاظ على النظام فقط إذا ما تصرفت الولايات المتحدة بطريقة مختلفة تماماً عن الآخرين. «يتطلب الأمن الأمريكي واستقرار العالم وانتشار الليبرالية أن تتصرف الولايات المتحدة بطرائق لا يستطيع الآخرون القيام بها، ويجب ألا يتمكنوا من ذلك. هذا ليس ازدواجية في المعايير، إنه ما يتطلبه النظام العالمي» (Jervis 2003:276).

وباستشراف المستقبل، ربما يمكننا استنتاج أن صعود الهند والصين ليس بالضرورة أمراً سيئاً للولايات المتحدة؛ فربما يرغم الأمريكيين على تقييد ممارستهم للقوة.

أصبح التحوط، بعبارة أخرى، أمراً تتبناه الدول مثل الشركات. وأفضل ما توصف به السياسة الأمريكية هو "مشاركة + تحوط". وقد أقرت دورية **كوادرينيال ديفينس ريفيو** الصادرة عام 2006 بأنه ينبغي تشجيع الصين على لعب «دور سلمي بنّاء في منطقة المحيط الهادي وآسيا، وأن تكون شريكاً في معالجة التحديات الأمنية المشتركة». لكنها أدركت أيضاً أن الصين، من بين كل القوى الناشئة، تتمتع بأكبر إمكانية للتنافس مع الولايات المتحدة في المستقبل (*QDR* 2006:18-29). وقد تم توضيح أسباب ذلك بجلاء في تقرير لجنة المراجعة الأمنية للولايات المتحدة-الصين US-China Security Review Commission لعام 2002، إذ ذكر أن الدولتين لهما «وجهات نظر عالمية متناقضة بحدة، ومصالح جيوستراتيجية متنافسة، ولديهما نظامان سياسيان متعارضان» (US-China Economic & Security Review Commission 2005).

هذه الاختلافات صحيحة، ولا يمكن تجاوزها بالبيانات المشتركة، ولكن تمكن إزالتها ببساطة من خلال تضييق الخلافات بشأن قضايا سياسية محددة. من جانب آخر، لا يُنظر إلى الصين على أنها قوة ثورية مثل الاتحاد السوفيتي، بل يُنظر إليها بقدر أكبر على أنها قادم متأخر في لعبة القوى العظمى، قوة تسعى لترسيخ مكانتها في عالم تم ترتيبه استراتيجياً من قبل متنافسين سابقين.

لقد قبلت استراتيجية الأمن القومي في العام ذاته هذا التحليل. وجاء فيها: «نحن نسعى لتشجيع الصين على القيام باختيارات استراتيجية لصالح شعبها في حين نتحوط ضد الاحتمالات الأخرى» (Tunsjo 2007:42). وقد أصرت وزارة الدفاع الأمريكية في تقريرها السنوي للكونغرس أنه يجب على الولايات المتحدة «التحوط ضد المجهول» (*US DoD Defense Department Executive Summary*) (نقلاً عن: Tunjso 2007:43). الأمور التي لا يمكن التنبؤ بها الآن أصبحت عاملاً دائماً في السياسة الدولية، ولم تكن هذه هي الحال حقاً خلال الحرب الباردة. وما لا يمكن التنبؤ به، بحكم التعريف، يجب علينا أن نتحوط له.

الطريقة الرئيسية التي تستخدمها الولايات المتحدة للقيام بهذا هي إدخال الصين في الإطار الأمني القائم، وكان هذا هو المنطق وراء "تسريع" دخولها في منظمة التجارة العالمية منذ بضع سنوات. والهدف من ذلك هو خلق رغبة في الاستقرار، وتشجيع الصين على أن تصبح مساهماً مسؤولاً في النظام الدولي. وإذا كانت، بخلاف الاتحاد السوفيتي في عقد الأربعينيات، أكثر اهتماماً بتحقيق مشاركة أكبر في إدارة النظام، وليس تحدي مبادئه التشغيلية أو إجراءاته الأساسية، فعندها سيكون الاحتواء أمراً غير ضروري. ربما لا يكون المساهمون حلفاء، ولكن يجب أن تكون لديها مصالح مشتركة.

بدأت الصين المشاركة بفاعلية في المنظمات الاقتصادية والأمنية المتعددة الأطراف، مثل منتدى التعاون الاقتصادي لمنطقة آسيا المحيط الهادي (APEC)، والمنتدى الإقليمي لرابطة آسيان (ARF)، ورابطة أمم جنوب شرق آسيا زائداً ثلاثة (APT). وقد رسم

المنتدى الإقليمي لرابطة أمم جنوب شرق آسيا منظومة قواعد التعامل في المناطق المتنازع عليها جنوبي الصين، فيما وفرت رابطة أمم جنوب شرق آسيا زائداً ثلاثة منتدى يمكن فيه لليابان والصين وكوريا الجنوبية مناقشة القضايا الأمنية. لكن الصين تتحوط ضد الولايات المتحدة أيضاً من خلال انضمامها إلى منظمة تعاون شنغهاي (SCO) التي تشمل الدول الأعضاء فيها دولاً ربما تدخل الولايات المتحدة معها في صراع مستقبلاً، مثل روسيا وباكستان وإيران (مع الإشارة إلى أن باكستان وإيران لا تتمتعان حالياً بالعضوية الكاملة، بل بصفة مراقب).

إن انتشار مثل هذه المنظمات الأمنية ربما يؤسس نموذجاً للمستقبل؛ فربما يرسخ شبكة معقدة للغاية من الشبكات، كل منها تتكون من منظمات متشابكة ومغلقة جزئياً، تختلف جداً عن نظم التحالفات المتنافسة والتكتلات التي كانت تميز القرن العشرين.

المشكلة هي أن هناك آراء كثيرة في واشنطن وأساليب مختلفة للتعامل وصعود الصين؛ ومن ثم فإن هناك حاجة للتحوط. وإذا كان إدخال الصين في الإطار الأمني القائم يشكل استراتيجية تحوط، فإن بعض الخبراء يرون أن الإدماج الفعلي للصين في هذه المنظمات لم يثبت حتى الآن سوى اندماج سطحي أو خدمة لمصالحها. ويرون أنه حتى إذا تغير هذا، فإنه لايزال أمام الصين شوط طويل حتى تصبح دولة عالمية مستعدة للاعتراف (فكيف القبول) بأي تقليص لسيادتها.

النقطة المهمة هنا هي أنه بينما يمكن أن يساهم التحوط في تقليص المخاطر، فإنه لا يتيح إزالتها. إن الشركات تحاول التحوط ضد المخاطر المتصلة بأعمالها الرئيسية، مثل تذبذبات العملة. وتتحوط الشركات لكي تحسن تنافسيتها أو تحافظ عليها، ولكن المنافسة بين الشركات بطبيعتها تختلف عن المنافسة بين الدول (Tunsjo 2007:107-19). وعندما تخفق الشركات في المنافسة في الأغلب تخرج من الأعمال، لكن الدول نادراً ما تفعل ذلك. والأمن، بخلاف السوق، أمر غير موضوعي. وسواء أكانت سياسات التحوط طويلة المدى أم قصيرته، وسواء أكانت متعقلة أم انتهازية (أكانت تنطوي على تحوط ضد السيئ

أم استغلال الجيد غير المتوقع)، فإن مجتمعات المخاطر آمنة على قدر ما تشعر هي نفسها بذلك فحسب.

لا أحد يدعي أن إدارة المخاطر استراتيجية غربية فقط. لقد وضع الغرب نموذجاً لتصميم الإطار المعياري للعلاقات الدولية. والآن يظهر الصينيون في الصورة وهم قلقون من أنه يتعين على الولايات المتحدة أن تقدم تنازلات، على حين تجد نفسها غير قادرة على تشكيل النظام بما يتواءم ومصالحها واحتياجاتها. ومن وجهة نظر الصين من حيث هي دولة صاعدة فإنها تهتم بإدارة تراجع الولايات المتحدة بقدر ما تهتم الأخيرة بإدارة صعود الصين.

بدأ الحوار عام 2006 بمقالة خاصة للكاتب وانغ ييوي Wang Yiwei (وهو باحث شاب في جامعة فودان) تساءل فيها: «كيف يمكننا منع الولايات المتحدة من التراجع بشكل أسرع من اللازم؟». بما أن الولايات المتحدة الأمريكية لاتزال هي "مُقدِّم الخدمة" الرئيسي للنظام، وسوف تستمر في هذا الدور بعضاً من الزمن في المستقبل، وفي ضوء أنه ليس من دولة في الوقت الحالي يمكن أن تحل محلها (حتى الصين)، فإن هناك قليلاً من الصينيين يرغبون في أن تتراجع الولايات المتحدة بسرعة أكثر مما يجب. باختصار، إنهم يرغبون في التحوط بالعمل مع دول أخرى (مثل روسيا). لكن اهتمامهم الرئيسي هو إدارة مخاطر حدوث تراجع أمريكي، إلى أن يأتي حينُ ذلك التراجع وهم قادرون على الوفاء بمتطلبات أن يغدوا هم القوة العظمى الثانية في العالم (Leonard 2008:116).

الفوضى العالمية

هناك اقتباس لبيل كلينتون يتحسر فيه على عدم وجود هيكل شامل "ينظم" العالم، إذ يلاحظ أن مثالب العولمة في غيابه تفوق إيجابياتها. إن ما يثير الكآبة بطبيعة الحال هو أن نشعر بالحنين لأيام الحرب الباردة، لكننا نفعل ذلك لأنها شكلت نظاماً سياسياً من نوع فريد. خلال الفوضى العالمية التي ظهرت عقب عام 1991، وجد الغرب أن سلوك كثير

من الأطراف الفاعلة غير متوقع بشكل كبير، والأهم من ذلك هو أن حالة عدم اليقين ليست نتيجة عيوب في جمع المعلومات الاستخبارية أو تحليلها. إنها في الأغلب مبدأ تنظيمي للفوضى، إن لم يكن هذا تناقضاً في المصطلحات. لقد اكتشف الساسة أنهم لا يستطيعون التنبؤ بجميع المخاطر التي يمكن أن تظهر. إن الاتجاهات هي الأصعب في القراءة؛ وهذا هو مفهوم الاحتمالية الذي اقتحم عالم الشؤون الدولية. الفوضى العالمية هي عملية غير خطية، ومن ثم فهي ليست قابلة للتحليل الأكتواري.

اليوم، لا نظام عالمياً ولا حتى ما يشبهه. في أوائل عقد التسعينيات، وصف محللان محترمان هما ماكس سينجر Max Singer وآرون ويلدافسكي Aaron Wildavsky، الموقف في كتاب عنوانه **النظام العالمي الواقعي: منطقة السلام ومنطقة الاضطراب** *The Real World Order: Zone of Peace, Zone of Turmoil*. وقد شُرح ما طرحه الكتاب بشكل واضح في بداية الفصل الأول: «مفتاح فهم النظام العالمي الواقعي هو فصل العالم إلى اثنين: منطقة سلام وثراء وديمقراطية، ومنطقة اضطراب وحرب وتخلف» (Singer and Wildavsky 1993:3). وهذا يطرح أمامنا ما يشبه الشق الوجودي في الشبكة الإنسانية، كما أنه يرقى إلى درجة عالية من العنف الغريزي في حياة وخبرة منطقة الحرب. أما ستيفن فراي Stephen Fry فيدعي أنه يمكن تقسيم الناس إلى قسمين: هؤلاء الذين يقسمون العالم إلى قسمين، وأولئك الذين لا يفعلون ذلك. ويبدو أن الشيء ذاته ينطبق على الاستراتيجيات، وإن تكن هذه النقطة أكثر دقة. ذلك لأننا لا نتساءل إن كانت هذه التقسيمات قائمة، ولكننا نعتقد أنها موجودة، ونؤمن أن العنف يميل إلى الاندلاع عندما تتقاطع المنطقتان. وقد أشار توني بلير في آب/ أغسطس 2006 إلى أن «العالم يتسم بالاعتماد المتبادل، والارتباط هو فقط سياسة واقعية حديثة» (*The Times*, 26 August 2006).

وما يجعلنا أكثر قلقاً في تقسيم العالم إلى منطقتين مختلفتين من الرخاء والفوضى، هو التقاطع بين الاثنتين. لهذا السبب يتحدث قادتنا السياسيون الآن عن العيش في العالم "ما

بعد الآمن". ومن ثم، قال توني بلير في حديث له أمام الكونغرس الأمريكـي عـام 2003: «إن هجمات الحادي عشر من سبتمبر لم تكن حدثاً منعزلاً، ولكنها فاتحة تراجيدية... عالمنا الجديد يعتمد على النظام. الخطر هو الفـوضى التـي يمكـن أن تنتـشر في عـالم اليـوم مثـل العدوى» (Mythen 2004:2). ومع ذلك، فمن الضروري أن نسأل أكان بلير أو كلينتون (أو كثير من قادة العالم الآخرين) قد استوعبوا فعلياً حقيقة العولـمـة؟ فالعولـمـة، كـما كتـب آلان تورين Alain Touraine، المفكر الاجتماعـي الفرنـسي، ليـست تعريفـاً لمرحلـة مـن الحداثة، ولا حتى حقبة تاريخية. ينبغي النظر إليها كما هي: طريقة لإدارة تغـير تـاريخي، أو طريقة للبحث في حل بعض مشكلاته.

ينطلق تورين من التصدع الذي يحـدث في الغـرب لكثـير مـن الـروابط الاجتماعيـة التقليدية، وانتصار الفردية الأنانية الانعزالية التي أبرزتُها في الفصل الثالث، بوصفها سمة رئيسية لعـصر المخـاطر. فعلـماء الاجـتماع يناقـشون كثـيراً تراجـع الطبقـات الاجتماعيـة والحركـات الاجتماعيـة، وكـذلك الهيئـات التقليديـة "للتنـشئة الاجتماعيـة" كالمدرسـة والأسرة. وتحدد السياسة الآن بوساطة نزعة فردية هجومية، أو صعود سياسـات متعـددة الثقافات تتحدى اللياقة البنيوية للدولة التي تحتاجها الدولة عند خوض الحرب. ومن ثـم ينبغي ألا نندهش من أن هذا يتوافر بشكل متوازٍ على المستوى الدولي أيـضاً. ولا مكـان في خيالنا لخطابات اجتماعية عظيمة مثل بناء نظام عالمي جديد. في الداخل: تتفاوض الدولـة مـع جماعـات المـصالح (الدينيـة أو العرقيـة)، وفي الخـارج: حلـت جماعـات المخـاطر (الإرهابيون - الدول الشريرة - عوامل الخطـر مثـل سـارس) محـل الفئـات الاجتماعيـة القديمة (الأفكار السياسية - الأيديولوجيات) (Touraine 2007:19-32).

ولابد من وضع الحرب في هذه الصورة أيضاً بحسبانها مبـدأ مـنظِّماً organizing أو تنظيميـاً regulatory. فالهـدف الرئيـسي لقـوة الدولـة هـو الإدارة. وفي الأغلـب تنظـر الولايات المتحدة لنفسها على أنها "منسق" للعولمة، ويدعي الاتحـاد الأوربي أنـه "منـسق" للمجتمع المدني العالمي. ويمكن النظر إلى القوة على أنها عامل منسق أيضاً، إذ لم تبق للقـوة

وظيفة سياسية أو اجتماعية، ولم يبق الغرب ينخرط في خوض حملات عسكرية (مثل الحملة العسكرية للعالم الليبرالي ضد الفاشية). ولم تبق الحرب أداة يمكن أن تستخدمها الولايات المتحدة (أو دولة أخرى) من أجل "ركوب موجة المستقبل" (إحدى الاستعارات المجازية المفضلة لجون كينيدي، أخذت من عنوان كتاب سابق للكاتبة آن مورو ليندبيرغ Anne Morrow Lindbergh عام 1941).

في مطلع عقد الستينيات، استغل كينيدي رؤية ليندبيرغ للحرب عندما قالت: «لا أستطيع رؤية هذه الحرب على أنها صراع ببساطة بين قوى الخير والشر... وربما يكون من الأفضل القول بأن قوى الماضي تحارب قوى المستقبل» (Lukacs 1976:514). تحدى كينيدي الشعب الأمريكي لركوب الموجة من خلال إقصاء التهديد الشيوعي، بدلاً من المخاطرة بالانجراف مع تياره. واليوم لم تبق ثمة رؤية "للبعد الاجتماعي"، بل هناك فقط فهم نفعي جداً للمستقبل: العالم مكان خطر يحتاج إلى أن يتم تنظيمه ضد عدد من الأعداء من حركات إرهابية وعصابات إجرامية وأباطرة مخدرات.

ما يجعل رأي تورين مقنعاً لهذه الدرجة هو ادعاؤه أنه حتى الإرهابيون يميلون لاتباع المنطق ذاته. وهم أيضاً تخلَّوا عن السياسة بمفهومها التقليدي منذ مدة طويلة (من المرجح أن تكون إيران أول ثورة إسلامية وآخرها). حتى الدول الإسلامية الراديكالية قد تخلت عن الحرب بصيغتها التقليدية (أي بين الدول). الإرهاب ليس حرباً، بل هو تكتيك يهدف إلى إخراج قوى العولمة عن مسارها، أو (على الأقل) إبطاء تقدمها، وهو يقوم بذلك جزئياً من خلال الانخراط في هجمات كرّ وفرّ على "منسقيها"، ولاسيما الولايات المتحدة. ومعظم الإرهابيين لا تحركهم رؤية إعادة تشكيل العالم وفق رؤية اجتماعية كبرى. في هذا الإطار، تنظيم القاعدة ليس ما كان يمكن أن يطلق عليه لينين "طليعة ثورية"، ولكنه ربما كان يمكن أن يرى الحركة "فوضى صبيانية".

العولمة تفصل بين الاجتماعي والاقتصادي، فهي تبدد الرؤى الاجتماعية بإظهار جميع التصرفات المحلية وكأنها غير ذات معنى في وجه القوى العالمية. قليل منا من يعرِّفون

أنفسهم بأنهم كائنات اجتماعية، وبدلاً من ذلك نحن منتجات لسوق موضوعية، أو ثقافة غير موضوعية تعرّف نفسها بمثاليات محلية أو إقليمية. عالم العنف السياسي المنظَّم لم يبق عالماً اجتماعياً على الإطلاق. «لم تبق الحرب هي الوجه الآخر للصراع الاجتماعي» (Touraine 2007:2).

لقد بزغت الدول الحديثة من رحم الحرب، وقامت لمواصلتها، بحثاً عن رؤية اجتماعية، واليوم تشن الدول حروباً ليست لها وظيفة سياسية أو اجتماعية. لقد أصبحت الحرب بالنسبة لنا إدارة مخاطر في كل شيء باستثناء الاسم.

يُلاحظ أن مجتمعات المخاطر أقل اهتماماً ببناء الأمة أو الدولة بالمفهوم التقليدي. فنموذج بناء الأمة لم يعد محبذاً، وربما كان هذا في الصالح. إن عصر المخاطر ليس عصراً تُرفَض فيه بالكلية القيم أو الاستراتيجيات التي تلهمها القيم، ولكن المصالح أهم كثيراً من تلك القيم. إن إحدى ديناميات التخطيط الاستراتيجي هي نوع من القدَرية، رفض للمشروعات الطموح بجميع عواقبها غير المتوقعة. ويُبدي صانعو السياسة تصلباً في الشرايين، وتصلباً في القلوب أيضاً. فنحن أقل استعداداً بكثير مما كنا من قبل لدعم الشعوب التي تحاول تشكيل مصائرها بدلاً من قبول أقدارها.

إدارة المخاطر والنظُم التكيفية المعقدة

على رغم جميع تعهدات المحافظين الجدد ببناء الأمة ما بين عامي 2002 و2003، فإن عدداً أكبر من صناع السياسة المتّزنين بدؤوا يتساءلون (وتصاعدت لهجتهم مع الوقت) إن كان يجب عليهم في عصر المخاطر أن يحاولوا إعادة تنظيم المجتمع من حيث المبدأ. بناء الأمة أهو أمر محبذ أم جزء من التاريخ الفكري للحقبة السابقة؟ أينبغي أن يظل بحثاً تقليدياً للسياسة الخارجية الأمريكية كما كان مذ دخلت الولايات المتحدة التاريخ لتعيد تنظيم إمبراطوريات وسط أوربا عقب الحرب العالمية الأولى؟

في السنوات الأخيرة، تعرض عدد من المهن للانتقاد بسبب الاستمرار في الارتباط الجذري بافتراضات تقليدية. ولعل الأكثر إلحاحاً في الاقتصاد، كما يشير روبرت سولو Robert Solow، هو مفهوم "توازن السعر"، وهو هدف مستحيل تماماً في الاقتصاد الرأسمالي الذي يقوم جوهره على التغير، لأن النظام الاقتصادي ذاته هو الذي يولد القوى التي تعمل باستمرار على تغيره. والآن يصر بعض الاقتصاديين على أن جميع الأسعار ترتبط بانعدام التوازن لهذا السبب. في أي سوق، تكتشف المعلومات، وتجرى التعديلات، وتحول الموارد في محاولة لمواكبة الظروف المتغيرة. وما لم نفترض وجود خبير مثمِّن على علم بكل شيء يسيطر على السوق ويقوِّم نقطة التوازن، فيجب أن تتم جميع المعاملات حتماً بأسعار غير متوازنة (Kamarck 2001:14).

بعبارة أخرى، يُقاد التضخم، كجميع القوى الاقتصادية، من الخلف. عند إدارة الاقتصاد، علينا أن نتطلع فقط إلى تحقيق نتائج محددة، ومن بينها معدل تضخم منخفض. وسيكون من قبيل التضليل تسمية التضخم المنخفض "توازناً" لكي نحافظ على الافتراض التقليدي. ذلك أن هذا من شأنه أن يوحي بأنه إذا لم تتحقق نتيجة معينة فإن قوى اقتصادية سوف تستمر في الحفاظ عليه، أو أنه إذا تحرك باتجاه انعدام التوازن فإن قوى أخرى سوف تستعيده. وبطبيعة الحال هذا كله يفترض أن الحفاظ على التوازن أمر ضروري مرغوب في ذاته (Kamarck 2001:189-90).

في عصر المخاطر، بدأ منطق مشابه يطبَّق على الأمن. إذا لم تكن هناك إمكانية لإقامة نظام عالمي جديد، فعندها سوف تخفق بالتأكيد جميع محاولات استعادة التوازن (الذي يعرَّف بأنه استقرار أو نظام أو حتى أمن دائم) من خلال بناء الدولة. وتشير كلمة "نظام" إلى أمر يمكن إنفاذه (إحلال السلام)، أو التحكم فيه، أو تأمينه ضد التهديدات الخارجية والداخلية. إن إدارة المخاطر أقل طموحاً من ذلك بكثير؛ فهي تنطوي على إدارة الفوضى عند مستويات مقبولة من انعدام الأمن للمجتمع الدولي، إلى أن يحل وقت يظهر فيه نوع من أنواع النظام (إذا جاء مطلقاً). الأمن ليس مشروعاً؛ إنه عملية تتطور فيها الحلول عبر

الوقت. وكل ما يستطيع المجتمع الدولي أن يأمل فيه عند التدخل هو "نتيجة" أفضل تعرَّف من حيث السلوك الأفضل.

كتب كليفورد جيرتز Clifford Geertz عالم الأنثروبولوجيا الراحل: عند النظر إلى أي ثقافة، ينبغي أن نعزل عناصرها، ونحدد العلاقات الداخلية بينها، لأن هذه العلاقات هي التي تنتج محصلات محددة في صورة سلوك محدد. يجب علينا أن نحدد العناصر الأساسية التي يتم تنظيم المجتمع حولها، والهياكل الحقيقية التي لا يظهر منها سوى تعبير سطحي. ينبغي أن نسعى أيضاً لتحديد معتقداتها الأيديولوجية الرئيسية. في أفغانستان، يمكننا تحليل الأطراف الرئيسية (بارونات المخدرات، وأمراء الحرب، وزعماء القبائل، والساسة المحليون) وتحليل العلاقة ما بينهم، ولاسيما دورهم في التحالف الذي أبقى طالبان في السلطة عقب عام 1994، ويمكننا النظر في الهياكل الاجتماعية الحقيقية للدولة، مثل القبلية، بميثاق الشرف المعمول به، وبنظامها العقدي الرئيسي، وهو الإسلام.

لكن مثل هذا المنهج المحكم، كما يذكّرنا جيرتز، عرضة لخطر الحؤول دون وصول التحليل الثقافي إلى هدفه الصحيح، وهو تحديد المنطق غير الرسمي للحياة الفعلية. ما ينبغي أن ينظر إليه علماء الأنثروبولوجيا هو السلوك، لأن تفاصيل الصورة الثقافية تظهر من خلال تدفق السلوك (أو على نحو أكثر دقة الفعل الاجتماعي). كما يجدونها أيضاً في صور مختلفة من الوعي (في الطريقة التي ينظر بها المجتمع إلى العالم)، لأن هذه أيضاً تستقي معناها من الدور الذي تلعبه في نمط الحياة المستمر.

لتغيير سلوك أي نظام، نحتاج فقط إلى تغيير بعض القواعد على المستوى المحلي. وهذا بالضبط ما تعنيه السياسة كما يرى جيرتز (Geertz 2000:27). فالأمر يتعلق إلى حد كبير بالمستوى المحلي؛ إذ ليست البراعة في إنفاق وقت زائد في تدعيم الحكومة المركزية، ولكن في محاولة تحسين نوعية الحياة المحلية. وينبغي أن يكون توفير الخدمات هو الهدف، وقد اكتُشف هذا في السنوات الأخيرة في المجتمعات التنموية. لقد حاول اقتصاديو التنمية التوصل إلى تقويم أعمق "للاقتصاد السياسي" للبيئة المحلية. وأشار **تقرير التنمية العالمية**

World Development Report في عام 2004 بوضوح إلى أهمية التركيز على المستوى المحلي في الحلقة الفعالة من توفير الخدمات الاجتماعية، منبهاً على أن التغييرات الطفيفة يمكن أن تقود إلى آثار كبيرة، في أن التغييرات الكبيرة (مثل تغيير النظام في المركز أو إدخال الديمقراطية) قد تحدث اختلافاً ضئيلاً (World Bank 2004). نسمي هذا سلوكاً غير خطي لأن العلاقة السببية لا تعمل دائماً كما نتوقع. فالتغييرات الصغيرة يمكن أن تولد مفاجآت، يمكن أن تنتج خصائص ناشئة (مثل استقرار أفضل) بمجرد أن تتخطى عتبة حرجة. ودراسة النشوء بكل صوره هي أحد أهم المشروعات العلمية للعصر الحالي.

يستخدم كثير من الأعمال النظرية الجديدة في مجال الاقتصاد هذا المفهوم نقطة انطلاق. ويركز جميع باحثي معهد "سانت في" في مجال التعقيد، والديناميات غير الخطية، ونظرية المباريات التطورية، والعقلانية الاستقرائية، على تحقيق نتائج اقتصادية بالتعامل مع كل فاعل، سواء كان فرداً، أو شركة، أو صناعة، على أنه جزء من نظام تكيفي معقد. وعندما يتم فهم فرصة واستغلالها من قبل أحد الفاعلين، تنشأ فرص جديدة للآخرين بوصفهم منافسين، أو شركاء، أو متطفلين، أو مفترسين (Kamarck 2001:19).

المفتاح الرئيسي لإحداث تغير في أي نظام تكيفي معقد هو اكتشاف ما يسميه الاقتصادي هربرت سيمون Herbert Simon: «البساطة ذات المعنى وسط التعقيد غير المنظم» (Buchanan 2002:214). ودعوني بهذا الصدد أستشهد بمثال قديم جداً، هو إدخال الديمقراطية في أثينا في القرن السادس. لايزال الغرب منخرطاً بشكل رسمي في جعل العالم آمناً للديمقراطية، ولكن لديه فهماً منقوصاً لكيفية بدء أول ديمقراطية في التاريخ. إنها حكاية شيقة. عادة ما يُرجع الفضل في بناء الديمقراطية إلى الإصلاحات التي أدخلها كلايسثينز Cleisthenes، ولكن هذا لم يكن هدفه. لقد كلفه مواطنوه بأن يحقق نتيجة محددة: تغيير سلوك نظام بلغت فيه الصراعات بين الأسر الملكية حالة مدمرة جداً، حتى إنها كانت تهدد بتقويض حياة المدينة. وكان الحل الذي توصل إليه رائعاً وبسيطاً وطموحاً ولا يلين في الوقت ذاته. فقد قرر أن يقمع الهوية الأسرية، ورؤساء العشائر

المحلية جميعاً عن طرائق تقسيم الريف إلى 150 مقاطعة منفصلة. فلم يعد المواطن يحصل على اسمه الثاني من أسرته بل من المقاطعات المحلية. وقد خلق ذلك شعوراً ملحوظاً بالهوية المدنية. في ظل إصلاحات كلايسثينز كان التسجيل في داخل المقاطعة هو الطريقة الوحيدة التي يصبح بها الشاب مواطناً عندما يبلغ سن الرشد.

حوّلت إعادة تنظيم كلايسثينز للمواطنين المدينة من إطار سياسي إلى كيان سياسي. وقد تعززت وحدتها بفضل مشاركة مواطنيها، وأصبحت ذات قيمة من خلال إضافات المواطنين (Maier 1993:160). ونجح كلايسثينز في إحلال الاستقرار في النظام بالمزاوجة بين الإصلاح السياسي والماضي القديم. ولأن أهل أثينا كانوا تقليديين، فقد منحت القبائل جميعها أسماء أبطال قدماء. باختصار، لم يبتكر كلايسثينز فقط مستقبل مدينته، بل ونسج ماضيها بالقدر نفسه من الأهمية.

وأخيراً، تداول كل من القبائل العشر الجديدة ذات الكتل الانتخابية رئاسة المجلس الذي عرف بمجلس الخمسمئة، والذي ضمن عدم هيمنة مجموعة واحدة على الشؤون المدنية. وعليه فقد أصبحت التسوية عادة اجتماعية أكثر من كونها التزاماً إجرائياً. وهكذا من خلال تغيير سلوك النظام الذي وجده كلايسثينز نجح في أن يجعل الحياة السياسية الديمقراطية أمراً ممكناً. وكانت الديمقراطية هي المحصلة وليس المشروع.

على غرار أثينا في القرن السادس، يمكن النظر إلى أفغانستان أيضاً على أنها نظام تكيفي معقد يتكون من كثير من الأطراف السياسية المختلفة، كل منها يمتثل لقواعد محددة تحكم سلوكه. تشمل هذه الوحدات بارونات المخدرات، والساسة المحليين، وأمراء الحرب، والثوريين. وعندما تبرز فرصة (انهيار حركة طالبان) تتفاعل الأطراف الأخرى، كالتحالف الشمالي، أو أمراء الحرب الثلاثة عشر، أو الجماعات التي تتمتع بجيوش خاصة (نحو أربعة آلاف وفقاً لآخر تقدير) بوصفهم شركاء، أو مفترسين، أو متطفلين. وسلوك النظام هو محصلة النتيجة الجماعية لكل طرف يستخدم مبادرته الخاصة في سياق قواعد راسخة. يأمل الغرب في تغيير سلوك النظام، من خلال محاولة تغيير النظام، وتحويل

الدولة إلى دولة ديمقراطية. وللأسف فقد وجد أن المعرفة المتوافرة لديه فيما يتعلق بكيفية عمل النظام أقل بكثير مما لدى المحليين. وفي مثل هذه البيئة الداروينية، نجد أن المعرفة هي التي تمكن الجماعات من التكيف بسرعة. فلم يبق الداروينيون يتحدثون هذه الأيام عن البقاء للأقوى، بقدر ما يتحدثون عن البقاء للأكثر اطلاعاً على أحدث المعلومات.

بدلاً من محاولة تحويل أفغانستان إلى دولة ديمقراطية، ربما يجدر بالغرب محاولة هندسة محصلة خاصة؛ مزيد من الاستقرار، وهو ما يمكن تحقيقه ليس بإعادة تنظيم الدولة، ولكن بتغيير سلوك الجماعات الاجتماعية المتنوعة. إذا كانت دراسة النظم التكيفية المعقدة تُظهر أن كثيراً من أنواع التغيير تقود بشكل واضح إلى تأثيرات ضئيلة على السلوك، فإن النمذجة باستخدام الحواسيب تكشف أيضاً أن تغييراً طفيفاً جداً في القواعد يمكن أن يُحدث تغييراً كبيراً في السلوك. المهمة هي إيجاد عوامل التأثير المناسبة. من بين الأمثلة في المجالات الأخرى، قوانين تنظيم المنافسة التي تميل إلى كبح اتجاه الأسواق إلى الاحتكار، والتطعيمات التي يمكنها عندما تحقن في جسم المريض أن تحفز نظامه المناعي إلى مكافحة مرض محدد.

دعوني في هذا أقتبس مثالاً آخر من مجال التنمية. في غضون عقد من الزمن حققت حكومة كيرالا الإقليمية في الهند معدل محو أمية يناهز مثيله في العالم المتقدم. والعامل المؤثر الذي قالت السلطات إنها حددته هو فكرة نشرها المعلم البرازيلي باولو فريري Paulo Freire الذي ادعى أن المشكلات العاجلة في حياة الناس توفر في المعتاد أفضل مواد تعليمية (Martin 2006:61). وبناء عليه، كان الحل في كيرالا هو تقديم مواد مقروءة للفلاحين تتعلق بموقفهم الآني، مثل: الجوع والفقر ومياه الشرب المأمونة.

وعلى رغم أن القوة العسكرية يمكن أن تستخدم بوصفها عامل تأثير أيضاً، فإن هذا ممكن فقط إذا أعيد وضعها في السياق بحيث تتناسب وعصر المخاطر. ويمكن أن تشجع فقط مزيداً من الاستقرار (أو تقليل حدة انعدام الأمن؛ الاستقرار للمجتمع الدولي والأمن للمحليين) إذا كان الهدف، أي تغيير سلوك النظام التكيفي المعقد، يُعد "مشكلة مستعصية".

المشكلات المستعصية

أول من عرف هذا المفهوم اثنان من المخططين الحضريين بجامعة كاليفورنيا في بيركلي عام 1973، وهما: ريتل H. W. J. Rittle وفيبر M. M. Webber، في ورقة عمل لهما بعنوان **معضلات في النظرية العامة للتخطيط** *Dilemmas in the General Theory of Planning*؛ حيث قالا إنه على رغم أن المنهج العلمي الكلاسيكي مؤهل جيداً لحل المشكلات الأليفة، فإنه ليس مؤهلاً جيداً لحل المشكلات المستعصية (Blockham 2007). مشكلة عصرنا الحديث هي اعتقاد أن كل مشكلة هي مشكلة أليفة، وأن كل مشكلة يمكن حلها إذا توافر الوقت والموارد الكافية. غير أن عصرنا، بالمقارنة، يدير مشكلات غير قابلة للحل. وهذا تحدٍّ بشكل خاص للمهنة العسكرية التي هي بطبيعتها حل المشكلات. يدرَّب الجنود على التفكير المنطقي؛ إنهم أداتيون من الطراز الأول، يفكرون في معايير الحلول، والبرامج، والمشاريع. هم لا يجيدون كثيراً التفكير بطريقة مبتكرة. وعندما يقابلهم أمر غير اعتيادي يميلون إلى ترجمته لصيغة تلائم الهيكل التحليلي القائم. وأكثر ما يسعد الجنود، في العادة، عندما يعالجون المفاهيم التقليدية التي تعلموها في كلية الأركان: فكرة أن الحروب لها بدايات ونهايات محددة.

الحرب من حيث هي مشكلة مستعصية، تقاوم الفكر العسكري التقليدي. وقد عبّر عن هذه المشكلة بشكل جيد جون ناجل John Nagl، أحد أعضاء فريق التأليف الذي أنتج «الدليل الميداني 3-24 لمكافحة التمرد» "Field Manual 3-24 Counter Insurgency" وهو أحدث ما أخذ به الجيش الأمريكي في الحرب على الإرهاب. إن مكافحة المتمردين هي في الأغلب منافية للحدس، وهذا هو السبب في وصف بعض الفصول الأولى، التي تقلب العقيدة العسكرية التقليدية رأساً على عقب، بأنها شبيهة بالزن* (Nagl 2002:15).

* الزِّن: مذهب بوذي منتشر في الصين واليابان، وفي الهند بقدر أقل، يقوم على التفكير المتجرد من المعاني المسبقة للأشياء، من أجل الوصول إلى الحقيقة بحرية. (المحرر)

وينتقد ناجل بشكل خاص هوس العسكرية الأمريكية بجلب العدو إلى المعركة، فلايزال الضباط في كليات الأركان يتعلمون أن الحرب هي صدام إرادات، وصراع بين قوى متكافئة أو غير متكافئة. إنها فكرة بائدة.

لم يذكر ريتل وفيبر في مقالها الحرب، ولكن زعما أن هناك مشكلات عدة في السياسة عصية على أساليب السياسيين التحليلية الاعتيادية. والمشكلات الأليفة ليست بالضرورة بسيطة، فيمكن أن يكون بعضها معقداً جداً. ولكن يمكن تحديدها بشكل أسهل، ومن ثم تكون قابلة للحلول الخطية المؤكدة. أما المشكلات المستعصية الخاصة بالسياسة، مثل التغير المناخي فليست كذلك. وهي، بخلاف المشكلات الأليفة، لا يمكن تحديدها بشكل مؤكد. وهؤلاء الذين لديهم مصلحة في النتيجة، عادة ما تكون لديهم آراء عالمية مختلفة بشكل جذري، ومن ثم يوظفون أطراً مفاهيمية مختلفة في تحليل ما يجعل الموقف "مُشكلاً". ولأن الخبراء لا يتفقون في شأن الأسباب، يمكن ألا يكون هناك "حل أفضل" حاسم. التغير المناخي مثال حي لهذه المسألة. إنه قضية معقدة للغاية، تنطوي على عوامل سببية متعددة، ومستويات عالية من الخلاف بشأن طبيعة المشكلة وأفضل الطرائق للتعامل معها. فالدافع والسلوك للفاعلين المتنوعين مثل الصناعات ذات الاستخدام الكثيف للطاقة والمستهلكين الذين يهدرون الطاقة، والقوى الصاعدة الجديدة مثل الصين، هما جزء رئيسي من الحل.

الأمر ذاته ينطبق على مجال الأمن. في أفغانستان، لا تتفق قوات التحالف على تحديد المشكلة، إذ إن بعضهم يشعرون أن بإمكانهم الحديث مع طالبان، وأن الحركة يجب أن تكون جزءاً من الحل، وبعضهم الآخر يرى أنها هي المشكلة. بعض الدول تشكك في الحكمة من محاولة القضاء على إنتاج الأفيون، وحرمان كثير من المزارعين من مصدر (ربما هو مصدرهم الوحيد) للدخل. ويرى آخرون أنه اقتصاد إجرامي يغذي عدم الاستقرار والفساد. لا تنفي أي من وجهات النظر تلك الأخرى، وبطبيعة الحال ليس أي منها على خطأ بالضرورة. إن الأهداف المتعارضة داخلياً (برامج القضاء على زراعة الأفيون تدفع

المزارعين إلى أحضان طالبان) هي ما يجعل المشكلات المستعصية عصيّة على التحديد. إن كل هدف يميل إلى أن ينتج عدداً من المشكلات الجديدة. فمرحباً بعصر المخاطر!

في بعض الأوقات، كما حذر الدكتور جونسون، تصبح الأمور أسوأ إذا حاولنا تحديدها. تقر الفيزياء الحديثة الآن بأن كثيراً من العوامل المهمة في الكون ربما لا تكون قابلة للتعريفات الواضحة، وكل ما يمكن أن يقوم به العلماء هو تحديد ما يتعلق بعلاقاتها. وهذه العلاقات مهمة جداً، فكما أنه لا يمكن أن تكون هناك "حقيقة" معزولة عن الحقائق الأخرى، تميل الفيزياء الحديثة الآن إلى تقسيم العالم، لا إلى مجموعات مختلفة من الأشياء، ولكن إلى مجموعات مختلفة من العلاقات (Lukacs 2006:66).

إضافة إلى ذلك، فإن المشكلة المستعصية لا يمكن فهمها إلا بعد صياغة حل، وستختلف الصياغات لأنه لا يمكننا أن ندرك الأهداف بقدر ما نسعى إليها. وتجب إعادة تحديد الأهداف مع تطور الموقف، ومع ظهور العواقب غير المنظورة. في المشكلة المستعصية، لا يكون الموقف على الأرض مستقراً أبداً، وهذا هو السبب في أن تعريف المشكلة ربما يتغير مع تطور الموقف. بهذا الصدد، ما يجعل المشكلة "مستعصية" أنها ربما لا "تُحل" أبداً، ولكنها فقط تُدار حتى يقرر في النهاية شخص ما التوقف عن إدارتها، أو أن تنفد الموارد والوقت أو الأموال من المديرين. في تلك اللحظة ربما يختارون التخلي عن المشروع لأن فهمهم للمشكلة، ومن ثم العمل على صياغتها، يتغير. ولعل تحديات أخرى تُرى أكثر إلحاحاً. بعبارة أخرى، تتلاشى المشكلة عندما تكف عن كونها إشكالية (Schmidtchen 2006:186).

أخيراً، إن أهم تحدٍّ في إدارة المشكلات المستعصية هو تحدٍّ محوري لعصر المخاطر؛ إنه إدارة العواقب. كل حل هو محاولة واحدة، لأن كل تدخل يغير سياق المشكلة. وكل حل يمكن أن يعد عرَضاً لمشكلة أخرى بانتظار الحدوث. وقد عبّر عن ذلك جيداً نيكلاس لوهمان بقوله: «لم نعد ننتمي إلى أسرة الأبطال التراجيديين الذين اكتشفوا لاحقاً أنهم

صنعوا نهايتهم. نحن الآن نعلم ذلك مسبقاً» (Luhman 1998:74). ندرك الآن أننا نستطيع أن نكون أدوات لدمارنا.

لا يوحي ذلك بأنه لا يوجد ما يمكن القيام به لتحسين الوضع في دولة مثل أفغانستان. فقد اقترح أحد الكتاب ثلاث استراتيجيات للتعامل مع المشكلات المستعصية. إحداها تكليف دولة معينة بمعالجة المشكلات، وعلى الدول الأخرى المرتبطة بها الالتزام بقراراتها. لكنه لا يوجد ضمان أنه حتى في داخل مجتمع صنع القرار للدولة المعنية سيكون هناك اتفاق عريض بشأن تعريف المشكلة، وحتى عندما لا تكون هذه هي الحال فإن صناع القرار ربما لا يستطيعون الانفصال عن خبرتهم الضيقة. حتى مع المشكلة الأليفة للحرب الباردة لم يكن الأوربيون دائماً مستعدين للالتزام بقرارات الولايات المتحدة أو بتعريفها للمشكلة، فكثيراً ما اختلف الحلفاء بشأن تحليلهم لنيات السوفييت، على رغم أنهم لم يختلفوا كثيراً على القدرات السوفيتية؛ وكان الخلاف الرئيسي يتركز على رغبة بعضهم في ممارسة الردع في حين أراد آخرون تخفيف حدة التوتر. في النهاية، بطبيعة الحال، كانت الحرب الباردة مشكلة أليفة لها حل ويمكن تعريفها بسهولة. ومع أن الحلفاء خاضوا كثيراً من المعارك المريرة حول تقاسم الأعباء، وعلقوا أهمية مختلفة على الانفراج والتجارة، ومع أنهم قد تصادموا بسبب أسئلة "خارج العصر"، حيث تناقشوا إلى ما لا نهاية في شأن التهديد الرئيسي أهو في الجبهة المركزية (أوربا) أم الميادين القاتلة للعالم الثالث؟ فإنهم لم يختلفوا قط في شأن أهم الأسئلة على الإطلاق: مَن العدو؟

الاستراتيجية الثانية هي استراتيجية أكثر تنافسية. أعضاء تحالف الراغبين الذين قدّموا تحليلات مختلفة للموقف ربما يطرحون أفكاراً أفضل، ربما يصبحون أكثر إبداعاً. ولكن، بالأهمية ذاتها، ربما يسعون لتحقيق مقاصد مختلفة ويمضون وقتاً أطول مما يجب في إضعاف مبادرات بعضهم تجاه بعض، وعندما لا يستطيعون الاتفاق على الاختلاف، ربما يختارون فرض محاذير وطنية (مثلما فعلوا في أفغانستان، بشأن مئات المحاذير، 53 منها ذات أهمية عملياتية).

وتميل الاستراتيجية الثالثة، من حيث المبدأ، لتكون الأكثر فاعلية، وهي بالأساس الاستراتيجية التي سعى حلف الناتو لاتباعها؛ فقد حاول إنتاج نموذج تعاوني لا يشمل أعضاءه فقط، ولكن يشمل أطرافاً معنية أخرى، ومنها منظمات غير حكومية. ففي تشكيل فرق إعادة الإعمار الإقليمية، حاول إقناع جميع الأطراف المعنية بالاستثمار بشكل أكبر في المحصلة، واتباع حلول أكثر شمولية. المشكلة هي أن التعاون يمكن أن ينتهي إلى صراع؛ إلى مواقف متصلبة وخيانة متبادلة وتكاليف متزايدة للعمليات.

إن أهم ما في التعاون الفعال، كما يرى أحد الكتاب، هو إيجاد تفاهم مشترك في شأن المشكلة، والتزام مشترك نحو الحلول الممكنة. والفهم المشترك لا يعني أن الأطراف المعنية سوف تتفق بالضرورة على المشكلة، ويعني أنهم سوف يفهمون مواقف كل منهم بشكل كاف بحيث يكون هناك حوار واعٍ في شأن التفسيرات المختلفة للمشكلة، وتفكير جماعي حول أفضل سبل التعامل معها. «بسبب التعقيد الاجتماعي يصبح حل مشكلة مستعصية عملية اجتماعية بالدرجة الأولى» (Australian Government 2007:28).

إنها عملية اجتماعية تنطوي على تعلم جماعي من خلال الخبرات المشتركة، والمشكلة هي أنه لا شيء من هذا يحدث، سواء أكان في المقر الرئيسي للقوات المتعددة الجنسيات أم كان في الميدان. كما أنه بالتأكيد لا يحدث بسرعة كافية ليُحدث اختلافاً فعالاً على الأرض. المشكلات المستعصية تُحل عندما ينجح المديرون في إقناع الأطراف المحلية بتغيير سلوكهم، ولكن هذا يتطلب منهم أيضاً أن يتصرفوا بشكل مختلف، والناتو لم يقنع الفصائل الوطنية المتنوعة بعد بتغيير سلوكهم، وبعضهم لايزال يتجنب المخاطر بشكل مفرط. البعض يعتقد أن بعض القوى الأخرى (ولاسيما الولايات المتحدة) تقوم بتحركات مفرطة في أسلوب تعاملها مع الصراع. وقد أخفق حلف الناتو بشكل واضح في إقناع جميع الأعضاء بأنهم هناك لمدة طويلة، ولا يتوافر ما يركزون عليه على المدى القصير سوى المخاطر الآنية.

آمل ألا تكون مناقشتي "المشكلات المستعصية" محاولة لعالِمِ سياسة متحمس يسعى للشهرة. إنها جوانب فلسفية للمفهوم الذي أجد أنه غاية في الأهمية، لأنه يبدو أنه يلبي مطالب عصر المخاطر؛ وأننا ندرك أن النصر كما يُعرف تقليدياً لم يعد هدفاً واقعياً. كما أن السلام لا يمكن أن يكون هدفاً أيضاً بتعريفه بمصطلحَي بناء الاستقرار، والديمقراطية الفاعلة. وفي هذا يرى أحد الكتاب أن التقدم، بدلاً من النجاح، ربما يكون أفضل سبيل للتقويم (Talentino 2004:54).

«نحن محليون»

في النهاية، تُبرز المشكلات المستعصية الأهمية المؤثرة للمحلي: في الأعم الأغلب تمكن معالجة المشكلات الأليفة من المركز، أما المشكلات المستعصية فنادراً ما يمكن ذلك معها. وفي هذا السياق أروي حادثة اشترك فيها آرثر رانسوم Arthur Ransome (مؤلف كتاب **العصافير والأمازون** *Swallows and Amazons*، وهي قصة إنجليزية نموذجية لأطفال يلهون في المراكب). لم يكن رانسوم مؤلفاً شهيراً فقط، بل وكان مسؤولاً في وزارة الخارجية أيضاً، وقام بزيارات لمنطقة جاليشيا في عام 1919 لكي يتعرف على أصول الفلاحين. وعندما تقابل مع مجموعة من الفلاحين الذين يعملون في الحقل، وجد أنهم غير راغبين في تعريف أنفسهم على أنهم ينتمون إلى أي دائرة عرقية. وعندما سألهم مراراً إلى أي جنسية ينتمون، روس أم بولنديون؟ كانت الإجابة "أرثوذكس"، وعندما ضغط ليعرف إلى أي جنس ينتمون فعلياً قالوا له: «نحن محليون» (Zeman 1989:21).

رأى رانسوم هذا مثالاً ذا مغزى مهم لما أطلق عليه ماركس وإنجلز «دهاء الحياة الريفية». أليس المحلي رافضاً دائماً للتغيير أو الإصلاح أو التحسين أم أن هناك تفسيراً أكثر واقعية؟ ألا تتوقف الإجابة التي يقدمها المرء عن السؤال في الأغلب، إضافة إلى توقيت السؤال المطروح، على هوية السائل؟ في هذه الحالة، من المرجح أن عدم اليقين بشأن الهوية الوطنية أمر أصيل، أكثر من كونه نتيجة لدهاء الفلاحين الشهير. يميل "المحلي" ليكون

أكثر إصراراً عندما لا يكون بالإمكان دائماً التسليم بالتماهي بين الوطن والدولة، وهذا ما يحدث اليوم في أفغانستان؛ حيث يشترك الغرب في إحلال الاستقرار.

عبر الشرق الأوسط الكبير، تعطي شبكات القوة المحلية للمنطقة هويتها، وكذلك تماسكها. والمصطلح التخصصي الذي يطلق عليها هو "مجتمعات مصغرة"، وعلى رغم أنه يصعب في الأغلب تحديدها من لندن أو واشنطن، أو من الأمم المتحدة، فإنها جزء من تعقيد الحياة السياسية. في معظم أنحاء العالم، القوة ليست متركزة في الدولة، بل متركزة في شبكات موزعة، هي في الأغلب شبكات قبلية، يطلق عليها علماء الأنثروبولوجيا "شبكات التضامن". في بعض الأحيان يمكن تقسيمها إلى عشائر أو "تجمعات محلية متعاونة" كما أطلق عليها عالم الأنثروبولوجيا إرنست جلنر Ernest Gellner. وفي غياب دولة قوية، تكون هذه العشائر مقاومة بشكل عنيد للتغيير.

في الوقت ذاته، يكون إصرار المحليين القوي هو السبب في غياب حكومة قوية. وتأتي القوة القبلية من رجال القبائل أنفسهم، وعليه لا يمكن استخدامهم ضد القبائل للمحافظة على هيكل يعارضونه. وتكون الحكومة في تلك المناطق عبارة عن تحالف مصالح يعمل الزعماء الأقوياء على إدارته بأفضل ما يمكنهم من خلال شبكات حماية. وما يجعل نظم الشبكات الموزعة أكثر مقاومة للتغيير هو الإسلام. ذلك أن الإسلام يولد شبكات خاصة به، فشبكة العلماء تتشكل من أناس متشابهين في التعليم والمصالح. وعندما يواجه النظام القائم تحدياً يكون الجهاد هو الرد الفعال. لكن الجهاد ضد هذا النظام غير شائع، فالإسلام يضفي الشرعية على النظام، ونادراً ما يتطلع إلى تغييره.

لقد اكتشفت حركة طالبان هذا بسرعة عندما تولت السلطة. من المؤكد أن مجندي طالبان كانوا متدينين، لكن كثيرين منهم تعلموا خارج الدولة في المدارس [الدينية] في باكستان، ونحّى آخرون أيديولوجيتهم الأصولية جانباً في معسكرات اللاجئين، في بيئة غريبة إلى حد كبير عن الأعراف الأفغانية التقليدية. ومحاولتهم اللاحقة لتحويل المجتمع الأفغاني جعلتهم غير محبوبين، ومن المرجح أن تجعلهم كذلك مرة أخرى إذا ما عادوا إلى

السلطة مجدداً. إن محاولتهم تأسيس دولة دينية لم تنجح كثيراً في الأمور العامة (لم تتعمق في هيكل الحياة المحلية) وهذا هو السبب في سقوط النظام عام 2002 في غضون أسابيع.

يجب على المرء أن يسأل في الخلاصة، هل من الممكن، استحداث خطة استراتيجية لمشكلة مستعصية مثل أفغانستان؟ إنها بالتأكيد غاية في الصعوبة، وربما تكون خارج حدود تحالفات الراغبين الذين جُلبوا لمعالجتها. إذا كان التقدم يخضع لإعادة التعريف بصفة مستمرة، والنجاح غير قابل للتعريف في أي وقت، فإن الغرب يواجه الخطر الذي واجهه في كوسوفو؛ حيث لم تكن هناك استراتيجية، وفق ما قاله روبرت سميث. ربما كان سميث على دراية بذلك لأنه كان نائب قائد قوات التحالف في أوربا إبان الحرب. وفي هذا قال إنه لم يكن هناك أي تعبير واضح، سواء أكان قبل الحملة الجوية أم في أثنائها، عن أي هدف سياسي طويل المدى: أتهدف الحرب إلى استقلال كوسوفو، أم الإطاحة بميلوسيفيتش، أم تغيير النظام في بلغراد إلى نظام يمكن أن يستمر في حكم الإقليم ولكن بطريقة أكثر قبولاً من الرأي الدولي؟ (Rupert Smith 2005:291). لكن حينئذ كان للحملة الجوية هدف حقيقي واحد، وهو جعل المشكلة أقل إشكالية للغرب.

لعل كلام سميث يشير إلى أن ما يحرك تحالفات المخاطر هو الضروريات التكتيكية لا المخاوف الاستراتيجية، وأن تخيل إمكانية تغير الأشياء لا يعني التوافق وضروريات عصر المخاطر. أتتوافر هناك أي "غايات"، أم أن كل شيء مسألة "وسائل"؟ يُذكر أن رامسفيلد قد قال: «سوف تُكسَب حرب العراق عندما يشعر الأمريكيون بمزيد من الأمان مجدداً» (Morgan 2004:6). وكيف تُكسب مثل هذه الحرب إذا كان "الشعور بالأمان" هو مسألة استجابة غير موضوعية ولا يمكن تحديدها تماماً؟ فالأمن، مثل التقدم والنجاح، مسألة إدراك.

هكذا الحال عندما يكون الهدف الرئيسي في الحرب (لأقتبس من سميث مجدداً) هو مواصلة المهمة. «نحن نقاتل هكذا من أجل ألا نخسر القوة، أكثر من كوننا نقاتل...

لتحقيق الهدف مهما كانت التكلفة» (Rupert Smith 2005:17). في موقف يتحتم فيه ضبط العالم، ويعاد تعريف المشكلة بصفة مستمرة، يجب أن تحدد المهمة التحالف بالفعل، وليس العكس. تحالفات الراغبين هي تكتيكية بتعريفها، لأن هدفها النهائي ليس "كسب" الحروب، ولكن ضبط الجبهات المنفلتة في العالم المعولم.

النموذج الشرطي

في جامعة القوات البحرية في كوانتيكو، هناك رواية لروبرت هاينلاين Robert Heinlein، وهي تشكل أساساً لفيلم بول فيرهوفن Paul Verheoven بعنوان **جنود سفينة النجوم** *Starship Trooper*. يستغل الفيلم جميع العبارات الشهيرة تقريباً التي استخدمت بدءاً من أفلام الحروب التي أنتجتها هوليود إلى الوثائقيات التي جاءت في فيلم يستند إلى مسلسل فرانك كابرا Frank Capra في عقد الأربعينيات تحت عنوان **لماذا نقاتل** *Why We Fight*. كما يستحضر الفيلم الحقبة المبكرة للحروب الهندية في الغرب التي تتناغم مع جنود الفضاء الذين يجدون أنفسهم منخرطين في حرب مستقبلية على غرار الحروب الهندية. بالطريقة ذاتها، يتتبع المسلسل التلفزيوني حول حرب الفضاء **من فوق وأبعد** *Above and Beyond* ما تقوم به إحدى الشركات في سعيها لمنع "الحشرات" الفضائية من السيطرة على المجرة.

يركز كتاب هاينلاين على القوات لأنه يبرز أهمية "العمليات الموزعة". لكن تركيزه المتواصل على أعداد القتلى باعتباره المعيار الرئيسي للنجاح لا يلبي متطلبات حملة ناجحة لمكافحة التمرد. خلال الحرب الباردة، ربما بدت محاولة جعل العالم أكثر أماناً لتطبيق الديمقراطية مثل سحق الحشرات، ومن ذلك على سبيل المثال، عمليات القصف المكثف للمدن الشمالية في فيتنام في عقد الستينيات. ولكن إذا كان عدد القتلى يرتفع باستمرار فربما يدفع ذلك الرأي العام الغربي لطرح سؤال مزعج: أمايزال في الإمكان إحلال الديمقراطية بشكل آمن في العالم؟

في السنوات الأخيرة، بدأت المؤسسة العسكرية الأمريكية تتبنى نموذجاً شرطياً للعمليات العسكرية أكثر ملاءمة، ويتسق مع الهدف الاستراتيجي الجديد؛ في تشجيع مزيد من "التقدم" أياً ما كانت طريقة تعريف التقدم. ومع أن "تمكين الاستقرار" قد يتطلب قتل الإرهابيين، فإنه يتطلب أيضاً قدراً كبيراً من أمور أخرى مثل التعاون بين الشرطة وأفراد المجتمع في الداخل. وربما تضطر القوات العسكرية، مثلها مثل قوات الشرطة المحلية، إلى الحفاظ على تواجد طويل المدى. وقد أشار تقرير نشر في صيف عام 2004 إلى مجلس العلوم الدفاعية الذي يتمتع بنفوذ كبير إلى تغير في عقلية المؤسسة العسكرية يتيح لها جمع قوة شُرطية فيما بعد المرحلة الإمبريالية: «يجب على الولايات المتحدة، لكي تكون فعالة بشكل تام، أن تنشر بعض الأمريكيين في الخارج لسنوات، حتى يألفوا المشهد المحلي، وحتى يثق بهم الناس المحليون أفراداً... ونتصور أن مُدد الخدمة في الخارج ستكون أطول بكثير مما في المهمات التقليدية الحالية» (Buley 2007:133).

يُشار إلى أن عملية إعادة هيكلة جذرية للقوات الأمريكية تتم حالياً بما يوافق هذه الرؤية. ويقوم الجيش حالياً بوضع مقاييس جديدة لهيكل قواته، منتقلاً من 10 فرق إلى 48 لواءً مستقلاً يتشكل كل منها من نحو 4000 رجل، ويتمتع كل لواء بالقدرة على الانتشار السريع، والاكتفاء الذاتي، والاستمرارية الذاتية. وأفضل مكان سيكون من نصيب القوات الخاصة التي من المتوقع أن تجد نفسها في الخطوط الأمامية للعمليات، حيث تحل محل القوات المقاتلة الكبيرة التي هاجمت شواطئ نورماندي عام 1944، وخدمت في أمكنة بعيدة عن الوطن، مثل الخليج في عام 1990. ومع ذلك ربما يتم تحويلهم إلى فرع خامس من القوات المسلحة،* مثلما أصبحت القوات الجوية فرعاً مستقلاً في عام 1947. وقد تم بالفعل اتخاذ خطوات في هذا الاتجاه مع تعيين مساعد لوزير الدفاع مكلف الآن بتنسيق متطلبات القوات الخاصة (Hart 2006:166-9).

---

* الأفرع الأربعة للقوات المسلحة الأمريكية هي: البحرية، ومشاة البحرية (المارينز)، والجيش، والقوات الجوية. (المحرر)

تواجه قوات المارينز أيضاً تكتيكات "كاسحة" ربما تؤدي إلى تغيير شكل المعارك الأرضية بشكل جذري. وتطلق قوات المارينز عليها عبارة "أوصِل وشغِّل" 'plug and play' التي تشير إلى الوحدات الجاهزة للاستخدام الفوري، وهو مفهوم ينطوي على تبديل الوحدات في الميدان لأشهر، أو حتى سنوات في وقت ما، بوصفها وحدات مستقلة بذاتها في شبكة أكبر. اقترح آخرون إقامة وحدات يطلق عليها "الوحدات الانفجارية" 'pop up units'، لتكون مثل الألغام الأرضية لا تكتشفها إلا إذا دست عليها، وعندئذ بطبيعة الحال يكون الأوان قد فات. حتى التقانة تواكب الأحداث، فبدلاً من نظم الأسلحة الثابتة التي تنشرها فرق الجيش، تستثمر المؤسسة العسكرية الآن في الدروع الإلكترونية وأجهزة التشويش، والطائرات من دون طيار التي تطلق لأغراض الاستطلاع، ووحدات تفكيك المتفجرات الروبوتية التي يُتحكَّم بها عن بُعد، والطائرات من دون طيار التي تستخدم للمساعدة على تعقب الأعداء وحتى المركبات الفردية. يذكر أن "نظم الحماية الدائمة للمناطق من الاختراق" التي تُعرف باسم "PADs" Persistent Area Denial Systems التي يتم فيها استخدام أجهزة الاستشعار الروبوتية، قد تكون مفيدة بشكل خاص في توفير الأمن للوحدات الصغيرة (Evans 2007:23).

الزمن يتغير، والقوات المسلحة تبدو بشكل متزايد مثل قوات الشرطة. فقوات "Snatch squads" أو فرق الاعتقال في البلقان قد جلبت أكثر من خمسين مجرم حرب للعدالة في لاهاي. وفي عام 1997، شنت القوات الخاصة الأمريكية عمليتين رئيسيتين شارك فيهما نحو 3000 عنصر. وبعدها بعامين نجحت القوات الجوية الخاصة البريطانية في اعتقال الجنرال ستانيسلاف جاليتش، القائد الصربي الذي حاصر سراييفو. في تلك المدة قام زهاء 2000 من عناصر القوات الجوية الخاصة البريطانية بإحدى عشرة عملية في القطاع الذي كانت تنتشر فيه القوات البريطانية من البوسنة، وهو ما قاد إلى القبض على 15 مشتبهاً فيه، ومقتل اثنين آخرين قاوما عملية القبض عليهما (Brailey 2006:22-3). ربما يكون ذلك علامة على العصر الذي تبدو فيه قوات الشرطة أيضاً، وعلى نحو متزايد، مثل القوات العسكرية؛ بمركباتها المدرعة، وخراطيم المياه، وفرق الأسلحة والتكتيكات الخاصة.

تخلق العلاقة ما بين الجريمة والحرب منطقة رمادية؛ حيث يستلزم الأمر ترابط الجهتين، وتبادل المعلومات، وتنفيذ عمليات مشتركة. في القسم الذي انتشرت فيه القوات البريطانية من العراق تم إشراك الشرطة العسكرية الملكية في أقسام الشرطة العراقية؛ ليس للتعرف على أفراد المليشيات الشيعية فقط، بل وعلى المجرمين الذين لم تكن لهم أجندة سياسية خاصة كذلك (Steward 2007:10). وفي أفغانستان تم نشر وحدات الشرطة العسكرية البريطانية والكندية والأمريكية لجمع المعلومات في عشرين قرية تحيط بقندهار. ويمثل توفّرهم هذا نوعاً ما من سد الفجوة مؤقتاً حتى يمكن لفرق القوات الخاصة القيام بدور شبه عسكري، وضبط الشبكات الإجرامية التي تدير تجارة المخدرات وتساعد على تمويل عمليات طالبان.

ومع ذلك، يجب علينا أن نتذكر دائماً أن أهداف الجيش والشرطة مختلفة تماماً، والاختلافات تستحق إبرازها. فهدف جمع المعلومات بالنسبة للمؤسسة العسكرية هو لتشجيع ما يطلق عليه روبرت سميث: توفير «معلومات إثباتية» من شأنها إضفاء شرعية في عيون المجتمع المحلي، وكذلك الرأي العام في الداخل، على الحاجة إلى قتل الخصم، وليس معاقبته (Rupert Smith 2005:42). ويضيف كذلك تحديد أهداف دقيقة تتيح للجيش قتل العدو في المكان والوقت المناسبين، وبهذه الطريقة يمكنها استغلال النتيجة. وفي المصطلحات الفنية اليوم، هناك قصد من «تشبيك تأثيرات أفعالنا» (Rupert Smith 2005:42). وعلى رغم أن النية لاتزال هي القتل، فإن ذلك يتم بطريقة لا تنتقص من شرعية المهمة. في هذا يحق لسميث الإصرار على أن المعلومات هي شريان الحياة لإدارة المخاطر. ذلك أنها تتيح استخداماً أكثر فاعلية للقوة النيرانية، مع الوعد بأقل خسائر جانبية. ومهمتها هي تفادي ما يطلق عليه جون جنتري John Gentry «ارتداد المخاطر» .(Gentry 1998:145)

ولاتزال هناك أوجه شبه أعمق من هذا. فكما تسعى الشرطة لفصل المجرمين عن المجتمع المحلي الذي ربما يؤويهم، تبذل المؤسسة العسكرية قصارى جهدها لإقناع المحليين بتقديم معلومات بشأن المتمردين وتحركاتهم، ونياتهم إن أمكن أيضاً. وبهذا المعنى، ثمة

منطق عملياتي تشخيصي في تلك المهمات. فعمليات الاستطلاع في الداخل تهدف إلى التعرف على مدى الخطر في غياب أي بيانات ملموسة، والأمر ذاته ينطبق على العمليات العسكرية في الخارج؛ حيث يتحول الجنود في عالم يتغير بسرعة إلى معالجي معلومات.

القصد من هذا كله، كما يذكّرنا سميث، هو ببساطة أنه «يجب علينا الإلمام بما يحدث من حولنا». تماماً مثلما يسعى التكتيكي لفهم أرضه، يحتاج القائد الحديث إلى فهم البيئة الشعبية التي يعمل فيها الآن (Rupert Smith 2007a:40). وإن لم يفهم المرء الناس فكيف له أن يقرر المزيج المناسب من القوة؟ بل كيف ينشر القوات بأفضل طريقة؟ من الشكاوى الدائمة للقادة العسكريين الأكثر تأملاً من أمثال أنتوني زيني أن لدى الساسة الغربيين «رؤية مبسطة لما يحدث هناك، إنهم يفتقرون إلى فهم التعقيدات، والنقاط الدقيقة، ودقائق الظروف على الأرض» (Zinni and Koltz 2006:223).

تنبع أهمية الروايات التي نسردها من أنه في الأغلب يكون الصراع المحوري في حملة مكافحة التمرد مستحوذاً ومهيمناً على القصة؛ القصة التي نرويها لأنفسنا لا تقل أهمية عن تلك التي نرويها للآخرين. إن رؤية المحليين أنفسَهم منتصرين أكثر أهمية من ذي قبل. إن الأهمية المتصورة للمحليين، بطبيعة الحال، هي التي دعمت المنهج الأنثروبولوجي للحرب في الغرب. وتتطلب إدارة المخاطر الناجحة، مثل ضبط النظام في الشوارع في الداخل، أن يكون المديرون مستنيرين وعلى دارية تامة بما يحدث. لقد أصبحت الكفاءة الثقافية الآن كلمة شائعة الاستخدام في العسكرية الأمريكية. ففي الدليل الميداني الجديد لمكافحة التمرد، الذي أصدره الجيش، ذكرت كلمة "ثقافة" 88 مرة، فيما ذكرت صفة "ثقافي" 90 مرة في الدليل الذي يقع في 282 صفحة (US Department of the Army 2006).

إن التغيير هو استجابة لمتطلبات العصور. وبشكل أكثر واقعية، أعد الأمريكيون مشروعاً جديداً مع البنتاغون تحت اسم "التضاريس الإنسانية لبحث العمليات الثقافية" Cultural Operations Research Human Terrain، بدأ في العراق بتحليل 88 عشيرة وعشيرة فرعية في منطقة محددة. ومذ ذلك الوقت، تمت توسعته ليشمل خمس فرق تقدم

استشارات ثقافية للألوية المقاتلة العشرين خلال مُدد الانتشار الدوري في العراق التي تمتد تسعة أشهر.

باختصار، تجد المؤسسات العسكرية الغربية نفسها تعمل في بيئة داروينية قاسية. لقد تطورت الداروينية عما كانت عليه أيام دارون، فنحن نرى التطور ذاته شكلاً من معالجة المعلومات، فهو يتيح لهذه الكائنات التي تستطيع أن تقوم بعملية المعالجة أسرع من غيرها أن تبقى وتستمر. وبمصطلحات سيبرنطيقية* يمكن النظر إلى معالجة المعلومات على أنها شكل من أشكال التغذية الراجعة.

إن هذا يصب في لب نظرية التعقيد وتركيزها على سلوك النظُم المعقدة التي تسمى شبكات. وأهم خصيصة واضحة لأي شبكة هي أن علاقاتها غير خطية. فالرسالة التي نريد أن نوصلها يمكن أن تسافر على طول مسار حلقي قد يصبح مثل حلقة تغذية راجعة. ومن ثم فإن مفهوم التغذية الراجعة يرتبط بشكل قوي بأنماط الشبكات. وهناك مفهوم آخر يتعلق به وهو النشوء emergence، وهو العملية التي يتم من خلالها تنظيم الهياكل المعقدة على أساس قواعد بسيطة. وقد عبر عن ذلك العالم ستيفن وُلفرام Stephen Wolfram كما يأتي: «عندما تنظر إلى نظم معقدة جداً في علم الفيزياء أو علم الأحياء، فسوف تجد بوجه عام أن المكونات والقوانين الأساسية بسيطة جداً، وينشأ التعقيد لأن لديك عدداً كبيراً جداً من تلك المكونات البسيطة التي تتفاعل معاً في وقت واحد. ولكن التعقيد في الواقع يكمن في التنظيم؛ العدد الهائل من الطرائق الممكنة التي يمكن أن تتفاعل بها المكونات» (King 2000:132).

ومن هنا، تشكل المورثات في كائن ما شبكة هائلة متداخلة غنية بحلقات التغذية الراجعة التي تقوم فيها بشكل مباشر بتنظيم أنشطتها. ويرى فرانسيسكو فيريلا Francesco Vearela أنه لا ينبغي النظر إلى المورث على أنه سلسلة خطية من المورثات

---

* السيبرنطيقا cybernetics هي الدراسات المتعلقة بعمليات التحكم والاتصالات في النظم البيولوجية والميكانيكية والإلكترونية. (المترجم)

المستقلة (تعبر عن نفسها بكونها صفات)، ولكن يتعين النظر إليه على أنه شبكة متشابكة للغاية من تأثيرات تبادلية متعددة، يتم التوسط بينها من خلال رافعات وخافضات، وإكسونات وإنترونات، ومورثات قافزة، بل وحتى بروتينات هيكلية. ومع ذلك يظل التعقيد في داخل إطار المعلومات، لأن التفاعلات غير الخطية لا تكون فيزيائية بالضرورة، فيمكن أن تكون أيضاً نقلاً للمعلومات (King 2000:6-7).

وهذا الأمر - إلى حد ما - هو ما يعنيه روبرت سميث بالحرب باعتبارها صورة كلية. إنها الصورة الكلية التي تساعد المؤسسات العسكرية على إدارة النظُم التكيفية المعقدة. وقد أصبح يطلب منها هي ذاتها أن تستجيب على أساس المعلومات بشكل أسرع من ذي قبل. وعلى رغم أن القوات العسكرية التي تنشرها مجتمعات المخاطر لا تتجنب المخاطر كلية، فإنه يُطلب منها الإقدام على المخاطر بأسلوب أكثر استنارة.

التكيف في الميدان

ثمة نوعان من المخاطر: مخاطر ناتجة عن الاحتمالية والتأثير المرجح لحدث ما بمجرد حدوث ما هو محتمَل فعلياً، ومخاطر ناتجة عن مقامرة ضرورية لمكسب عاجل. فيما يتعلق بالتعريف الثاني تكون المخاطر محورية للحياة. وما لم نكن مستعدين للإقدام على المخاطر فسوف نواجه مشكلة حقيقية. تتطلب الرأسمالية منا جميعاً المراهنة على المخاطر التي نقدم عليها. ولا يمكن لشركة ما أن تحقق ربحاً، بعد كل شيء، إلا من خلال المعايرة الناجحة لتكاليف الفرص.

وتواجه الجيوش كذلك تحديات لكي تصبح أكثر تنافسية في الإقدام على المخاطر. ولكي تتمتع بالتنافسية، يجب عليها أن تتصرف بشكل أسرع. لقد ذكرت سابقاً أن السرعة في الأغلب تكون ذات خطر. ذلك أن للسرعة حدوداً متوقعة وتنتج عوائد ضئيلة (Campen 2000:68). إنها تحرمنا من الاتصال والخبرة المباشرة بالعدو. ولكن السرعة ضرورية في عملية معالجة المعلومات التي تتسارع طوال الوقت. وهنا يكمن منطق مثير،

فالحروب في الواقع تتباطأ وتصبح أطول. في إسرائيل استمرت الانتفاضة عشرين عاماً، وفي أيرلندا الشمالية استمر الإرهاب أكثر من ثلاثين عاماً، ولكن كلما طالت الصراعات أصبح المتمردون أكثر ابتكاراً وإبداعاً. ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أنهم لم يصيروا جيوش التحرير الوطنية التي كانت شائعة خلال الحرب الباردة. وبدلاً من ذلك أصبحوا أكثر انفتاحاً على مصادر المعلومات، وأكثر لامركزية، ومنظمين حول جماعات موزعة أو شبه مستقلة. ففي العراق ينخرط المتمردون في مجموعات موزعة، يتعلم بعضهم من خبرة بعض، ويتبادلون المعلومات، ويتكيفون بسرعة مع التغيير. في الأيام الأولى، كانت دورات إبداعهم أسرع من نظيرتها لدى قوات التحالف في الأغلب.

كما أن تلك الجماعات تختلف أيضاً عن حركات التحرير الوطنية القديمة في جانب آخر حساس، ذلك أنها تهتم بالنتائج لا ببناء النظام. وما يعطيها ميزة هو أنها - خلافاً لحركات التحرير الوطنية القديمة - لا تهتم في العادة بالتشبث بالأرض، على رغم أنها ربما تكون على استعداد لإغراء العدو بالقتال من أجلها، مثلما فعل المتمردون في الفلوجة في العراق في مناسبتين منفصلتين عام 2004. وهي لا تهتم في العادة ببناء المدارس (على أنهم مثل طالبان ربما يفرغونها من الطلاب، وبخاصة من البنات). كما أنها لا تهتم - خلافاً للعصابات الإجرامية في كولومبيا - بتأسيس شبكات رفاهة اجتماعية لإكساب وجودها شرعية. بعضهم، مثل "حزب الله"، يشبه قوات التحرير الوطنية القديمة، وآخرون يزدهرون في المناطق الخارجة على القانون التي يخلقها انهيار القانون والنظام. فهم لا يبنون أي شيء، ولا يتحملون مسؤولية أي شيء يقومون به. ونتيجة لذلك يرى جون روب John Robb أنه يصعب اقتلاعهم (Robb 2007).

يمكن أن تؤدي النتائج التي يتسببون فيها إلى عوائد كبيرة. في إحدى الحالات في العراق، أنفقت جماعة متمردة ألفي دولار لنسف خط أنابيب نفطي يكلف الحكومة العراقية 500 مليون دولار من العائدات النفطية التي أُهدرت؛ وهذا ما شكل عائداً مذهلاً للاستثمار، وهو 25 مليوناً بالمئة. ويتم حالياً تصدير هذه القفزة الثورية في طرائق شن

المعارك عبر العالم، من باكستان إلى نيجيريا، وهو ما يخلق طبقة جديدة من المسلحين الذين يطلق عليهم روب اسم «عصابات عالمية». يحدق الغرب في مستقبل قد لا يواجه فيه الهزيمة بشكل آني، ولكن في شكل إنهاك محتوم للقوة العسكرية والاقتصادية والسياسية من خلال خوض صراعات استنزافية مع أعداء ثانويين (Rob 2007).

إن الجيوش الغربية تتدخل لتبقى مدة طويلة. والمشكلات المستعصية متغيرة دائماً، ويجب على هؤلاء الذين يتوافرون في الميدان التكيف بسرعة، وأن يقوموا بمعالجة المعلومات بشأن الموقف المتغير بشكل أسرع من ذي قبل. ذكرت دراسة حديثة لمكتب رئاسة الوزراء في بريطانيا بعنوان «تصميم وتنفيذ أفضل للسياسات» "Better Policy Delivery and Design"، أن «الخبرة السابقة قد أظهرت أن التنفيذ نادراً ما يكون لمرة واحدة فقط. من الأفضل أن يتم فهمه ليس بصفة عملية خطية تنطلق من أفكار للسياسات وعبر التطبيق إلى تغيير على الأرض، ولكن بصفة عملية دائرية تنطوي على تعلم وتكيّف وتحسين مستمر مع تغير السياسات استجابةً للتطبيق، والعكس بالعكس». وما يجب أن يحظى بالقدر ذاته من الأهمية هو الثقافة التنظيمية لتبادل المعلومات.

من يرد التعرف على ميزات الشبكات على الهياكل الهرمية فسيجدها في تفوُّق معالجة المعلومات الموزعة. الهياكل الهرمية فعالة في إدارة العمليات الواسعة النطاق، ولكنها أقل فاعلية في إدارة الظروف التي تتسم بالتعقيد البالغ. «تصمم نظُم الهياكل الهرمية للتأثيرات الأوسع نطاقاً، ومن ثم للحرب. وقد شُكلت القوات العسكرية التقليدية ونظم التخطيط والسيطرة والتحكم المتعلقة بها للتعامل مع الصراعات التقليدية الواسعة النطاق. أما نظم السيطرة الموزعة فيمكن - عندما يتم تصميمها جيداً - أن تعزز القدرة على مواكبة التحديات المعقدة» (Bar-Yam 2003:1).

> المفتاح الرئيسي لهذا الفهم هو أن لكل فرد تعقيداً محدوداً. وبشكل خاص، لدى الفرد قدرة محدودة على معالجة المعلومات والتواصل مع الآخرين. في الهيكل الهرمي المثالي، يمكن فقط لقائد المنظمة أن ينسق ما بين الوحدات التنظيمية الكبرى التي يخضع قادتها بشكل مباشر

> لقيادته. ولا يمكن أن يكون التنسيق بين هذه الوحدات أكثر تعقيداً من القائد. وبوجه عام، يمكننا القول بأنه في حالة أي إنسان مسؤول عن تنسيق أجزاء من منظمة ما، فإن السلوكيات المنسقة للمنظمة ستكون محدودة مقارنة بتعقيد الفرد. وبما أن السلوكيات المنسقة هي سلوكيات واسعة النطاق نسبياً، فهذا يشير إلى أن هناك حداً لتعقيد السلوكيات الواسعة النطاق للمنظمة. وعليه، فإن استخدام هيكل القيادة فعال في تضخيم حجم السلوك، وليس تعقيده. على العكس من ذلك، يمكن أن يكون هيكل الشبكة (مثل عقل الإنسان) أكثر تعقيداً من العنصر المفرد (نيرون). (Bar-Yam 2003:8)

ومع أن منطق هذا الرأي سليم، فالهياكل التنظيمية المختلفة ربما تناسب أنواعاً مختلفة من بيئات الحروب. إن أحد انتقادات "الثورة في الشؤون العسكرية" هو أن التقانة قد أخرجت البشر من الحلقة. وفي هذا كتب رالف بيترز Ralph Peters: «إن فهماً إنسانياً جديداً للبيئة» سيكون أكثر إفادة من أي عدد من المكنات الذكية. «لقد وقعنا في حب الثورة الخطأ» (Peters 1999:30).

ومع ذلك، وللمفارقة، ربما لاتزال التقانة مفيدة في المساعدة على استعادة المزية للعسكريات الغربية فيما سُمي بـ"الثورة المضادة الجديدة في الشؤون العسكرية" التي دفعها الإخفاق النسبي للمهمة في العراق. في بيئة مائعة مثل العراق، وثق الضباط الصغار بخبرة قرنائهم أكثر من قادتهم خلف خطوط القتال. ففي مُكنتهم التواصل معاً بشكل أفقي أكثر من أي وقت سابق. بإمكانهم تبادل المعلومات وتعلم بعضهم من خبرات بعض عبر الشبكة. هذا لا يعني أن الجنود في الخطوط الأمامية قد فقدوا الثقة بآراء قادتهم، لكن المعنى هو أنهم يعلمون أن النظام الهرمي بطيء في التكيف مع المواقف التي يواجهونها. وعلى حين أن الجنود قد يعربون عن الثقة بالنظام الهرمي الرسمي الذي يحكمهم، فإنهم يميلون إلى الثقة بقدر أكثر بكثير بخبرتهم وخبرة مجموعة أقرانهم. والأرقام تميل إلى تأكيد هذا. في عام 2004، تضاعف عدد أعضاء المسجلين في موقع companycommand.com في العراق (Schmidtchen 2006:290).

وما لا يقل أهمية عن هذا أن خدمات تبادل المعلومات العالمية من مستخدم إلى مستخدم عبر الشبكات، مثل موقع companycommand.com و platoonleader.org، تعزز رأس المال الاجتماعي. وهذا المصطلح يستخدم لوصف "الأمانة". وتختلف "الأمانة" Trust عن "الثقة" confidence. فالمؤسسات العسكرية تستخدم إجراءات عملياتية قياسية وتدريباً يعتمد على الكفاءة لبناء الثقة بالقوة. وتعتمد الثقة هنا على النمطية، بخلاف الأمانة التي تنبع من أفعالنا، والتي يمكن في حالة العملية العسكرية أن تؤدي إلى المخاطرة بأرواح الجنود. وعادة ما تكون الثقة متجنبة للمخاطر، فعندما يكتشف أن هناك إجراءات عملياتية قياسية معيبة يمكن أن تُفقَد الثقة بسرعة تماماً. أما الأمانة فهي التي تدفع إلى الإقدام على المخاطر. وفي حين تعتمد الثقة على النمطية، فإن الأمانة تعتمد على كون المرء قادراً على التعامل مع غير المتوقع، بل وتحويله إلى مزية. الأمانة تعلمنا الإقدام على مخاطر معقولة، وتشجعنا على تحدي دينامية تجنب المخاطر التي يمكن التعرف عليها في قلب معظم المؤسسات، وبخاصة العسكرية منها.

فيما يتعلق بحل المشكلات، يحذر جيمس سورويكي، من أن سجل أداء الخبراء خلف الخطوط يثير الاكتئاب. ما يهم الجميع هو الخبرة في الخطوط الأمامية، وتجميع الخبرة أمر محوري لنجاح اللامركزية، واللامركزية تمثل قوة كبيرة لأنها تشجع التخصص المستقل، في حين تظل تتيح للناس تنسيق أنشطتهم وحل المشكلات (Surowiecki 2005:171). ومع ذلك، يمكن أن تكون اللامركزية أيضاً علامة ضعف حيث لا ضمان من أن المعلومات القيمة التي تم كشفها في أحد أجزاء النظام ستجد طريقها عبر الأجزاء الأخرى. وهنا تقدم التقانة الجديدة طريقاً عبر اللغز أو ضباب الحرب.

يمكن أن ينتج النظام اللامركزي نتائج ذكية أصيلة إذا كانت هناك وسائل لتجميع المعلومات لكل فرد في النظام. ومن مميزات النظام اللامركزي، أو الموزع، أنه يوفر حافزاً لمشاركة المعلومات. فهو يخلق حافزاً للجنود الذين هم " في موقف ذي خطر " للتوصل إلى الحل الصحيح، لأنه لا تتوافر مصافٍ بيروقراطية أو عوامل سياسية يمكن أن تؤثر في

معالجة المعلومات. فالجنود الذين هم في خطر ليسوا مضطرين إلى إبلاغ الآخرين ما يريدون أن يسمعوه. وهؤلاء الذين يجدون أنفسهم "في موقف خطر" من غير المحتمل أن يفصِّلوا آراءهم لتناسب المناخ السياسي السائد، أو لترضي الطلبات الداخلية للمؤسسة.

باختصار، يمكن للعسكرية أن تتغلب على الإفراط في تجنب المخاطر من خلال التكيف بسرعة، وكذلك هذا أمر يدعو إلى التنسيق. ويمكن أن يكون التقليد أداة قوية لنشر الأفكار الجيدة بسرعة، كما أن المدونات تساعدهم على نشرها بشكل أسرع من ذي قبل. وبطبيعة الحال، ينطبق ذلك فقط على العمليات التي يسمح فيها المرء لنفسه بالتعلم؛ أن يتوقف عن اتباع الآخرين عندما تتطلب الخبرة ذلك. ولهذا السبب يصر سورويكي على أن "التقليد الذكي" هو المفتاح، وليس الاتباع الاستعبادي. والتقليد الذكي يتطلب مبدئياً عدداً كبيراً من الآراء والمعلومات، إضافة إلى رغبة بعض الناس في طرح آرائهم أمام المجموعة، وهذا هو سبب أهمية القيادة، ولاسيما في الشؤون العسكرية التي لايزال أفضل قادتها يظهرون في الميدان. وينبغي أن نشعر بالارتياح من حقيقة أن التعلم الجماعي أفضل، لأنه يبنى على ما نفعله جميعاً بشكل طبيعي، وهو التقليد. التقليد أمر مهم للطريقة التي نعيش بها، كما يرى هربرت سيمون، ويبدو أن البشر معدون وراثياً ليكونوا آلات تقليد (Surowiecki 2005:59). والقادة الذين نميل إلى اتباعهم هم ذلك النوع من الناس الذين يقودون بوساطة حدسهم.

وكما كتب كلاوزفيتس، فإن جميع القادة العظماء قد تصرفوا انطلاقاً من فطرتهم، وحقيقة أن فطرتهم كانت دائماً سليمة هي جزئياً مقياس لعظمتهم وعبقريتهم الطبيعية. سبب تركيز كلاوزفيتس على الحدس أكثر من التفكير الواعي هو أنه كان على دراية تامة بأن المشكلات هي مشكلات حياتية حقيقية، وليست معادلات حسابية. للسبب ذاته تجدد اهتمام العلوم الإدراكية بالإمكانيات غير المستغلة للحدس. الحدس جيد في كشف العلاقات غير الواضحة بين مناطق المعرفة، في رؤية "النمط الذي يربط" الخبرات التي

تبدو في السطح متباينة. الحدس يثبت قيمته في أي موقف غامض، معقد أو غير معرَّف جيداً (Claxton 1998:65).

تميل المناطق اللاشعورية من العقل البشري إلى إدراك أنماط لا يستطيع الوعي العادي أن يراها. فهي تساعدنا على تعقل مواقف شديدة التعقيد تستعصي على التحليل المنطقي. وتمكننا من الوصول إلى أعماق قضايا خاصة صعبة بطريقة أكثر نجاحاً من التفكير الاستقصائي.

وفي هذا يرى جاري كلاين Gary Klein أن بعض باحثي التصميم ربما يدعون إلى مزيج من الحدس والتحليل، ولكنهم غير مرتاحين جداً مع الحدس، فهم يفضلون أن يتركوا كل شيء للنمذجة بالحاسوب. ومع ذلك فالسيطرة على الحدس لا تفلح، فالحدس وحده يمكن أن يعطينا الصورة الكبيرة (Klein 2003:54). حتى في عصر المخاطر تكون الصورة الكبيرة مهمة. وإذا أردنا ألا نغرق في التعقيد؛ وأردنا اتخاذ القرارات التي تتطلبها منا إدارة المخاطر، فعلينا أن نثق بحدسنا بقدر أكبر.

الإقدام على المخاطر

المشكلات المستعصية طريقة مفيدة للتفكير في شأن أهداف المرء في عصر المخاطر. ما تتطلبه إدارة المخاطر من القوى الكبرى هو أن تقوِّم المخاطر التي تعتزم الإقدام عليها عند التدخل، وما إذا كانت مناسبة لمستوى المسؤولية التي ينبغي تحملها جراء أفعالها («إذا حطمتها ملكتها»، كما حذر كولن باول الرئيس في مرحلة الاستعداد لعملية "الحرية العراقية"). كما تتطلب أيضاً أن تتساءل إن كانت، بوصفها أطرافاً سياسية، تملك الرغبة للإقدام على المخاطر. إن التدخل سوف ينتج دائماً مخاطر، وإدارة المخاطر، وليس تقليل المخاطر، هي ما ينبغي أن يشغل أفضل العقول السياسية، مثلما تفعل أفضل العقول في مجال الأعمال، ويعتمد النجاح في النهاية على التقويم الجيوسياسي الذي نطوره.

إن القصص التي نرويها تشكل حياتنا اليومية. إنها تحملها بالمعنى، فنحن نقضي وقتاً كبيراً في قص القصص، والاستماع إليها، وقراءتها، وكذلك مشاهدتها وهي تمثل على الشاشات أو على المسارح. كما أن كتب التاريخ تتكون إلى حد كبير من قصص (الخبرات التاريخية التي تشكل رؤيتنا عن العالم تأتي في شكل مواضيع سردية). والأخبار التي نشاهدها في التلفزة أو نقرؤها في الصحف تكون في الأغلب في صورة قصص، وهذه التسلسلات المركبة من الصور هي الطريقة التي نكوّن بها صورة عن كل شيء تقريباً في حياتنا. لا غرابة إذاً في أن الأمر نفسه ينطبق على الحرب. السرد الاستراتيجي ذو أهمية حيوية؛ حيث نسأل: حرب على ماذا؟ ما النص الفرعي، أو الموضوع الرئيسي؟

يعتمد الترابط الاستراتيجي على السرد، ويفسر ذلك لماذا تصعب السيطرة بشكل خاص على القصة التي تُحكى في عصر التدوين، والقنوات الإخبارية التي تبث على مدار الأربع والعشرين ساعة، ووسائل الإعلام الرقمية، ومحطات التلفزة العالمية والإنترنت. وفي هذا يرى السيناتور غاسبر إرفينغ في فيلم **أسود من أجل الحملان** أن "أبوغريب" تمثل «أسوأ معلومات استخبارية في التاريخ، وعلاقات عامة سيئة»، ويعدهما السبب في انتكاسات دولته في العراق.

في عصر المخاطر، سوف تفاجأ التحالفات دائماً بأحداث غير متوقعة. لكن يجب علينا أن نكون مستعدين للتعديل ولإعادة التكيف. يجب أن نكون مستعدين لقص قصة مختلفة لتكون ذات مغزى للآخرين ولأنفسنا. وعندما نتحدث عن تقليص طموحنا الاستراتيجي فإننا نهدف إلى قص قصة أكثر تواضعاً، وبناء نموذج أكثر تواضعاً؛ أي قصة مقنعة.

إذا كان النصر لا يخلو من المخاطر، وإذا كانت إدارة المخاطر هي هدفنا الرئيسي، فليست هناك قدسية إذاً لأي هدف استراتيجي، مثل عملية التحويل إلى الديمقراطية، أو بناء الدولة. وهنا، لا يكمن الخطأ في النموذج، فبمجرد أن نصبح جزءاً من المواقع على الأرض (جزءاً من المشهد السياسي في أفغانستان) نجد أنفسنا جزءاً من قصة شخص آخر. نصبح جزءاً من المشكلة، ويجب أن نكون مستعدين لتغيير المسار وفقاً لذلك. عند رسم

استراتيجية، يتعين علينا أن نكون مستعدين لتغيير القصة مع تطور الموقف على الأرض، هذا هو منطق المشكلات المستعصية. فلا يمكننا فرض واقعنا الخاص على الموقف، لأننا جزء من الواقع الذي نلاحظه.

إن فهمنا لما هو واقعي هو بناء ثقافي مثل أي شيء آخر. لقد كانت وجهة نظر المحافظين الجدد عن الشرق الأوسط الكبير كلوحة بيضاء بانتظار إعادة تشكيلها، قصة غير مرنة أوقعت السرد فيما أسماه فيتجنشتاين "الصورة"، أي إنه بناء أيديولوجي لعالم مثالي؛ شيء لم يُتصوَّر شكله، ولكنه يتوقف على الطريقة التي نفكر بها، ونتناقش بها، ونستنتج منها. لذلك، بدا واضحاً للأمريكيين في مرحلة الاستعداد لغزو العراق أن جنودهم سوف يلاقَون بالترحاب بوصفهم محررين. استغرق الأمر ثلاث سنوات من الإدارة حتى تعيد تصور ما كان يحدث. إن تأطير البناءات لم يواجه تحدياً حقيقياً إلا عندما فقد الوكلاء الأساسيون وظائفهم (رامسفيلد، ولفوفيتز، فيث، بولتون). ولإعادة صياغة قصة بشكل سريع لا ينبغي أن يكون هناك تنظيم مغلق للعالم، فعصر المخاطر يتطلب أن تكون وجهة نظرنا عن العالم مفتوحة النهاية، وذلك حتى يمكن قص كثير من القصص وليس قصة واحدة فقط (Taylor 2007:566). والقول بأن هناك قصصاً كثيرة لا يعني تبني مغالطة ما بعد الحداثة التي ترى أن جميع القصص مقنعة بالقدر نفسه. وحتى تكون القصص قابلة للتصديق يجب أن تكون تلك القصص معقولة، وحتى عندئذ سيكون بعضها أكثر إقناعاً من غيره.

مشكلة المحافظين الجدد هي أنهم عندما قاموا بتغيير النص؛ أملاً في صناعة أفضل ما في الفوضى التي سببوها في العراق، كانت القصص التي قالوها لا تصدَّق. لقد كان التحدي الذي يراه الرئيس بوش هو "اجلبوهم"، وهي فكرة تقضي باختزال العراق إلى "فناء كبير للإرهاب"، صراع مشؤوم في الصحراء يمكن أن تشتبك فيه الولايات المتحدة مع الإرهابيين في معركة نهائية. بعد ذلك، وجد بعض مسؤولي البنتاغون خلال الأيام السود من عام 2006، عزاءً في احتمال اندلاع حرب أهلية بين السُنة والشيعة تنتشر من لبنان إلى العراق، وقد بدا هذا على الأقل بديلاً مفضلاً من صدام حضارات "حتمي" بين

الإسلام والغرب. في رواية القصص كلها، وبخاصة في الحرب، ينطبق قول مأثور للجيش البريطاني القديم: «عندما تكون في حفرة، توقف عن الحفر». أحياناً يكون الهروب أكثر منطقية، مع أن عصر المخاطر، للمفارقة، يشير إلى أن هذا أسوأ خيار؛ فالإدارة تتطلب منا التزاماً يرجَّح أن يكون طويل المدى.

الخلاصة

حقاً، الحرب امتداد للسياسة بوسائل أخرى، ولكن السياسة ذاتها في تغير دائم. وقد كان هدفها الرئيسي في القرن العشرين ترشيد الحياة، حيث شرع الساسة في إعادة تنظيم المجتمع، وجعل كل شيء متسقاً، بتطبيق نموذج واحد بغرض القضاء على الانحرافات، وكذلك لترشيد الحياة الاجتماعية، كما في فلسفة فيبر. ولم تنخرط السياسة فقط في زيادة استخدام العقلانية الأداتية، بمعنى أن غرضها الوحيد سياسي (فقد تم تجاوز العالم الوجودي؛ وهذا ما جعل الحياة، في رأي فيبر، "مخيبة للظن" جداً)، لكن السياسة كانت محكومة بالقواعد، وفي الوقت ذاته صانعة للقواعد.

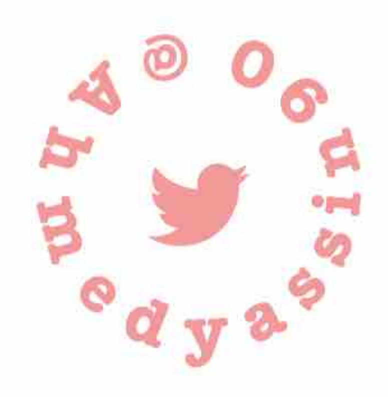
في عصر المخاطر، على العكس من ذلك، نجد أن الحياة معقدة للغاية بحيث تتعذر إعادة تنظيمها، وحتى إذا لم تكن الحال كذلك، فالحرب أداة معيبة جداً إلى درجة لا تمكنها من إعادة التنظيم. وكما يصر روبرت سميث، لم تبق الحرب أداة حل مشكلات يمكن تطبيقها على أي مشكلة معقدة. إنه يتبنى وجهة نظر مرتبطة جداً بعصر المخاطر فيما يتعلق بالسياسة. فالسياسة لا تتعلق بالنظام (سواء أكانت نظُماً عالمية جديدة أم نظماً على الأرض)، ولم تبق تتضمن مشاريع مثالية للهندسة الاجتماعية؛ ذلك أن معظمنا ما عادوا يؤمنون بأن هناك مجتمعاً مثالياً.

السياسة الآن تتعلق بالهدف. وفي عصر المخاطر، تختلف أهدافنا عما كانت عليه من 50 عاماً، فنحن الآن نهتم بمجال "إدارة" انعدام الأمن، أو "تمكين درجة أكبر أو أقل من الاستقرار"، أو العمل على ضمان "تقديم خدمة" أفضل. وقد أصبحنا نملك مثل هذه

المفردات الخاصة بسبب تعدد المقاصد. ومع تطور التاريخ تأتي مفردات جديدة، لكـن أيـاً من تلك المفـردات أو المقاصـد لـيس أكثـر "تفوقـاً" مـن غـيره. فإدارتنـا للأمـن لـيست بالضرورة أفضل من بناء الدولة أو بناء الأمة سابقاً. وكل ما هنالك أنها صادفت أن تكون أكثر مناسبة لنا. إن كل ما نستطيع أن نهدف إليه، لأننا مع هـذا يجـب أن نتمـسك بالأمـل طبعاً، هو أن تكون المقاصد التي نخدمها أفضل.

تتأتى أهمية تعريف كلاوزفيتس المؤثر للحرب من منطقيته. إذا كانت الحـرب امتـداداً للسياسة بوسائل أخرى، يجب أن تُغيّر السياسة أيضاً ما بقي الساسة يعتمـدون عـلى الحـرب بوصفها أداة سياسية. ندرك أن النظُم المعقدة تحمل مفاجآت، وخبرتنا معها هي أنها تميـل إلى تنظيم نفسها في حالات حرجة لا يمكن التنبؤ بها بأي نوع من اليقين؛ «سـواء أكانـت أمـوراً ملموسة أم أفكاراً ذاتية التنظيم فخطوتها التالية مفاجئة دائماً» (Barrow 2005:251). وهـذا يعزز رؤية كلاوزفيتس بأن الحرب أيضاً، بطبيعتهـا، غـير متوقعـة النتـائج، وربـما أصـبحت كذلك أكثر من ذي قبل. إن عصرنا معقد جداً حتى إنـه يتعـين علينـا الاعـتراف بـأن هنـاك حدوداً للأفعال البشرية؛ هذا الفهم هو سمة العصور. وعليـه إذا كانـت الـسياسة والحـرب لاتزالان مترابطتين بشكل وثيق، فهل حُكم على كلتيهما أن تنتجا عوائد متناقضة؟

هذا كما يبدو لي هو بيت القصيد. في هذه المرحلة من التاريخ، يجـب أن نتـساءل إن كـان وعينا بالجدل قد بدأ يشل حريتنا في المناورة، ويقلص طموحنـا أيـضاً. في غـمار مواجهتنـا لمـد مرتفع من اللايقينيات وسجل محبط مـن الأخطـاء، هـل يتعـين علينـا أن نتبنـى فكـراً أكثـر راديكالية؟ هل تصبح الحرب قالباً للسياسة؟ هل نتكلم لغة القضايا العظمى لكننا نمارس فـن المخاطر الدنيا؟ هذه ليست كلماتي، بل كلـمات مايكـل إغنـاتييف Micael Ignatieff، عنـدما كتب عن حرب كوسوفو (1999) والتصورات الأمريكيـة للحلفـاء الأوربيـين (Ignatieff 2001:155)، لكن يمكن قول الشيء ذاته هذه الأيام بشأن إدراكات الناس للغرب. إذا كانت الحال هكذا، فهل ثمة أمل في أن يفلت العالم الغربي يوماً من عصر المخاطر؟


@Ahmedyassin90

الفصل السادس

عصر المخاطر: أسباب للاستياء

خلال كتابتي هذا الكتاب وضعت في ذهني ابتكاراً معبِّراً لعصر المخاطر، ابتكاراً للروائي الأمريكي دون دوليلو: «إنه بدهي» أن التاريخ هو سجل الأحداث، كما يعلق أستاذ التاريخ الكامن في روايته **شارع جونز العظيم**. لكن ماذا عن التاريخ الكامن؟ نحن جميعاً نظن أننا نعرف ما حدث. ولكن أحدث ذلك بالفعل، أم أن شيئاً آخر حدث، أم لم يحدث شيء؟ (DeLillo 1978:74-5). يضيف البروفيسور بتوسع أن مادته لا تتعامل مع ما حدث فعلاً، ولكن مع الأحداث التي حدثت تقريباً، مع أحداث حدثت بالتأكيد ولكنها بقيت من دون تقرير عنها، ومع أحداث ربما تكون قد حدثت لكن، لسوء الحظ، لم يرها أحد مناسبة لتأريخها. الكامن، بطبيعة الحال، هو سمة لعصر المخاطر، مثل الأعراض المتأخرة التي تنبهنا لحقيقة أننا يمكن أن نمرض بعد إصابتنا بالمرض بمدة طويلة، وأنه حتى تأثيرات "العمليات المرتكزة على التأثيرات" لا تتضح دائماً حتى وقت متأخر جداً، وبعد فوات الأوان.

هل في عصرنا اتجاه أو مجموعة احتمالات مرجحة كامنة تجرنا إلى ما بعد عصر المخاطر؟ سيكون علينا التخلي عن دراسة التاريخ إذا سعينا للقضاء على جميع المفاجآت. أيمكننا، على سبيل المثال، افتراض أنه لن تكون هناك حروب رئيسية بين الدول في المستقبل، أم أن عصر المخاطر ما هو إلا مسودة أولية أخرى للتاريخ؟

يتطلب مثل هذا الكتاب كثرة من المؤلفين؛ فالعصور تلزمنا أن نكون قلقين من الإفراط في الادعاءات، وكذلك التقصير فيها. يمكننا حقاً التشكيك في جهد تقسيم التاريخ إلى حقب، وتقسيمها إلى أقسام فرعية مرة أخرى. لكن تجميد الزمن لعهود تقليدية

في الأغلب يسبب إشكاليات (Corbfield 2007:202). يميل المؤرخون إلى تبويب حقب التاريخ، وإعطائها سمات خاصة ربما لا تتمتع بها، ثم يستدعونها لشرح كل شيء في تلك المدة، وهذا جدل دائري. ومع ذلك فتقسيم الزمن لعهود هو إحدى الطرائق التي يمكننا من خلالها فهم الأوقات التي نعيشها. وفي حالة الحرب، تكون هي الطريقة الوحيدة التي تمكننا من اكتشاف "القواعد الثقافية" culture grammar الخاصة بها.

في عصر المخاطر، تكون الصراعات بين الدول قليلة جداً، وربما يعزى ذلك إلى أنها مكلفة جداً. ويدعم وجهة النظر هذه طائفة واسعة من الآراء، إنها لم تبق مثلما كانت في عصر وليام جيمس ونورمان أنجل مجرد فرضية أكاديمية. نقرأ في **كوادرينيال ديفينس ريفيو** لعام 2006 أن التهديدات التقليدية بين الدول تفسح المجال أمام التهديدات الشبكية التي تنشأ من الفاعلين من غير الدول (*QDR* 2006:24-5). وتشير دراسة حديثة في الشؤون الاستراتيجية للمحلل الدفاعي الرائد لورنس فريدمان Lawrence Freedman بالمثل إلى أن العالم يشهد موجة من الصراعات المعقدة غير الاعتيادية بجانب «تقليل عسكرة العلاقات بين الدول» (Freedman 2006:7-9). باختصار، يبدو أن اتجاه الشؤون الاستراتيجية يتحرك بعيداً عن مناقشة وتخطيط الحروب الواسعة النطاق بين الدول، ويتجه بدلاً من ذلك إلى طيف من الصراعات، ربما تتداخل فيها الأشكال النظامية وغير النظامية للحرب.

لقد كنا محظوظين بشكل كبير لأنه لم ينتج عن أي من الصراعات التي خضناها حتى الآن معدلات مرتفعة من القتلى. فعدد القتلى في حرب الخليج كان منخفضاً بشكل مذهل في ضوء عدد القوات التي خُصِّصت للمهمة. كما أن كوسوفو لم تشهد إصابات قاتلة، وقتلى عملية الحرية الدائمة كانوا قليلين جداً. وبالتالي، ربما يُصحَّح لدى الغرب الانطباع الخاطئ بأن القدرة على تدمير أعدائه بالأسلحة ذات التوجيه الدقيق عن بُعد قد جعلت القتال المتلاحم خالياً من القتلى. وحتى لو كان الأمر كذلك، فإن عدد القتلى الذي تكبده في وقت كتابة هذا الكتاب (2008) وقد وصل إلى 4000 تقريباً، يعد ضئيلاً تاريخياً.

وبإضافة أعداد الإصابات غير القاتلة فإن الصورة تتغير، فالرقم الرسمي للجنود الأمريكيين الذين جرحوا في العراق هو 30 ألف جندي، ويظل هذا منخفضاً عن متوسط عدد القتلى في معركة من معارك نابليون.

تذكرنا الإشارة إلى معارك نابليون بأن خبرتنا ليست غير عادية. فقد نظر جيل عام 1788 أيضاً إلى الوراء؛ إلى عالم بدت فيه الحرب أقل خطراً من ذي قبل. اليوم (والكلام ورد في مقال من تلك الآونة) «تُشن الحرب... بطريقة إنسانية جداً، وبمهارة عالية، وبقليل من الربح، بحيث تمكن مقارنتها من دون تناقض بالحروب الأهلية» (Bell 2007:49). وتحمس كاتب آخر، لم يكن على دراية بأن الثورة الفرنسية على الأبواب، للقول بأن الحرب قد أصبحت تتجنب المخاطر بشكل متزايد: «الحروب مثل ألعاب الحظ، لا أحد يخاطر فيها بكل ما يملك؛ فما كان يُعد من قبل غضباً جامحاً وطائشاً أصبح الآن مجرد حماقة» (Bell 2007:49). ويضيف: إن الجيوش الآن يذبح بعضها بعضاً "بأدب". وكل هذا كان على موعد مع التغيير عندما افتتحت الثورة الفرنسية نحو 25 عاماً من الصراع المتواصل الذي شهد ساحات قتل ووحشية مثل إيلو، وبورودينو، وواترلو.

وكما يذكرنا ديفيد بيل David Bell، من المستحيل الاستدلال من أي أوان من التاريخ على المستقبل، وافتراض أن الأشياء ستكون مثلها (Bell 2007:315). مثل أكثر المناشط البشرية التي لا يمكن توقعها، نجد أن الحرب بشكل خاص لا تناسب أي نوع من تحليل الاتجاهات يمكن أن يثق الناس به. لو كان هناك رسم بياني لعدد قتلى المعارك في القرن الثامن عشر لما أعطى لمحة عن المذبحة المقبلة. ولو أجري تمرين مشابه عام 1910، وهو العام الذي نشر فيه جيمس مقالته **المعادل الأخلاقي للحرب**، لما كان ذا فائدة. ما نريد تأكيده أن التاريخ يتحرك على ما يبدو في شكل دورات، وعصرنا هو عصر معدّ بنيوياً للحرب المحدودة؛ أو إدارة المخاطر في هذه الحالة.

في محاولة تفسير تجنب المخاطر في صراع القرن الثامن عشر، يتعين علينا النظر إلى علم الاجتماع (مثلما حاولت أن أفعل في هذا الكتاب) لشرح مجتمع المخاطر في الحرب.

أحد تفسيرات "الإنسانية" المقارنة لميدان معركة القرن الثامن عشر هو انخفاض الحماسة الدينية. كان رعب حرب الثلاثين عاماً لايزال منقوشاً في عقول الشعوب. ودائماً كان يفضي القتل باسم الإله إلى عدد مرتفع من القتلى. ولكن، خلال القرن الثامن عشر بدأت الدول تختبر قوة بعضها إزاء بعض في المعارك بين الجنود، وليس بين المدنيين، والالتزام بنتائج المواجهة.

وقد شهد نمو قوة الدولة أيضاً اختفاء الجيوش الخاصة، وكان آخر تلك الجيوش قبائل الهايلاند التي تم نزع سلاحها عقب عام 1746. والمثير للاهتمام هنا هو أن آدم فيرجسون كان واحداً من قساوسة الجيش الذين تم تعيينهم لتقديم تقارير عن ولائهم السياسي عقب إدماجهم في كتيبة بريطانية شهيرة عرفت باسم "بلاك ووتش" Black Watch. وساهم عمله الخاص في "المجتمع المدني" كثيراً في تعريف منتصف القرن الثامن عشر بأنه زمن صراع "مهذب".

ولعل أهم تفسير لـ"حرب الأمراء"* cabinet wars في تلك المدة هو أن المجتمعات كانت إلى حد كبير مجتمعات أرستقراطية. وقد تم ترويض الأرستقراطية؛ فنبلاء القرن الثامن عشر كانوا يختلفون جداً عن نظرائهم في القرن السادس عشر. وقد عكست الحرب المحدودة أفضل القيم التي يعتز بها الأرستقراطيون الآن: من ضبط النفس، والسيطرة الذاتية، وفوق كل شيء الشرف. وهذا كله قد نُحي جانباً بعدما أزاحت الثورة الفرنسية النظام القديم وبشرت بعصر الأيديولوجية.

ولكن، مرة أخرى، نجد أن الفواصل بين مراحل التاريخ ليست أبداً حادة وواضحة كما نميل إلى التفكير فيها. فقد كان للقرن الثامن عشر معاييره المزدوجة الخاصة به، وهكذا كل عصر. وإذا كانت هناك قاعدة للحرب الأوربية، كانت هناك أخرى للحملات

---

* حروب الأمراء Cabinet Wars: نمط الحروب التي سادت في أوربا بعد صلح وستفاليا (1648) حتى الثورة الفرنسية (1789)، واتسمت بجيوش صغيرة، تحت إمرة ضباط نبلاء، تسعى لتحقيق أهداف عسكرية محدودة، عبر تحالفات متغيرة. (المحرر)

الاستعمارية، ولاتزال هناك قاعدة أخرى لمكافحة التمرد مثل الحرب في كورسيكا؛ حيث انخرط الفرنسيون في صراع همجي دام 19 عاماً. وفي حين لم يشكل الدين قوة سياسية كبيرة في القرن الثامن عشر كما كان من قبل، فإن الدينامية الدينية لم تمت ولكنها كانت كامنة. وكان دو توكوفيل الذي وصف الثورة الفرنسية فيما بعد بأنها شكل من أشكال "الانبعاث الديني" يقول لقد ولدت أولى "الديانات السياسية" التي أضحت سمة للقرن التالي. ويدين ماركس بفضل خاص للنظام اليعقوبي* (Bell 2007:9-11).

تقدم الثورة الفرنسية تحذيراً آخر من التاريخ. يبدو أن النظم المعقدة يمكن أن تتحول بسرعة إلى أزمة نظامية كما كانت الحال عام 1789. وكما كتب مالكولم غلادويل Malcolm Gladwell: ««انظر إلى العالم من حولك، ربما يبدو وكأنه مكان ثابت لا يتزحزح وعنيد. لكنه ليس كذلك. مع أقل دفعة في المكان المناسب يمكن أن ينقلب» (Gladwell 2001:259). في عام 1914، كانت نقطة التحول هي اغتيال فرانس فرديناند. ولكن، مرة أخرى، مَن الذي قد تنبّأ في عام 1910، وهو العام الذي توفي فيه وليام جيمس، بأن الحرب العالمية الأولى سوف تمهد لثانية، وكذلك لصراع أشد تدميراً ولثورات وأمراض عالمية أزهقت في الإجمالي أرواح زهاء 200 مليون شخص أو ما يعادل واحداً من بين كل ثمانية أشخاص كانوا يعيشون على وجه الكوكب في العام الأخير من حياة جيمس (MacGillvray 2006:135)؟

نقطة التحول بالنسبة إلينا كانت هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001، أو هكذا نعتقد. لكن ربما ننتظر حدثاً أكثر درامية؛ مثالاً أكثر وضوحاً على الدمار ربما يأخذنا وراء

---

* النظام اليعقوبي Jacobin regime نادٍ سياسي في الأصل، ينسب إلى شارع القديس يعقوب في باريس؛ حيث كان رواده يعقدون اجتماعاتهم في دير دومينيكاني. أيد الثورة الفرنسية عام 1789، واكتسب قوة كبيرة، بسبب إصرار زعيمه المحامي ماكسيميليان روبسبيير على مطلب إعدام الملك لويس السادس عشر وأسرته، وهو ما تحقق عام 1793. وعقب سقوط الملكية، بسط جناح روبسبيير سيطرته على المؤتمر الوطني، بتأييد من الغوغائية الباريسية، وسعى إلى تحقيق وحدة الجمهورية واستقرارها الداخلي بالإرهاب، حيث قتل 6000 شخص، ومنهم زعماء للثورة، في ستة أسابيع، حتى بدأ كبار أعضاء المؤتمر الوطني يتخوفون على سلامتهم، فدبروا مؤامرة لقتله، وأعدم هو ومئة من أنصاره، وحُلَّ التنظيم اليعقوبي باعتباره تنظيماً متطرفاً في تشرين الثاني/ نوفمبر 1794. ترمز اليعقوبية إلى السياسات المتطرفة التي تميل إلى فرض أحادية ثقافية أو اجتماعية أو سياسية وإلغاء التعدد. (المحرر)

عصر المخاطر إلى شيء مختلف تماماً. وربما يكون الفاصل الـذي هـزّ المنظـورات الفكريـة، الذي آذن به عصر المخاطر مؤقتاً وحسب. فهناك عصر خلف هذا العصر، وهناك بالتأكيد مزيد من المفاجآت التي تنتظرنا في السنوات المقبلة.

ذلك أنه حتى في التحديات الحقيقيـة الفاصـلة في الحيـاة، وهـي التـي ترغمنـا عـلى مواجهة الاعتقاد الذاتي، قد يتحول الصراع إلى شكل مختلف. ولهذا يبدو لي أن قائمة القتلى سوف ترتفع بشكل كبير. ستكون أعداد قتلى الحـرب العالميـة عـلى الإرهـاب (حتـى مـع الأخذ في الاعتبار الحادي عشر مـن سـبتمبر والجنـود الأمـريكيين الـذين لم يعـودوا مـن أفغانستان والعراق، وكذلك ضحايا تفجير السفارة الأمريكية عام 1998)، أقل بكثير مـن معركة متوسطة من معارك نابليون. إن قنبلـة قـذرة في فيلادلفيـا أو بيتـسبرغ، أو هجومـاً منسقاً بالإنثراكس، أو صراعاً رئيسياً بين الدول في الشرق الأوسط، قد تشكل نظاماً مختلفاً ذا أهمية كبيرة. وربما تخاض الحرب بشروط مختلفة.

بل إن هناك فكراً أكثر واقعية وجدية. ذلك أن محاولة إدارة المخاطر ربما تجعل العـالم مكاناً أكثـر خطـراً. وفي هـذا يـصر مؤلفـا كتـاب **عواقـب غـير مقـصودة** *Unintended Consequences* (وأحدهما باحث أكاديمي أسترالي، والآخر أستاذ مساعد في كلية الحرب البحرية الأمريكية) أن كلاوزفيتس كان مخطئاً في افتراض أن الحرب هي امتـداد للـسياسة بطرائق أخرى؛ على معنى أنها وسيلة عقلانية وشرعية لدفع المصالح الوطنية. على العكس من ذلك، لا يمكن التنبؤ بـالحرب، حتـى إنهـا في الأغلـب تـرغم الحكومـات عـلى تبنـي سياسات جديدة تماماً. والعواقب غير المقـصودة أو غـير المنظـورة هـي أطـول مـدى مـن النتائج المقصودة. وقد ذكرتنا هنّا أرندت بأن السياسة هي مجال العواقـب غـير المقـصودة. لقد كانت تسعى إلى جذب الانتباه إلى الفارق بين عالم الميكانيكيين المتوقع وعالم السياسيين الذين لا يمكنهم توقع عواقب أفعالهم بدقة. «إذا كان هـذا يـصح في مجـال الـسياسة فإنـه يصح بشكل خاص في الحرب، ولهذا السبب فإن فكرة أن الحرب ما هي إلا مجـرد سياسـة بوسائل أخرى هي هُراء» (Hagan and Bickerton 2007:10).

إنه مبحث جريء، وتمت مناقشته بشكل مقنع. وإذا كان يبدو صحيحاً اليوم بقدر أكبر من ذي قبل، فالسبب في ذلك أن هناك أدلة كثيرة تشير إلى أن الحرب باتت أقل حسماً مما كانت عليه قبلاً. وسواء أاستطعنا الاستنتاج من هذا أن الحرب تصبح شيئاً بائداً أم لم نستطع فهذا أمر آخر. وجهة نظري هي أنها تواصل التطور، وأن مجتمع المخاطر قد أعاد اختراعها بحيث تناسب مقاصده. وما يحدث هو أن مجتمعات المخاطر ليست جيدة جداً في التعامل معها، لكن المجتمعات التي ستعقب عصر المخاطر ستكون أفضل حالاً. ولاريب في أن كثيرين سيختلفون مع وجهة النظر هذه.

تمكن قراءة رسالة هذا الكتاب بطريقتين مختلفتين: فربما نختار أن نراها عملية شائعة وماثلة في كل مكان، تقود لا محالة إلى عدم حسمية الحرب، وافتقارها المستمر إلى الجاذبية، وطبيعتها ما بعد البطولية. لكن بعض القراء سيتوصلون إلى أن هذا أمر غير حتمي، حتى لو كان يشكل اتجاهاً، وأنه يمكن عكسه بسهولة. إن بقية إيماننا التنويري بالتقدم هي ما تجعلنا متشوقين إلى رؤية وجهه الآخر. فالخيال الغربي غير مهيَّأ جيداً لمواكبة العواطف خارج المدى المتوسط الضيق لما جعله التنوير مألوفاً. فخارج ذلك، في بقية العالم، لاتزال هناك أصوات قديمة تحشد الناس للمعركة.

المعادل الأخلاقي للحرب

النقطة الأخيرة التي أود أن أعرضها في هذا الكتاب هي أن عصر المخاطر ليس ظاهرة ثابتة مثل الرأسمالية، بل هو أحدث مرحلة من الحداثة من وجهة نظر بعض الدارسين. وسوف يمهد في الوقت المناسب لمرحلة أخرى، ربما يكون ما يطلق عليه جيدنز "الحداثة الثالثة"، على رغم أن هناك دائماً إمكانية للتراجع، وعودة للأولى.

يذكرنا هذا بادعاء ريلك Rilke بأن «المستقبل يدخل بداخلنا، ليحول نفسه فينا، قبل أن يحدث بوقت طويل» (Strathern 2007:1). بعبارة أخرى، المستقبل ينبت وينشأ في الحاضر لكي يتكشف لقليلين مميزين ممن يتمتعون بأذن مضبوطة لسماع نغماته الدقيقة.

وسيكون المستقبل (مع تقليص بعض الكوارث البيئية أو الاقتصادية) مزيداً من التعقيد المتنامي ذاته، ولكن ستكون هناك انعطافات متناقضة ربما تفاجئ الجميع؛ وهنا اقتبسَ من رينيه جيرار (Girard 2007:261). ومن المحتمل أيضاً أن ينشأ بعض من تلك الانعطافات من التوتر المتناقض القائم بين ذلك الجزء من العالم الذي دخل عصر المخاطر، والجزء الذي لم يدخله بعد، بين المعولم وغير المعولم، بين ما بعد الحداثي والحداثي.

ومع أن المصطلحات تختلف حسب الذوق، فإن الظاهرة تشغل اهتمام كثير من المراقبين للمشهد المعاصر. ثمة تناقضات متنوعة في الحرب على الإرهاب، وربما تشترك فيها أطراف أخرى على نطاق واسع، بما في ذلك الصين والهند. ومع ذلك يمكننا أن نخلص مرة أخرى إلى أن الغرب قد وصل إلى المستقبل قبل المنافسين، وأن آخرين سيلحقون به لاحقاً. وعلى رغم أن مثل هذه الرؤية قد تكون قديمة نوعاً ما، فإنها ليست غير مستدامة من الناحية الفكرية، إذا كنا نعني بعصر المخاطر، كما أعني، عصراً يُوقع المجتمعات في علاقات أكثر تعقيداً من ذي قبل.

نحن لا نعرف. فنحن محكوم علينا، كما يقول هيغل، بألا نعرف. حقاً، لا يمكننا أن نفهم عصرنا بشكل تام إلا بعدما يكون قد مر؛ إذ إن مستوى استيعابنا لا يسمح لنا بالتأمل كثيراً في المستقبل. ولكن لماذا نستشهد بهيغل في حين يمكننا أن نستشهد بهايك Hayek (أحد أعظم منتقديه، والناقد الذي كان يكتب في حقبة تميزت بالاعتراف بأن التعقيد واقع رئيسي للحياة)؟ ما نفعله الآن هو إدارة التغيير، بدلاً من تجنبه، بتكميل المجتمع أو الطبيعة البشرية، لكن الإدارة الناجحة تعتمد على درجة التعقيد التي ندرسها. وفقاً لهايك، ليست هناك فرصة ليستوعب المخ البشري نظاماً أكثر تعقيداً من نفسه، ولكن المجتمع البشري يمثل مثُل هذا النظام، وهذا هو السبب الذي جعله يدَّعي لاحقاً أن الطريقة الوحيدة التي تمكننا من جلب النظام لحالة الفوضى هي أن ندعه يرتب نفسه (Hayek 1990).

ولكن العقل البشري مهم لأن النظام مدفوع بالتطلعات البشرية، والاحتياجات البشرية أيضاً. وأحد الأسباب التي قد تجعل عصر المخاطر لا يستمر كثيراً هي أنه بدأ

بالفعل في إثارة الاستياء. وبصراحة تامة، يجده كثيرون غير جديرٍ بالاهتمام، إن لم يكن مملاً، في حين يعتقد آخرون أنه ذو خطر. وربما تتحور الحرب مجدداً لشيء أكثر فطرية أو يقيناً للحياة.

في هذا كتب وليام جيمس: «إن أسلافنا قد زرعوا العدوانية في عظامنا ونخاعنا، ولن تخرجها منا آلاف السنين من السلام» (Wilshire 1984:351). إن ما يميز جيمس عن غيره من دعاة السلام المعاصرين هو فهمه العميق للجاذبية الدائمة للحرب. من الواضح أن جيمس أعجب ببعض الصفات التي تظهرها الحرب في الكائنات البشرية؛ مثل الشجاعة والجلد والتحمل الجسماني. وربما الأصح القول بأنه أعجب بالمحاربين أكثر بكثير من إعجابه بمهنتهم. وبشكل مشابه، عند مناقشة الدين، أُعجب بالصفات المشتركة للقديسين والمتصوفة الذين كتب عنهم في كتابه الشهير **تنوعات الخبرة الدينية** *The Varieties of Religious Experience*. أعجب بعملية التحول من الديانة، وفعل التوبة، وقوة العزيمة. وأكثر ما أعجبه بشأن الدين لم يكن ما وراء الطبيعة، ولكن «إرادة الإيمان»، ذلك أن الدين لا يشجع على الإخلاص فحسب ولكن يطالب به، ولا يحفز إلى الارتقاء الفكري فحسب ولكن يعزز الالتزام العاطفي أيضاً. في هذا المعنى، للدين تأثيرات شاملة في السلوك البشري (James 2003).

وكما قال ذات مرة صديقه الفيلسوف الأمريكي سَنتايانا Santayana، فإن الدين يقدم رؤى وأموراً غامضة تشكل عالماً آخر نعيش فيه. «عالم آخر تعيش فيه، سواء أكنا نتوقع أن نعبر تماماً فيه أم لا، هو ما نعنيه بأن يكون لك دين» (Geertz 2000:87). والإيمان بعالم آخر يغذي روح التضحية. والحرب، بهذا المعنى، مثل الدين، تعرف بشريتنا لأنها تطلب من بعض الناس أن يتخلوا عن غريزة الحفاظ على النفس في الحاضر لجعل الحياة أفضل في المستقبل. إن حقيقة أنه بإمكاننا تخيل العالم على غير ما هو عليه هي التي تجعلنا كائنات فريدة. إن أياً من الكائنات الأخرى لا تعاني مثل هذه القدرة على التفكير، ومثل هذا التعقيد للمتخيل، وإن يكن ذلك مع إمكانيات محبَطة، ومثل تلك القدرة

المزعجة على التساؤل بشأن الضروريات البيولوجية والقبلية التي تحكم حياتنا. وهذا أيضاً يفسر تفاؤل جيمس. فهو يفترض أن العنف قد تربى في المجتمعات مثلما تربى في البشرية، وبالروح الداروينية الحقيقية يعتقد أن العنف ربما ينقرض يوماً ما.

إجمالاً، يمكن القول (مع أن جيمس لم يكن ليسلِّم بهـذه النقطـة) إنـه رأى كـلاً مـن الدين والحرب من منظور دوركايمي* في إسقاط تم إضفاء صفة مثالية عليـه، مـن خـلال طقوس التضامن الاجتماعي، تجلت في فكرة معممة للمقدس: إن الدين والحـرب كلـيهما يعظان بأن من يخسر حياته فسوف يكسبها. ما فهمه جيمس في النهاية هو أن الحرب نـادراً ما تتعلق بالربح أو الغنيمة، بل تتعلق بالقوة. الحرب تنطوي على صدام للإرادات، ورغبـة في المخاطرة بكل شيء في رمية نرد.

هل عالم من دون حرب هو عالم من دون مخـاطر؟ الـشجاعة أمـر يتطلبـه كثـير مـن أنشطتنا، ولاسيما السياسة. قد تكافئ السوق الإقدام على المخاطر، لكن الـسياسة وحـدها تكافئ التضحية.

لكي يكون المجتمع حراً ومتساوياً، يتعين على كل فـرد أن يمـنح شـيئاً، أن يـضحي بشيء من الداخل، شيء يشكل تقليدياً جزءاً من جوهره من حيـث هـو شـخص. وحتـى التـسامح ينطـوي عـلى «تـضحية داخليـة»، كـما تقـول جوليـا كريـستيفا (Windsor 1995:433)، لكي تعيش حياتك في الفضاء المدني ذاته مثل الآخرين. لا يمكـن أن يكـون هناك مشروع شمولي مثل شعار «نريد كل شيء» الذي كـان شـعار الطـلاب عـام 1968. الحق في أن نعيش وأن نصبح كل ما نريد هـو ادعـاء اسـتثنائي للعـصور الحديثـة. ولكـن الحداثة تتطلب منا إدراك أنه لا يمكننا الحصول على كل شيء، أو نكون كما نريد دائماً، مـن دون نوع من التضحية الداخلية. حقاً، إن التعقيـد الاجتماعـي لمجتمعاتنـا يـستلزم منـا أن

* نسبة إلى الفيلسوف الفرنسي ومؤسس علم الاجتماع الحديث ديفيد إميل دوركـايم David Émile Durkheim (1858-1917). (المحرر)

نقوم بتضحيات أكثر مما كان في الماضي، وأن ندرك كذلك نقصان التضحيات الداخلية التي قدمناها، والتي ربما يُطلب منا تقديمها في المستقبل. إن مشكلة الأصوليين من أي نوع ليست أنهم مستعدون للاستشهاد في سبيل معتقداتهم. المشكلة أنهم، حسب معتقداتهم، غير مستعدين للتضحية بأي شيء من أنفسهم.

ولو كان جيمس حياً لربما وجد أن عصرنا غير جذاب. فعلى رغم أنه تصور عالماً من دون حرب فإنه لم يتصور عالماً من دون مخاطر، ومن ثم كان سعيه الحثيث من أجل «معادل أخلاقي»، وأصر أن أي شيء، سواء أكان جيداً أم سيئاً، يجب أن يتم تعريفه من حيث نفعه، وليس بوساطة مبدأ سامٍ. والسؤال هنا ليس إن كانت الحرب جيدة أو سيئة للبشرية، بل إن كانت جيدة أو سيئة لمن يمارسونها؛ ما عواقبها؟ لقد استبق جيمس عصره عام 1919 في تحذير القوى الكبرى من أنها ليست جيدة جداً، وأن العالم كان معقداً للغاية إلى درجة لا تسمح بتكرار الانتصارات السهلة التي كانت تحدث في الماضي، وأنها آخذة في أن تصبح معوِّقة حتى للأمل بالغنيمة.

لكنه عندما قال إن الجيد والسيئ هما أمران أداتيان مهمان، لم يكن يضع في ذهنه مصلحة الدول، بل مصلحة المجتمع. الأهم فيما يتعلق بالإيمان بالله ليس المكافأة في الدار الآخرة ولكن في حياتنا؛ هل ساهم في تشجيع حياة أوسع أفقاً، وأكثر ثراءً، وأكثر إشباعاً؟ يرى جيمس أنه فعل ذلك لهؤلاء الذين يؤمنون حقاً بالله. وما كان مهماً بشأن الخبرة الدينية هو «اكتمالها» (Ford 2007:158). «لا نقد يجدي في التشكيك في واقعيتها. إنهم يعرفون ذلك لأنهم شعروا فعلياً بالقوى الأعلى في التخلي عن التوتر في إرادتهم الشخصية». إن التضحية بالأنانية وبالمصلحة الذاتية، وحتى أكثر الغرائز إلحاحاً على الإطلاق، أي البقاء، هي المطلوبة من كل محارب، عبر القرون. وفي هذا زعم مصدر في العمليات الخاصة بالجيش الأمريكي أن «أفراد الوحدة الثالثة من قوات العمليات الخاصة، السرية Delta's C Squadron، كانوا على شفا الانتحار لأنهم لم يشاركوا في القتال بعد»، في إشارة إلى الحرب في أفغانستان في كانون الثاني/ يناير 2002 (Naylor 2005:37).

لم يحب جيمس الأفراد الذين يمكن أن يُرضوا طبيعتهم البشرية الخاصة من خلال الحرب فقط، وأكثر ما حرّكه هو مردود الحرب: إنها تقدِّم الأساطير والنماذج البطولية، ونماذج الشجاعة التي تلهم المجتمع. لكن يجب أن تكون التضحية مفيدة. وربما نتخيل أن جيمس كان سيطبق المنطق ذاته على العناصر الانتحارية في الوقت الحالي. حتى عام 2008، قُتِل نحو 1300 شخص في العراق، ولم يحققوا سوى قليل جداً. وبالفعل، ثمة ما يدعو للأمل في أن هذا الجنون على وجه الخصوص غير ذي مغزى، حتى إنه سيستنفد إمكانياته قريباً جداً. أو [لنقل إنه] قد يكون ثمة ما يبرر [ذلك الأمل] لو كنا عقلانيين تماماً، فللأسف كون المخاطرة بلا مغزى ليس دائماً بيت القصيد.

من الملاحظ أن الذين يقدمون على المخاطر لا يدرسونها دائماً. وفي هذا يقول جيمس: إن التفكير جيد جداً، لكننا نعيش أيضاً بالإحساس، والعاطفة، والحدس. والتفكير «يتعامل فقط مع... الأمور السطحية. يمكنه تسمية كثافة الواقع، ولكن لا يمكنه سبر أغواره». يحتاج الشباب تحدياً، وهو ما سعى جون كينيدي لتوفيره لهم بتشكيل قوات السلام، وهي منظمة اقترحها جيمس (وأطلق عليها "ضريبة الدم" الذي يدين به الشباب لوطنهم). وبطبيعة الحال يتطلب السلام منا أيضاً الإقدام على المخاطر. كما أن المعتقدات التي تعضد هذه الرؤية تتطلب الشجاعة، إضافة إلى الرغبة في الحياة من دون ضمانات وتأكيدات. يقول لنا جيمس: إذا أردنا أن نحدث فارقاً «فنحن بحاجة إلى تخليص قلوبنا من الخوف» (Wilshire 1984:150).

ما يجعل الحرب مغرية بهذا الشكل هو الإقدام على المخاطر الذي لايزال يساهم في الإثارة والمغامرة للشباب الذي يشكل القطاع الأساسي في معظم الجيوش، النظامية وغير النظامية. وتلاحظ الدافعية للإقدام على المخاطر بشكل خاص في أوساط الذكور من الشباب. ذلك أن الإقدام على المخاطر يعطيهم الفرصة لاختبار قوتهم وإظهار إمكانياتهم بوصفهم ذكوراً مسيطرين. في السنوات الأخيرة، تأكدت العلاقة بين المخاطر والإثارة بصعود بعض من الأنشطة الجديدة ذات الخطر؛ مثل: القفز بالمظلات، والتجديف

بالقوارب في المياه المائجة. بل إن بعضهم يمارس رياضة ركوب الثلج، وفيها ينتظر المغامرون ذوبان طبقة الجليد ويقومون بركوب الأمواج العالية التي تصل إلى نحو 25 قدماً، وهي رياضة مثالية في عصر الاحتباس الحراري الذي لا يتوقف. وكل هذا يجب أن يعلمنا ما تعلمه علماء النفس: بعضنا يحب فورة أدرينالين الخطر، مع أن معظمنا يمكنه العيش من دونها.

ثمة مصطلح تخصصي لهذا الأمر صاغه علماء الاجتماع، إذ يطلقون عليه "العمل الحافي" (بمعنى الحياة على الحافة) (Mythen and Beck 2006). هذه الألعاب ذات الخطر المثيرة تتيح للشباب التغلب على مخاوفهم، وإظهار شجاعتهم، وتحقيق شعور عالٍ بالاعتداد بالنفس. إضافة إلى ذلك، فإن الإقدام على المخاطر آخذ في أن يصبح سمة مرَضية في الشباب مقارنة بالإفراط في تجنب المخاطر للحياة التي نعيشها جميعاً. وحياة الحافة نموذج حي لما يطلق عليه جيرمي بنثام "اللعب الموقع للخطر" deep play، وهو ما عبر عن رفضه له. في اللعب الموقع للخطر تكون المخاطر مرتفعة جداً حتى إنه يصعب على أي عاقل الانخراط فيه، لأن هامش الفائدة المرجوة منه، أي فرصة اختبار قدراتك، أقل كثيراً مما يمكن أن تخسره. لم يستطع بنثام أن يتخيل استقاء المتعة من تجربة الخطر. وبطبيعة الحال في الحقيقة أن شيئاً ما ذا خطر شديد لا تعني أنه غير ممتع، بل على العكس من ذلك، فإن الخطر هو الذي يشكل المتعة.

قضى أحد الكتاب على وجه الخصوص آخر سنوات حياته محذراً مما يحدث عند حظر اللعب الموقع للخطر. في آخر رواية لبالارد يصور عالماً لا يبعد كثيراً عنا يعاني درجة شديدة من الملل، حتى إنه لا يمكن أن يشعر بالارتياح إلا باقتراف أعمال عنف. الملل العميق الذي ترسمه شوارع بالارد البائسة هو لمجتمع بعيد عن نطاق الحرب، متخندق في منطقة مريحة خالية تماماً من المخاطر. والملاحَظ بشأن هذه الرؤية هو أن مزاج الاغتراب الاجتماعي قائم في قمة المجتمع لا في قاعدته. من الشعارات الثورية للطبقات الوسطى: «لنحرق المسرح السينمائي الوطني»؛ «فلنفجر بيتر بان». كان يراود بالارد حس غريزي

تجاه مستقبل مجتمع على حافة الانهيار الجماعي. حتى مجتمعات المخاطر التي نعيش فيها، إذا توافرت الظروف المناسبة فقد تتفكك من حافاتها المتحضرة (Ballard 2007).

لا يستطيع المرء إلا أن يندهش من الشاهية الثقافية للحرب، وهي سمة شائعة في مجتمعات المخاطر التي وصلنا إليها. خذ على سبيل المثال المناورات في كل العصور، والأكثر من ذلك العدد الذي لا ينتهي من أفلام الحرب التي تنتجها هوليود. وقد أشار المؤرخ عمر بارتوف Omar Bartov إلى المفارقة التي تنطوي عليها معظم الأفلام المناهضة للحرب؛ فكلما اقتربت من تجسيد المعركة الحقيقية (مثل فيلم **إنقاذ ريان الخاص** *Saving Private Ryan* أو **عصبة الإخوة** *Band of Brothers*) كانت أقل تأثيراً في استثارة المشاعر المناهضة للحرب. إذ يتم في تلك الأفلام إعداد المعارك بطريقة واقعية بفضل برامج الحاسوب، وتستدر الشخصيات القيادية التعاطف معها، وعادة ما تؤدي أدواراً بطولية إلى درجة تجعلنا أكثر ميلاً للتعاطف معها (Bartov 1996:10). إن الحرب على الشاشات تظهر أفضل ما في الحياة، النبيل والبطل، الصفات التي لانزال نجدها تحظى بالإعجاب، نظراً لأننا لا نقابلها إلا نادراً في الحياة الواقعية.

في مناطق أخرى من العالم يلجأ آخرون للعنف لأنه لايزال مؤكداً للحياة. ولاتزال شجاعة المخاطرة بكل شيء بما في ذلك الحياة تجذب كثيرين. وفي هذا يرى دوليلو أن الإرهاب يملأ الفراغ الموجود في قلب عصر المخاطر. «الخطر الذي يمثلونه يساوي إخفاقنا في أن نكون ذوي خطر» (DeLillo 1992:157). وهنا أود أن أشير إلى أن الرواية قد نشرت قبل هجمات الحادي عشر من سبتمبر بوقت طويل، والملاحظة التي اقتبستها هنا ليست عن الإرهاب على الإطلاق، بل جاءت انتقاداً للمجتمعات ما بعد البطولية التي أصبحنا نعيش فيها، والتي تثنينا عن تعريض أنفسنا للمخاطر. كان دوليلو يكتب عن أصدقائه الروائيين، حيث رأى كثيراً منهم قد تنازلوا عن مواقعهم المتميزة، أو باعوا أنفسهم من خلال كتابة روايات عن المشاهير. والإرهابي أيضاً قد أصبح نوعاً ما من المشاهير، فقد ضمن لنفسه 15 دقيقة من الشهرة، ومن المؤسف بطبيعة الحال أن يقتل

روحاً بريئة، لكن هذا بالضبط ما آلت إليه لغة الإرهاب، إنها اللغة الوحيدة التي يمكن أن يفهمها الباقون.

إن ما يطرحه دوليلو لهو أمر مزعج: هل الأصوليون ذوو الاقتناعات المختلفة هم في حرب مع المجتمع لا معنا؟ هل عدوهم الحقيقي هو مجتمع المخاطر نفسه؟ هل يتحدون إنسانيته؟ إن الطبيعة غير الذرائعية لأفعال الإرهابيين هي ما يجعلنا نحن الذرائعيين قلقين منهم، ذلك أنها خارجة تماماً عن دائرة فهمنا للسياسة. ومن ثم يأتي خوفنا من أفعال الجهاديين التي هي بالأساس أخلاقية في طبيعتها أكثر من كونها سياسية. يرى فيصل ديفجي Faisal Devji أن ما يميز "القاعدة" هو عدم التناسب المدهش بين وسائلها المحدودة وغاياتها التي تبدو بلا حدود، وهو ما يعني أن الأسباب المحلية لجهادها والتي تحصل منها على الرجال والأموال والدوافع والذخائر، قد تلاشت في ضخامة تأثيراتها العالمية. الجهاد عالمي لا لأنه يسيطر على الناس، ولكن للعكس من ذلك تماماً؛ فالقاعدة أضعف من أن تسيطر على أتباعها. لقد استمدت عملياتها حياة خاصة بها، فاقت نياتها. ولهذا السبب فإن عملياتها قد أصبحت تعبيرات عن واجب أكثر من كونها أفعالاً لنزعة أداتية، بتعبير ملائم (Devji 2007:3-4).

هذا هو ما يسمى اللاتناظر في أعمق صوره، فهناك عالم مهووس بتقليص المخاطر حتى في الحرب، وهناك آخرون يرغبون على ما يبدو في المخاطرة بكل شيء في المعركة. ولا يلزم أن تكون الأطراف سياسية أو دينية لإلحاق الضرر، فقد يقوم بذلك مجموعات، أو حتى أفراد ميالون إلى المغامرة. فمخترع فيروس ساسر الذي يستهدف الحواسيب كان شاباً ألمانياً في الثامنة عشرة من عمره درس علوم الحاسوب لبعض الوقت. ومع ذلك فالفيروس الذي اخترعه قد اخترق ملايين الحواسيب، وتسبب في خسائر تقدر بنحو أربعة مليارات دولار. ولو أنه صمم الفيروس لمحو البيانات بدلاً من مجرد إيقاف الأجهزة المصابة بالفيروس وإعادة تشغيلها، لتضاعفت الخسائر خمس مرات. وهكذا يمكن للقراصنة الذين يكرهون العالم أن يلحقوا أضراراً بالغة من خلال تحميل فيروساتهم

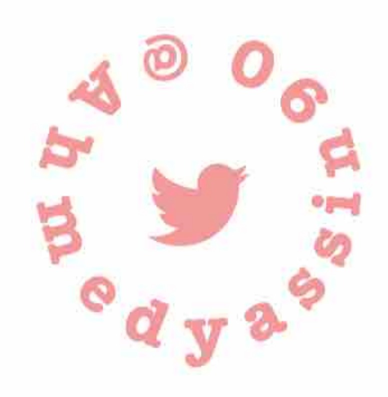
معادلات حسابية وراثية؛ بحيث تجعلها تتحور بطرائق لا يستطيع المبرمجون أنفسهم التنبـؤ بها. وهكذا يجد مجتمع المخاطر نفسه في حرب مع الشك وعدم اليقين كل يوم، حـروب «لم تُعد كلها بذكاء».

الخلاصة

في النهاية، لا يقدم لنا نمـوذج إدارة المخـاطر في الحـرب إلا رؤيـة جزئيـة ومـشوهة للواقع. نحن بحاجة إلى فهم رؤيته المحدودة، ونظرته الإدراكية المقيدة للغاية بشأن العـالم. يبدو بالتأكيد أن مجتمعاتنا تفتقر إلى الثقة بالنفس، حتى الإيمان بالنفس الذي كانت تظهـره في السابق، ففي الماضي كانت لدى المجتمعات ثقة أكبر كثيراً، كانت لـديها حـساسية غـير كافية لعواقب أفعالها وتكلفة تحقيق أحلامها. لكـن ألانـزال نحلـم للآخـرين أم لأنفـسنا فقط؟ وهل يعادل عصر المخاطر تحديات المستقبل؟

بالعودة إلى عام 2005، قال توني بلير لمستمعيه في جامعة لندن: إن تجنب المخـاطر بات مشكلة ذات خطر. في محاولة للقـضاء عـلى المخـاطر، تتبنـى الأجهـزة الحكوميـة والسلطات الحكومية المحلية والهيئات العامة تدابير أضخم من المطلوب للتعامـل مـع الضرر المحتمل الذي تشكله المخاطر ذاتها (Truscott 2007:2). وقد ردد كـلام بلـير الفيلسوف ألان باديو القلِق من عصر خائف جداً من "الأحـداث"، فقـد ابتـدع بيانـه الخاص «الفكرة مقابل الواقع، الحرية مقابل الطبيعة، الحـدث مقابـل الحالـة الراهنـة» (Badiou 2007:164). والحالة الراهنة state of affairs هي التي يلتـصق بهـا عـصر المخاطر أيما التصاق، حالة لا يمكن تغييرها لأن التغيـير ذاتـه هـو الـذي يُفـترض أنـه يعرضنا لمخاطر غير مقبولة. لكـن مـن المـرجح ألا يـؤثر هـذا البيـان إلا في قليـل مـن الناس، لأننا نعيش، في نهاية الأمر، في العصر ما بعد الثوري. يقول لنا هيغل: إنه لـيس ثمة رجل بطل من وجهة نظر خادمه، وعندما يولّي زمـن الأبطـال تـصبح وجهـة نظـر الخادم هي السائدة.

هل سنستمر في العيش في مثل هذه العصور "ما بعد البطولية"؟ هل سنظل نحيا الحياة، ليس على أنها مشروع، ولكن على أنها ورطة نعاصرها حاضراً مستمراً لا حركةً باتجاه هدف تاريخي؟ هل سنستمر في الانخراط في سلسلة من التوازنات الأقل أو الأكثر ذكاءً بين ما يعد في الأغلب قيماً غير قابلة للقياس ونتائج لا سبيل لمعرفتها؟ لقد أنتج عصر المخاطر سلبياته الخاصة، فبعض الناس يتحسرون على أننا نفتقر إلى الطموح، سواء لأنفسنا أو للآخرين، وآخرون مستاؤون من نظرتنا القصيرة المدى للمستقبل، فيما يشعر كثيرون بالهلع من حالة الشك العميق التي يبدو أنه يُغذيها. إننا ننتظر المستقبل ونحن نعرف أن أموراً كثيرة ستتغير، وأنه عندما يحدث ذلك فسوف تُحكَم الحرب بمجموعة جديدة من القواعد، و"قواعد ثقافية" مختلفة جداً.


@Ahmedyassin90

المراجع

Adair, Gilbert 1992: *The Post Modernist Always Rings Twice: Reflections in Culture*, London: Fourth Estate.

Adair, Gilbert 1997: *Surfing the Zeitgeist*, London: Faber & Faber.

Adam, Barbara (ed.) 2003: *The Risk Society and Beyond: Critical Issues for Social Theory*, London: Sage.

Adelman, Kenneth 2002: 'Cakewalk in Iraq', *Washington Post*, 13 February.

Alexander, John B. 1999: *Future War: Non-Lethal Weapons in Twenty-First-Century Warfare*, New York: St Martin's Press.

Anderson, Chris 2007: *The Long Tail: How Endless Choice is Creating Unlimited Demand*, New York: Random House.

Appadurai, Arjun 2006: *Fear of Small Numbers: An Essay on the Geography of Anger*, Durham NC: Duke University Press.

Aradau, Claudia et al. 2008: 'Security. Technologies of Risk and the Political: guest editors' introduction', *Security Dialogue* 39:2–3 (April), 155–73.

Arendt, Hannah 1977: *Between Past and Future: Eight Exercises in Political Thought*, London: Penguin.

Australian Public Service Commission 2007: *Tackling Wicked Problems: A Public Policy Perspective*, Canberra: Commonwealth of Australia.

Badiou, Alain 2007: *The Century*, Cambridge: Polity.

Bailey, Jonathan 2007: 'Strategy and Campaigning: Ends, Ways and Means', in Scott Hopkins (ed.) *Asymmetry and Complexity*, Canberra: Land Warfare Centre, Study Paper 308.

Ball, Philip 2004: *Critical Mass: How One Thing Leads to Another*, London: Arrow Books.

Ballard, J. G. 1995: *The Atrocity Exhibition*, London: Harper Perennial.

Ballard, J. G. 1997: *A User's Guide to the Millennium*, London: Flamingo.

Ballard, J. G. 2007: *Millennium People*, London: Flamingo.

Barrow, John 1996: *The Infinite Book: A Short Guide to the Boundless, Timeless and Endless*, London: Vintage.

Barrow, John 2005: *Impossibility: The Limits of Science and the Science of Limits*, London: Vintage.

Bartov, Omer 1996: *Murder in our Midst: The Holocaust, Industrial Killing and Representation*, Oxford: Oxford University Press.

Bar-Yam, Yaneer 2003: 'Complexity of Military Conflict: Multiscale Complex Systems Analysis of Littoral Warfare' http://necsi.org/projects/yaneer/SSG_NESCI_3_Litt.pdf.

Baudrillard, Jean 1995: *The Gulf War Did Not Take Place*, Sydney: Power Publications.

Bauman, Zygmunt 1997: *Post-Modernity and its Discontents*, Cambridge: Polity.

Bauman, Zygmunt 1999: *In Search of Politics*, Cambridge: Polity.

Bauman, Zygmunt 2000: *Liquid Modernity*, Cambridge: Polity.

Bauman, Zygmunt 2002: *Society under Siege*, Cambridge: Polity.

Bauman, Zygmunt 2003: *Liquid Love: On the Frailty of Human Bonds*, Cambridge: Polity.

Bauman, Zygmunt 2004: *Wasted Lives: Modernity and its Outcasts*, Cambridge: Polity.

Bauman, Zygmunt 2005: *Liquid Life*, Cambridge: Polity.

Bauman, Zygmunt 2006: *Liquid Fear*, Cambridge: Polity.

Bauman, Zygmunt 2007a: *Liquid Times*, Cambridge: Polity.

Bauman, Zygmunt 2007b: *Consuming Life*, Cambridge: Polity.

Beck, Ulrich 1992: *The Risk Society: Towards a New Modernity*, Cambridge: Polity.

Beck, Ulrich 1997: *The Reinvention of Politics: Rethinking Modernity in the Global Social Order*, Cambridge: Polity.

Beck, Ulrich 1998: *Democracy Without Enemies*, Cambridge: Polity.

Beck, Ulrich 1999: *World Risk Society*, Cambridge: Polity.

Beck, Ulrich 2002: 'The Terrorist Threat: World Risk Society Revisited', *Theory, Culture and Society* 19(4), 39–55.

Beck, Ulrich 2004: *The Cosmopolitan Vision*, Cambridge: Polity.

Beck, Ulrich 2005: *Power in the Global Age: A New Global Political Economy*, Cambridge: Polity.

Beck, Ulrich, Giddens, Anthony and Lash, Scott 1997: *Reflexive Modernization: Politics, Tradition and Aesthetics in the Modern Social Order*, Cambridge: Polity.

Bell, David 2007: *The First Total War: Napoleon's Europe and the Birth of Modern Warfare*, London: Bloomsbury.

Bessel, Richard 2004: *Nazism and War*, London: Phoenix.

Blair, Tony 2001: Labour Party Conference Speech, 2 October, http://www.org/newshour/bb/military/terroristattack/blair_10-2.html.

Blinn, James 1997: *The Aardvark is Ready for War*, New York: Anchor.

Blockham, Jeremy 2007: 'Dealing with Wicked Problems', *RUSI Journal* 152:4 (August), 88–97.

Bloom, Harold 1999: *Shakespeare: The Invention of the Human*, London: Fourth Estate.

Bobbitt, Philip 2008: *Terror and Consent*, London: Allen Lane.

Bordo, I. 1992: 'Ecological Peril, Modern Technology in the Postmodern Sublime', in P. Berry and A. Wernick, *Shadow of Spirit: Postmodernity and Religion*, London: Routledge.

Brailey, Matthew 2006: *Transformation of Special Operations Forces in Contemporary Conflict*, Canberra: Land Warfare Centre, Working Paper 127.

Bronowski, Jacob 1973: *The Ascent of Man*, London: Book Club Association.

Buchanan, Mark 2002: *Small World: Uncovering Nature's Hidden Networks*, London: Phoenix.

Buley, Ben 2007: *The New American Way of War: Military Culture and the Political Utility of Force*, London: Routledge.

Burrow, John 2007: *A History of Histories*, London: Allen Lane.

Bush, George 2003: 'Remarks at West Point, New Threats Require New Thinking', in Mark Safre (ed.), *The Iraq Reader*, New York: Touchstone Books.

Campen, Alan 2000: *Cyber Warfare 3:0: Human Factors in Information Operations and Future Conflict*, Fairfax VA: Afcea Press.

Camus, Albert 1978: *American Journals* (trans. Hugh Livick), London: Hamish Hamilton.

Carpenter, Ted 2001: 'NATO's New Strategic Concept: Coherent Development or Conceptual Model?', in Ted Carpenter (ed.) *NATO Enters the 21st Century*, London: Frank Cass.

Carr, E. H. 1972: *What is History?* London: Penguin.

Carter, Ashton and Williams, Perry 1999: *Preventative Defence: A New Security Strategy for America*, Washington DC: Brookings Institution.

Castells, Manuel 2001: *The Internet Galaxy*, Oxford: Oxford University Press

Céline, Fernand 1986: *North*, London: Bodley Head.

Chaisson, Eric 2001: *Cosmic Evolution: The Rise of Complexity in Nature*, Cambridge MA: Harvard University Press.

Chandrisekaran, R. 2007: *Imperial Life in the Emerald City: Inside Baghdad's Green Zone*, London: Bloomsbury.

Chatfield, Tom 2008: 'Whispers in the Desert', *Prospect*, April, 62–6.

Christian, David 2006: 'Progress: Directionality or Betterment?' *Historically Speaking* 7:5 (May–June).

Clausewitz, Karl von 1982: *On War*, London: Penguin.

Claxton, Guy 1998: *Hare Brain, Tortoise Mind: Why Intelligence Increases when you Think Less*, London: Fourth Estate.

Cockburn, Andrew 2000: *Out of the Ashes: The Resurrection of Saddam Hussein*, London: Verso.

Coker, Christopher 2001: *Humane Warfare*, London: Routledge.

Coker, Christopher 2002: *Globalisation and Insecurity in the 21st Century: NATO and the Management of Risk*, London: International Institute of Strategic Studies, Adelphi Paper 345.

Conklin, J. 2001: 'Wicked Problems and Social Complexity', http//www.cognexus.org/dnformp.2.pdf7.

Connelly, John 2006: 'Rampaging', *London Review of Books*, 22 June.

Cooper, Robert 2000: *The Breaking of Nations: Order and Chaos in the 21st Century*, London: Atlantic.
Cordesman, Anthony 2003: *The Iraq War: Strategy, Tactics and Military Lessons*, Westport CT: Praeger.
Corn, Tony 2006: 'Clausewitz in Wonderland', policy review, September, http//www.hoover.org/publications/policyreviews/4268401.html.
Cornfield, Penelope 2007: *Time and the Shape of History*, New Haven CT: Yale University Press.
Dannatt, Richard 2007: Address at the RUSI Land Warfare Conference on the Subject of 'Tomorrow's Army, Today's Challenges,' 5 June, http://www.mod.uk/DefenceInternet/Defence News/ DefencePolicyand Business (accessed 2 September 2007).
Davies, Norman 2006: *Europe: East and West*, London: Jonathan Cape.
Davis, Mike 2006: *Planet of Slums*, London: Verso.
Davis, Mike 2007: *Buda's Wagon: A Brief History of the Car Bomb*, London: Verso.
DeLanda, Manuel 1991: *War in the Age of Intelligent Machines*, New York: Zone.
DeLillo, Don 1978: *Great Jones Street*, London: Picador.
DeLillo, Don 1992: *Mao 2*, London: Vintage.
DeLillo, Don 2007: 'Still life' http://www.newyorker.com/fiction/features/2007/04/09/070409fi_fiction_delillo/?prin (accessed 12 April 2007).
Dennett, Daniel 2003: *Freedom Evolves*, London: Penguin.
Dennett, Daniel 2006: *Breaking the Spell: Religion as a Natural Phenomenon*, London: Penguin.
Devji, Faisal 2007: *Landscapes of the Jihad: Militancy, Morality, Modernity*, London: Hurst.
Doctorow, E. M. 2000: *City of God*, New York: Little, Brown.
Donald, Dominick 2006: *After the Bubble: British Private Security Companies after Iraq*, London: Royal United Services Institute, Whitehall Paper 66.
Douglas, Mary 1992: *Risk and Blame: Essays in Cultural Theory*, London: Routledge.
Echevarria, Antulio 2007: 'The Future of Military Theory: The Need for a Method of Verification', in John Andreas Olsen (ed.), *On New Wars*, Oslo Files on Defence and Security 4/07.
Elbe, Stefan 2002: 'HIV/AIDS and the Changing Landscape of War in Africa', *International Security* 27:2 (fall), 159–77.
Elbe, Stefan 2006: 'Should AIDS be Securitized? The ethical dilemma of linking HIV/AIDS and security, *International Studies Quarterly* 50:1 (March), 119–44.
Elbe, Stefan 2008a: 'Our Epidemiological Footprint: the circulation of SARS, avian flu and HIV/AIDS in the world economy', *Review of International Political Economy* 15:1 (February), 116–30.
Elbe, Stefan 2008b: 'AIDS, Security and Three Concepts of Risk', *Security Dialogue* 39:2–3 (April), 177–98.

Ellin, Nan 1997: *The Architecture of Fear*, New York: Princeton Architectural Press.
Elliott, Anthony 2007: *The Contemporary Bauman*, London: Routledge.
Euben, Peter 2003: *Platonic Noise*, Princeton NJ: Princeton University Press.
Evans, Michael 2007: *City Without Joy: Urban Military Operations in the 21st Century*, Canberra: Australian Defence College, Occasional Paper 2.
Ewald, François 1987: *L'Etat Providence*, Paris: Editions Grasser & Gasquell.
Ferguson, Nial 1998: *The Pity of War*, London: Allen Lane.
Ferguson, Nial 2006: *The War of the World: History's Age of Hatred*, London: Allen Lane.
Finkelkraut, Alain 2001: *In the Name of Humanity: Reflections on the 20th Century*, London: Pimlico.
Ford, Dennis 2007: *The Search for Meaning: A Short History*, Berkeley: University of California Press.
Freedman, Lawrence 2006: *The Transformation of Strategic Affairs*, London: International Institute of Strategic Studies, Adelphi Paper 379.
Furedi, Frank 2006: *The Culture of Fear Revisited*, London: Continuum.
Furedi, Frank 2008: *Invitation to Terror: The Expanding Empire of the Unknown*, London: Continuum.
Gaddis, John 2006: *The Cold War: A Brief History*, London: Allen Lane.
Gal, Orit 2008: 'Revolutionising the Concept of Victory', *RUSI Newsbrief* 28:3 (March).
Gallie, W. B. 1991: *Understanding War*, London: Routledge.
Garland, David 2001: *Culture of Control: Crime and Social Order in Contemporary Society*, Chicago: University of Chicago Press.
Gaskell, George, Rothstein, H. and Huber, M. 2006: 'A Theory of Risk Colonisation: the spiralling regulatory logics of societal and institutional risk', *Economics and Society* 35:1, 6–12.
Geertz, Clifford 2000: *Available Light: Anthropological Reflections on Philosophical Topics*, Princeton NJ: Princeton University Press.
Gelven, Michael 1994: *War and Existence: A Philosophical Inquiry*, Philadelphia PA: Penn State University Press.
Gentry, John 1998: 'Military Force in an Age of National Cowardice', *Washington Quarterly* 21:4, 179–91.
Ghamari, Tabrizi 2005: *Sharon, The World of Herman Kahn: The Intuitive Science of Thermonuclear War*, Cambridge MA: Harvard University Press.
Giddens, Anthony 1994: 'Living in a Post-traditional Society' in Beck, Giddens and Lash (eds) *Reflexive Modernization*.
Girard, René 2007: *Evolution and Conversion: Dialogues on the Origins of Culture*, London: Continuum.
Gladwell, Malcolm 2001: *The Tipping Point*, London: Abacus.
Gordon, Michael and Trainor, Bernard E. 2006: *Cobra 11 – The Inside Story of the Invasion and Occupation of Iraq*, New York: Pantheon.

Graff, Jonathan 2004: 'US Counter-insurgency Doctrine and Implementation in Iraq', MA thesis, Fort Leavenworth.

Gray, Charles Hables 1997: *Post-Modern War: The New Politics of Conflict*, London: Routledge.

Gray, Colin 2007: *The Implications of Pre-Emptive and Preventive War Doctrines: A Reconsideration*, Carlyle PA: US Army War College.

Greene, Brian 2000: *The Elegant Universe: Superstrings, Hidden Dimensions and the Quest for the Ultimate Theory*, London: Vintage.

Greenspan, Alan 2007: *The Age of Turbulence: Adventures in a New World*, London: Allen Lane.

Hagan, Kenneth and Bickerton, Ian 2007: *Unintended Consequences: The US at War*, London: Reaktion Books.

Hamilton, Paul 1996: *Historicism*, London: Routledge.

Handy, Bruce 1997: 'Acting Presidents', *Time*, 14 April.

Hart, Gary 2006: *The Shield and the Clock: The Security of the Commons*, Oxford: Oxford University Press.

Hayek, Frederick 1990: *The False Conceit: The Errors of Socialism*, London: Routledge.

Heller, Agnes 1999: *A Theory of Modernity*, Oxford: Blackwell.

Heng, Yee-Kwuang 2002: 'Unravelling the War on Terrorism: A Risk Management Exercise in War Clothing?' *Security Dialogue* 33:2 (June), 227–32.

Heng, Yee-Kwuang 2006a: *War as Risk Management: Strategy and Conflict in an Age of Globalised Risk*, London: Routledge.

Heng, Yee-Kwuang 2006b: 'The Transformation of War Debate: Through the Looking Glass of Ulrich Beck's World Risk Society', *International Relations* 20:1 (March), 69–91.

Heng, Yee-Kwuang 2006c: 'The Iraq Crisis: Intelligence-Driven or Risk-Driven?', in Eunan O'Halpin, Robert Armstrong and Jane Ohlmeyer (eds) *Intelligence, International Power and Statecraft*, Dublin: Irish Academic Press.

Heuser, Beatrice 2002: *Reading Clausewitz*, London: Pimlico.

Hills, Alice 2007: 'Looking Through the Keyhole: Future War in the City', in Scott Hopkins (ed.) *Asymmetry and Complexity*, Canberra: Land Warfare Centre, Study Paper 308.

Holub, Miroslav 1984: *On the Country and other Poems*, London: Bloodaxe Books.

Homer-Dixon, Thomas 2006: *The Upside of Down: Catastrophe, Creativity and the Renewal of Civilisation*, London: Souvenir.

Horgan, John 1996: *The End of Science: Placing the Limits of Knowledge in the Twilight of the Scientific Age*, New York: Little, Brown.

Howard, Michael 2007: *Liberation or Catastrophe: Reflections on the History of the 20th Century*, London: Continuum.

Hughes, Thomas 2004: *Human Built World: How to Think About Technology and Culture*, Chicago: Chicago University Press.

Hurd, Douglas 1967: *The Arrow War: An Anglo-Chinese Confusion 1856–60*, London: Collins.

Ignatieff, Michael 2001: *Virtual War*, London: Chatto & Windus.

Iriye, Akira 1985: 'War is Peace, Peace is War', in Nobutoshi Hagihara and Philip Windsor (eds) *Experiencing the Twentieth Century*, Tokyo: University of Tokyo Press.

James, William 2003: *The Varieties of Religious Experience: A Study of Human Nature*, New York: Signet.

Jenkins, Brian 2004: 'Redefining the Enemy', *Rand Review* 28:1 (spring).

Jervis, Robert 2003: 'Understanding the Bush Doctrine', *Political Science Quarterly* 118:3 (fall).

Joas, Hans 2003: *War and Modernity* (trans. Rodney Livingstone), Cambridge: Polity.

Johnston, Alistair 1996: 'Learning Versus Adaptation: Explaining Change in Chinese Arms Control Policy in the 1980s and 1990s', *China Journal* 35 (January).

Jonas, Hans 1984: *Imperative of Responsibility*, Chicago: University of Chicago Press.

Jonas, Hans 1999: *Mortality and Morality: A Search for the Good after Auschwitz*, Evanston IL: Northwestern University Press.

Jones, James 2005: 'NATO Transformation and Challenges', *RUSI Journal* 150: 2, 114–18.

Kamarck, Andrew 2001: *Economics for the 21st Century: The Economics of the Economist*, Aldershot: Ashgate.

Kaplan, Robert 2002: *Warrior Politics: Why Leadership Demands a Pagan Ethos*, New York: Random House.

Kassimeris, George 2006: *The Barbarisation of Warfare*, London: Hurst.

Kay, Sean 2006: *Global Security in the 21st Century: The Quest for Power and the Search for Peace*, New York: Rowman & Littlefield.

Keegan, John 1997: *The Second World War*, London: Pimlico.

Kermode, Frank 2001: *Shakespeare's Language*, London: Penguin.

Kershaw, Ian 2007: *Fateful Choices: Ten Decisions that Changed the World, 1940–1*, London: Allen Lane.

King, Ian 2000: *Social Science in Complexity: The Scientific Foundations*, Huntingdon NY: Nova Science.

Klein, Gary 2003: *Intuition at Work: Why Developing your Instinct will Make You Better at What You Do*, New York: Currency.

Koselleck, Reinhart 1984: *Futures Past: On the Semantics of Historical Time*, New York: Columbia University Press.

Krugman, Paul 1998: *The Accidental Theorist and Other Despatches from the Dismal Science*, New York: W. W. Norton.

Laidi, Zaki 1998: *World without Meaning: The Crisis of Meaning in International Politics*, London: Routledge.

Leonard, Mark 2008: *What does China Think?* London: HarperCollins.
Leonhard, Robert, 1999: 'Centre of Velocity', in Robert Bateman (ed.) *Digital War: A View from the Front Line*, Novato CA: Presidio.
Lewens, Tim (ed.) 2007: *Risk: Philosophical Perspectives*, London: Routledge.
Lewis, Wyndham 1993: *Time and Western Man*, Santa Rosa CA: Black Sparrow Press.
Lieven, Anatol and Hulsman, John 2006: *Ethical Realism*, New York: Pantheon.
Lipton, Deborah 1999: *Risk*, London: Routledge.
Lloyd, G. E. 1990: *Demystifying Mentalities*, Cambridge: Cambridge University Press.
Looney, Robert 2005: 'The Success of Insurgency', *The National Interest* (fall).
Luhmann, Niklas 1998: *Observations on Modernity*, Palo Alto CA: Stanford University Press.
Lukacs, John 1976: *The Last European War*, London: Routledge & Kegan Paul.
Lukacs, John 2006: *Remembered Past: On History, Historians and Historical Knowledge: A Reader*, Wilmington DE: ISI Books.
Lyon, David 2007: *Surveillance Studies: An Overview*, Cambridge: Polity.
MacGillvray, Alex 2006: *A Brief History of Globalisation*, London: Robinson.
Mackinlay, John 2005: *Defeating Complex Insurgency Beyond Iraq and Afghanistan*, London: Royal United Services Institute, Whitehall Paper 64.
Maier, Christian 1993: *Athens: A Portrait of the City in the Golden Age*, London: Murray.
Mamdani, Mahmoud 2004: *Good Muslim, Bad Muslim: America, the Cold War and the Roots of Terror*, New York: Pantheon.
Manguel, Alberto 2005: *A Reading Diary: A Year of Favourite Books*, Edinburgh: Canongate.
Manguel, Alberto 2007: *The City of Words*, Toronto: Anansi.
Marcuse, Herbert 1991: *One-Dimensional Man*, Boston MA: Beacon.
Martin, James 2006: *The Meaning of the 20th Century*, New York: Riverhead.
Matthias, Peter 1967: *The First Industrial Nation: An Economic History of Britain*, London: Methuen.
Mayer, Michael 2007: *Forecasting Crisis: Climate Change and US Security*, Oslo Files on Defence and Security 6/07.
Mbembe, Achille 2003: 'Necropolis,' *Public Culture* 15:1 (winter), 11–41.
McNeill, Jay and McNeill, William 2003: *The Human Web: A Bird's Eye View of World History*, New York: Norton & Co.
Mills, Greg 2001: *The Security Intersection: The Paradox of Power in an Age of Terror*, Johannesburg: Witwatersrand University Press.
Mills, Greg 2007: *From Africa to Afghanistan: With Richards and NATO to Kabul*, Johannesburg: Witwatersrand University Press.
Mitchell, Ben 2007: *Bio Technology and the Human Body*, Washington DC: Georgetown University Press.

Morgan, Matthew 2004: 'The Garrison State Revisited: Civil-military implications of terrorism and security,' *Contemporary Politics* 10:1 (March), 5–9.
Musil, Robert 1979: *The Man without Qualities*, London: Picador.
Mythen, Gabe 2004: *A Critical Introduction to the Risk Society*, London: Pluto.
Mythen, Gabe and Beck, Ulrich (eds) 2006: *Beyond the Risk Society: Critical Reflections on Risk and Human Security*, New York: Open University Press.
Nagl, John 2002: *Counter-insurgency: Lessons from Malaya and Vietnam: Learning to Eat Soup with a Knife*, Westport CT: Praeger.
Nagl, John 2007: 'An American View of 21st Century Counter-Insurgency', *RUSI Journal* 152:4 (August).
Nancy, Jean-Luc 1993: *The Birth to Presence*, Stanford CA: Stanford University Press.
Naphy, William and Roberts, Penny 1997: *Fear in Early Modern Society*, Manchester: Manchester University Press.
National Security Strategy of the United Kingdom 2008: *Security in an Interdependent World*, London, Whitehall: Cabinet Office, CM 7291 (March).
NATO 2005: *NATO and the Fight against Terrorism*, Brussels: NATO Public Diplomacy, NATO Briefing (March).
Naylor, Sean 2005: *Not a Good Way to Die: The Untold Story of Operation Anaconda*, London: Penguin.
Norris, Clive 1999: *The Maximum Surveillance Society: The Rise of CCTV*, Oxford: Berg.
Norton, Richard 2003: 'Feral Cities', *Naval War College Review* (autumn), 129–36.
Nuttall, A. D. 2007: *Shakespeare: Thinker*, New Haven CT: Yale University Press.
Nye, Joseph and Smith, Roger 1992: *After the Storm: Lessons from the Gulf War*, Boston MA: Madison Books.
O'Hara, Kieron 2007: *Inequality.com: Power, Poverty and the Digital Divide*, London: One World.
O'Rourke, Patrick 2005: *Peace Kills: America's Fun New Imperialism*, London: Picador.
Osinga, Frans 2007: 'On Boyd, Bin Laden and Fourth Generation Warfare and String Theory', in John Andreas Olsen (ed.), *On New Wars*, Oslo Files on Defence and Security 04/07.
Outhwaite, William 2006: *The Future of Society*, Oxford: Blackwell.
Peters, Ralph 1999: *Fighting for the Future: Will America Triumph?* Mechanisburg PA: Stockpool.
Prins, Gwyn (ed.) 2000: *The Future of War*, The Hague: Kluwer.
Quadrennial Defense Review (QDR 2001) 2001: Washington DC: Defense Department.
Quadrennial Defense Review (QDR 2006) 2006: Washington DC: Defense Department.
Raphael, Frederic 2006: *Some Talk of Alexander: A Journey Through Space and Time in the Greek World*, London: Thames & Hudson.

Rasmussen, Mikkel 2007: *The Risk Society at War*, Cambridge: Cambridge University Press.
Rasmussen, Mikkel 2008: The Risk Society at War', talk at the London School of Economics, 21 February 2008.
Richards, David 2007: 'Interview with Major-General David Richards', *RUSI Journal* 152:9 (April).
Ricks, Thomas 2006: *Fiasco: The American Military Adventure in Iraq*, London: Allen Lane.
Robb, John 2007: *Brave New World: The Next Stage for Terrorism and the End of Globalisation*, New York: John Wiley & Sons.
Roberts, Nancy 2001: 'Coping with Wicked Problems: the case of Afghanistan', in L. Jones and J. Guthrie (eds), *International Public Management Reform: Lessons from Experience*, London: Elsevier.
Ruggie, John 1996: *Winning the Peace: American World Order in the New Era*, New York: Columbia University Press.
Rumsfeld, Donald 2004: 'Secretary Rumsfeld's Press Conference at NATO HQ', Washington DC: Department of Defense.
Rupert, Mark 2000: *Ideologies of Globalisation: Contending Visions of a New World Order*, London: Routledge.
Russell, Bertrand 1971: *A History of Western Philosophy*, London: George Allen and Unwin.
Sacks, Jonathan 2002: *The Dignity of Difference*, London: Continuum.
Saul, Richard 2006: 'Reactionary Blowback: The Uneven End of the Cold War and the Origins of Contemporary Conflict and World Politics', in Richard Saul and Alexandro Colas, *The War on Terror and the American Empire After the Cold War*, London: Routledge.
Schmidtchen, David 2006: *The Rise of the Strategic Private: Technology Control and Change in a Network Enabled Military*, Canberra: Land Warfare Centre.
Selbourne, David 1994: *The Principle of Duty*, London: Sinclair Stevenson.
Sennett, Richard 1998: *The Corrosion of Character: The Personal Consequences of Work in the New Capitalism*, New York: Norton.
Sennett, Richard 2003: *Respect: The Formation of Character in an Age of Inequality*, London: Penguin.
Shaikh, Fazara 2007: 'Luck running out', *The World Today* (December).
Shaw, Martin 2005: *The New Western Way of War: Risk Transfer and Crisis in Iraq*, Cambridge: Polity.
Singer, Max and Wildavsky, Aaron 1993: *The Real World Order: Zones of Peace/Zones of Turmoil*, Chatham, NJ: Chatham Publishers.
Smith, P. D. 2007: *Doomsday Men: The Real Dr Strangelove and the Dream of the Super Weapon*, London: Allen Lane.
Smith, Rupert 2005: *The Utility of Force: The Art of War in the Modern World*, London: Allen Lane.

Smith, Rupert 2007a 'Thinking About the Utility of Force' in John Andreas Olsen (ed.), *On New Wars*, Oslo Files on Defence and Security 4/07.

Smith, Rupert 2007b: 'Confrontations in War and Peace' http://www.dramatec.com.

Smith, Tony 1994: *America's Mission: The US and the Worldwide Struggle for Democracy in the 21st Century*, New York: 20th Century Fund.

Sontag, Susan 1979: *Illness as a Metaphor*, London: Penguin.

Sontag, Susan 2003: *Regarding the Pain of Others*, London: Hamish Hamilton.

Sooran, Chand, 'What is Hedging: Why do Companies Hedge?', http://www.finpipecom/hedge/htm.

Spiller, Roger 2005: *Instinct for War: Scenes from the Battlefields of History*, Cambridge MA: Harvard University Press.

Spufford, Francis (ed.) 1996: *Cultural Babbage: Technology, Time and Invention*, London: Faber & Faber.

Stearns, Peter 2006: *American Fear: The Causes and Consequences of High Anxiety*, London: Routledge.

Steinbrunner, John 2000: *Principles of Global Security*, Washington DC: Brookings Institution.

Stephens, Alan 2007: 'Effects Based Operations and the Fighting Power of a Defence Force', in John Andreas Olsen (ed.), *New Wars*, Oslo Files on Defence and Security 4/07.

Steward, Toby 2007: 'Unfulfilled Potential of the Military Police: Greater Exploitation of Police Skills in Operations', *RUSI Newsbrief* 27:1 (January), 9–11.

Stone, Norman 2007: *World War I: A Short History*, London: Allen Lane.

Strachan, Huw 2003: *The First World War*, London: Pocket Books.

Strachan, Huw 2007: *Clausewitz's On War*, London: Atlantic.

Strathern, Oona 2007: *A Brief History of the Future*, London: Constable and Robinson.

Sunstein, Cass 2005: *Rolls of Fear: Beyond the Precautionary Principle*, Cambridge: Cambridge University Press.

Surowiecki, James 2005: *The Wisdom of Crowds*, New York: Anchor.

Talentino, Andrea 2004: 'One step forward, one step back', *Journal of Conflict Studies* 24:2 (winter), 33–61.

Taylor, Charles 2007: *A Secular Age*, Cambridge MA: Harvard University Press.

Tertrias, Bruno 2004: *War Without End: The View From Abroad*, London: New Press.

Tilly, Charles 1985: 'Warmaking and Statemaking and Organised Crime', in Peter Evans, Dietrich Rueschmeyer and Theda Skocpol (eds.) *Bringing the State Back In*, Cambridge: Cambridge University Press.

Tilly, Charles 2005: *Trust and Rule*, Cambridge: Cambridge University Press.

Tilly, Charles 2007: *The Politics of Collective Violence*, Cambridge: Cambridge University Press.

Touraine, Alain, 2007: *A New Paradigm*, Cambridge: Polity.
Tripp, Charles 2007: 'Militias, Vigilantes, Death Squads', *London Review of Books*, 25 January, 18–31.
Trouillot, Michel-Ralph 2003: *Global Transformation: Anthropology and the Modern World*, London: Palgrave.
Truscott, Peter 2007: *The Ascendancy of Political Risk Management and its Implications for Global Security*, London: Royal United Services Institute, Whitehall Paper 67.
Tunsjo, Oystein 2007: *Constructing the Triangle*, London: Routledge.
Updike, John 2007: *Due Considerations: Essays and Criticism*, London: Hamish Hamilton.
Urry, John 2003: *Global Complexity*, Cambridge: Polity.
US-China Economic and Security Review Commission 2005: 'Report to Congress', Washington DC (November).
US Department of the Army 2006: *FM 3-24 Counter-insurgency* (December).
US Marine Corps 1996: *Command and Control Doctrine*, Quantico VA: USMC.
US Senate Foreign Relations Committee 2003: 'Iraq Reconstruction' S.Hrg 108–53 (11 March), Washington DC: US Government Printing Office.
Van Creveld, Martin 2006: *The Changing Face of War: Lessons of Combat from the Marne to Iraq*, New York: Ballantine.
Vatiokis, Michael 2006: 'Resolving Internal Conflicts in South East Asia', *Contemporary South Asia* 28:1 (April), 133–41.
Virilio, Paul (ed.) 1986: *Speed and Politics: An Essay in Dromology*, New York: Semiotext(e).
Virilio, Paul 1995: *The Art of the Motor*, Minneapolis: University of Minnesota Press.
Virilio, Paul 2000: *Strategy of Deception*, London: Verso.
Virilio, Paul 2005a: *Negative Horizon: An Essay in Dromoscopy*, London: Continuum.
Virilio, Paul 2005b: *The Original Accident*, Cambridge: Polity.
Vonnegut, Kurt 1965: *Cat's Cradle*, London: Penguin.
Waldrop, Mitchell 1997: *Complexity – The Emerging Science at the Edge of Order and Chaos*, London: Viking.
Weigley, Russell 1993: *The Age of Battles: The Quest for Decisive Warfare from Breitenfeld to Waterloo*, London: Pimlico.
Weisman, Alan 2007: *The World Without Us*, London: Virgin Books.
Weltman, John 1995: *World Politics and the Evolution of War*, Baltimore MD: Johns Hopkins University Press.
White House 2006: 'The National Security Strategy of the United States of America', Washington DC (March).
Williams, Andrew 1998: *Failed Imagination? New World Order of the 20th Century*, Manchester: Manchester University Press.

Williams, Michael 2006: 'Pre-emptive War and US Foreign Policy' *RUSI Newsbrief* 26:4 (April).

Williams, Michael 2008: *NATO, Risk and Security Management from Kosovo to Kandahar*, London: Routledge.

Wilshire, Bruce 1984: *The Essential William James*, Albany: State University of New York Press.

Windsor, Philip 1995: 'Cultural Dialogue in Human Rights', in Philip Windsor (ed.), *The End of the Century: The Future in the Past*, Tokyo: Kondansha International.

Winner, Laydon 1975: 'Complexity and the Limits of Human Understanding', in Todd La Porte (ed.), *Organised Social Complexity: Challenges to Politics and Policy*, Princeton NJ: Princeton University Press.

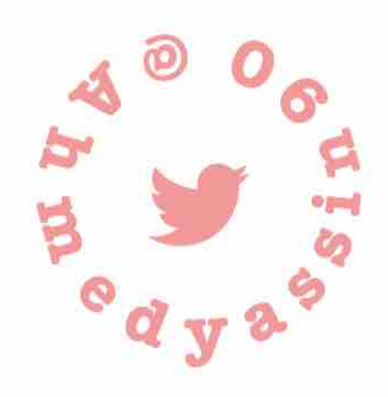
World Bank 2004: *World Development Report 2004* http://econ.org/wdr/wdr2004.

Wright, Robert 2001: *Non-Zero: The Logic of Human Destiny*, London: Vintage.

Wright, Ronald 2005: *A Short History of Progress*, Edinburgh: Canongate.

Zeman, Z. A. B. 1989: *Pursued by a Bear: The Making of Eastern Europe*, London: Chatto & Windus.

Zinni, Anthony and Koltz, Tony 2006: *The Battle for Peace: A Frontline Vision of America's Power and Purpose*, New York: Palgrave Macmillan.


@Ahmedyassin90